مختارات من الشعر الروسي

بوشكين، بلوك، يسنين، مايكوفسكي، آخماتوفا، حمزاتوف

نقلها عن الروسية
حسب الشيخ جعفر

مختارات
من الشعر الروسي

بوشكين، بلوك، يسنين، مايكوفسكي، آخماتوفا، حمزاتوف

نقلها عن الروسية
حسب الشيخ جعفر

891.7
ق ص [قصائد مختارة]
مختارات من الشعر الروسي / بوشكين ... [وآخرون]؛ نقلها عن الروسية حسب الشيخ جعفر. ط 1 .– أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي 2008 .
827 ص؛ 21 سم.
المحتويات: أعمال الشعراء بوشكين، الكسندر بلوك، يسنين، مايكوفسكي، أنّا أخماتوف، رسول حمزاتوف.
1– الشعر الروسي – مختارات.
أ. بوشكين، الكسندر سرجيفيتش، 1799–1837، مؤلف مشارك.
ب. يستين، مؤلف مشارك.
ج. حسب الشيخ جعفر، مترجم.
د. مايكوفسكي، فلاديمير، 1893–1930 ، مؤلف مشارك.
هـ. أخماتوف، أنّا، 1899–1966، مؤلف مشارك.
و. حمزاتوف، رسول، 1923–2003، مؤلف مشارك.
ي. بلوك، الكسندر، 1880–1921 ، مؤلف مشارك.

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث
«المجمع الثقافي»
Abu Dhabi Authority
for Culture & Heritage
Cultural Foundation

الطبعة الأولى 1429هـ 2008م

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن رأي هيئة أبوظبي للثقافة والتراث – المجمع الثقافي

أبوظبي – الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380 ، هاتف: 300 6215 2 971 +
publication@cultural.org.ae
www.cultural.org.ae

المحتويات

هذا الكتاب 5

بوشكين 7

مقدمة 9

القصائد 47

الكسندر بلوك 155

مقدمة 157

القصائد 177

يسنين 287

مقدمة 289

القصائد 309

مايكوفسكي 399

مقدمة 401

القصائد 423

أنّا اخماتوفا	539
مقدمة	541
القصائد	549
رسول حمزاتوف	685
مقدمة	687
القصائد	691
فهرس القصائد	821

هذا الكتاب

عام 1960 خرج الشاعر حسب الشيخ جعفر من مدينته العمارة (المولود فيها عام 1942) إلى مطار بغداد، ذاهباً في بعثة دراسية إلى موسكو التي سيبقى فيها حتى عام 1966 . حين عاد حسب الشيخ إلى العراق حينذاك، كان قد حصل على ماجستير في الآداب من معهد غوركي، وأجاد اللغة الروسية، واستغرق في الحياة الأدبية والفنية الموسكوفية .

في عام 1969، يُصدر حسب الشيخ جعفر مجموعته الشعرية الأولى: نخلة الله، لتتوالى بعد ذلك المجموعات: الطائر الخشبي، زيارة السيدة السومرية، عبر الحائط في المرآة، وغيرها، وبصوت وسبك وصوغ وايقاعات تخصه قدّم حسب الشيخ، تجربته الشعرية الملفتة في سياق التجربة الشعرية العربية المعاصرة. ولعلَّ دراسة تأثير حياته الموسكوفيه، أو علاقته بالأدب الروسي، على تجربته الشعرية، أمر منوط اكتشافه لقراء شعره الباحثين والنقاد، إلا أن لتلك الحياة تأثيراً واضحاً ومباشراً على صعيدين .

الأول: كتابات حسب النثرية، وسواء كانت هذه مقالات صحفية، أو سِيَراً (ككتاب: رماد الدرويش)، يروي فيها جانباً من حياته في موسكو، فإن تعلقه وتذوقه ومعرفته بالأدب والحياة في روسيا جلية في ذلك النَفَس المميز الذي يكتب فيه حسب الشيخ سردياته .

أمَّا الأمر الثاني فهو ما يهتم ويختص به هذا الكتاب: فتصدر له ترجمة لمجموعة قصائد مختارة لمايكوفسكي عام 1979 عن وزارة الثقافة والفنون ببغداد، وتصدر مجموعة قصائد مختارة ليسينين عام 1980 عن دار الرشيد للنشر ببغداد كذلك، ولالكساندر بلوك عن وزارة الثقافة العراقية عام 1981، ولآنا أخماتوفا عن دار المأمون البغدادية عام 1991 ، كما تصدر مجموعة قصائد مختارة لبوشكين عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

ففي ما يقرب من الثلاثين عاماً، عمل جعفر على نقل ما أحبه وأدهشه وتعلق به من الشعر الروسي إلى العربية، في جهد متواصل ودقيق لم يتوفر لهذا الشعر عند مترجم عربي غيره. إلا أن هذه التجربة المدهشة: ترجمة حسب الشيخ جعفر، لم تصل إلى القارئ العربي كما يجب. فالكتب صدرت على الأغلب في بغداد منذ نهاية السبعينات، ولم توزع كفاية في العالم العربي، كما أنه لم يُعَد إلى طباعتها من جديد .

من هُنا سنحت الفرصة لهيئة أبوظبي للثقافة والتراث كي يقدم أعمال هذه التجربة بين غلافي كتاب واحد، مضافاً إليها ترجمة قصائد لرسول حمزاتوف، قدمها إلينا المترجم مخطوطة. كي يضم هذا الكتاب قصائد مختارة لستة من الشعراء الروس الكبار منذ بوشكين، وحتى حمزاتوف الداغستاني. وهي صفحات تقدّم بالفعل جانباً غنياً ومدهشاً من التجربة الشعرية الروسية، كما وبامكان القارئ العربي عبر هذه القصائد أن يطل بعينين متلصصتين على أعماق الإنسان الروسي .

دار الكتب الوطنية

بوشكين
(1799 - 1837)
قصائد مختارة

مقدمة

وطويلاً سيظل قومي يُحبونني
فقد هززتُ بقيثارتي المشاعر الخيّرة .
وتغنيتُ ممجداً الحرية في عصري العاتي
وناديتُ بالرحمة على المقهورين.
بوشكين

حين بدأ بوشكين أولى خطواته الشعرية في الطريق الأدبي. ناشراً بضعَ قصائد عام 1815 . كان الأدب الروسي لمّا يزل رازحاً تحت اعباء الكلاسيكية الثقيلة. وقد تحولت بعد لومونوف وجيله إلى شكلية زائفة. لقد مرّ القرنُ الثامنَ عشرَ. ولمّا يزل الأدب الروسي مختنقاً في هذه الوهدة من التقليد والتزمت والتصنع. كان الأدب إنما يكتب عن الارستقراطية المتنفذة.. ولها. كان جافاً وبعيداً عن أي هواء شعبي باعث على الحيوية. كانت لغتهم متعالية ومتبجحة بابتعادها عن لغة الشعب .

غير أن هناك من كان يحاول أن يجدد. وكان هذا قبيل بوشكين. لقد بدأت قلّة من الأدباء: كرمزين وجوكوفسكي خاصة.. بالتنفس، غير بعيد كثيراً، عن هذه الوهدة الأدبية واللغوية الخانقة، متأثرين باتجاه الرقة العاطفية والحركة الرومانسية. حاولت هذه القلة أن تنأى عن

الأساليب المصطنعة السائدة.. جاهدةً أن تقترب من أشكال فنية ولغة أدبية أكثر مرونةً ولطفاً. كان يهمها أن ترسم صوراً عن عالم الإنسان الداخلي أكثر مما يهمها اتباع الطُرق الأدبية الساكنة (المبجلة) في الوسط الرسمي .

كانت مهمة بوشكين، إذن، وعرة وهائلة. كان من الغريب المدهش أن يتحمّل أعباء هذه المهمة شاعر واحد. وهي التي تتطلب جهود جيل بأكمله. لقد اجتاز بوشكين الوهدة اللغوية والفنية المتكاثفة عبر قرن كامل بخطوة واحدة، ليبدأ طريقه الشعري الجديد. بدأ نضراً متدفقاً أشبهَ بالنبتة اليانعة المتدفقة خضرة وحيويةً في غابة جرداء خاوية كما يبدو إلا من محاولات اخضرار ضئيلة، كان من الجائز أن تتعثر وتنطوي على نفسها، وتذبل أخيراً .

ليس غريباً، إذن، أن تكون ابداعاته في الشعر والمسرح والقصة هي الأولى من نوعها في الأدب الروسي: عمقاً وجمالاً وحيوية. ولهذا أيضاً، كان، منذ الخطوات الأولى، ظاهرة أدبية فريدة التفّ حولها الشباب القارىء الطامح في حماس ومحبة بالغين .

كان مقدراً له أن يكون الشاعرَ الروسي القوميّ الأولَ عبر امتداد التاريخ الروسي. لم يكن بوشكين تطوراً لما قبله. كان ولادةً عاصفةً وجديدةً تماماً. كان ما قبله من الشعراء: لومونسوف، ديرجافين، جوكوفسكي وغيرهم انتظاراً طويلاً لانبثاق هذه الموجة العالية المندفعة وانصبابها على الأرض العطشى المترقبة. لم تكن محاولاتهم لتمنحه إلا شيئاً قليلاً. إذا ما نظرنا إلى انفتاح عبقريته الهائل، الغنائية الاحتفالية عند

لومونسوف، والعبارة القوية في مدائح ديرجافين، وهذه الرومانسية المتشحة بالخيال الشعبي في أقاصيص جوكوفسكي الشعرية. إن قَدَرَهُ، منذ خطواته الشعرية الأولى. أن يفتتح لأبناء قومه تاريخهم الأدبي الإنساني والقومي معاً. وإذا كان الأدب الروسي. قبل بوشكين. قد اغتنى عند هذا الشاعر أو ذاك بهذه المحاولة الغنية الأوربية أو تلك.. فهو مع بوشكين انفتاح على الأدب الإنساني كله منذ هومير إلى بايرون. وهو في الوقت نفسه، امتلاءُ الصدر بالهواء القومي، وامتدادُ الجذور عميقاً في تربتها القومية، فكان بوشكين أصيلاً وجديداً معاً. إنك لتحس، في أشعاره أو نثْره، أدقّ ما يتردد من نغم في الأغاني الروسية القروية.. مثلما تحس امتلاءَ روحه بالتراث الإنساني العريق الشامل. وفي الحالتين لست إلا مع شاعر روسي أصيل متجدد في قوميته وإنسانيته معاً .

كتب غوغول: (إن بوشكين ظاهرة خارقة، ولربما كان هو الظاهرة الفريدة لهذه الروح الروسية. إن بوشكين هو الإنسان الروسي في تطوره الذي يمكن أن يكون عليه، ربما بعد قرنين من الزمن) . كان جميلاً أن هذه الكلمات قد كتبت والشاعر لمَّا يزل حياً، ومحاطاً بظلمة من الافتراء والحقد .

في قصائد بوشكين تندفع أمامك الأرض الروسية: تاريخاً وواقعاً.. وترقباً، غالباً ما يكون ممتلئاً بالثقة والألق.. رغم ما يكتنف واقعه ذاك من ظلمة وعبودية وتسلط فادح. وفيها، أيضاً، هذه الطبيعة الروسية التي أحبها الشاعر وتغنى بها، حتى لتظنه متغنِّياً بمفاتن امرأة معبودة. إنك

لتحس في شعره. أحياناً، بالشك أو الكآبة.. لكنها، كما لاحظ بيلينسكي. كآبة غير قاتمة. إن فيها إشعاعاً داخلياً خاصاً: (أية كآبة عميقة ووضيئة في الوقت نفسه). إن أَلَقاً خاصاً يتسلل إلى عزلة الشاعر وشقائه، منبثقاً من أعماق الشاعر نفسه.. أعماقه المترعة بهوى الأرض والحياة، المنفتحةِ على الأفق الرحيب.. بالرغم من كل ما يجثم حوله من فظائع وبؤس.

ومع هذه الروح القومية التي تتدفق في أية كلمة من كلماته، وبسبب منها خاصة، تتلمس لديه هذه القربى التي تشده إلى التراث الأدبي الإنساني كله.. وهي ما يدعوه دستوييفسكي بالقدرة على الترجيع العالمي: (ليس الأمر أمرَ ترجيع فحسب وإنما هو أيضاً العمق المدهش في هذا الترجيع، وتلك القدرة التي تمتلكها روح بوشكين على أن تتقمص روح شعوب أخرى تقمصاً يكاد يكون كاملاً..) وهذا ما نتلمسه جيداً في محاكاة لهُ لشعرنا العربي أو لآداب الأمم الأخرى. في (مشهد من فاوست) تحس أنك في عالم غوته نفسه. وفي المآسي الصغيرة: الوليمة أثناء الطاعون، الضيف الحجري، مثلاً.. يخيل إليك أنك في أجواء انكليزية أو اسبانية خالصة. .ومع هذه القدرة، هذه الميزة الخاصة على التقمص، يظل بوشكين شاعراً روسياً، شاعر الأحاسيسِ الروسيةِ. كتب دستوييفسكي: (وما من كاتب روسي لا قبله ولا بعده بقي في يوم من الأيام متحداً بشعبه اتحاداً بلغ هذا المبلغ من العمق.. إنه يمتلك شيئاً لا أدري ما هو، شيئاً يقرّبه من الشعب نهائياً، ويكتسي لديه نوعاً من طبيعة بسيطة ساذجة).

إن ما يجعل هذه البساطة الشعبية قوية وأصيلة هو انفتاحه، كما قلنا على الأدب الإنساني. غالباً ما يُشار إلى تفتح مواهبهِ عن غنى وامتلاء كبيرين. إن قرابةً رحيبةً لتشفّ، في قصائده، عن امتداده الإنساني إنَّه لقريب من حكمة غوته أو تمرد بايرون الرومانسي مثلما هو قريب من فولتير واحتفائه بالحياة .

كان رائد أفق جديد.. هو هذا الامتداد الذي انطلق في رحابته الروائيون والشعراء الروس. من أشعار بوشكين إنما ولد وتطور الشعر الروسي: ليرمنتوف، توتجف، بلوك، يسينين، مايكوفسكي. إنهم جميعاً في اتجاهاتهم الأدبية المتنوعة.. إنما يتصلون بشاعرية بوشكين. كتب بيلينسكي: (كان ثمة شعراء قبل بوشكين. إنما لم يكن هناك شاعر فنان واحد. كان بوشكين الشاعر الروسي الفنان الأول. ولهذا فإن قصائده المبكّرة مثل روسلان ولودميلا، قُطّاع الطرق، أسير القفقاس.. فاتحة عصر جديد في تاريخ الشعر الروسي. أن وهجاً قومياً حاراً كان يتألق في أبيات ترتجف في ذكرى بوشكين :

أبداً سيتذكرك قلب روسيا

كما يتذكر الحب الأول.

إن أهم ما يُلمس عند بوشكين هو الوضوح في بساطته وصفائه الفائقين. كان بعيداً عن التأمل المجرد أو البحث عن الإثارة الشكلية وحدها. إن قصائده لتأخذ مادتها أينما وجدها الشاعر.. من أغاني الحوذيين والغجر أو من الحفلات الباذخة.. من البحر الجنوبي أو الغابة الشمالية المتدثرة بالثلوج.. من زهرة جافة منسية في كتاب أو قدح

البيرة المترع. يقول بيلينسكي: (وكفنان حقيقي لم يكن بوشكين ليعوزه اختيارُ مادةٍ لموضوعه، فأية مادة بالنسبة له، مترعة بالشاعرية). وفي هذا كله انك تحس وكأن قصائده تتكون بقوتها الخاصة، دونما تدخل من الشاعر كما أشار ميرميه (مزهرة في انبثاقها من حيوية النثر نفسه)، وفي الشكل الذي لا ينبغي لها أن تتجسد في شكل سواه. يقول تولستوي: (إنك لا تحس عند بوشكين بالنظم، رغم ما تمتلكه القصيدة من ايقاع أو نغم أو قافية، إنك لتحس أنه ليس ممكناً أن تقال بطريقة أخرى) إن هذا الإحساس ليظل يرافقك في تتبع روايته الشعرية الطويلة (يفجيني اونيغين) وكأنك أمام عمل شعري «خاص» هو «نثر» الحياة و«شعرها» معاً وقد انصهرا في توهج ابداعي فائق .

كتب بيلينسكي: (إن روايته «هذه» لهي ملحمة الحياة الواقعية المعاصرة، ليس بشعر «الحياة» فحسب، إنما بنثرها كله، بالرغم من بنائها الشعري. هنا الربيع المبارك والصيف الدافئ، الخريف الممطر الموحل والشتاء القارس، هنا العاصمة والقرية، حياة فتى العاصمة المتأنق ومالكي الأراضي القرويين المنزوين بأحاديثهم الخاملة :

عن هشيم العشب والخمرة

عن خصاص الكلاب، والأقارب .

هنا الشاعر الحالم لبنسكي والسكير المبتذل المنافق زاريتسكي، أو تجد أمامك وجه امرأة عاشقة فاتناً أو سحنة خادم الخمارةِ الثقيلة وهو يفتح الباب، والمكنسة في يده. وقد صوّر كل منهم متميزاً كما هو وممتلئاً شاعرية) .

ولد الكساندر بوشكين عام 1799 في موسكو، في أسرة من ارستقراطيي المدينة، كانت ذات اهتمامات بالأدب والمسرح شأن الأسر المماثلة الأخرى. كان والده «يكتب» شعراً بالفرنسية. وكان جده معروفاً أيضاً بمقطوعاته الشعرية. وفي غرفة استقبالهم كان يتردد أدباء روس معروفون، من بينهم كرمزين وجوكوفسكي وباتوشكوف. وكما جرت العادة كان بوشكين يتلقى تربيته على أيدي مستخدمين أجانب. وإلى جانب هؤلاء كان هناك خدم من بسطاء الروس: كوزلوف مثلاً الذي نجده متجسداً في شخصية الخادم سافيليج في روايته التاريخية (ابنة الضابط) وكانت هناك أيضاً مرضعته الروسية آرينا التي تحفظ الكثير من الخرافات الشعبية، وبلغة روسيـــة صافية وساطعة. في أحاديثهـــا كما يقول بوشكين (كانت تتردد لغة الوطن). إن لحكاياتها الأسطورية هذه أثراً عميقاً في أعمال الشاعر الغنائية الخرافية الآتية .

كانت محاولاته الطفولية بالفرنسية. وقد يكتب محاكاة لموليير ويمزقها. وفي خريف 1811 ينتقل بوشكين إلى بيتربورغ ملتحقاً بمعهد تسارسكوي سيلو وقد انشئ حديثاً في المصيف الأمبراطوري قريباً من العاصمة. فيجد نفسه بين ثلاثين صبياً من أبناء الأسر الأرستقراطية. وستشده إلى بعضهم رفقة رائعة أو صداقة تلازمه إلى آخر يوم. وسرعان ما نشبت الحرب: هو ذا نابليون يغزو روسيا. عندئذ تلتهب النفوس بالأحاسيس القومية دفاعاً عن الوطن المهدد. من هنا يبدأ في كتابة أشعاره بالروسية، معتبراً نفسه شاعراً روسياً. وفي المعهد ثمة

محاولات «شعرية» بين الطلبة، واصدارات مخطوطة.. سريعاً ما يغدو الكساندر روحها المحركة المؤثرة. ومنذ 1814 بدأت أشعاره تأخذ طريقها إلى النشر، إنما باسم مستعار .

إن قراءة قصيدته «ذكريات في تسارسكوي سيلو» في امتحانات المعهد ذات أهمية خاصة. كانت حادثاً مؤثراً في حياته الأدبية. كان إعجاب الشاعر الشيخ ديرجافين، وكان حاضراً في الصالة، عاملاً مهما في اقبال الصحافة على الشاعر الناشئ، لقد رأى الشيخ الكلاسيكي في الصبي الأسمر المجعد الشعر، وريثاً لمكانته الشعرية. ومنذ هذه الأمسية بدأ بوشكين ينشر قصائده بإسمه كاملاً. في قصيدته «ذكريات»... يتوقد الشاعر الصبي حماساً قومياً في وجه الجحافل الغازية، ويمتد ببصره إلى السهوب المترامية، حيث تُسلب القرى، وإلى المدينة التاريخية المحترقة. إن أبياته لتتدفق لهباً وهو يرى إلى الخصم المنهزم ومن خلفه السيف القومي الرهيب .

في أعماله الأولى، كما يشير العديد من النقاد، ينتقل الشاعر من تأثير إلى آخر.. من فولتير الساخر إلى أوسيان المكتئب. ثم يبدأ متتبعاً غنائيات جوكوفسكي الرمانسية الحزينة: الوحدة، الذبول المبكر، الإحتضار في فجر الصبا، إنه ليعبر، الآن، عن خيبته وهو يتطلع إلى الواقع. وفي الوقت نفسه كان غريباً عليه هذا الروح الصوفي والتعلق بأخيلة القرون الوسطى في أشعار جوكوفسكي. كان بوشكين إذن، يمر مروراً عابراً باتجاهات باتوشكوف وجوكوفسكي. (كان هذا ضرورياً لتطوره وهو في بداياته الفنية.. لما كان لهما من أهمية وتأثير في التحول

الشعري يومذاك.. اضافة إلى مروره على حكايات كريلوف الشعرية الساخرة و «محاولات» فونفيزن بواقعيتها وشعبيتها) كما لاحظ الناقد بلاجوي. كما انفتحت أمام عينيه أعمال الكاتب الثوري الأول راديشيف.

أنهى بوشكين عام 1817 دراسته في المعهد، والتحق بإحدى دوائر وزارة الخارجية في بينربورغ. هو الآن في وسط اجتماعي أكثر حركة وتنوعاً.. ثمة مجالس خاصة يتردد عليها رجال ينطوون على أسرار وأفكار جريئة.. ثمة تطلعات سياسية حرة وضيق بالتزمت الفكري وبهذه القنانة المخزية التي تجثم فوق صدر روسيا ظلاماً ثقيلاً.. ثمة شباب عائد من باريس، بعد مشاركته في الحرب، ممتلئ النفس بأحلام الحركة التحررية في أوروبا. كان بوشكين يتردد على جلسات تعقدها جمعيات ذات اهتمامات ثقافية مثل «أرزاماس» التي يهمها اغتناء موهبته وانصرافه إلى عمل أدبي جاد.. ويدخل في علاقة مع جماعة «القنديل الأخضر» الأدبية، وهي واجهة لتنظيم سري سياسي يدعى «عصبة الهناء».. ان دعوتهم إلى الانفتاح على الحياة وتهكمهم من التزمت والجمود ليمثلان، آنذاك، تحدياً في وجه الظلمة الإجتماعية الكثيفة.. تحدياً «مستتراً» في غرفهم الخاصة وجلساتهم .

إن الرجعية لتشتد وطأة.. والجماعات المناهضة تنشئ تنظيماتها السرية. وها هم أصدقاءُ من المعهد ينتمون إلى الجمعيّة السرية الأولى «عصبة انقاذ الوطن». بدأ بوشكين، عندئذ، بكتابة مقطوعاته الساخرة، المترنمة بالفرح والحب.. المتلونة بالطابع الديونيسي، ويطلقها، سراً

في وجه التزمت الرسمي، متهكماً من «السفلة المحتَرَمين» و«الجهلة المبجَّلين والوجهاء الحمقى من الأوساط الرثة».. بينما يضع قبالتهم أصدقاءه من «الصبية الفلاسفة المرحين» و «السعداء المارقين من عبدة فينوس». وبين مفرداته المحببة لديه: فينوس وباخوس أخذت تتردد مفردة أخرى: الحرية. إن قراءة هذه المقاطع لتروج بين الجماعات الليبرالية من ضيوف «القنديل الأخضر» وفي منازل الديسمبريين القادمين. غير أنهم لم يفتحوا أبوابهم السرية ليقبلوه عضواً في تنظيمهم، حذراً من اندفاعاته وعلاقاته المتعددة مع «أناس لا يعتمد عليهم».

كما اغتنى الشاعر من تردده، في هذه الفترة، على مجتمع العاصمة «الراقي» ليصوره، من بعد، في بعض أعماله الشعرية، في روايته «يفجيني أوليغين» خاصة. غير أن الشاعر سرعان ما يضجر من بطالة الوسط «الراقي» وفراغه الفكري. فأخذ يتجه إلى الجماعات الحرة: الأنفس الممتلئة بالهموم القومية والتطلع إلى التحرر والخلاص غير أن هذه الأنفس إنما تنتمي إلى تنظيم سري محكم، ومغلق في وجهه، وليحزنه أنه لم يجد لديهم الاطمئنان إلى دخوله في «سريتهم» وانغلاقهم على مشاريع كبيرة لتقويض القنانة والحكم الفردي المطلق .

ان قصائده الآن لتأخذ طابعاً تحررياً، وتقطر بالأسى من أجل الوطن المضام، وتتفجر بالنقمة على القنانة والإستبداد، من قصائده المهمة، في هذه الفترة، قصيدتا «الحرية» و«القرية». في القصيدة الأولى، التي تنتشر سراً، تتدفق أحاسيسه النبيلة كراهية لكل هذا التخلف والتسلط

الفردي الجاثمين على روسيا، وتطلعاً إلى عمل إيجابي خيِّر :

ألا ابتعدي عن طريقي

يا ربة الأوتار الخافتة

أين أنتِ، أين أنتِ أيتها العاصفة الرجولية

يا مغنية الحرية الفخورة ؟

اقتربي ومزقي اكليلي

وحطمي قيثارتي الناعمة

أريد أن أتغنى الحرية الإنسانية

وأفضح الرذيلة في عروشها .

وفي قصيدته الثانية «القرية» تتلون أبياته بخضرة الريف واندائه، ويحن إلى هدوئه الرائق.. غير أن نفسه لتمتليء غضباً من الجبروت الإقطاعي وإذلاله لهذا الشعب الرازح تحت نير القنانة والجهل :

آه، لو أن لصوتي القدرةَ على أن يهزّ النفوس !

لمَ هذا اللهب المتوقد، عبثاً في صدري

ولم تمنح لي موهبة الكلمة الرهيبة ؟

أتراني أرى شعبنا، يا أصدقائي، وقد تحرر

من جور العبودية بأمر من القيصر ؟

أو لم يحن لفجر الحرية الوطيئة الرائع

أن يشرق على وطننا أخيراً ؟

مع هذه القصائد «المحرمة» تتسع شعبية بوشكين.. وها هي أشعاره تقرأ أينما تجد قلباً متعطشاً إلى التحرر.. بين أبناء «المجتمع الراقي» أو

الشباب المتعلم من طلبة أو ممثلين ورسامين اقنان يرسلهم السادة لمتابعة الدرس في المدينة، وفي الجهة الثانية، حيث الرجعية والفئات المتنفذة، تتعاظم النقمة على الشاعر، وتتطاير الأقاويل المغرضة، وتترقب السلطات فرصة لابعاده واخماد صيحاته، وتصل أسماعها مقاطع أخرى أشد تهجماً وتحدياً، فيأمر القيصر الكساندر الأول بنفيه إلى سيبيريا. ويتدخل أصدقاء مقربون من الجهات الحاكمة رجاء العفو عنه. فيصدر الأمر، هذه المرة بنفيه إلى الجنوب. كان هذا عام 1820.

قبيل نفيه كان الشاعر قد انتهى من كتابة قصيدته الطويلة «روسلان ولودميلا». يلاحظ الناقد بلاجوي أن بوشكين، في قصيدته هذه، وهي عمله الكبير الأول، قريب، في موضوعه وبنائه، من ملحمة فولتير «عذراء اورليان» المتأثرة بدورها بملحمة الشاعر الإيطالي، من عصر النهضة المتأخر أريوستو: «رولاند المجنون» مع اغتنائه بالملاحم الروسية ذات الاتجاه البطولي الخرافي، الشائع في أواخر القرن السابع عشر، إضافة إلى هذه الرومانسية بروحها الروسي الشعبي.

إن أهم ما أنجزته القصيدة هو هذه اللغة القريبة من اللغة المحكية كما لاحظ بلاجوي أيضاً .

بينما كان النقاد المتزمتون يريدون من لغة الشعر «الإلهية» أن تكون أكثر سمواً من اللغة الاعتيادية الشعبية.. كنت تحس مع هذه القصيدة، كما أشار بيلينسكي، ببداية إتجاه أدبي شامل في لغته وابتعاده عن الأساليب المتحجرة السائدة يومذاك. (نلاحظ أيضاً أن الشعبية هنا إنما تعني اللغة الأدبية الروسية الجديدة، لغة تور غينيف وتولستوي

وجيخوف.. أي لسان الأمة نفسها بعيداً عن التصنع والرواسب الزائدة والتحجر). وفي هذه الحكاية يتنقل البطل، عبر أجواء خرافية متنوعة، من مغامرة إلى أخرى، بحثاً عن عروسه المختطفة. لقد أغلق عليها الساحر أبواب قلعته المجهولة. ولن يجد الفارس المغامر من منفذ إليها غير مشورة عجوز حكيم. وفي طريقه إليها، عبر واد مليء بالعظام، يلتقي بهضبة هي رأس عملاق من أتباع الساحر القزم.. لم يزل مغروساً في العراء منذ قرون. إنه ليحتفظ بالسر القادر وحده على قطع لحية الساحر، حيث تكمن كل قوته، وهو سيف رهيب مسموم.. ويتغلب الفارس عليه مستولياً على السيف القاتل.. ويجد، في رحلته عمالقة آخرين، وصبايا ساحرات ينادينه عبر الغصون المجللّة بالضباب، بينما يعلو نواح عروسه في القصر المغلق.. ثم يلتقي الخصمان أخيراً. وكما هو شائع في الملاحم الخرافية.. تتوج هذه المتاعب بالعودة الظافرة والتقاء الحبيبين في آخر الطريق .

إن عالماً آخر ينتظر الشاعرَ في منفاه الجنوبي. في رحلة عبر القفقاس والقرم إلى مقر إقامته المحدد في كيشينيف يتعرف بطبيعة أخرى: جبال القفقاس الموحشة والبحر المترامي تحت شمس الجنوب الساطعة.. والقبائل الجبلية المتعددة، إن قصائد بايرون لتزيد من حماسه الرومانسي وتطلعاته الحرة. وإن نفسه لتمتلئ بالذكريات المريرة، وتهيم عبر البحر والأفق إلى الجديد المجهول. فيأخذ بكتابة قصيدته الطويلة «أسير القفقاس» وكان هذا أيضاً عام 1820، إن موضوع القصيدة لبسيط، ويمكننا اختزاله بكلمات: فتى روسي حالم يجد نفسه أسير أهالي

القفقاس الجبليين، وفي غربته عن تقاليدهم، وفي حنينه إلى قومه، تتعلق به صبية شركسية، وتزوره تحت جنح الليل وتحطم اغلاله وتقوده إلى النهر.. فيجتازه إلى الجهة الأخرى حيث الأهل والوطن. وتلقي بنفسها إلى الماء منتحرة يأساً فهو غريب ولا يستطيع من أجلها شيئاً .

في «روسلان ولودميلا» كان الشاعر محلقاً على أجنحة الخيال الأسطوري.. في عالم العصور الغابرة. لكنه في قصيدته الطويلة الثانية إنما يتحدث عن الواقع المعاصر. وقد أعطى لبطلها الكثير من أحاسيسه وصفاته هو.. وهنا يكمن السبب في اخفاقه الفني، في التعامل مع بطله الشعري، كما يقول بوشكين نفسه: (لم تكن شخصية أسير القفقاس ناجحة.. إن في هذا ما يؤكد عدم صلاحيتي في أن أكون بطلاً لعمل رومانسي). لقد حاول أن يجعل من بطلهِ صورةً عن نفسه هو على الطريقة البايرونية .

لكن بوشكين، رغم تأثره بيايرون، إنما يبتعد عن النهج البايروني، وسيتعمق ابتعاده هذا في أعماله القادمة، ليس بشكل مختلف... وإنما بالطريقة المناقضة كما لاحظ هذا الناقد السوفييتي بلاجوي .

إن بوشكين ليزداد إهتماماً بالواقع المحيط، متطلعاً إليه عميقاً ليجسد ما يمكنه تجسيده منه. يقول بوشكين: (لقد أردت أن أعبِّر، في شخصية البطل، عن اللامبالاة تجاه الحياة.. تجاه ملذاتهـــا، عن هـــذه الكهولة المبكرة للروح التي أمست صفة مميزة لشباب القرن التاسع عشر) .

إن لهذه القصيدة معنى تاريخياً أيضاً. إن مشكلتها كامنة في هذا التصادم بين الفرد المتطلع إلى الحرية والوسط الإجتماعي حيث لا أمل

بجديد أو شروقٍ فرح. ويبحث الشاعر عن حلّ لهذه القضية في الموضوع الرومانسي المحبب: الهروب من المجتمع المتمدن إلى الحياة البدائية.. هروب الفرد المتوحد، صديق الطبيعة، إلى القبائل الفطرية كما هو ملاحظ في دراسة الأدب الرومانسي. إن في هذا ما يذكرنا أيضاً بشاتوبريان وألناجيز.. تعلق الفتاة البدائية بالغريب المتمدن النازح، وجهدها في أن يتحرر من الخطر.. وانتهاؤها أخيراً قتيلةً أو منتحرةً.

في هذه المرحلة 1821 كان بوشكين في مقدمة الحركة الأدبية المعاصرة آنذاك.. إن ريادته بيّنة في انتزاعه موضوعاً عميقاً من الواقع. كان رائداً في تعبيره الفني المكتنز عن التصادم القائم بين البدائية والرجل المتمدن. وسيتلقى الأدب الروسي، من بعده، هذا الموضوع بحماس بالغ. كثيراً ما سيلح عليه ليرمنتوف في قصائده ونثره: التنافر بين الطبيعة البدائية الفاتنة والبحث الإنساني المتصف بالقلق والخيبة. وستمتد هذه اللوعة إلى توتجف وقصائده المعبرة عن أعماق النفس المتمرده وتوقها الجامح إلى الامتزاج بالطبيعة في عالمها السري الغامض.. وإلى تعاليم دستوييفسكي عن البساطة في «الروح الروسية» وتصادمها مع الغرب المضطرب القاحل.. وفرار تولستوي الفاجع المتمرد إلى الطبيعة.

إن النفس لناضبة هنا، خائبة في عالمها «المتحضر»، وفي تعطشها إلى الحرية والإنسجام تندفع إلى البدائية، بعيداً عن عالم الكذب والقلق والعبودية المتشحة بهالة من «تمدن» زائف. غير أن خيبتها لكبيرة في اصطدامها مع «حرية» البدائية وبساطتها العارية.. إن الغربة لكامنة في

«الروح نفسها»، فأسير القفقاس عاجز عن تقبل أو تفهم هذا الهوى الصافي في قلب الشركسية الفاتنة. وهو العجز نفسه الذي يبتني خرائبه في قلوب رجال آخرين، نقتفي خطاهم في أعمال أخرى لبوشكين .

في هذه المرحلة أيضاً يبدأ الشاعر بكتابة «قصته» الشعرية الطويلة الثالثة: «نافورة بخجيساراي» وهو يحس أنه غير منسجم مع نفسه الطامحة أيضاً: لم يزل قريباً من البطل البايروني. هنا يرسم صورة من الماضي، في عالم يكاد يبدو أسطورياً. وهي منتزعة أيضاً من الإثارة الحارة التي تتركها في نفسها طبيعة القرم و «العالم» الجنوبي. إن الهوى ليتملك قلب خان القرم الرهيب القاسي. هوذا الخان، وسط حريمه الباذخ، يحترق حباً وأسى. وتكاد نفسه أن تشف عن رقة وحنين.. هي الدموية الغليظة. فقد استلبت لبّه الأسيرة ماريّا، الأميرة البولندية الشقراء.. المتوجعة غربة واشتياقاً إلى موطنها، غير آبهة بهوى الخان الجامح. غير أن ثمة قلباً آخر يتحرق غيرةً وحقداً، هو قلب المحظية الأخرى.. زاريما الجيورجية التي تقدم أخيراً على قتل ماريا.. لتلقى المصير نفسه بيد الخان. التناقض، هنا قائم بحدّته بين ماريا «الملائكية» والمحظية الشرسة الغيرى.. ثم هذه الالتفاته «الرومانسية» الغنية في الغوص إلى أعماق نفس بدائية «قاتمة» هي نفس الرجل المتوحش القاسي.. واكتشاف هذه «الرقة» التي يبتعثها هوى امرأة طاهرة متلوعة. ويبتني الخان، في ذكرى حبه الفاجع، نبعاً مرمرياً: رامزاً إلى لوعته الباكية وصفاء هواه القتيل. إن في القصيدة أجواءً ساحرةً من ليالي القصر الشرقي، والجواري في حوضهن الرخامي.. وهذه الخطى الجائسة في

منتصف الليل.. خطى الحارس المخصي متفقداً الأبواب، باعثاً على الرهبة.

كان الشاعر يزداد غنى وثقافة وتطوراً فنياً. إن قراءاته متواصلة وهو محاط بأنصار الجمعية السياسية السرية من رجال الانتفاضة الآتية «الديسمبرية». هم هنا أكثر راديكالية واندفاعاً، لكنهم، أيضاً، على تحفظهم نفسه تجاه بوشكين. لم يكونوا ليرغبوا بانتمائه إلى تنظيمهم بالرغم من الصداقة الحارة التي يكنونها له. وفي حذرهم من «تهوره وحماسه» يعلّلون الأمر بحرصهم البالغ على الشاعر من مغبة القضية إذا ما انكشفت.. وإن دوره في كتابة الشعر واغناء أدبهم القومي أكثر أهمية كما يتصورون .

في هذه الفترة من عام 1823 كانت آمال بوشكين الثورية تتعرض لخيبة مريرة. فقد استطاعت القوى الرجعية في أوربا أن تخمد لهيب الثورات الذي اندلع في نابولي واسبانيا واليونان. وقد خلف تشاؤمه، في هذه المرحلة، أثره في قصيدة «الشيطان». فهذا الجني الحاقد بدأ يزوره خفية «في الكآبة المباغته، ليصب في روح الشاعر سمه القارس». إنه تشاؤمه نفسه ليغويه بالتنكر للحب والكفران بالحرية.. إنها خيبة بامكانيةِ التحرر وتخطي الجدار الأصم القائم .

عام 1824 بدأ الشاعر بكتابة قصيدته الرومانسية الطويلة الأخيرة «الغجر». وانتهى منها في «ميخايلوفسكوي» في نهاية العام نفسه. وهي أكثر أعماله أهمية في مرحلة العشرينات. ومعها أيضاً بدأ بكتابة روايته الشعرية الواقعية «يفجيني اونيغين» التي تأخذ من عمره الشعري

سبع سنوات. وبدأ أيضاً بإنجاز مأساته الشعرية «بوريس غودونوف».

إن شهرته لتصل مدوية من منفاه الجنوبي إلى العاصمة. والشرطة تتبع خطاه الشعرية. وها هي تضع يدها على رسالة له يطرح فيها وجهات نظره الرافضة لعقيدة القيصر، فتجد حجة لإبعاده ثانية.. فينفى من أوديسا إلى أقصى الشمال، ليقيم في ضيعة والدته في قرية ميخايلو فسكوي .

تعتبر «الغجر» انتقالة مهمة في نتاج بوشكين. فمن خلالها كان الشاعر يقترب من الدرامة. ذكر بوشكين، مرةً، أنه لم يجد نفسه مهتماً بالدرامة قبل هذه القصيدة. وهي من الآثار الأدبية الروسية الأولى التي استطاعت اجتياز حدودها القومية.. حين ترجمها ميريميه إلى الفرنسية، وقد تركت أثرها في روايته الشهيرة «كارمن». حين نشرت «الغجر» لأول مرة تلقتها الشبيبة بحماس كبير.. حيث وجدت فيها متنفساً عن بغضها العميق للحياة الإجتماعية في ظل التسلط والكبت .

إن «اليكو» شخصية رافضة، طريد القوانين القيصرية، والمدن الخانقة. وهو «الجوّاب الرومانسي» الباحث عن الحرية، ولم يجدها، شأن الرومانسيين الآخرين، إلا في الطبيعة، في الحياة البدائية. غير أن أعماقه لم تكن صافية صفاء هذه الطبيعة، أو بسيطة.. بساطة العالم البدائي. إن فيها بذور أنانيةٍ كامنة ستنفجر ذات ليلة، حين تواجهه «البدائية» بعريها و«بساطتها». لم يكن ليفهم هذه «الحرية الغجرية» ولم يكن يريد الحرية إلا لنفسه وهكذا يجد نفسه غريباً في اختياره الوحيد. وتتهشم «ايجابيته» في فعل مظلم أخير. هكذا يصل البطل إلى

حالة تمرد ثانية. كانت الحالة الأولى في رفضه العبودية والكذب والمدن «الخانقة». فجاء تمرده الثاني نفياً لتمرده الرومانسي الأول. فقد شاء أن يكون «غجريا» غير أنه في ارتكابه القتل يجد نفسه متمرداً على «البدائية»، على الملاذ نفسه. أن ثمة تناقضين هنا: التصادم بين الحرية البدائية، بين الطبيعة و«المدن الخانقة». والتناقض الآخر كامن في حالة اليكو نفسه. بين «غجريته» و«مدنيته» الرابضة في أعماقه. إن مأساته لفي اختياره هذا. كان ضحية الحلم الرومانسي التائه في أودية العالم المغلقة.

إن أهمية اليكو «موقفاً» إنما تكمن في رفضه الأول، كما يشير النقاد الإجتماعيون، في رفض التسلط والزيف الإجتماعي. وهكذا أيضاً أدركت النفوس الحرة من رفاق الشاعر وقرائه ما تحمل هذه القصيدة من قيم متقدمة وأحاسيس نبيلة. غير أن ثمة رأياً آخر.. يرى في هذه الشخصية «الجوّابة» الباحثة ظاهرة تاريخية، ستتطور، في ابتعادها، إلى تقمص مظهر غير قومي، غير روسي. يقول دستوييفسكي: (لقد اكتشف بوشكين في اليكو ذلك المتشرد الشقي في بلادنا، ذلك الجوّاب التاريخي الروسي، الذي يشكل وجوده في هذا المجتمع المنفصل عن الشعب ظاهرة تاريخية ذات ضرورة قصوى.. وهي ظاهرة ستظل توجد دائماً، وستبقى على الأرض الروسية زمناً طويلاً).

لقد توصل الكاتب الروسي الكبير، في خطابه عن بوشكين، إلى فهم فكري خاص. فهو مع بوشكين أبداً.. مثلما أراد أن يفهمه هو. يرى دستوييفسكي في التمرد على انفصال الارستقراطية عن الشعب فعلاً ذا

دلالة إيجابية كبيرة. إن الغربة والعجز لقائمان في الانفصال عن الشعب، عن «بساطة الروح الروسية» كما يفهمها الكاتب الكبير. وهذا ما يجده في الحركات الفكرية المتعاظمة آنذاك. إن ما يدينه فيها هو انتماؤها الغربي، وابتعادها عن «الروح الروسية»، عن مسيحية الفلاح الروسي. إن ما يتطور إليه هذا «الجوّاب» هو «الشياطين» أنفسهم كما فهمهم الكاتب. كان بوشكين، إذن، متنبئاً بهذه الظاهرة التاريخية، وهو في رأيه إنما يدفعها منذ البداية بالعجز والضياع وراء «سراب خادع» يقول دستوييفسكي: (إن اليكو منذ أول احتكاك بعقائد هذه الطبيعة المتوحشة يعجز عن السيطرة على نفسه.. ويلطخ يديه بالدم). كان «الجوّاب» الأول هارباً إلى الطبيعة المتوحشة. وستتحول هذه الطبيعة عند «الشياطين» إلى العالم الغربي، إلى الفكر الغربي، الباطل كما يلاحظ الكاتب الكبير .

كان بوشكين في منفاه الشمالي، في قرية ميخايلوفسكوي، يعاني أشد المعاناة.. في الريف المقفر النائي. إنه الخريف، والسماء متجهمة قاتمة، والمطر يقرع النافذة.. والسهوب تترامى موحشة مبتلة. كتب بوشكين في رسالة إلى أخيه: (أتدري كيف هي مشاغلي؟ إنني أخط، قبل الغداء، ملاحظاتي، وفي وقت متأخر أتناول وجبتي.. ثم أمتطي جوادي متنزهاً. وحين يحل المساء أجدني أمام مربيتي مستمعاً لأقاصيصها.. فأصحِّح ما في ثقافتي من أخطاء لعينة. إن حكاياتها مدهشة) .

في عزلته هذه لم يكن معه غير المرضعة العجوز آرينا. وهذه

السهوب المقفرة تمتد من حوله. وهو يعبّ من أقاصيص المرضعة، مكتنزاً الشيء الكثير، وستتحول أقاصيصها المتنقلة من جيل إلى آخر، متشحة بألوانها الشعبية وأسرار القرون الغابرة.. إلى قصائد خرافية في الليالي الآتية بعد مراحل: السمكة الذهبية، أوندين، القيصر سلطان.. وغيرها .

في عزلته الريفية يغدو الشاعر أكثر إقتراباً من البساطة، من لغة الشعب ومن روحه. وتبدأ أعماله الشعرية آخذة طابعاً واقعياً، وعمقاً إنسانياً. لقد تركت القريةُ الروسيةُ أثراً عميقاً في نفسه: بأجوائها الخريفية وامتداد ريفها وأناسها وهم يترنمون، عند الحصاد، بأغانيهم الشعبية «الضافية». ها هو يكمل فصولاً أخرى من روايته الشعرية «يفجيني أونيغين» ويكتب عملاً مسرحياً صغيراً «مشهد من فاوست». إن شعره، في هذه المرحلة، ليبلغ مستوى واقعياً عالياً ونمواً فنياً غير اعتيادي. هو الآن في القلب من واقعه القومي .

لم تعد القصائد، هذه المرة، ملتفة بالشال الرومانسي الأسود أو متسربلة بالجلباب الشركسي أو الأسمال الغجريةِ الفاقعة كما أشار بلاجوي. إنها لتبدو، الآن، بهذا الواقع الروسي، وفي قربها من النغم القروي وتنفسها المناخ الشعبي. كان بوشكين في احتكاك واع مع القرويين.. معهم في حفلاتهم، وفي أسواقهم الموسمية، مصغياً إلى أغاني الشحاذين وأدعيتهم، وإلى أقاصيص العميان متحدثين عن الزمن السحيق. يقول الشاعر: (إن تفحص الأغنيات القديمة والأقاصيص الشعبية شيء ضروري في اكتساب المعرفة الشاملة بالينابيع الأولى للغة

الروسية.. إن أمثال هؤلاء «العميان، الباعة القرويين» ليمتلكون لغة صافية رائعة، باعثة على الدهشة) .

ثم ينتهي الشاعر من عمل شعري آخر: «الكونت نولين»، كان هذا عام 1825 في المنفى الشمالي القروي نفسه. لم تكن قصيدته، هذه المرة، على قرابة من المرحلة الرومانسية، هي أشبه بالسرد التهكمي، وواقعية تماماً. كان بوشكين قد بدأ منذ الأيام الأخيرة في المنفى الجنوبي، بهذا الإتجاه الواقعي في الفصل الثالث من «يفجيني أونغين» خاصة. وتتركز محاولته، هذه، في إخضاع أو تطويع «النثرية» لأن ترتفع شعراً. إن لغته، هنا، «نثرية» يتصاعد بمفرداتها وأجوائها إلى «الحالة» الشعرية .

في «الكونت نولين» يكون الزوج في رحلة صيد. وفي المنزل الإقطاعي المنعزل، في الريف المقفر، تنشغل الزوجة، كما اعتادت، في قراءة قصص فرنسية تقطر عاطفية و «رقة». وحين تتطلع من النافذة لن ترى غير عراك المعزى والكلب والبط السابح في بركته.. والخادمة حاملة غسيلها لتنشره على السياج. وتهب الزوجة فرحة بمجيء الضيف: هوذا الكونت نولين، رجل مفرط في تأنقه حتى التفاهة، فارغ، مغرق في «أجنبيته» حتى الإبتذال. وفي الليل يحاول إغواء الزوجة.. فتصده خائباً، متعثراً. وحين تخبر زوجها بقصته يكون قد ارتحل.. وتنتشر القصة المضحكة، لكن أكثر الضاحكين عربدة كان الجار الشاب، المتردد على المنزل .

لقد أنكر النقد على الشاعر تناوله لموضوعه عارياً كما هو، بابتذال

مناظره و«نثريته». لكن هذا «العري المبتذل» هو ما يشق الطريق أمام إنجازات غوغول الآتية: «النفوس الميتة» و «المفتش العام» وغيرهما.

كان الشاعر قد انتهى أيضاً من مأساته المعروفة «بوريس غودونوف». وهي تعرض أحداثاً تاريخية جرت في روسيا أواخر القرن السادس عشر.. كان غودونوف شخصية متنفذة في عهد القيصر فيودور.. وذا تأثير عليه. وقد انتهى من منافسيه بالقتل والنفي. ويقال إنه اغتال أخا القيصر الطفل ليظل العرش فارغاً بعد موت فيودور. وهكذا كان. وبعد اعتلائه العرش يكون مرهقاً تحت عبء جريمته. غير أن دعيّاً منافساً هو دميتري الزائف يطالب باستعادة العرش، مدعياً أنه الطفل الوريث «القتيل». وفي معركة أخيرة بينهما يحيط الدعي بالكرملين.. بينما يكون غودونوف منهاراً، محطماً إثر نوبة نزيف مباغتة، في قصره وبين رجاله، وكان أبرزهم قد انضم بجيشه إلى جانب دميتري الزائف. وحين يعرف الشعب المتجمع في الساحة بنبأ انتحار إبنة القيصر المنهار وابنه.. يتغير في موقفه المساند لدميتري وحين يطلب من الشعب أن يحيي «القيصر» الجديد.. يظل صامتاً في سكون رهيب. وفي صمته هذا يكون الشعب رافضاً الكذب ومنتصراً عليه.

تعتبر هذه المأساة ولادة المسرح الروسي الجديد. إن بوشكين مثل شكسبير هنا، غير عابئ بالوحدات الثلاث السائدة: الزمن والمكان والحدث. أن الشعب هو المؤثر الأخير في سير الفعل المسرحي. وكثيراً ما تكون الجماهير وحدها على منصة المسرح. إن كل كلمة، هنا، ضرورية وفي مكانها. وهي تختلف من فم إلى آخر.. فهي «رفيعة»

على شفاه الأمراء.. «نثرية» لدى البسطاء من الناس. إن وحدة قويةً تظل ثابتة عبر المأساة كلها .

إنتهى الشاعر من قصيدته التهكمية «الكونت نولين» في الرابع عشر من كانون الأول عام 1825 . يا له من يوم عجيب. في هذا اليوم في الساحة الكبرى في بيتربورغ.. أمام تمثال بيتر الأول.. جرى ما كان الشاعر على انتظار له: أول انتفاضة مسلحة في روسيا. لقد اندلعت حركة الديسمبريين. لقد وصلته الأنباء الدامية الرهيبة بعد إسبوعين: إصطدام الفرق الثائرة وانكسارها تحت ضربات القوى المؤيدة لنيكولاي الأول: القيصر الجديد. فقد مات القيصر السابق وتنازل الأخ الأكبر الزاهد بالحكم لأخيه نيكولاي وسط اعتراضات عديدة. فرأى الثوار في هذا فرصة لأن يتقدموا. ولم تكن فرقهم منظمة تماماً. وخسروا المعركة. لقد ألقي القبض على الكثير منهم. أعدم قادتهم الخمسة ونفي الباقون إلى سيبيريا. إن بينهم أصدقاء لبوشكين، وها هو في عزلته يتمزق أسىً والتياعاً .

في هذه الظلمة الروحية الخانقة يكتب الشاعر قصيدته الثورية الجليلة: «النبي»، إن لهذه القصيدة خاتمة أخرى أبعدها الشاعر حذراً، وهي موجهة ضد القيصر القاتل :

ألا إنهض يا رسول روسيا
والتفّ بهذه الحلةِ المنسوجة من العار
وتقدم، والحبل يشدُّ على عنقك،
أمام القاتل الكريه .

عاش، بعدها، أشهراً مرة، فريسة انتظار غائم لا يدري عن أي شيء ينكشف، أيساء إليه أشد من السابق. أم يعفى عنه في هذا العهد الجديد؟ عاش مطارداً بالذكرى الأليمة، ذكرى الأوجه الخمسة المتأرجحة على المشانق في صبيحة قاتمة.. وجه الشاعر ريلييف، وجه بستيل، قائد الحركة، وكان قد التقاه في المنفى الجنوبي، وترك في نفسه انطباعاً قوياً.

في خريف 1826 يدعوه القيصر إلى لقائه في موسكو. وجواباً على شكوى الشاعر من الرقابة الصارمة.. يدعي القيصر أنه سيكون رقيبه الخاص. هكذا بدأت رقابة أشد قسوة من الأولى. فقد تشددت متابعة الشرطة لكل حركة من حركاته. بدأ، والأمل يخبو، يعيش وحدةً ثانية خانقة. الأصدقاء في المنفى وهو في مهب المزاج القيصري. ها هو يكتب قصائد حاملة أعباء همه الفادح: يكتب (في أعماق المناجم السيبيرية) يتقدم فيها بتحاياه إلى الأصدقاء المنفيين ويشد قوياً على أكفهم المكبلة، واعداً بربيع الأمل الزاهر. و(أريون) الملأى لوعة ووحدة. وشجرة «الأوباس» التي تقطر سماً زعافاً: رمزاً لتحكم القيصر وخضوع العبيد. كان يحس بغربة عالمه الأدبي. إن أعماله الواقعية لم تجد صدى طيباً لدى قرائه، وها هي متاعبه السياسية في تزايد، فالقيصر غير مرتاح لمأساته «بوريس غودونوف» وينصح بكتابتها رواية على طريقة والترسكوت! وهو وحيد بين كراهية المحافظين ونكران الجانب الليبرالي، فهو في رأيهم، من أتباع السلطان ما دام يكلف من القيصر بكتابة مواضيع عن التاريخ الروسي .

هو الآن في بيتربورغ، لا يدري أي شيء ينتظره، أيبعد إلى المنفى أم يلقى به في قلعة من القلاع؟ وهو ماض في كتابة عمله الشعري الملحمي «بولتافا». كان يقيم في غرفة صغيرة شبه مظلمة في فندق. الريح مزمجرة من حوله، والمطر يضرب النافذة دونما رحمة. والبرد والرطوبة يحاصرانه. وهو في غرفته طوال يومه، بين أشباح أبطاله وخفايا أقدارهم. انتهى بوشكين من قصيدته أواخر 1828.

وتسير أحداث القصيدة في اتجاهين يلتقيان أخيراً في نقطة واحدة: حب الصبية ماريا الجميلة المتكبرة، ابنة الوجيه كوجوبي، لصديق أبيها مازيبا: المحارب العجوز وقائد الفرق القوزاقية في أوكرانيا. ثم خيانة مازيبا وتعاونه مع الغزاة السويديين في حربهم ضد بيتر الأول، في معركة «بولتافا» التي تنتهي بانتصار الروس وتفوقهم نهائياً على الخطر السويدي التأريخي. ومن هنا أهمية هذا الموضوع تاريخياً.

كتب بوشكين: (إن ما شدني هو هذه الشخصيات القوية، وهذه الظلال العميقة الفاجعة التي تلقي بنفسها فوق هذه الفظائع كلها).

إن ماريا العذبة، المتكبرة معاً تشيح بعيداً عن طالبي ودها، حالمة بالقائد القوزاقي العجوز، ذي الشاربين الأشيبين والماضي القتالي الحافل. وحين يروم القوزاقي الزواج منها يجابه برفض أبيها الحازم. وتهرب الإبنة إلى قلعة الحبيب الأشيب الرهيب. ويفكر الأب بالثأر. إنه ليعرف أن مازيبا غير صادق في ولائه لقيصر روسيا، فهو في صلة مع الملك السويدي وينتظر الفرصة ليتعاون معه في غزوه لأراضي روسيا. غير أن القيصر لا يصدق هذه الأنباء التي أرسلها إليه كوجوبي. فسلمه

أسيراً بين يدي القوزاقي البدائي القاسي، مبرهناً على ثقته به. أي مصير رهيب ينتظر الأب البريء وهو في قبضة عدو لا يعرف رحمة أو شفقة؟ وتحاول الأم أن تدفع الإبنة العاشقة لإنقاذ أبيها. وتذهبان معاً لتطلبا العفو. لقد جاءتا بعد فوات الأمر. منذ دقائق قد أطاح الجلاد برأس السجين. وتفر ماري هائمة على وجهها. ثم تبدأ المعركة، وينتفض مازيبا مسانداً السويديين.. ويفر أخيراً مع الملك المنهزم. وفي هروبه، عبر الريف المقفر، يلتقي بماريا الهائمة.. هي الآن أشبه بشبح من الأشباح، مجنونة تائهة في البراري .

إن ما يطغى على غنائية القصيدة، أخيراً، هو هذا الفعل الملحمي: بيتر الأول (بوجهه الرهيب وعينيه المتألقتين) في غبار المعركة الملتهبة، وقد انسحبت أمام اتساع صورته الوجوه الأخرى جميعاً. غير أن هناك شبحاً مأساوياً يظل عالقاً بالأذهان. شبح ماريا في هواها الفاجع .

وهذا المشهد الجامح هو ما جعله الشاعر أساساً لملحمته، راسماً إياه بعمق وقوة عظيمين ـ إن صورة ماريا لتتمثل أمامنا عملاً فنياً فذاً.. بمفاتنها العذبة وبروحها غير «الأنثوية»). كما أشار إلى هذا الناقد بلاجوي.. أي بجموحها وقسوتها .

إن في علاقة مازيبا العاطفية وانتقامه.. انعكاساً نفسياً لخيانته السياسية. ومن هنا تتضح بنية القصيدة غير العادية هذه. فقد أخذ الموضوع العاطفي. في شكله الفني المناسب، مكانة في العمل التاريخي، ممتزجاً مع أحداث العصر الكبيرة. وتحس أن الشاعر، في تزاوجه الفني، وكأنه في محاولة إغناء فني لموضوعه: حب ماريا ومازيبا

في إطار من أحداث تاريخية مهمة. وتتعالى الغنائية لتصل أخيراِ إلى النهاية الفاجعة، لتمتزج بالمشهد الملحمي. ومثلما كان مازيبا أنانياً، قاتماً في علاقته العاطفية.. هو مخادع وخائن لوطنه. بينما يبدو لنا القيصر المدافع عن الأرض القومية صورة لروسيا الفتية آنذاك، في اندفاعها وطموحها .

لم تكن الرقابة غير آبهة لهذه النجاحات الفتية. لما يزل الشاعر أصلب من أن يلين ويخضع. إن في شعره روحاً تجديدياً، وحماساً قومياً يثير فيها الريب والغيظ. إن «أقلامها» ممعنة في نفث سمومها في وجهه الفني المتشامخ. إن كتابات عديدة فظة تنشر ضده، معلنة عن «سقوط موهبته نهائياً». وكان وراء هذه الموجة الحاقدة قائد الجندرمة نفسه .

ويسمع بوشكين عن القتال الدائر بين الفرق الروسية المعسكرة جنوباً والأتراك. فيطلب الإذن بالمشاركة. ولم يسمح له. ويرتحل إلى هناك بالرغم من نصيحة الأصدقاء، غير راضخ لأوامر الجندرمه وينتقل بين المدن الجنوبية: إن طبيعة القفقاس لتمنحه قوةً وحيويةً على الإبداع. وها هو يكتب قصائده الجميلة عن الطبيعة الجنوبية. ويحاول الإلتحاق بالجيش، غير أن القائد، وهو من الأصدقاء، ينصحه بالعودة خوفاً عليه. ويعود إلى موسكو حيث تعقد خطبته القدرية. إن خطيبته، وهي أجمل صبايا المدينة، لم تكن غير زهرة حفلات باهرة وبريئة. وسيتزوج الشاعر عام 1831. إن زوجته لفاتنة، وإن فتنتها لتثير المتاعب أينما اتجهت.. المتاعب التي ستكون سبباً في مقتل الشاعر، دون جريرة من الزوجة الباهرة، المقبلة على الرقص والحفلات. ستثار

الأقاويل، ويتآمر الخصوم، ويدفع إليه بالرسائل الوقحة، وتمتلئ روحه مراره.. فيتحدى الشاعر خصمه طالباً المبارزة .

وقبيل زواجه، قضى بوشكين خريفاً رائعاً في ضيعتهم، في بولدينو، هو الآن في أوج ابداعه. إن هذه الطبيعة الحزينة والطقس الممطر، والأفق المغطى بالضباب، والسهول المعشبة لتمنحه ارتياحاً وقوة على الكتابة. ها هو ينتهي أخيراً من روايته الشعرية الطويلة. ويكتب «أقاصيص المرحوم إيفان بيلكين» والمآسي الشعرية القصيرة: الفارس البخيل، موزار وساليري، الوليمة أثناء الطاعون، الضيف الحجري. في مشاهده المسرحية هذه يتنقل الشاعر من بيئة إلى أخرى، ومن زمن إلى آخر. فتجدنا في القرون الوسطى أو في العصور الحديثة، في إنكلترا أو إسبانيا. وهي تنطوي على حادث أو مشهد معين واحد، خالية من أية شخصية ثانوية، وغنية بالحركة الذكية والإكتناز الجيد .

إن «يفجيني أونيغين» هي عمله الأدبي المركزي. ولقد رأينا ملازمة الشاعر لها طوال سبع سنوات. وهي كما يقول بيلينسكي:

(أكثر أعمال الشاعر قرباً إلى نفسه.. أكثرها اكتنازاً بأسرار الشاعر الخاصة. إن قلبه كله، إن روحه كلها هنا.. إنها لتمثل لنا، نحن الروس، دلالة تاريخية وإجتماعية كبيرة). ما من أحداث كثيرة هنا: إن فتى أرستقراطياً وسيماً، هو يفجيني، يضجره مجتمع العاصمة، وقد ارتوت نفسه من الحفلات والفرح والحظوة مع النساء، ومن المسرح والكتب.. يرث عن عمه ضياعاً وثروة. فيجدها فرصة يجدد عبرها مجرى شبابه الساكن الممل. فيغادر إلى أملاك عمه في الريف. وفي

وحدته هذه يلتقي بفتى آخر: لينسكي الشاعر الحالم، الممتلئ الروح بالأفكار المثالية. إنهما لنقيضان. إن يفجيني لضجر، بارد. أرهقته «الحياة» مبكراً.. بينما الثاني ممتلئ حماساً وعاطفية وشعراً.. إن بينهما ما بين (الجليد والنار، الحجر والموجة، النثر والشعر). كان لينسكي عاشقاً لابنة الجيران أولغا، ويدفع بصاحبه ليتعرف بالأسرة. فيلتقي بأختها تتيانا. وهي غير أختها المرحة، المتوردة. إن تتيانا ذات طبيعة حالمة، هادئة، تحلم أحلاماً طويلة، منطوية على نفسها.. على قلب حار صادق:

لم تكن لتجتذب الأبصار إليها
بمثل جمال أختها
أو بنضارة وجهها المتورد.
متوحشة، كئيبة، صامتة كانت
ومتخوفة كالوعل الغابي.
وبين أفراد أسرتها نفسها
تبدو أشبه بالفتاة الغريبة
لم تكن لتجيد اغداق لطفها
على أبويها،
ولم تكن راغبة، وهي طفلة بين أصحابها،
في أن تلهو أو تمرح،
وغالباً ما تقضي نهارها بأكمله
جالسة وصامتة عند النافذة.

إن هذه الفتنة الغامضة في منأى عن اهتمام أونيغين، هو المتأنق، المازح بين سيدات مجتمع منطلقات. غير أن تتيانا سريعاً ما تتوله به. وتبعث له برسالة حب تكشف فيها عن أغوار قلب رائع يتدفق حياة وصدقاً. لم يشأ أونيغين العبث مع هذا القلب النبيل، و«ينصحها» في لقاء بينهما بأن تنسى حبه، فما هو بعازم على أن يتزوج، وما كان ليختار سواها إذا ما رغب في زواج. وتنزوي تتيانا منطوية على هوى مكظوم. ولم يزل أونيغين ضجراً في قصره.. حتى إذا ما أقام أهلها حفلاً في عيد ميلادها يلبي دعوتهم ليلقى تتيانا مبتعدة، عن يأس، متحاشية نظرته، فيتسلى بالرقص مع أختها المرحة المنطلقة.. متظاهراً بمغازلتها. ويرى لينسكي في هذا اساءة لكرامته، ويدعوه للمبارزة. وتنطلق رصاصتان ويقع لينسكي قتيلاً. ويرتحل أونيغين بعيداً. ويقرر أهل تتيانا تزويجها من جنرال عجوز، كثير الأوسمة والثروة. وبعد سنوات يلتقي بها أونيغين سيدة على جمال غريب. ويدرك عندئذ أية فتنة رائعة، وأية امرأة قد فقد في رفضه حب تلك الصبية الريفية. ويرى في هذه الفتنة خلاصاً له من ملله القائم وفراغ روحه القاتم. فيكتب لها بحبه متوسلاً ساعة لقاء. فلم ترد بشيء. وحين يزورها في بيتها مندفعاً، ممتلئاً هوى. تفهمه أنها لم تزل تحبه، وأن كل هذه الزينة لتضجرها، وأنها لتحن إلى عالمها الريفي ذاك، غير أنها متزوجة، وهي ملك لهذا الزوج وحده.

يقول دستوييفسكي: (إن تتيانا هي بطلة القصيدة بلا مراء.. نحن أمام نموذج الجمال الإيجابي بعينه.. إن بوشكين يهيئها، في مشهد اللقاء مع أونيغين، لأن تنطق بفكرة القصيدة). وهذه الفكرة هي: (هل يستطيع

الإنسان أن يبني سعادته على شقاء غيره؟) إن الجمال الإيجابي ليجيب، بالطبع، جواباً سلبياً على هذا السؤال. وكان هذا جواب تتيانا. فهي ترفض أونيغين أخيراً ما دامت ملكاً لآخر. أي حق لها في أن تبني سعادتها على حطام رجل عجوز مسكين؟ أن قدرها أن تتعذب. (لقد مرت بحياة أونيغين مروراً، مرت بجانبه دون أن يعرفها وأن يقدرها حق قدرها.. وتلكم هي مأساة روايتهما). هذه هي فكرة دستوييفسكي عن الرواية.

إن تتيانا هي حلم بوشكين الجمالي. إن إسمها نفسه أكبر الأسماء الروسية عذوبة لديه. كانت أكثر شخصياته قرباً من مرضعتها، أي من الشعب.. كالشاعر ذاته.. أكثرها ـ إمتلاءً بروى الروح الريفية البسيطة. هي الصراحة في صفائها واندفاعها، في صدقها وعذوبتها وهذه التضحية الأخيرة، رفضها الرجل الذي تحب، تجعلها في الذروة من جمالها وإيجابيتها.

إن أونيغين (شاب لا يجد أي شيء يشده إلى عالم التزلف والمطامع الصغيرة. غير أنه في هذا المجتمع نفسه إنما حكم عليه أن يعيش.. فما زال الشعب بعيداً عنه.. لا شيء مشتركاً بينه وبين الشعب). كما قال غيرتسن. إنه ليجد نفسه «زائداً» عن المجتمع، لا قدرة لديه في أن «يفعل» شيئاً إيجابياً لصالح الآخرين. إنه يجر معه كسله وضجره. لم تكن سلبيته هذه وبالاً عليه وحده. كانت سبباً في مأساة تتيانا: جرح روحها الدفين، وضياع قلبها في زواجها المقفر. وكانت سلبيته وبالاً على فتى آخر، على لينسكي الحالم.. الذي كان، في موته، كما يقول

غيرتسن: (صيحة ضمير أونيغين الأخيرة.. فهو يمثل أونيغين نفسه، إنه مثال صباه) .

لقد انتشرت صورة أونيغين في الأدب الروسي بعد بوشكين. هي صورة «الرجل الزائد» عن المجتمع، الرجل المثقف السلبي، الذي لا يحمل معه، أينما إتجه، غير الضجر والتسبب في عذاب الآخرين أو موتهم، دونما رغبة أو ارادة منه. إن بيجورين «بطل ليرمنتوف» الشهير ورودين ولافريتسكي «بطلي تورغينيف» ليسوا غير ظلال لأونيغين ذاته. يقول غيرتسن: (إن صورة أونيغين لعلى درجة عالية من الصفة القومية.. بحيث تجدها في كل الروايات والقصائد التي تجد لها إقبالاً في روسيا، ليس رغبة في المحاكاة.. إنما لأنك واجد صورته قربك دائماً، أو داخل ذاتك نفسها) .

لم يكن بوشكين مقتحم أفق جديد في شعره وحده. إن نثره المكتنز، المتسارع في تطويع لغة فن نثري لم تروض بعد، في صفائه وتماسكه، في مرونته وخفته.. كان أفقاً منكشفاً آخر أمام الروائيين الروس. في العديد من شخصياته تتراءى تقاطيع غير شائعة لدى معاصريه: الفرد «الإعتيادي» في بؤسه وصغره، وإنزوائه في ركن ينطفيء، تحت قتامته، آخر شعاع: «ناظر المحطة» مثلاً.. أو في تمرده الدموي العاصف ناقماً على «أسياده» ومذليه: بوغاجوف في «إبنة الضابط». وبالرغم من إظهار هذه الشخصية الشعبية بتقاطيع بالغة القسوة والعنف.. فإنك لتلمس تعاطفاً حاراً «مستتراً» بين الكاتب وبطله. وإنك لتسمع حسرة أسى، في النهاية، على مصيره الفاجع. وفي «دوبروفسكي» لن يكف

بوشكين عن تتبع الكره المختزن في أعماق الموجيك وانفجاره في أدنى فرصة ممكنة. ومع أن البطل، في قصة المغامرات هذه، من أصل أرستقراطي.. إلا أنك لتحسبه واحداً من أبناء الشعب، في امتزاجه بهم وتعلقهم به.

عام 1833 كتب قصيدته الملحمية الأخيرة «الفارس النحاسي» التي يتجلى فيها فنه الشعري متكاملاً في أوج نضجه ونقائه. إن ما تصل إليه القصيدة أخيراً.. هو الموقف الدرامي المحتدم بين الضرورة التاريخية والفرد: بين بيتر الأول رمزاً لروسيا الفتية، آنذاك، في نهوضها القومي.. ويفجيني، الفرد الإعتيادي «الصغير» في مطامحه الصغيرة.

لم يكن بيتر الأول، في هذا العمل الشعري، رجلاً تاريخياً، رجل دولة وقائد انتصارات فحسب.. هو، أيضاً، (ممثل لنظام اقطاعي يكتب أكثر مراسيمه بالسوط والجبروت). وهو يدعى في القصيدة بالوثن أو الصنم المعبود. ففي الوقت الذي يتغنى فيه الشاعر بأعماله التاريخية وضرورتها في بناء الدولة.. إنما يومئ، في إعطائه الوجه الجبروتي، إلى استبداده، وبطريقة تدعو إلى كراهيته في الأقل.

إن يفجيي رجل «صغير» كما ذكرنا.. سليل أسرة شهيرة آلت إلى الخراب، وإن كنيتها لبارزة في صحائف المؤرخين كما يشير الشاعر في قصيدته. غير أنه، الآن، ليس أكثر شأناً من تلكم الملايين المستضعفة، المقهورة. إن كل ما يطمح إليه هو الإقتران بخطيبته، واقتناء ركن صغير يأويان إليه مع الذرية المنتظرة. ها هو يرى إلى حلمه وقد تهاوى. فالضرورة التاريخية، متمثلة في بيتر الأول، شاءت أن تقام

المدينة على شفا البحر، على شفا الخطر نفسه.. لتكون نافذة على أوروبا. لم يكن هذا بالنسبة ليفجيني المفجوع غير رغبة شخصية لدى «الوثن» المتجبر. إن قيام المدينة على البحر كان سبباً في تعرضها لهياج الزوابع وغرقها. من هنا تبدأ مأساته واحتجاجه المتمرد في وجه الفارس النحاسي. ومن هنا أيضاً ينشأ الموقف الصراعي بين الضرورة التاريخية والفرد الإعتيادي الصغير .

ينطلق الشاعر من الماضي إلى الآتي عبر الحاضر، حاضر العمل الشعري من النهوض الروسي التاريخي إلى الأفق التاريخي الذي لم ينكشف واضحاً.. استقراء من الحاضر. مثلما تغنى الشاعر بالأعمال التاريخية.. كان يكشف عن فاقة يفجيني «الحاضر». عن ضآلة شأنه وانسحاقه الفاجع، مطارداً بالجبروت القيصري النحاسي. لم يكن الصراع آنذاك، كما يرى بوشكين، ممكناً مع الجبروت القائم حاضراً. كان «عملاً جنونياً» وهو ما يرمز إليه بهزيمة بفجيني الجنونية. غير أن الآتي إنما يتمثل في تلك الحركة التمردية: قبضة يفجيني المتوعدة في وجه الوثن النحاسي وهمسته، بين أسنانه المصطكة: أنا لك من هنا. يحكم الشاعر على الجبروت القيصري بزواله في الأفق التاريخي الآتي، إن في هذه القبضة المهددة، المتمردة بذرة ثورة كامنة عبر رماد الزمن والأحداث. وهنا يكون الشاعر «رائياً».

لم يكن النظام القيصري، ومن حوله الأرستقراطية كلها، ليريد لهذه الحياة الحافلة أن تواصل إبداعها. فقد اشتق بوشكين طريقة إلى الشعب الرازح تحت أعباء الجبروت. الرقابة الرجعية تضيّق أكفها الحانقة على

عنقه. النقد البائس يطلق صراخه في وجه الشاعر المبدع: إن مواضيعه لواطئة ولغته نثرية.. وأنه ليكرر نفسه. بل إنهم لينكرون لديه أية موهبة.. وفي الوقت نفسه كانت شعبيته تتعاظم، بالرغم من الظلمة، المتكاثفة والبطش الرهيب المتربص.

عام 1837 مات بوشكين، وهو في أوج إبداعه. لقد قتل إثر مبارزة (كان القيصر يريد لها أن تتم، كما، يبدو واضحاً في رسالة له.. فهي فرصة لأن تتخلص الرجعية من الشاعر المتوج بالشعبية، صديق الديسمبريين).

بينما كان بوشكين يحتضر في منزله.. كانت الجموع البشرية تتكاثف، باكية شاعرها، في الطريق المؤدية إلى بيته. كان هذا أول تجمع جماهيري تشاهده العاصمة بعد انتفاضة الديسمبريين. ثم أحيط منزل الشاعر بالشرطة. لقد أرادت الرجعية أن يدفن بوشكين بصمت وفي ظلال الليل. وكان لها ما أرادت. ونقل الجثمان إلى ميخايلوفسكوي، ضيعة الشاعر ومنفاه الشمالي، على زحافة عادية.. وبرفقة شرطي وصديق واحد هو أ.أ.تورغينيف (وهو غير الروائي المعروف). وسريعاً ما انتقلت منتشرة، من يد إلى يد، قصيدة ليرمنتوف الشهيرة في رثاء بوشكين. فنفي إثر انتشارها، إلى الجبهة القفقاسية:

قضى الشاعر أسيراً لشرفه

هوى، بهامته الفخورة،

وسط الإشاعات الكاذبة.

الرصاصة في قلبه، والتوق إلى الثأر.
لم تطق روحه النبيلة
إحتمالاً لإساءة التافهين من علية القوم.
فوقف في وجه أقاويلهم الباطلة
وحيداً كما عهدناه.. وقتل.

أكان بوشكين يتنبأ بهذه الفاجعة حين قال، قبيل زواجه، بين جمع من الغجر، مصغياً لأغنية الفتاة الغجرية الملتاعة النائمة. وهي تعتصر الدموع من عينيه: (هذه الأغنية الموجعة.. لا تتنبأ لي بأية فرحة.. بل بشقاء عظيم)؟ .

حسب الشيخ جعفر
1980/6/24

القصـــائد

حورية الماء

في غابات البلوط الموحشة، مطلاً على البحيرة
قديماً كان ينعزل راهب متنسك،
طوال يومه في مشاغل صارمة
صائماً، متعبداً، مجهداً نفسه في العمل.
وبمجرفته العتيقة
كان الشيخ قد حفر قبره بيديه.
وفي توسلاته إلى قدّيسيه المعززين
ما من مطمح له غير الأجل المنتظر.
ذات يوم من أيام الصيف
عند عتبة كوخه المطأطيءْ
كان الناسك يرفع صلاته إلى ربه.
إن غابات البلوط لتمسي أكثر سواداً.
والضباب يتكاثف فوق البحيرة،
والقمر الجميل بين السحب
ينزلق رويداً في الأعالي.
وكان الراهب يتطلع إلى المياه.
يتطلع وقد امتلأ رعباً مباغتاً،
ولم يعد يدرك من أمره شيئاً.
يرى المياه تغتلي مزبدةً

ثم تهدأ فجأة..
وفجأة.. خفيفة كخيال الليل
بيضاء كالثلج المبكر فوق التلال
تطلع امرأة عارية
وتجلس صامتة على الضفة.
تتطلع إلى الراهب الشيخ
ممشطة جدائلها المبتلة.
فيرتعد الراهب الطهور خوفاً
متأملاً جمالها.
وهي تهيب به بيدها مستدرجةً
أو تومىء بحركة من رأسها سريعة،
وفجأة.. في مثل إنحدار نجمة
تتوارى تحت الأمواج الناعسة.
طوال الليل كان الشيخ العابس مؤرقاً
ولم يرفع صلاته يومه كله.
أمامه، دونما إرادة منه.
يتراءى له طيف العذراء الرائعة.
وتتدثّرْ الغابات، ثانية، بالظلمة
والقمر يسعى بين السحب،
وثانية ترى العذراء فوق المياه
شاحبة، فاتنةً في جلستها.

ترنو إليه أو تومىء برأسها
وتقَبّله، مازحة، عن بعد،
تضرب بيدها، لاهيةً، على الموجة
ضاحكة، باكيةً كطفلة
أو تدعوه إليها متأوهةً بعذوبة:
(إليَّ أيها الراهب.. إليّ!)
وفجأة تغطس في المياه الصافية
فيسود الصمت العميق.
في يومه الثالث كان الناسك المتولّه
جالساً عند الضفة المسحورة
مترقباً عذراءه الجميلة.
الظلال هابطة بين الشجر
والسحر يجلو ظلمة الليل،
وكان الراهب قد توارى.
ليس ثمة غير لحية بيضاء
أبصر بها الصبيان طافية على المياه.

1819

«ما أنا بآسف عليك»*

ما أنا بآسف عليكَ يا ربيع صباي
وقد تصرمتَ في تهاويل حبٍ باطل.
ما أنا بآسف.. يا أسرار الليالي القدسية
يا ترانيم الناي الملتهب.
ما أنا بآسف عليكِ يا رفقة مخادعة.
يا أكاليل الولائم واكؤسَها المستديرة.
ما أنا بآسف.. يا فتنة شابة غادرة!
غريب عليّ عبثكم، أنا المتأمل المفكر.
إنما أينكِ مني يا لمحات الرقة
وآمال فتوتي.. وراحة بالي؟
أين تشوقي الأول ودموع أعيني الملهمة؟
ولتعد، ثانية، يا ربيع صباي.

1820

---

* الكثير من المقاطع لم يعنونها المترجم، وعلى الأرجح فهي غير معنونة في الأصل، أو مستلة من قصائد أطول، لكنها وردت معنونة في هذه الطبعة لضرورة الفهرسة. والعناوين المقترحة من قبلنا وضعت بين قوسين.

«نجمة النهار»

نجمة النهار قد انطفأت
وهبط الضباب فوق البحر الأزرق.
فاندفعْ، إندفعْ يا شراعي الطّيع
واضطرب تحتنا، أيها المحيط المتجهم.
إني لأرى ضفة سحيقةً،
أرى حافة الأرض الجنوبية الساحرة
قلقاً، مكتئباً أتطلع إلى هناك،
وقد أطربتني الذكرى.
وأحس أن الدموع قد ولدت في عيني ثانية
وروحي تغتلي وتتجمد.
إن طيفاً غير غريب علي يخفق من حولي
فأتذكر حبي الجنوني الغابر
وكل ما قد آلمني. أو كان عزيزاً عليّ:
خداع آمالي ورغباتي المهلك..
فاندفعْ، إندفعْ يا شراعي الطّيع
واضطّربْ، تحتنا، أيها المحيط المتجهم.
ويا مركبي طرْ بي إلى التخوم القصية
في تقلبات البحر المخادعة الرهيبةِ،
إنما بعيداً عن الضفاف الكئيبة

بعيداً عن الوطن الضبابي،
حيث التهبت أحاسيسي لأول مرة
بالرغبة المحرقة،
حيث ابتسمت آلهة الفن، خفية، برقّة لي
حيث ذوى صباي الضائع
مبكراً في مهب الزوابع،
حيث خانني الفرح ذو الجناح الخفيف
وتناسى فؤادي بارداً في آلامه.
أنا الباحث عن انطباعات جديدة
أفرُّ منكِ يا شواطئ روسيا،
أفر منكم يا ربيبي اللذائذ
يا رفقة الصبا السريع الزائلة.
وأنتن، هاويات الغواية الفاسدة،
ومن ضحيت بنفسي لهن دونما حب،
بالمجد والحرية وراحة البال..
سلوْتُكُنَّ.. يا فتنة الصبا الغادرة
يا ظلال ربيعي الذهبي المستترة
سلوْتكِ أخيراً..
غير أن جراح قلبي القديمة
جراح حبي العميقة،
ما أنا واجد لها بشفاء.

فاندفعْ، إندفعْ يا شراعي الطّيع
واضطرب، تحتنا، أيها المحيط المتجهم.

1820

«هذا الحشد من السحب»

إن هذا الحشد من السحب المندفعة لآخذ بالتضاؤل،
يا نجمة الأماسي الحزينة
إن ضوءك لينسكب فضة على السهول الذاوية،
على الخليج الناعس وصخور الذرى القاتمة.
إني لأعشق ضوءك خافتاً في الأعالي
فقد أيقظ الخواطر الغافية في نفسي.
إني لأتذكر شروقك، يا نجمتي،
فوق البلد الآمن، حيث الفؤاد هانئ أينما رنا
حيث الحور الأهيف يقف شامخاً في الأودية
حيث ينعس الآس الرقيق والسرو القاتم
والموج الجنوبي يصطفق في انتشاء.
قديماً كنت هناك، حيث الجبال، متدفق الأحاسيس
متأملاً، في عزلتي المدقعة، مطلاً على البحر،
حيث يهبط ظل العشية فوق كوخي..
وفي العتمة تبحث عني عذراء فتية

هاتفة باسمي بين أخدانها.

1820

«انقضت رغباتي»

قد انقضت رغباتي
ولم تعد أحلامي محبّبة لي،
لم يبقَ لي غير آلامي هذه،
ثمار فراغ قلب قاحل.
في عواصف قدر لا يرحم
ذوى إكليلي المزهر،
وها أنا أعيش وحدتي وكآبتي
منتظراً.. متى تراني أموت؟
هكذا هي ورقة الشجر المتخلّفة
في صفير الزوبعة الشتوي
وحيدة، مهزومة تقف
مرتجفةً فوق غصنها المتعرّي.

1821

السجين

في زنزانتي الرطبة أقبع وراء القضبان
والنسر الفتي، ربيب الأسر،
رفيقي الحزين، مرفرفاً بجناحه،
ينهش وجبته الدامية عند النافذة.
ينهشها ويلقي بها، ويتطلع من النافذة
كما لو أنه يشاركني أفكاري.
إنه ليدعوني بطرفه وصيحته
ويودُّ أن ينطق: (هيا بنا ننطلق..
نحن طيران حرّان، آن لنا أن نمضي
بعيداً حيث الجبال بيضاء وراء السحب،
حيث البحر يتألق زرقةً
حيث لن يتجول غير إثنين: الريح وأنا) .

1822

الشيطان

في تلك الأيام، حين بدا لي
كل انطباع عن الوجود جديداً.
نظرة العذراء، ووسوسة الغابة

وأغنية البلبل الليلية،
حين كانت تهزُّ دمي بقوة
أحاسيسُ رفيعةً،
الحرية، والمجد والحبُ
وإلهاماتُ الفن السامي،
ملقياً على ساعات الأماني واللذائذ
ظلّ الكآبة المباغتة،
كان جنيٌّ غريب حانق
قد أخذ يزورني خفيةً.
حزينةً كانت لقاءاتنا:
إن إبتسامته وتحديقته الرائعةَ
وأحاديثه اللاّذعة، المستهزئةَ
لتصب في روحي سمَّها القارس.
وبافتراء لا ينضب
كان يوسوس لي بشكوكه
داعياً الجمالَ وهماً
محتقراً نعمة الإلهام.
لم يكن مؤمناً بالحب أو الحرية،
ملقياً على الحياة نظرة استهزاء،
ولم يكن ليودَّ أن يبارك
أي شيء في هذه الطبيعة كلها.

1823

إلى البحر

وداعاً أيتها البيئة الحرة!
ها أنتَ أمامي للمرة الأخيرة
تدحرج أمواجك الزرقاءَ
وتتألق بجمالك الفخور.

كهمهمة صديق مكتئبة،
كندائه ساعة الوداع
أسمعُ هديرك الحزينَ، هديرك المنادي
أسمعه للمرة الأخيرة.
يا تخوم روحي المبتغاةَ!
غالباً ما كنت أتسكع على شاطئك
هادئاً، مبهم الأحاسيس،
مرهقاً بفكرتي المكنونة.

لكم أحببت هدير شطآنك،
أصواتك الخفيضة! وصيحتك التي لا قرار لها
وهدوءك ساعة المساء،
واندفاعاتك الجامحة المتقلّبة.

إن شراع الصائد الوديع
لآمن من نزواتك،
منزلقاً ببسالة وسط تموجك الخفيف.
لكنك إذ تجيش بقوّتك التي لا تُقهر
تغرق المراكب المتقاطرة.

لم يتيسّر لي أن أهجر إلى الأبد
الضفة الساكنة المملّة
لأحييك بابتهاج عظيم
وأقود على متنك الفسيح
رحلتي الشعرية.
كنت تنتظر، كنت تدعو.. وكنت مكبلاً،
عبثاً تتحرّق روحي إلى الإنطلاقِ:
مفتوناً بهذه الرغبة الجامحة
كنت قد ظللت على الشاطئ.

ولِمَ التحسر؟ لأية جهة يمكنني الآن
أن أمضي غير مكترث بشيء؟
شيء واحد في رحابتك المقفرة
كان يمكن أن يذهل روحي.

صخرة واحدة هي من المجد ذروته..
في رقادها البارد هناك
قد استغرقت الذكريات العظيمةُ،
هناك حيث خبا نابليون.
هناك خبا هاجعاً وسط عذاباته.
وانطلق، إثره، في مثل دوي العاصفة
عبقري آخر مبتعداً عنا*،
كان سلطان أفكارنا هو الآخر.
توارى، والحرية باكية عليه،
تاركاً إكليله لهذا العالم.
لتهدر، إذن، هائجاً في طقسك المتجهم
فلقد كان مغنيك أيها البحر.
إن صورتك لعلى مثاله
وروحه قد خُلِقَتْ لك:
مثلك كان جباراً، عميقاً، مكفهِراً،
مثلك كان ذا شكيمة لا تقهر.
ها قد أقفر العالم.. إلى أين ترى الآن
يمكنك أن تحملني أيها المحيط؟
إن للبشر قدراً واحداً في أيما مكان:
فحيثما توجد قطرة من السعادة

* العبقري الآخر هو الشاعر بايرون (المترجم).

يمنعك عنها طاغية أو تعاليمُ.
وداعاً إذن، أيها البحر! لن أنسى
وجهك الفاتن المهيب،
وطويلاً، طويلاً سأظل أسمع
هديرك هذا في ساعة المساء.
إلى الغابة المترامية، إلى القفار الصامتة
سأحمل معي، ممتلئاً بك،
صخورك وخلجانك،
لمعانك وعتمتك، وغمغمة موجك المتجاوبة.

1824

الأمسية الشتوية

الزوبعة بعتمتها تُدَثّر السماءَ
مدومةً أعاصيرها الثلجية،
هي آناً تعوي كوحشٍ
وآناً تنتحب متلوّعة كالطفلِ،
أو فجأة عبر السقف البالي
تسمعها عابثة في القش،
أو كعابر السبيل المتأخّر
تدقُّ علينا النافذة.

إن كوخنا المتداعي

لكئيب ومعتم.

ترى ما بك يا عجوزي

قد طال صمتك عند النافذةِ؟

أم أن عواء الزوبعةِ

قد بعث في نفسك السأمَ؟

أم هو أزيزُ مغزلكِ

قد جلب إليك النعاس؟

لنشرب يا صديقتي الطيبةَ،

يا رفيقة شبابي البائس*،

لنبدّدَ حزننا.. أين هو القدح؟

سنفرح قلبنا قليلاً.

غني لي أغنيةً.. كطائر سنِ المنجلِ

هادئاً عاش عبر البحار،

غني لي أغنيةً.. كفتاةٍ

مضت صباحاً لتجلب الماء.

الزوبعة بعتمتها تدثر السماءَ

مدومة أعاصيرها الثلجيةَ،

هي آناً تعوي كوحش

---

* رفيقة الشاعر هنا هي مرضعته (المترجم).

وآناً تنتحب متلوعة كطفلٍ.
لنشرب يا صديقتي الطيبة،
يا رفيقةَ شبابي البائس،
لنبدد حزننا.. أين هو القدح؟
سنفرح قلبنا قليلاً.

1825

العاصفة

أرأيت إلى الصبيّة فوق صخرتها
في ثوبها الأبيض، مطلّةً على الموجِ،
حين يصطفق البحر عند الضفاف
في عتمة العاصفة الهائجةِ،
حين يضيء البرق المتلامع
هيئتها كلها بلهبهِ القرمزي،
والريح في هياجها وانطلاقها
تتناهب مطرفها المتخافقَ؟
رائع هو البحر في عتمةِ العاصفةِ
والسماء تتبارق، وقد احتجبت زرقتها،
أقول لك حقاً.. إن هذه الصبيةَ على الصخرةِ
لأكثر روعةً من الموج والبرق والعاصفةِ.

1825

«تحت سماء بلدها الزرقاء»

تحت سماء بلدها الزرقاء
كانت تذبل اشتياقاً..
ثم قضت أخيراً، وها طيفها الفتيّ
وفياً قد مرّ من فوقي.
غير أن بيننا تخوماً ليس ممكناً اجتيازها.
عبثاً كنت أستثير أحاسيسي،
إن فماً غير مكترث أنبأني بموتها
وغير مكترث أنْصتُّ إليه.
أهي ذي التي أحببتها ملتهب الروحِ
بمثل تلك القوة الفادحة،
بمثل تلك الكآبة الرقيقة المضنيةِ
وبمثل ذلك الجنون والعذاب!
أين هو الحب والأذى؟ واأسفا!
لأجل هذا الطيف الساذج البائس
وذكرى الأيام الحلوة الضائعةِ
لا أحد لديّ دمعةً أو لحن غناء.

1826

الطريق الشتوي

عَبْرَ الضباب المتموج
يتسلل القمر،
وفوق مروج الغابات الكئيبةِ
يسكب ضوءه في كآبة.
في الطريق الشتائي الموحش
تندفع الترويكا السريعةُ،
وجرسها ذو الوتيرة الواحدةِ
يرن باعثاً الملل والضيق.
شيء ما قريب إلى النفس
يسمع في أغاني الحوذي الطويلة:
آناً هو العربدةُ المندفعةُ
أو هو الأسى في الفؤاد.
ما من نار تتوهج أو كوخ أسود يلوح
لا شيء غير الثلج والغابات المترامية
لا شيء يواجهني
غير هذه المسافات المتلاحقةِ أمامي.
أيُّ ضجر! أيةُ كآبةٍ! .. غداً أرى نينا
غداً ألتقي برفيقتي الطيبةِ،
ناعساً أمام الموقد

أتطلع إليها دون أن أملّ.
وحين أسمع عقرب الساعةِ
منجزاً دورته الرتيبةَ،
لا يفرق بيننا الليل حين ينتصف
فيبعد الضجرين عن بعضهم.
حزين أنا وطريقي ممل
وقد سكن الحوذي في سنةٍ من نومٍ.
الجرس يدق بوتيرةٍ واحدةٍ
ووجه القمرِ قد غشاه ضباب.

1826

«في أعماق المناجم»

في أعماق المناجم السيبيريةِ
لتحتفظوا بهذا التحمل الفخور.
لن تذهب عبثاً مشقتكم الكئيبةُ
ومسعى أفكاركم السامي.
إن لتعاستكم أخاً وفياً
هو الأمل في الأقبيةِ المظلمةِ،
سيوقظ فيكم الفرح والحيويةَ
ويجيء الربيع المرتقب.

إن الحُبَّ والصداقةَ

يصلانكم عبر الأبواب المقفلة القاتمة

كما يصلكم في أوجارِ أشغالكم الشاقةِ

صوتي الحُرُّ هذا.

ستسقط السلاسل الثقيلةُ

وتتقوَّضُ الجدران المطبقةُ

وتحتضنكم الحرية في ابتهاج عند الباب

ورفاقكم يناولونكم الحسام.

1827

البلبل والوردة

في الحدائق الساكنةِ، في عتمة الليلةِ الربيعية

يتغنى البلبل الشرقي، منحنياً على وردته.

غير أن الوردة الحبيبةَ غير شاعرة به أو مصغيةٍ إليه،

ومع النغم الولهان تتأرجح وتنعس.

أو ليست هكذا تتغنى أمام الجمال البارد؟

عد لنفسك أيها الشاعر، لأي شيء ترى أنت تسعى؟

هي لا تسمع الشاعر أو تحس به،

ترنو إليها فتراها مزهرة.. تدعوها وما من جواب.

1827

أريون*

كان عددنا كبيراً في القارب
بعضنا يشد الشراع،
الآخرون يسندون، عميقاً،
مجاديفهم الجبارة في توافق.. وفي الهدوء المستتب،
منحنياً على الدفة
كان رباننا البارعُ،
صامتاً، يقود قاربنا الثقيل.
وأنا، زاخراً بثقةٍ لا تبالي بشيء،

كنت أترنم للمجدّفين.. بغتةً
تغضّن وجه البحر تحت أعصار مدو..
فهلك الربان والمجدّفون.
وحدي فحسب، أنا المغني الغريب،
ألقت بي الزوبعة على الشاطىء.
وها أنا أترنم بأناشيدي القديمة
وأجفف حبريّتي المبتلةَ
في الشمس حيث تتعالى الصخور.

---

* «أريون»: شاعر ومغن يوناني قديم. قيل أنَّ الدلفين أنقذه من أن يموت غرقاً في البحر، وقد اجتذبته أغنياته الجميلة (المترجم).

1827

الشاعر

ما دام أبولو لم يدعُ الشاعر، بعد،
إلى التضحية القدسية،
فهو يُغرقُ نفسه متخاذلاً
في مشاغل علْيَة القوم الباطلة.
إن قيثارته المباركة لصامتة
وروحه تتذوّق النعاس البارد،
وبين أبناء الأرض التعساء
ربما كان أكثرهم تعاسةً.
وما إن تلمس الكلمة الآلهيةُ
مسمعه المرهف،
حتى تنتفض روحه
كالنسر المستيقظ من النوم.
فيحسّ بالوحشة في عالمه اللاهي
ويجد نفسه غريباً بين الأقاويل،
ولن ينحني برأسه الفخور
على أقدام طاغية أو وثن.

ويتولى منعزلاً، عابساً،
وقد أُترعت نفسه بالقلق والأصوات،
على شاطىء البحر المقفر
أو في الغابات الفسيحة الموسوسة.

1827

«لا تتغني»

لا تتغني، بجانبي، أيتها الجميلة
بأغانيك الجيورجية الشجية،
إنها لتذكرني
بحياة أخرى.. وشاطىء بعيد.
واحسرتا! إن أغانيك الجارحةَ
لتذكّرني
بالسهوب في الليل المقمر
وتقاطيع فتاتي النائية الشقية.
إني لأنسى حين أرى إليك
طيفاً عزيزاً، قاتلاً لي،
غير أنك حين تتغنين
أرى الصورة ثانيةً أمامي.
لا تتغني بجانبي، أيتها الجميلة

بأغانيك الجيورجية الشجية،
إنها لتذكرني
بحياة أخرى.. وشاطىء بعيد.

1828

شجرة الأوباس*

في الصحراء الذاوية الشحيحةِ
في رمال الهاجرة المتوقدة،
يقف الأوباس كالحارس العابس
منعزلاً عن الكون كله.
في يوم قمطرير
ولدته طبيعة البراري الظامئة،
وسقت بالسمِّ الزعافِ
جذوره وخضرة غصنه الميتةَ.
عبر لحائه يغتلي السمُّ
ناضحاً في لهب الظهيرة،
لينعقد مع الغروب
قاراً كثيفاً، شفيفاً.
الطير لا يتجه إليه
والنمر لا يقترب.. ليس غير الإعصار الأسود

---

* «الأوباس»: شجرة السم (المترجم)

يهبُّ، أحياناً، على شجرة الموت
لينطلق، جانباً، وهو وخيم.
وإذا ما السحابة الشاردةُ
أمطرت، مرَّة، ورقته الكثيفةَ،
فعلى الرمال المحرقة
سامةً، لاذعةً تسيل القطراتُ
غير أن رجلاً، بنظرة آمرة،
بعث بآخر إلى الأوباس،
فجرى طائعاً، مسرعاً
وعاد مع الصبح حاملاً السم.
جاء بالغار القاتل،
بالغصن وأوراقه الذابلة،
والعرق يتصبب بارداً
من جبينه الشاحب.
جاء به.. وقد أحس بالوهن
فانطرح تحت سقف كوخه، على حصيرة ليف
وقضى العبد البائس نحبهُ
عند أقدام حاكم لا يُقْهَر.
فأخذ القيصر يروي بالسم الزعاف
سهامه المطواعةَ

ليطوح بها، محملةً بالموت الزؤام
عبر التخوم المجاورةِ الغريبةِ.

1828

زهــرة

أرى زهرة جافة دونما أرج
منسية في كتاب.
وها أنا، وقد أترعت نفسي
بحلم غريب.
أين ترى تفتحت؟ متى؟ في أي ربيع؟
أتراها ازهرت طويلاً؟ وأية يد قطفتها؟
أغريبة هي.. أم من الأصدقاء؟
ولأية غاية وضعت هنا؟
أفي ذكرى لقاء حنون،
أم في ساعة فراق لا لقاء بعده؟
أم في نزهة دون رفقةٍ،
في هدأة الحقول، في ظلال الغابة؟
أحية هي تلك.. أحيٌّ هو؟
أين تراهما يقطنان الساعة؟
أم تراهما قد ذويا منذ زمنٍ

كهذه الزهرة الغريبة؟

1828

«فوق التلال»

فوق التلال الجيورجية تنطرح عتمة الليل،
وأراغفا يهدر أمامي.
إن كآبتي غير ثقيلةٍ، ووضيء هو حزني،
إن حزني لممتلىء بك،
ممتلىء بكِ أبداً..
لا شيء آخر يؤلمني أو يقلقني،
وثانية يتحرّق الفؤاد اشتياقاً
فهو لا يملك إلا أن يعشق.

1829

«فارس مسكين»

عاش، مرةً، فارس مسكين،
صموتاً، بسيطاً كان،
بوجه شاحب مكفهر
وروح مقدامة، صريحةِ.

إن رؤياً عصيّةً على الفهم،
رؤيا واحدة بدت له
فانحفرت في قلبه
انطباعاً عميقاً.
في تجواله قرب جنيف
عند الصليبِ المنتصبِ على الطريق
أبصر بمريم العذراءِ
أم السيدِ المسيح.
منذ ذلك الحين، وقد التهبت روحه،
حوّل عينيه عن النساء
وحتى ساعة موته
لم يشأْ أن يخاطب امرأةً بكلمةٍ.
منذ ذلك الحين
لم يرفع خوذته الفولاذية عن وجهه.
وعوضاً عن المنديل
لف مسبحةً على عنقه.
لم يحدُثْ لهذا الفارسِ
أن تقدّم بصلاته
إلى الرب أو المسيحِ أو الروحِ القدس،
كان رجلاً غريباً.
هكذا أمضى ليالي بأكملها

أمام الصورة المبجّلة
مصوّباً إليها عينين كئيبتين
تتساقطُ دموعهُما في غزارة.
متدفقاً كان بالحب والإيمان
وفياً لحلمه الطاهر،
وبقطراتٍ من دمهِ كتب على ترسه:
طوبى لكِ يا أم المسيح.
بينما كان أقرانه
ينطلقون في البراري
لملاقاة خصومهم،
هاتفين بأسماء سيداتهم،
كانت صيحتُه تعلو على الأصوات كلها:
يا ضياءَ السماواتِ، أيتها الوردةُ المقدسة!
وغضبه على خصمه
في احتدامٍ عظيم.
وحين آب إلى قلعته النائيةِ
عاش في عزلةٍ قاسيةٍ
حزيناً، مولّهاً أبداً،
ومات دون أن يتناول قرباناً.
بينما كان يقضي نحبه
هبط إليه جني ماكر

فاستلّ منه روحه
وجرَّها إلى تخومِ الشياطين.
لم يكن قد تقدّم إلى ربّهِ بصلاةٍ
ولم يصُمْ يوماً،
ولم يعشْ تعيساً كما ينبغي
من أجلِ أم المسيح.
غير أن سيدته الطاهرة الوفية
قد شفعت له،
فأدخلتْ فارسها
في الملكوت الأبدي

1829

«في الشتاء»

2 تشرين الثاني

الشتاء، ما الذي نعمله في القرية؟ ألتقي
الخادم، صباحاً، حاملاً لي قدح الشاي،
بأسئلتي: أدافيء هو الطقس؟ ترى هدأت الزوبعة الثلجية؟
أهناك ثلج سقط حديثاً؟ أترانا نستطيع مغادرة السرير
لنُسرج الخيل؟ أم الأفضل أن نتسلى حتى ساعةِ الغداء
مع مَجلات الجار القديمة؟

ثمة ثلج حديث. ننهض ونُسرعُ في امتطاء الخيل
ونقطع الحقل، خبباً، في ائتلاقِ الصبحِ المبكرّ،
السياطُ في أيدينا، والكلاب في أثرنا،
نتطلع إلى الثلج الشاحب بأعينٍ متفحّصة
ونظلُّ ندورُ أو نجوسُ بحثاً، وفي ساعةٍ متأخرةٍ
نعودُ، وقد فاتنا أرنبان.
أي مرحٍ هو هذا! المساءُ قد هبط، والزوبعةُ الثلجيةُ في عواء،
الشموعُ خافتةً، فتحسُّ بالأسى والحيرةِ
وتتجرّعُ الملالةَ قطراتِ سمٍ متباطئةً
أود أن أقرأ فتنزلقُ عيناي على الحروف
وأفكاري نائية.. فأغلقُ الكتابَ.
آخذُ الريشةَ وأحاول الكتابةَ جاهداً:
فما تجودُ ربةُ شعري بسوى كلماتٍ متباعدةٍ،
ويضطرب الروي.. فأفقدُ أيما حقٍ
على القافية: خادمتي العجيبةِ هذه.
مبهمةً، باردةً تتباطأُ القصيدةُ
فأوقفُ محاولتي مرهقاً.
وأتجه إلى غرفةِ الضيوفِ، فأسمعهم يلغطون
عن انتخاباتٍ قريبةٍ، عن مصنع سُكّر.
في مثلِ هذا الطقسِ نرى مُضيفَتنا مقطّبةً،
حثيثاً تتحركُ يداها بأبرِ الحياكةِ

أو تنصرفُ إلى لعبةِ ورقٍ.
أيةُ كآبةٍ! وحيداً أمضي حياتي من يومٍ إلى يوم.
إنما في أمسيةٍ ما، في القريةِ الموحشةِ،
حين أنزوي أَمامَ أحجارِ الداما،
وتجيءُ من بعيدٍ، في عربتها المغلقةِ أو ممتطيةً خيولها
أسرة غيرُ منتَظرةٍ: كهلةٌ وشابتان
(أختان رشيقتان، شقراوان)
فأيةُ حيويةٍ تتلبّسُ هذه الجهاتِ المقفرةَ!
ولكم تضحي الحياةُ ممتلئةً.. يا إلهي!
في البدء: نظرات جانبية، متمعّنة،
ثم بضع كلمات.. بعدها تبدأ الأحاديث.
ثم هذه الضحكةُ الصافيةُ، والأغنياتُ في أول الليل
والفالس يدورُ رشيقاً، وعَبْرَ المائدة ثمة همسات،
نظرات ساجية، ومسارّات طائشةً
وعلى السلّمِ الضيقِ نلتقي متمهلين.
وفي الغسقِ تقفُ الشابةُ تحتَ سقيفةِ الباب
منكشفةَ الصدرِ والعنقِ، والزوبعةُ الثلجيةُ في وجهها!
لكنما العواصف الشمالية غير مضرةٍ بالوردةِ الروسية.
كم هي مُتّقدة قبلاتنا في الصقيع!
كم هي غضّة هذه الشابة الروسية في مهبِ الثلوج!

1829

الصبيحة الشتوية

صقيع وشمس: أي نهار بديعٍ!
وأنتِ ما زلتِ نعسى يا صديقتي الفاتنة.
آن أن تنهضي أيتها الجميلة
إفتحي عيني نؤومِ الضحى هاتين،
وتعالي يا نجمتي الشماليةَ
للقاء هذا الفجرِ الشمالي الرائع.
كانتُ الزوبعةُ الثلجيةُ محتدمةً البارحةَ كما تذكرين
والضبابُ متكاثفاً على السماءِ العاتمةِ،
والقمر كالبقعةِ الشاحبةِ
كان آخذاً، عَبْرَ السحب القاتمةِ، بالامتقاع،
وأنت مكتئبةً تجلسين.
والآن.. ألقي نظرة من النافذة:
تحت السماء الزرقاء
ينطرح الثلجُ طنافس باهرةً
متألقاً في ضوء الشمس الساطع،
الغابة، وحدها، بادية في عتمتها الصافية.
والشوحُ، عبرَ الندى الثلجي، آخذُ بالاخضرار،
والغديرُ يتلامع تحت الجليد.
إن ألقاً أصفر يغمرُ غرفَتنا،

والموقد المتوهج
في صرير طروب،
ممتع أن نطرحَ، عندهُ، ونتأمل.
إنما أتعرفين: ألا نُوصي على مركبةِ ثلجٍ
ونشدُّ المهرَ الأدكنَ؟
ونُطلقُ العنانَ
لمهرنا الجزوع، يا صديقتي
منزلقين على ثلوجِ الصباح،
في زيارةٍ إلى هذه الحقولِ المقفرةِ
والغابات التي كم كانتَ كثيفةً منذ حين،
والضفّةِ المحبّبةِ لي.

1829

«أجل لقد أحببتُك»

أجل لقد أحببتُكِ، ولما يزل الحب ممكناً، بعد،
فلم تنطفىءْ شعلته تماماً في روحي.
غير أني لن أُقلقَك بحبي ثانيةً،
ما أنا راغب بأن أحزنكِ.
أجل، أحببتكِ صامتاً، يائساً،
أحببتك في خجلٍ منك، أو في غيرةٍ مضنيةٍ

وبرقّةٍ وصدقٍ عظيمين
وبمثل هذه القوةِ، أدعو الله، أن يحبكِ آخرُ سواي.

1829

القفقاس

مطلاًّ على القفقاس، وحيداً في الأعالي القصيّة
أقفُ فوق الثلوج، عند حافةِ السيلِ المندفعِ،
والنَسرُ من قمته المتوحدةِ
يحلّق ثابتاً على عُلوٍ واحدٍ معي.
من هنا أرى ولادةَ السيولِ الجبليةِ
وحركةَ الانهيارات الرهيبةِ الأولى.
هنا تمرُّ السحبُ ذليلةً تحت قدمي،
وعَبْرَها تهدرُ الشلالاتُ متهاويةً
وتحتها تُرى الصخورُ العاريةُ الهائلة.
وهناك في الأسفل ينمو الطحلبُ الهزيلُ والشجيراتُ الجافة،
وفي المنحدرات تُرى الأحراجُ بسقوفها الخضراءِ
حيث الطيرُ يتهامس، والأيائلُ تتوائب.
هناك يقيم البشرُ أعشاشَهم في الجبال
وتدب النعاجُ على الجروفِ المخضوضرةِ،
ويهبط الراعي إلى الوهادِ البهيجةِ،

حيث يندفعُ أراغفا بين ضفتيهِ الظليلتين
ويتوارى راكب ما في شِعبٍ من الشعاب،
حيث يلهو نهرُ تيريك لهوَه الضاري.
يلهو ويعوي كالوحش الفتي
وقد أبصرَ بالفريسةِ عَبْرَ قضبانهِ الحديديةِ،
مضطرباً عندَ ضفتيهِ في حقدٍ لا فائدةَ منه
لاعقاً الكتلَ الصخريةَ بموجتهِ الجائعة..
عبثاً! ما من فريسة له أو سلوى
فالصخورُ الصماءُ الهائلةُ تُضيّقُ خناقَها من حوله.

1829

انهيار

فوق هذه الصخورِ القاتمةِ
يهدرُ الموجُ مزبداً، متهشماً،
ومن فوقي تتصارع النسورُ
ويتعالى حفيفُ الأحراش
وتلتمعُ ذرى الجبالِ
وسط العتمةِ المتموجة.
من هنالك إنهارت الثلوجُ، مرةً،
وتهاوتْ في دوي عنيفٍ،

فأغلقت المضيقَ المتدفّعَ بين الصخورِ
تماماً.
مُوقفةً
مجرى تيريكَ العنيد.
فجأةً، وقد أمسى ضعيفاً، هادئاً،
تنقطعُ زمجرةُ أمواجه
غير أن احتدامَ الموجِ المندفعِ الدائب
يفتحُ ثغرةَ في الثلوج
وها هو يُغرقُ ضفّته
في ضراوته هذه.
وطويلاً ظلّت الثلوجِ المنهارةُ المخترقةُ
تنطرحُ كومةً صلبةً
ومن تحتها يتدفق تيريكُ غاضباً
ناثراً زبدَه الهادرَ
على القُبّةِ الجليدية.
وعَبْرَ هذه القُبّةِ قد امتد طريقٌ رحيب
حيثُ يُجَرُّ الثورُ ويُسرعُ الجوادُ
ويقودُ التاجرُ السهوبي،
بعيرَه المحملَ،
هناك حيثُ لا ينطلقُ غيرُ إلهِ الرياحِ
قاطنِ الأعالي.

1829

الشياطين

تَنْدفعُ السحبُ، تتلوّى السحبُ
والقمرُ المحتجبُ
يَضيء الثلجَ المتطايرَ
معتمة هي السماءُ، معتم هو الليل
وأنا أقطعُ السهلَ الأبيضَ
أجراسُ عربتي: دن دن دن..
وتحسُّ بالخوفِ دون ارادةٍ منك
وسطَ السهولِ الغريبة.
(لنسرعْ أيها الحوذي!) .. (لم نعدْ نستطيع) :
لم تعد الخيولُ، يا سيدي، تتحمل أكثرَ.
العاصفةُ الثلجيةُ تعمي عيوني
والثلج قد طمر الطريقَ تماماً،
لا يُرى أيُّ أثر.
لقد أضعنا طريقنا، ما بيدنا حيلة!
يبدو أن الشيطانَ قد أخذَ بقيادنا إلى الحقول
دائراً بنا في كلِ اتجاه.
أنظرْ: ها هو ذا يلهو
نافخاً، باصقاً، في وجهي،
ها هو يدفعُ بالحصانِ المتوحشِ النافر

إلى الوادي الضيقِ،
هناك قد تراءى أمامي
عمودَ قياسٍ متوهماً،
هناك قد تلامعَ شرارةً صغيرةً
وتوارى في الظلمةِ المقفرةِ) .
تندفعُ السحبُ، تتلوى السحبُ،
والقمرُ المحتجبُ
يُضيء الثلجَ المتطايرَ،
معتمة هي السماءُ، معتم هو الليلَ.
لم يعدْ باستطاعتنا أن ندور أكثرَ
وأجراسنا قد صمتتْ فجأةً
وتوقفتْ خيولنا.. (أي شيء هناك في الحقول؟)
(من يدري؟ جذعُ شجرةٍ أو ذئب؟)
تشتدُّ العاصفةُ الثلجية حنقاً وإعوالاً
والخيولُ الرشيقةُ آخذة بالشخيرِ،
ها هو يتواثبُ بعيداً
عيناه، وحدهما، تتوهجان في العتمة،
والخيولُ تندفعُ من جديدٍ
وأجراسُ عربتي: دن دن دن..
أرى أن الشياطين قد تجمعت
وسطَ السهولِ المتزايدة بياضاً.

شنيعة، لا حصرَ لأعدادها
في لعبة القمر المعتمة،
هذه الشياطينُ الراقصةُ الدائرةُ، المتعددةُ،
أشبه بأوراقِ الشجر في تشرين..
كم هو عددها؟ وإلى أيةِ جهةٍ تراها مندفعة؟
ما هذه الأغاني الشاكيةِ التي تردّدُها؟
أتراها في جنازة واحدٍ من جنّ المنازلِ،
أم إنها تحتفلُ بزواجِ ساحرةٍ ما؟
تندفعُ السحبُ، تتلوى السحب،
والقمرُ المحتجب
يُضيءُ الثلجَ المتطايرَ،
معتمة هي السماء، معتم هو الليل.
والشياطينُ تندفعُ حشوداً بعدَ حشودٍ
في الأعالي التي لا تحد،
ممزّقةً قلبي
بعوائها وصيحتها المتشكية.

1830

الرقية

آه.. فإن كان حقاً
إن في الليل حين تغفو الأعينُ،
وتنزلقُ أضواءُ القمر
فوقَ حجارةِ المدافنِ،
آه.. إن كان حقاً
أن القبورَ الهادئةَ تخلو من أهلها عندئذٍ،
فسأدعو ليلايَ، منتظراً طيفَها:
إلي يا صديقتي ، إلي.
دعيني أَرَكِ يا طيفاً عاشقاً
مثلما كنتِ قبل أن نفترقَ،
باردةً، شاحبةً مثلَ نهارٍ شتوي
وغضونُ الألمِ الأخيرِ بادية عليكِ.
تعالي مثلَ نجمةٍ نائيةٍ
تعالي نغماً خافتاً أو نسمةً
أو مثلَ شبحٍ رهيب،
تعالي بأيةِ هيئةٍ تشائين.
ما أنا راغب في ندائي هذا
أن أضعَ لائمتي
على من قتلتكِ أحقادُهم،

أو أن انتهك بعينيّ أسرارَ القبورِ،
أو لأن شكوكي تعذبني أحياناً.
غيرَ أنني في كآبتي هذه
لأودّ أن أتحدثَ عن حبكِ المقيمِ في فؤادي
فإليّ يا صديقتي، إليّ!

1830

الغجر

على الضفافِ، حيث ينمو الشجرُ كثيفاً،
في ساعةِ الهدوءِ عندَ المغيبِ
تُسمعُ الضجةُ والأغاني، في خيامهم
وتُرى النيرانُ موقَدةً .
تحيةً أيتها القبيلةُ السعيدة!
إني لأعرف شُعلَكِ هذه،
لو رأيتُكِ في وقتٍ غيرِ هذا
لكنتُ أتتبع خيامَكِ المتنقّلةَ.
غداً مع الأشعةِ الأولى
تتوارى آثارُ خطاكم الحرةِ،
ترحلون أنتم.. غيرَ أن شاعركم
لن يتحركَ متتبعاً طريقكم.
لقد نسيَ المبيتَ في العراء

وملاعِبَهُ القديمةَ
من أجلِ الهناء في القريةِ
والهدوءِ في المنزل.

1830

«في الحقلِ الرائق»

في الحقلِ الرائق
فضيةً تلتمعُ الثلوجُ،
القمر يتألقُ، والترويكا تنطلقُ
في طريقها الفسيحِ.
غنّ، إذن، مبدّداً وحشةَ الطريق،
في الطرقِ الليليةِ القاتمةِ.
عذبةٌ هي أغانيكَ، وقريبةٌ من نفسي
وجسورةٌ هي أنغامُكَ هذه
غنّ أيها الحوذي! متلهفاً، صامتاً
سأصيخ لأغنيتك.
القمرُ الوضيءُ يلتمع بارداً
والريح آخذة في عواءٍ بعيدٍ حزين.
غنّ: (أيتها الفتيلةُ الصغيرةُ، أيتها الفتيلةُ
ما لكِ خابيةً هكذا تتراءين؟)

1833

السحابة

أيتها السحابةُ الأخيرةُ المتبقيةُ من العاصفة!
وحدكِ تُقلعين في الزرقةِ الصافية،
وحدكِ تُلقين بظلكِ الكئيبِ
وتُحزنين أساريرَ النهارِ المتهللةَ.
منذُ حينٍ كنتِ تدثّرين السماءَ
والبرقُ يلتفُّ حولكِ برهبةٍ،
فتطلقين رعودَكِ المختزنةَ
وتغمرين الأرض المتعطشةَ بالمطر.
آن أن تتواري! موسمُكِ قد انقضى
والأرضُ منتعشةٌ الآن، العاصفةُ قد ولّتْ،
والريحُ، ملاطفةً أوراقَ الشجر،
تدفعُ بكِ بعيداً عن السماءِ المطمئنة.

1835

«تلك البقعةَ من الأرضِ»

ثانية أزورُ
تلك البقعةَ من الأرضِ، حيث قضّيتُ
سنتين زهيدتين في المنفى.

مضت عشرُ سنين منذ ذلك الحين
وتبدّلَ الشيءُ الكثيرُ في حياتي
وأنا، مستكيناً لهذا الحكم العام،
قد تبدّلتُ.. غيرَ أن ما انصرمَ من زمنٍ
ها هو يتمثلُ لي بقوةٍ هنا
ويُخيّلُ لي أنني أمسِ مساءً
كنتُ أتسكّعُ في هذه الأحراجِ.
هو ذا المنزلُ الصغيرُ، حيث حلّ الغضبُ علينا،
حيث عشتُ مع مرضعتي المسكينةِ
ما من أثرٍ لها هنا. لم أعدْ أسمعُ
خطاها الثقيلةَ عبر الجدار
أو طوافَها الكدودَ.
هوذا التلُّ مغطىً بالشجر، حيث كنتُ
غالباً ما آخذُ لي مجلساً بلا حراك
وأتطلعُ إلى البحيرةِ، متذكراً بأسى
ضفافاً وأمواجاً أخرى..
بين الزروع الذهبيةِ والمراعي الخضرِ
تنبسطُ البحيرةُ زرقاءَ رحيبةً
وعَبرَ مياهها الخفيّةِ
يُرى صائدُ السمكِ في قاربهِ
ساحباً شبكته الباليةَ.

وعلى الضفاف المنحدرةِ
تتبعثرُ القرى.. وبعيداً وراءها
تتوارى طاحونةٌ ما
وهي تُديرُ، جاهدةً، جَناحَها في الريح..
وعند تخوم ضيعتنا، في تلكم البقعة،
حيث تنهضُ الطريقُ صاعدةً في الجبالِ
وقد حفّرتها الأمطارُ،
تقفُ ثلاثُ صنوبراتٍ.. أحداهن تلوحُ عن بعدٍ
بينما تتجاورُ الآخريان.
حين أمرُّ قريباً من هنا، راكباً، في الليالي المقمرة،
كنتُ أسمع حفيفَ ذراها:
تحيةً تبعثها لي.
في الطريقِ نفسِها ها أنا أمرُّ الساعةَ،
أمامي أُبصرهُن ثانيةً.. ما زلن مثلما كنّ
وها حفيفهن كما تعوّدتْه مسامعي،
غير أنني أرى، قربَ جذورهن العتيقة،
(حيث كان هذا، قديماً، عارياً مقفراً)
أرى حرجاً فتياً آخذاً بالنموّ:
هي أُسرةٌ خضراءُ تتزاحم شجيراتُها
كالأطفال فِي ظلها.. وبعيداً
يقفُ رفيقهما المتجهمُ وحيداً

كالأعزبِ القديم.
كل شيءٍ، من حوله، عارٍ مثلما كان.
مرحباً أيتها القبيلةُ الغريبةُ، الفتيّةُ!
لا أظنني سأراكِ
وقد غدوتِ أكثَرَ ارتفاعاً من أبويك هذين
حاجبةً ذراهما عن الأنظار.
ليسمعْ حفيدي، إذن،
تحايا أوراقِكِ في حفيفها،
عائداً في حوارٍ مع أصدقائه،
مُتْرَعةً نفسهُ بتأملات عذبةٍ، مبهمةٍ،
يمرُّ على مقربةٍ منك، في العتمةِ الليليةِ،
فيتذكرني.

1835

أقمتُ تمثالاً!

أقمت لنفسي تمثالاً ليس من صنع يدٍ،
لن ينموَ العشبُ على الطريقِ المؤدية إليه،
شامخاً بهامته المتمردةِ
أكثر علوّاً من العمودِ الكسندري.
أبداً لن يموتَ شيءٌ مني،

فالروحُ الكامنةُ في قيثارتي المقدسةِ
تبعثُ بترابي حياً، نضراً.
وسأبقى ممجّداً على الأرضِ
ما ظلّ يتنفّسُ فيها شاعرٌ واحد.
لسوفَ يسمعون باسمي في كل ركنٍ من روسيا العظيمة
ويلهجُ بذكري كل لسانٍ فيها:
سليلُ السلافِ الفخورُ، والفنلندي
والتونغزي المتوحشُ الآن، والكلميكي ابنُ السهوب.
وطويلاً سَيَظَلُّ قومي يُحبّونني
فقد هززتُ بقيثارتي المشاعرَ الخيّرةَ،
وتغنّيتُ ممجّداً الحريةَ في عصريَ العاتي
وناديتُ بالرحمةِ على المقهورين.
إستكيني لأمرِ ربكِ يا آلهةَ أشعاري
لا تخشي أذىً أو ضيماً، ولا تأمُلي إكليلاً،
تقبّلي المديحَ والإساءةَ على حدٍ سواء
ولا تتنازعي على مكانتكِ مع الحمقى*.

1836

---

* الديباجة في هذه القصيدة مقتبسة من هوراس. والعمود الكسندري... هو العمود الجرانيتي الهائل الذي أقيم في ميدان القصر في بيتربورغ تذكاراً للقيصر ألكساندر الأول. وكان الشاعر قد غادر المدينة متعمداً ليجنب نفسه حضور الاحتفال بنصب هذا العمود التذكاري (المترجم).

الغجــر

في سهوب بيارابيا
يتنقّلُ الغجرُ في ضجيجٍ.
هم اليومَ يقضون ليلتَهم على الشاطئِ
في خيامهم المثقبة.
إن مبيتَهم لبهيجٌ كالحريةِ
ورقادَهم الآمنَ تحتَ السماءِ،
بين عجلاتِ عرباتهم
وقد تدثرتْ إلى نصفها بالطنافس،
النارُ موقَدةٌ، والأسرةُ من حولها
تُهيءُ العشاءَ، في الحقلِ الرائق
ترعى خيولُهم، وخلفُ الخيمةِ
ينطرحُ الدبُّ المدجّنُ.
إن كل شيء ليبدو نشطاً وسط السهوب:
الأسرة في مشاغلها البسيطة
وهي تتهيأ لرحلتها مع الفجر إلى مكانٍ قريب،
أغاني النسوة، وصراخ الأطفال
ورنين السندان المتنقل.
وها هي سكينةُ النومِ
في هبوطِها على المخيم،

وفي الهدوء المستتبِ فوق السهوب
لن تسمعَ غيرَ نباحِ كلبٍ أو حمحمةِ حصان.
النيران قد خبت تماماً،
وفي الليلِ الساكن يتألق القمرُ
وحيداً في أعَالي السماء
غامراً المخيمَ بضوئه.
في إحدى الخيم ثمة شيخٌ لم ينَمْ بعدُ،
وقد اتخذ مكانه أمامَ الموقدِ
متدفئاً بوهجه الأخير،
متطلعاً إلى الحقلِ المترامي
وقد غشته أبخرةُ الليل.
إن ابنته الفتيةَ
لم تعُدْ، بعدُ، من نزهتها في الحقل المقفر،
فقد تعوّدتْ هذا الإنطلاقَ المرح.
إنها لعائدة، غيرَ أن الليل قد حل منذ زمنٍ
وقريباً سيهجر القمرُ السماءَ
متوارياً خلفَ السحبِ البعيدة.
ما من أثرٍ لزمغيرا، وعشاؤه المتواضعُ
قد أخذ يبرد.
لكن ها هي قد أتت. وخلفها
يُرى فتى مسرعاً خطاه في السهب الممتد،

إنه لغريب تماماً على الشيخ.
(أبتاه ـ تقول الابنةُ ـ
جئتُ معي بضيفٍ. وجدتُه
وراءَ التل في السهوبِ المقفرةِ
فدعوته ليبيتَ ليلته في مخيمنا.
إنه ليود أن يُصبحَ غجرياً مثلَنا
فالقضاءُ يتطلّبه.
لكنني سأغدو صديقةً له،
هو يدعى أليكو
وهو راغب في مرافقتي أينما أذهبُ) .
الشيخ:
(إنني لسعيد إبقَ معنا إلى الصباح
تحت سقف خيمتنا،
أو إبقَ بيننا طويلاً،
مثلما تشاءُ. أنا متهيءٌ
لأن أقتسمَ معك الخبزَ والدمَ.
كنْ ابنَنا، وتعوّدْ حظّنا من العيشِ
في إنطلاقنا وفاقتِنا المتشردةِ،
وغداً مع ضوء الفجرِ
سنرتحلُ في خيمةٍ واحدةٍ،
وتعوّدْ أيةَ حرفةٍ تريد:

الحدادةَ أو الغناء
أو جُبِ القرى بصحبةِ الدب) .
أليكو:
(سأبقى معكم) .
زمغيرا:
(سيكونُ رجلي.
من تُرى يُبعدهُ عني؟
لكن الوقتَ قد تأخرَ.. القُميرُ قد غابَ
والحقولُ قد تدثرتْ بالعتمة
وإني لأُحسّ، رغماً عني، بالنعاس..)
تفتّحَ الصبحُ. والشيخُ آخذ بالتسكعِ في هدوء
حول خيمتهِ الصامتةِ.
(انهضي يا زمغيرا فالشمس قد أشرقت
واستيقظْ يا ضيفي.. فقد آن الأوان!
دعا عنكما لذةَ الرقادِ يا صغيريّ) .
وكان للفجر ضجةٌ وتدفق
فقد طويت الخيام
والعرباتُ على أهبة التحرك.
وها هم، معاً في احتشادهم.
يُغذّون الخطى في السهول المقفرة.
وقد انطرحت السلالُ على جانبي حميرهم

حاملة أطفالهم اللاهين،
ثمَ هذا الحشدُ السائر من الأزواج والأخوةِ،
الأمهاتِ والصبايا، الشيوخِ والفتيةِ
في ضوضاءِ صياحهم وأغانيهم الغجريةِ
وخوارِ دبتهم
وصليلِ السلسلةِ الحديديةِ القلق،
في اختلاطِ أطمارِهم الفاقعةِ
وعُري الأطفال والشيبة،
الكلابُ نابحةُ أو عاويَةُ
العرباتُ لها صليلُ ومزاميرُ القربِ في تجاوبٍ،
كل شيء كان بدائياً، فقيراً، متنافراً
غير أنهم في تدفقٍ
وحيوية غريبةٍ على ترفنا الهامد،
غريبةٍ على عيشنا الخاملِ
كنشيدِ الأرقّاءِ المتواترِ المملّ.
كئيباً يتطلع الفتى
إلى السهلِ المقفر
نائياً بنفسه
عن مواجهةِ أسرار كآبتهِ.
إن بجانبه زمغيرا ذاتِ العينين السوداوين
وهو قد امتلكَ حريته أخيراً،

والشمس البهيجة
تسطعُ فوقه بجمالها الجنوبي.
أي شيء، ترى، يُقلقُ قلبه هكذا؟
أي هم يُضنيه؟
وهل يعرف طيرُ السماءِ
مشاغلَ أو هموماً،
أو يُجهدُ نفسه في ابتناءِ عشٍّ
يدومُ طويلاً؟
إنه ليهجع على غصنه، آمناً، في كنفِ الليلِ
وحين تبزغُ الشمس الفاتنةُ القانيةُ
يصيخ بسمعه إلى كلمةِ الله
فينتفض مترنماً
إن الربيعَ، وهو فتنةُ الطبيعةِ، ليمرُّ
ويجيءُ الصيفُ القائظ،
ثم يحلُّ الخريفُ المتأخرُ
بضبابهُ وتلبّدِه،
ويحُسّ البشرُ بالسأمِ والضيقِ،
فيشدُّ الطائر رحاله
إلى الجهاتِ النائيةِ عَبْر زرقةِ البحر
ليعودَ ثانيةً مع الربيع.
وهو المنفيُّ المهاجرُ

لأَشْبَهُ بالطيرِ السعيد،
لم يعرفْ له عشاً مكيناً
ولم يعَودْ نفسَهُ عادةً ما.
إن الطرقَ لتمتدّ أمامه أينما اتجه
وحيثما يتوقفْ ثمة سقف يؤويه.
وفي نهوضهِ مع الفجر
يُسلمُ نهارَه لمشيئةِ الله،
فهو في راحةٍ خالصة
لا تقوى على تكديرها مزعجاتُ الحياة.
إن نجم السعدِ الساحرَ النائي
ليسدد خطاه أحياناً،
فيقع، دونما توقعٍ منه،
على شيء من ترفٍ أو لهوٍ.
وفوق رأسه المتوجد
غالباً ما انهدّت الرعودُ القاصفة،
غير أنه سواء في الزوبعة أو الطقسِ الجميلِ
كان يُغمض عيناً غيرَ مؤرقةٍ.
هكذا عاش غيرَ مكترثٍ
بقضاءِ المصيرِ الغادرِ الأعمى.
ويا إلهي! كم قد تلاعبت الرغباتُ
بروحهِ الطيبة!

وبأيما قلقٍ كانت تغتلي
في صدره المعذب.
أهادئةٌ هي منذ زمنٍ، ولأمدٍ طويل؟
لينتظرْ.. ستستيقظُ ذاتَ يوم!
زمغيرا:
(قل لي يا صديقي: أما تحسُّ بأسفٍ
على عالمٍ هجرْتَه دونما عودة؟)
أليكو:
(وماذا تراني هجرتُ؟)
زمغيرا:
(إنك لتفهم:
قومك هناك، والمدن) .
أليكو:
(وعلام أتأسف؟ متى تراك تدركين
متى تراك تتصورين
عبوديةَ المدنِ الخانقة!
هناك يتكدّس البشرُ وراءَ أسوارهم،
فلا يتنفس أحدُهم برودةَ الصباح
أو شذى المروج الربيعية،
حيث الحبُ فضيحةٌ والفكرُ طريدٌ،
متّجرين بحريتهِم

مطأطأةً هاماتهم أمامَ الأوثانِ،
متوسّلين الذهبَ والأغلالَ.
أي شيء تراني هجرتُ؟ حرقةُ الخيانةِ
والقضاءُ الباطل
وتعسفُ القومِ المجنون
أم هو العارُ الفاضح؟)
زمغيرا:
(إن قصورهم فخمةٌ هناك
والطنافسُ متعدّدةُ الألوان،
هناك اللهو والمآدبُ المكتّظةُ
وكم هي فاخرةٌ أكسيةُ البناتِ هناك!)
أليكو:
(أية أعيادٍ مرحةٍ لدى سكانِ المدن؟
ما من بهجةٍ هناك حيث يُفتَقدُ الحبُ.
والصبايا! .. إنك لأجمل منهن،
هكذا دونما زينةٍ غاليةٍ
دونما لآلئَ أو قلائدَ!
لا تتبدّلي يا صديقتي الحنون!
أما أنا.. فإن لي مطمحاً واحداً:
أن أتقاسمَ معك الحبَ وساعاتِ الفراغِ
ومنفايَ الاختياريَ هذا) .

الشيخ:

(إنك لتحبنا، مع أنك ولدت

بين قوم أثرياء.

غير أن حريتنا ليست جميلةً دوماً،

في عيني من تعوّدَ العيشَ الهانئَ.

ثمة حكايةٌ مأثورة تدورُ بيننا:

قديماً حل في ديارِنا، قادماً من الجنوب

رجلٌ أبعدته القياصرة.

كنت، قبلُ، أتذكرُ، غير أني نسيتُ اليومَ،

كنيَته الغريبةَ.

كان قد كبر في السن

غير أن نفسه الطيبةَ لم تزل فتيةً ذاتَ حماسٍ.

كان يمتلك موهبةَ غناءٍ رائعةٍ

وصوتهُ أشبهُ بخرير المياه،

فأحبّه القوم جميعاً.

وأقامَ على ضفافِ الدانوب

غير مُسبّبٍ إساءةً لأحد،

ساحراً بأحاديثه المسامعَ.

لم يكن قد تعوّدَ حرفةً ما،

واهناً، خجولاً كان مثلَ طفلٍ.

لأجلهِ كان يصيد الآخرون

السمكَ والوحشَ في شباكهم.
ما إن تجمّدَ النهْرُ المندفعُ
وهّبت الأعاصيرُ الشتويةُ جائشةً
حتى تلفّعَ الشيخُ الحكيم
بزغبٍ أبيضَ من ثلوجها.
غير أنه لم يكن قادراً أبداً
على أن يتعوَّدَ الفاقةَ ومتاعَبها.
هكذا طاف شاحباً، ناحلاً
معلناً أن الإلهَ الغاضبَ
يقتصُّ منه جرّاءَ جريمة..
ترى أيحل يومُ الخلاصِ أخيراً؟
كئيباً كان يومَه كلّه،
متسكعاً على ضفاف الدانوب
ساكباً دموعاً مريرةً،
متذكراً مدينته النائية.
وفي ساعةِ احتضارهِ
أوصى أن تُنقَلَ
عظامهُ المتشوّقةُ جنوباً،
فما هي، حتى في موتها هذا،
غير ضيفٍ تائقٍ في أرضٍ غربةٍ!)
أليكو:

(هوذا مصيرُ أبنائك يا روما،
يا ذات الصيتِ الذائع!
ويا مغني الحب، يا مغني الآلهةِ
ألا خبّرني أي شيء هو المجد؟
أهو العويلُ عند القبرِ، والمديحُ المدوّي
منحدراً من جيلٍ إلى جيل؟
أم هو هذه القصةُ يرويها غجريٌّ بدائي
تحت سقفِ خيمتهِ الداخن؟)
مرَّ عامان. والغجر على عاداتهم
يترحلون بمخيمهم الآمن،
وكعادتهم أينما يحلّوا
يجدوا الراحةَ والترحابَ.
وها هو أليكو كغجري حر،
مستخفاً باغلال التعاليمِ،
يعيشُ وقتَه متنقلاً
دونما همٍ أو ندمٍ
هنا مقامُهُ، وهنا أُسرتُه،
وقد تعوّدَ الحياةَ الغجريةَ
ناسياً سنواته الخاليةَ تماماً.
إنه ليحبّ المبيتَ تحت سقوفهم
ومسراتِ تبطُّلِهِم الغجري هذا

ولغتهم الفقيرةَ الصاخبةَ.
إن الدبّ، وقد شُردّ من وجره،
هو ضيفُ خيمته الأشعث،
وفي القرى، حيالَ الطريق السهوبي
قريباً من الأكواخِ المولدافيةِ،
أمام الأنظارِ المتشوفة الحريصة
تراه يخورُ في رقصتهِ المتثاقلةِ،
عاضًا قيدَه الباعثَ على الملل،
حيث يقرعُ الشيخُ دفّه متكاسلاً
متوكئاً على عكازه،
ويقودُ أليكو الدبَّ متغنّياً
وتجوبُ زمغيرا القرى
جامعةً أتاوتَها الإختياريةَ.
وحين يحلُّ الليلُ يتجمعُ الثلاثةُ معاً
أمام قدرٍ من جريشِ الدخن.
وسريعاً ما يَنْعَسُ الشيخُ.. ويعم الهدوء
وها هي الخيمةُ ساكنةُ، مظلمةُ
هوذا الشيخُ يتدفّأُ في الشمسِ الربيعيةِ،
إن دمه لآخذُ بالبرودة.
وعند المهدِ تتغنى الابنةُ بأغنيةِ حب
فيتنصتُ أليكو شاحباً.

زمغيرا:

(يا زوجي العجوزَ، يا زوجي الرهيبَ

إذبحني، إحرقني:

صُلبة أنا

لا أخشى سكيناً أو ناراً

أكرهكَ

أحتقركَ،

رجلاً آخرَ أُحب

ولأموتنّ حباً).

أليكو:

(اصمتي. اضجرتني اغنيتكِ هذه،

أنا أكره الأغاني الهمجية).

زمغيرا:

(تكرهها؟ وما علي؟

أنا أغني لنفسي،

اذبحني، احرقني

فلن أقول شيئاً.

يا زوجي العجوزَ، يا زوجي الرهيبَ

لن تعرفَه.

هو أكثرُ نضارةً من الربيعِ

واحرُّ من اليوم القائظِ

يا لفتَوته وإقدامه!

ولشدّ ما يهواني!

وفي هدوء الليل

أيةَ ملاطفةٍ أغدقُها عليه!

يا لَضحكنا حينئذٍ

من شعرِك الشائب).

أليكو:

(اصمتي زمغيرا! حسبي هذا..)

زمغيرا:

(أفهمتَ أغنيتي أخيراً؟)

أليكو:

(زمغيرا!)

زمغيرا:

(أنت حرٌّ في أن تغضبَ،

أنا عنك أغني هذه الأغنية).

«تغادر وهي تغني: يا زوجي العجوز.. إلخ»

الشيخ:

(إنني أتذكَرُ، أتذكّرُ هذه الأغنية،

حين كنتُ قوياً وشاباً

طالما أطربت المسامعَ

وتردّدت على الشفاهِ.

يومئذٍ كنا نتنقّلُ في سهوب كاغول
وكنتُ أسمعُ، في ليالي الشتاءِ،
عروسي ماريولا متغنيةً بها
وهي تهزُّ مهدَ طفلتنا قربَ النار.
إن السنين المنصرمةَ، من حين إلى حين،
لتزدادُ إظلاماً في ذاكرتي،
غير أن هذه الأغنية
عميقاً قد استقرّت فيها).
في الهدوء الليلي الشاملِ،
والقمرُ يُضيءُ السماءَ الجنوبيةَ الزرقاءَ،
هي ذي زمغيرا تُوقظُ أباها:
(أبتاه.. إن أليكو لمخيف.
اصغِ.. إنه يتأوّهُ وينتحبُ
في نومِهِ الثقيل).
الشيخ:
(لا تلمسيه.. ابقي هادئةً.
أعرف قصةً روسيةً تقول:
في منتصفِ الليل
يُضيّقُ الجنُّ القاطنون في المنازلِ
من أنفاسِ الراقدين،
وقبيلَ الفجرِ ينصرفون.. اجلسي معي).

زمغيرا:

(أبتاه.. إنه يهمسُ باسمي).

الشيخ:

(إنه ليبحثُ عنكِ في نومه أيضاً،

إنكِ لأغلى لديه من العالم كله).

زمغيرا:

(أضجرني تولّهه هذا

وأنا أُحسُّ بالملل.. وقلبي يَودُّ أن ينطلقَ،

حقاً.. لكن انصتْ! أتسمعُ؟

إنه يتلفّظُ باسمٍ آخر).

الشيخ:

(إسم من؟)

زمغيرا:

(أتسمعُ؟ آهتُه بحّاءُ

وصرير أسنانهِ عنيف.. أيةُ فظاعةٍ!

سأوقْظه.)

الشيخ:

(عبثاً..

لا تطردي الروح الليلي

سيذهبُ بنفسه).

زمغيرا:

(ها هو يستديرُ

وينهضُ.. إنه يدعوني.. لقد صحا.

أنا ذاهبة إليه. وداعاً، نَمْ).

أليكو:

(أين كنتِ؟).

زمغيرا:

(كنتُ جالسةً مع أبي.

أيةُ رؤيا كانت تُرهقُكَ!

إن نفسكَ لتعاني في النومِ،

إنك لتخيفني.

كنت راقداً تصرُّ بأسنانك،

وتدعوني).

أليكو:

(حلمت بكِ.

حلمتُ كما لو أن بيننا..

كنتُ أرى أحلاماً شنيعةً).

زمغيرا:

(لا تصدق الرؤى المخادعةَ).

أليكو:

(آه، أنا لا أصدّقُ شيئاً.

لا الأحلامُ، ولا التأكيدات الحلوةَ

أنا لا أصدّقُ حتى قلبي نفسَهُ).
الشيخ:
(عَلامَ أيها الفتى المجنون،
عَلامَ تتأوه كثيراً؟
القومُ أحرارٌ هنا والسماءُ صافيةٌ،
والنساءُ شهيراتٌ بجمالهن.
لا تحزنْ.. ستقتلكَ كآبتك).
أليكو:
(أبتاه، إنها لا تحبني).
الشيخ:
(إهدأْ يا صديقي.. إنها لطفلةٌ.
إن أساك لطائش:
إنك لتحبُّ بقوةٍ وكَربٍ،
وقلبُ المرأةِ.. ذو مِزاحٍ.
أنظرْ: تحت القبةِ السماويةِ النائيةِ
يتجوّلُ القمرُ دونما قيودٍ
ساكباً ضوءَه على الطبيعة كلها
بتساوٍ.. وغير متوقّفٍ في مكان.
هوذا يُضيءُ، بهذا الجلال كِله،
أيةَ غيمةٍ يتسلّلُ إليها.
وها قد انتقل إلى أخرى

ولن يستقرّ عندها طويلاً.
من ترى يتطلّبُ من القمرِ
أن يمكُثَ في مكانٍ!
ومن يتطلبُ من قلبِ امرأةٍ شابّةٍ
أن يتولّه مرةً.. ولا يتغيّر؟
فتعزّ).
أليكو:
(لكم أحبتني!
كم هي رقيقةٌ في عناقها لي،
حيث كنا الليلَ كله معاً
في العراءِ الصامتِ!
طالما أمكنها أن تطرد شرودَ ذهني،
في برهةٍ واحدة،
بالقبلاتِ المرحة،
أو بلعثمتها المحبّبةِ
وروحُها مترعَةٌ بالفرحِ الطفولي.
وبعدُ؟ لم تعدْ زمغيرا أمينةً معي،
لم تعدْ مكترثةً بي).
الشيخ:
(إسمع: سأقصُّ عليك
قصةً جرتْ لي أنا.

قديماً، قديماً حين كان الدانوبُ
غيرَ مهدّدٍ بسطوة الغازي بعدُ،
«ها أنت ترى يا أَليكو
أنني أتذكر حزناً غابراً»
آنذاك كنا نخشى غضب السلطان
وكان بوجاك باشا
يتحكّمُ من أبراجِ أقرمانَ السامقةِ.
كنتُ شاباً، وفي ذلك الزمن
كنتُ أغتلي إبتهاجاً،
ولم تلحْ، بعد، أيةُ شعرةٍ بيضاءَ
في جدائلي المجعّدة.
وبين الصبايا الجميلاتِ
كانت واحدةٌ.. وطويلاً كنتُ أتطلع إليها
كما أتطلع إلى شمسٍ،
وأخيراً أمست لي.
آه، عجولاً مرّ صبايَ
كما يمر الشهاب.
وأنت يا هواي.. إنما انقضيتَ
بعجالةٍ أكثرَ.. لم يدُمْ حبُّ ماريولا
غيرعامٍ واحدٍ لي.
مرةً، قربَ مياهِ كاغول

التقينا بمخيمٍ آخرَ.
وقد نصبَ أولئك الغجرُ خيامَهم
قريباً منا، عند سفحِ الجبل،
لم نبتْ معاً غيرَ ليلتين
وارتحلوا في الليلةِ الثالثةِ.
وارتحلت معهم ماريولا
تاركةً ابنَتها الصغيرةَ.
راقداً في أمانٍ كنتُ، ومع التماعةِ الفجرِ
صحوتُ فافتقدتُ رفيقتي.
فأخذت أبحثُ وأدعو.. وما من أثر لها!
كنتُ أسمعُ بكاءَ زمغيرا المحزنَ
فأبكي أنا.. ومنذ ذلك الزمن
لم تعُدْ المرأةُ غير مبعثِ ضجرٍ لي،
ولم تختَرْ نظرتي، من بين نساءِ العالمِ،
صديقةً أخرى في أيما يوم.
ولم أعُدْ أتقاسمُ ساعاتِ فراغي..
مع أيةِ امرأةٍ..)
أليكو:
(وكيف لم تُسرعْ لتَوّكَ
متتبعاً أثر الجاحدةِ،
ولم تغمدْ خنجركَ في قلبها الغادرِ

كما تغمدُه في قلبِ وحشٍ؟)

الشيخ:

(علامَ؟ الصبا طائرٌ حرٌ،

من يَقوى على الإحتفاظِ بحبِ إمرأةٍ؟

الفرح إما يُمنَحُ للواحدِ منا بعدَ الآخر.

إن ما كان.. ثانيةً لن يكون).

أليكو:

(لستُ هكذا. أنا لن أتخلى

عن حق لي،

أو كنتُ أتلذّذُ بالثأرِ في الأقل.

لا.. لو أنني واجدُ خصماً لي نائماً

ونحن في بحرٍ طامٍ لا قرارَ لهُ

أقسمُ أن قدمي، في البحرِ نفسه،

لن تعرفَ رحمةً لعدّوٍ،

ولكنتُ أدفع به، غيرَ شاحبٍ،

إلى الموج الهائجِ، وهو الراقدُ دونما دفاعٍ.

ولكانَ عتابي قهقهةً ضاريةً،

موقظاً رعباً مباغتاً فيه،

ولظلّ دويّ سقوطه،

طويلاً، مضحكاً وممتعاً لي.

فتى غجري:

(قبلةً أخرى.. قبلة..)

زمغيرا:

(آن أن أذهبَ: إن زوجي غيور حقود)

الغجري:

(أخرى.. لكن طويلاً.. قبلةَ وداع).

زمغيرا:

(وداعاً. قبل أن نُفاجأ).

الغجري:

(قولي.. متى نلتقي ثانية؟)

زمغيرا:

(الليلة، حين يبزغُ القمر.

هناك وراءَ التل.. فوق الضريح).

الغجري:

(تكذبين.. لن تحضُري).

زمغيرا:

(ها هو.. أهربْ سأحضرُ يا حبيبي).

نائماً كان أليكو. وذهُنه

فريسةُ رؤىً مبهمةٍ.

ها هو وقد استيقظَ صارخاً في الظلمةِ،

يمد يداً غيرى، آخذةً بالوجلِ،

غير أن يَده

لا تمسكُ بغيرِ الأغطيةِ الباردة.
إن صاحبته لبعيدةُ..
فينهض برأسه، هلعاً، ويصغي..
إن الرعب ليمتلكه في الهدوء الشامل
وفي عروقه ترتكض النارُ والصقيع،
فينهض ويغادرُ الخيمة.
رهيباً كان في تسلله حولَ العربات،
حيث السكونُ عميقُ والحقولُ صامتةُ،
الليلُ عاتمُ وقد احتجب القمرُ في الضباب.
إن النجمَ ليضيءُ قلقاً، خافتاً،
وآثار الخطى ترى بصعوبةٍ على النداوةِ
فتقودُه إلى التلال البعيدةِ
جزعاً، متعجّلاً،
متتبعاً الأثرَ المشؤومَ.
ثمة قبرُ على حافةِ الطريق
يلتمعُ، أمامه، عن بعدٍ..
فيجرُّ قدميه الآخذتين بالوهن
وقد أنهكته الهواجس،
شفتاه ترتعشان، ركبتاه ترتعشان،
وفجأةً، أم هو في حلمٍ؟
فجأةً يرى ظلّين غيرَ بعيدين

ويسمع همساتٍ عن قرب،

فوق الضريح المنتهك.

صوت أول:

(آن أن أنصرف)

صوت ثان:

(انتظري).

صوت أول:

(آن أن أنصرفَ يا حبيبي).

صوت ثان:

(لا .. لا ، إبقي)،

صوت أول:

(الوقت متأخر الآن).

صوت ثان:

(ليكن حبك أكثر جُرأةً..

لحظةً..)

صوت أول:

(إنك تقتلني).

صوت ثان:

(لحظةً..)

صوت أول:

(أتدري.. إذا ما استيقظ زوجي

ولم يجدني؟)

أليكو:

(لقد استيقظتُ.

إلى أين؟ لا تسرعا أنتما معاً.

هنا أيضاً يطيب لكما عند القبر).

زمغيرا:

(يا صديقي أهرب، أهرب..)

أليكو:

(قف. إلى أين أيها الفتى الجميل؟

إنطرح!)

«يغمد السكين في صدره».

زمغيرا:

(أليكو!)

الغجري:

(إنني أموت..)

زمغيرا:

(أليكو.. إنك تقتله!

أنظرْ: إنك لملطّخٌ بالدم!

أوه، ماذا فَعلت؟)

أليكو:

(لا شيء.. عيشي حبّه الآن).

زميغرا:

(لا.. كفى، لن تُخيفني!

إنني أستهينُ بوعيدكِ

وألعنُ جريمتك..)

أليكو:

(موتي، إذن، أنتِ أيضاً).

«ينحرها».

زمغيرا:

(عاشقة أموت..)

الأفقُ الشرقيُّ، وقد أضاءه الفجرُ،

آخذُ بالتلألؤ. وخلف التل يُرى أليكو

ملطخاً بالدمِ، والسكّينُ في يده،

مقتعداً الضريح الحجري،

وأمامه تنطرحُ جثتان.

كان وجهُ القاتلِ رهيباً،

وقد أحاط بهِ الغجرُ

في ترددٍ واضطراب.

وكانوا قد حفروا لحداً عن قربٍ.

النساء يتقدمنّ في صفٍ حزينٍ

ويقبّلن الميتين في عينيهما.

ويُرى الأبُ الشيخُ جالساً على انفراد

متطلعاً إلى القتيلة،
في جمود كآبتهِ الأبكم.
ها هم الغجر يحملون الجثتين
وفي حضن الأرض البارد
يودعون الإثنينِ معاً.
وعن بعدٍ يتطلعُ أليكو إليهم
وحين ألقوا فوقهما
آخر حفنةٍ من تراب
تهاوى عن القبر الحجري، ببطءٍ وصمتٍ
منطرحاً على العشب.
عندئذٍ نطق الشيخُ مقترباً منه:
(أتركنا أيها الرجلُ المتكبر!
نحن بدائيون، لا قوانين لدينا،
نحن لا نؤذي أحداً أو نعاقبه بالموت.
لسنا بحاجةٍ إلى الدم أو الأنين
غير أننا نرفض العيش مع قاتل..
أنت لم تولد لبدائيتنا هذه،
أنت ترومُ الحريةَ لنفسكَ وحدَها.
سيكونُ صوتُك فظيعاً في أسماعنا،
إن نفوسَنا لطيبة ووجلة
وأنتَ حقود وجريء.. فاتركنا إذن

واعذرنا.. ولتصحبك السلامة).
هكذا تكلّمَ.. وكان للغجر ضجيج،
إن مخيمهم ليرتحل
من وادي الليلةِ الرهيبة.
وسريعاً ما تواروا جميعاً
في رحابةِ السهوب.. عربة واحدة فحسبُ
مغطّاة ببساطٍ هزيل
لم تزل واقفةً في الحقلِ الدامي.
هكذا أحياناً، قبيلَ الشتاءِ،
في الصباح الضبابي،
حين يرتفعُ عن الحقل
سرب من الغرانيقِ المتأخرة
ويقلعُ، جَنوباً، مُطلقاً صرخاتِه،
ويتخلّفُ أحدُها في كآبته
مدلّياً جناحَه الجريح،
فهو مصاب برصاصةٍ قاتلة.
الليلُ قد هبطَ، وفي العربةِ المظلمةِ،
تحت سقفها المرفوع إلى الصبح
ما امتدّتْ يد لإيقادِ ضوء
أو عرفتْ عينُ نوماً.

خاتمـــة

هكذا تنتعشُ في ذاكرتي الضبابيةِ،
بقوةِ الشعرِ السحريةِ،
رؤى ماضٍ مشرقٍ
أو قاتمٍ حزين،
في تلكم الجهات حيثُ تعالى طويلاً
دويُّ المعاركِ الرهيب،
حيث أقمنا جنوباً
حدودنا المقتدرةَ
حيثُ نَسرنا القديمُ ذو الرأسين
ما انفكّ هادراً بأمجادهِ،
كنتُ التقي وسط السهوب
على تخومِ المخافر المتقادمةِ
بالعرباتِ الغجريةِ الوديعةِ،
بسليلي الحريةِ والفاقة.
وكثيراً ما كنتُ أتتبعُ في البراري
جماعاتهم المتبطّلةَ،
مقتسماً معهم وجبَتهم الفقيرةَ،
أو ناعساً أمام نيرانهم.
وفي تَجوالهم المتباطئ

لكم أحببتُ بهجةَ أغانيهم المدّوية،
وطويلاً كان يتردّدُ على فمي
إسمُ ماريولا الرقيق.
غيرَ أن السعادةَ لمفتَقدةُ بينكم أيضاً
يا أبناءَ الطبيعةِ المساكين!
فتحت خيامِكم المثقّبةِ
تكمُنُ أحلامُ موجعةٌ،
وبيوتكم المترحّلةُ
أدركتها في القفارِ المصائبُ،
فأينما نتوجّهْ ثمةَ رغبات قاتلة
وأقدار لا رادّ لها.

1824*

الفارس النحاسي**

قصة بيتربورغية

تقديم: إن الحادثة التي تصفها هذه القصة قائمة على الحقيقة.

---

* الشيخ الحكيم، في رواية الأب الغجري، هو الشاعر الروماني القديم أوفيد. كان بوشكين، في منفاه يتعزّى بمصير الشاعر القديم، المنفيّ مثله، بعيداً عن مدينته، على شواطئ البحر الأسود. أغنية الحب التي ترددها زمغيرا مأخوذة من الأغاني الغجرية في مولدافيا. كان الشاعر كثير الافتتان بها (المترجم).

** لم تُنشر هذه القصيدة كاملة إلا بعد وفاة الشاعر. كانت للقيصر نيكولاي اعتراضات عليها (المترجم).

وتفاصيل الفيضان منقولة من المجلات الصادرة آنذاك. وليس على محبي الإستطلاع غير مراجعة الأخبار التي جمعها ف.ن.بيرخ .

توطئة

على ضَفّةِ الأمواجِ المقفرةِ
واقفاً كانْ، زاخراً بأفكار عظيمةٍ،
متطلعاً إلى البعيد، وأمامه
رحيباً ينحدرُ النهرُ،
حيث يسعى قاربٌ بائسٌ وحيداً.
وعلى الضفتين الموحلتين، المغطاتين بالطُحلُبِ
تلوح الأكواخُ سوداءَ هنا أو هناك
مؤويةً الجوخوني المدقعَ.
ومن حوله حفيفُ الغابات
حيث الضوء لا يجدُ منفذاً
والشمس محتجَبةٌ في الضبابِ الكثيف.
وأخذَ يفكر:
من هنا سوف نهدّدُ السويديين،
هنا ستقامُ المدينةُ
نكايةً بالجار المتكبر
هنا حكمتْ علينا الطبيعةُ

أن نفتح نافذةً على أوروبا،
وأن نقفَ بقدمٍ قويةٍ عند البحر.
وعلى أمواجٍ، لم تعرفها من قبل،
ستُبحرُ إلينا المراكب، وترسو في ضيافتِنا
ونُقيمُ مآدبَنا في بحبوحة.
ها قد مرّت مائة عامٍ، والمدينةُ الفتيةُ،
إعجوبةُ الأصقاعِ الشماليةِ وفتنتُها،
من ظلمةِ الغابات ووحَلِ المستنقعاتِ
تشمخُ باهرةً، أبيّةً.
حيث كان الصائدُ الفنلندي،
ربيبُ الطبيعةِ الحزين،
وحيداً عند الضفافِ الخفيضةِ
ملقياً في المياهِ الخفيّةِ
بشبكته الرثيثة.. هنالك الآن
على الضفافِ الحيّةِ الناهضة
تتزاحمُ القصور والأبراج
هائلةً، رشيقةً، والمراكب
تتجمع من الجهاتِ الأربع
متجهةً إلى المرافئ الغنية،
والنيفا قد ارتدى الجرانيت.
الجسورُ معلّقةٌ فوق المياه

والحدائقُ الخضراءُ الكثيفةُ
تغطّي الجزر.
إن موسكو العتيقةَ،
لتبدو خامدةً أمام العاصمةِ الشابةِ،
كالأرملة في ردائها، الأرجواني
أمام القيصرةِ الجديدة.
أحبكِ يا صنيعَ بيتر،
أحب منظركِ الأهيفَ الصارمَ
حيث يجري النيفا جليلاً،
وضفافه مجلّلة بالجرانيت،
أحب أسواركِ وزخرفةَ حديدِها الزهري
والغسقَ الصافي، المتألقَ دونما قمرٍ
في لياليكِ الحالمةِ،
حين أقرأُ في غرفتي أو أكتُبُ
دونما حاجةٍ إلى قنديلٍ،
حيث القصور تتجلى فخمة
راقدةً على جانبي الشارعِ المقفر،
ومِسلّة الأدميراليةِ في توهّجٍ،
والشفقُ يتلو الغسقَ سريعاً
دون أن يدعَ لظلمةِ الليل
طريقاً إلى السماءِ الذهبية،

وهو يُسرعُ بعدَ نصفِ ساعةٍ من ليلٍ،
أحب شتاءك القاسي
وهواءه الصقيعي الساكنَ،
أحب المزالقَ منطلقةً حيالَ النيفا الرحيب
وأوجهُ الصبايا أكثر توهجاً من الورد،
أحب التلألؤ والضجيجَ.. واللغطَ في الحفلات الراقصة،
ورنينَ الأقداحِ المزبدةِ
ولهبَ البونشِ الأزرقَ
في ولائمِ العزوبيةِ الصغيرة.
أحب إندفاعةَ العسكريين
ومرحَهم في حقولِ مارس،
أحب البزةَ الجميلةَ المتشابهةَ
في صفوفٍ من المشاةِ أو الخيّالة،
حيث تخفقُ، في سيرهم الأهيفِ المتمايل،
راياتُهم الممزقةُ المظفرة
وخوذُهم النحاسيةُ في تألقٍ
وقد ثقبَها رصاصُ المعارك.
أحب، أيتها العاصمةُ المدجّجة،
عزيمةَ رعدك أو دخانك
حين تَهبُ القيصرةُ الشماليةُ
فتى آخرَ إلى المنزلِ القيصري،

أو حين تحتفل روسيا
بانتصارها على الخصم،
أو حين يحطّم النيفا جليدَه الأزرقَ
ويحمله إلى البحار،
مبتهجاً بحلول الربيع.
تجمّلي يا مدينة بيتر
ولتقفي ثابتةً كروسيا،
ولتتسالمْ معك
هذه البيئةُ المنهزمةُ.
ولتنسَ الأمواج الفنلنديةُ
الضغينةَ والأسرَ القديمين
فلا تقلق بالحقدِ الباطلِ
رقدة بيتر الأبدية.
مرَ حينٌ رهيب
لم تزل ذكراه ماثلةً..
ولأجلكم يا صحابي
أبدأ روايتي عنه،
وسيكون حديثنا ذا شجون.

الفصل الأول

فوق بيتروغراد المعتمة
يهبُّ تشرين الثاني ببرودتهِ الخريفيةِ
وكالمريضِ المتقلّبِ في سريره
يندفع النيفا
نافضاً أمواجَه الهادرةَ
على جانبيه العاليين المنتظمين.
كان الوقت متأخراً، والظلمة حالكة
والمطرُ يقرعُ النوافذَ حانقاً،
والريح تهب معولةً، في كآبةٍ
حين آب يفجيني إلى غرفته
قادماً في زيارة.
سندعو فتانا
بهذا الإسم،
فهو يرنُّ بلطفٍ ومنذ زمنٍ
وريشتي في صحبةٍ معه.
إن كنيته غير ضروريةٍ لنا،
مع أنها في الأزمنةِ المنصرمةِ
ربما كانت ذاتَ بريقٍ،
وتحت ريشةٍ كرمزين

كان لها دويّها في أخباره عن الأجداد.
غير أن عليّةَ القوم لم تعدْ تتذكرها
ولم تعُدْ تتردّد في الأقاويل.
إن فتانا ليقطن في كولومنا، ويعمل في مكانٍ ما،
متجنّباً الوجهاءَ
غير آسفٍ على أسلافه الراحلين
أو عهدِهم المنسيّ الغابر.

إذن، عاد يفجيني إلى غرفته
فألقى عنه معطفه ونزع ثيابه وانطرح لينام.
غير أنه لم يستطع نوماً،
طويلاً ظل في مضطربِ تأملاته المتباينة.
فيم كان يفكر؟
في كونه معوزاً، وأن عليه
أن يعاني كثيراً
ليصل إلى كفايته وكرامته،
وكيف أنَّ من الممكنِ
أن يجمع الله له بين الغنى والذكاء.
فما هم بقليلين أولئك المحظوظون المتبطّلون
من الكسالى ذوي العقولِ المحدودةِ
حيث الحياةُ سهلةٌ أينما توجهوا!

وأنه ليعمل منذ سنتين فحسب،
فكّر أيضاً: أن الريح لم تهدأ
وأن مياه النهر
لمْ تتوقفْ عن الإرتفاع،
وأنهم أوشكوا أن يرفعوا الجسور عن النيفا
وسيمرُّ يومان أو ثلاثة
دون أن يلتقي ببراشا.
هنا أطلقَ يفجيني آهةً عميقةً
واسترسل في أحلامهِ كشاعرٍ:
(أتزوج؟ أنا؟ ولِمَ لا؟
إنه لمن الصعب، بالطبع،
غير أنني شاب ومعافى
وباستطاعتي العمل نهاراً وليلاً
وسأدبّر لنفسي، كيفما اتفق،
مأوى متواضعاً، بسيطاً
وأخفّف عن براشا ما أستطيع
ولربما بعد عامٍ، بعد عامين
سأتولى منصباً ما
وسأعهد لبراشا
بالأسرةِ وتنشئةِ الأطفال،
فنواصل العيش، هكذا، يداً بيدٍ

إلى أن تجيءَ ساعتنا الأخيرةُ
ويدفننا أحفادُنا).
هكذا كان يحلمُ، وكان يُحسُّ تلك الليلة
بالأسى، ويَودُّ
أن لا تعولَ الرياحُ بمثلِ هذه الكآبةِ
وأن لا يضرب المطرُ النافذة
بهذا الغضبِ كله..

أخيراً
أطبق عينيه الناعستين، وها قد
بدأت عتمةُ الليل الممطر تخفُّ
والنهارُ الشاحبُ قد جاء
يا لهذا اليومِ الرهيب!
طوال الليلِ كان النيفا
يندفعُ في وجهِ العاصفةِ إلى البحر،
دون أن يتغلّبَ عليها في هذا الطيشِ الهائج
ولم يعد بمقدوره منازعة لها.
وعلى ضفتيه، مع الصبح،
يتدأدأُ البشرُ بأعدادٍ غفيرةٍ
يتأملون المياه المزبدةَ المتطايرةَ
وأمواجها الهائلة الساخطة.

غير أن الرياحَ الجامحةَ
ما برحت تعترضُ المجرى، فيندفعُ النيفا قافلاً
في حردٍ وهياجٍ وتلاطمٍ
غامراً الجزرَ،
وقد أضحى الطقسُ أشدّ ضراوةً
فيتعالى النيفا مزمجراً كالمرجلِ
فائراً، متلوّياً،
وفجأةً ينقضّ على المدينة:
إنقضاضةَ وحشٍ يحتدمُ شراسةً
فلا أحدَ يقفُ أمامه.
وفجأةً تخلو من حوله الأماكنُ،
وتنصبُّ المياهُ المباغتةُ في الأقبية
وتتدفق في الأقنيةِ عَبْرَ الحواجز الحديديةِ،
فُيرى بيتروبول غارقاً إلى نصفه
أشبهَ بوحشٍ برمائي.
كان حصاراً! إجتياحاً كان! الأمواجُ الحردةُ
تقتحمُ النوافذ كاللصوص
والقواربُ باعجازِها تحطم الزُجاجَ.
إن ألواح البضائع قد غشتها المياه
وفي الشوارع يطفو حطام الأكواخ،
الجذوعُ والسقوفُ،

البضاعةُ المدّخرةُ والمتاعُ التافه
والقناطرُ وقد اقتلعتْها الزوابع
وتوابيتُ المدافنِ المنجرفةِ.
هي ذي الحشودُ ترى إلى غضبِ السماء
منتظرةً عقابها الأخير.
واحسرتا! إن كل شيء ليهلك: المأوى والطعام!
أين ترى تلقاهما؟
في تلك السنةِ الرهيبة

لم يزل يحكمُ روسيا
قيصرُها الممجدُ السابقُ.
كان قد خرجَ إلى الشرفةِ متكدراً، حزيناً.
وقال: (مع الطوارىء السماويةِ
لن يستطيعَ القياصرةُ شيئاً).
وجلس متفكراً، وبعينين واجمتين
كان يتطلع إلى البلوى المحتدمة.
الميادين قد تحولت إلى بحيرات
تنصبُّ فيها الشوارعُ
أشبهَ بالأنهار العريضةِ،
والقصرُ يتراءى كجزيرةٍ كئيبةٍ.
فأهابَ القيصرُ برجاله أن ينطلقوا

عَبرَ المدينةِ كلها
في شوارعها القاصيةِ والدانيةِ،
في مهالكِ الأمواجِ المزبدةِ
لينجّوا الشعبَ، وقد استولى الرعبُ على القومِ
غرقى في منازلهم.
آنذاك، في ساحةِ بتروفا
حيث يشمخُ، في الزاويةِ منها، منزلٌ حديث،
حيث يقفُ فوقَ الطنفِ المرتفعِ
أَسَدان مرمريان في هيئةِ حارسين
بأيدٍ مرفوعةٍ وكأنهما حيّان،
يُرى يفجيني ممتطياً أحدهما
باسطاً يديه، دونما قبعةٍ،
في جمودٍ وشحوبٍ مريعين،
لم يكن مروّعاً من أجل نفسه
لم يكن ليسمعَ
كيف يطغى الموجُ المتضوّرُ
متناهباً نعليه،
وغير منتبه إلى سياطِ المطرِ في وجهه
أو الريحِ المحتدمةِ العاويةِ
وقد انتزعت قبعته فجأةً عنه.
إن عينيه اليائستين

شاخصتان في إتجاهٍ واحد:
حيث تتعالى الأمواجُ الهائلةُ الحانقة
من أغوارها الهائجة،
هناك حيث تعول الزوبعةُ ويندفعُ الحطام..
ربّاه، ربّاه..
واحسرتا! هناك لصْقَ الأمواج الطاغيةِ،
عند حافةِ الخليج نفسها
يقع السياجُ الناصلُ والصفصافةُ
والمنزل الصغير المتداعي.. هناك هما:
الأرملةُ وابنتها.. حُلمُه هناك
براشا!.. أم هو يتخيل هذا نائماً؟
أم أن حياتنا كلها
لم تكن سوى عدمٍ.. سوى رؤى فارغةٍ،
هي سخريةُ السماءِ من الأرضِ؟
وكان أشبهَ بالمسحورين
أو كأنما قد شُد إلى المرمر
فلا يستطيع هبوطاً عنه.
لا شيء من حوله سوى المياه
ووراء ظهره،
مطلاً على النيفا الهائج،
يقف الوثنُ على جوادهِ البرونزي

باسطاً يَده، من مرتفعهِ المكين.

الفصل الثاني

ها هو النيفا ينحسرُ متراجعاً
وقد ارتوى انتقاماً
وانهكته عَرْبدتُه السفيهةُ،
هاجراً فريستَه
دونما اكتراث،
معجباً بفعلته .
هكذا يقتحم القرى
قاطع الطريقِ السافلُ
بعصابتهِ الضارية،
فُيمعن قتلاً وتخريباً وانتهاباً
في اضطرابٍ من ولولةٍ وصريرٍ
واغتصابٍ وشتائمَ وعواءٍ،
ثم تُسرع العصبة قافلةً
مثقلةً بالغنائم، منهكةَ القوى
وفي خوفها من المطاردة
تلقي بأسلابها جانباً.
إنسحبت المياه

وانكشفت الأرصفةُ،
فيسرع يفجيني من خطاه،
يعتصر قلبَه الرعبُ والأسى والأملُ
مقترباً من النهر الآخذِ بالتراجع
غير أن أمواجه لم تزل تغتلي حنقاً
في حفل انتصارها
كأن من تحتها ناراً لم تنطفئ بعدُ
والزبدُ لمّا يزل يعلوها.
والنيفا في لهاثٍ ثقيل
كالجوادِ المتراكضِ مفرّاً عن أرضِ المعركة.
ثمة قاربٌ يلوحُ أمامه
فَيهْرَعُ يفجيني إليه كواجدٍ لقيةً،
منادياً نوتّيه
فيسرُّ النوتيّ الفارغَ البالِ
أن ينقله لقاءَ عشرة كوبيكات
عَبْرَ الأمواج المرعبة.
طويلاً ظل المجدّفُ المجرّبُ
في اصطراعٍ مع الموجِ الهائج.
إنما تُسلم القوارب قيادَها
لأيدي نوْتيّها الجريء،
متواريةً معه في ترامي الأمواج.

وأخيراً يبلغان الضفّةَ
وها هو فتانا الشقي
يقطع الشارعَ المألوفَ
إلى بغيته،
لكنه يتطلع فلا يفقه شيئاً.
أي مشْهدٍ مروّع!
لم يكن أمامه غير انهيارٍ شامل:
فقد هُدّمت المنازل.. أو جرفتها المياه
أو تمايلَ بعضُها.. أو تهاوى تماماً
أو زحزحتها الأمواج عن أماكنها،
كأنما هي ساحة معركةٍ
تتناثر فيها الجثث.
فيندفع يفجيني، دون أن يعي شيئاً،
رازحاً تحت أعباءِ عذابٍ فادح
مسرعاً إلى هناك
حيث ينتظره القدَرُ وأنباؤه الخفيّةُ:
إنتظارَ خطابٍ مغلَق.
ها هو يجتاز الضاحيةَ سريعاً،
ها هو الخليجُ، والبيتُ لم يعد بعيداً..
ترى ما يرى؟
ها هو يتوقف:

يتراجعُ قليلاً.. أو يتقدم
يتطلعُ من حوله.. أو يسيرُ.. ويتطلعُ ثانيةً،
هو ذا المكانُ حيث كان منزلهما قائماً
هي ذي الصَفصافةُ، وهنا كانت البَوّابة.
ظاهر أنها جُرفت، أين هو البيتُ، إذن؟
فيدورُ، ويدورُ من حول المكان
زاخراً بالغم القاتم،
متحدثاً مع نفسه بصوتٍ مرتفعٍ.
فَجأةً يلطم جبهته بيده
ويقهقهُ عالياً.
الليلُ يهبطُ معتماً
فوقَ المدينةِ المرتعدةِ الخائفة،
فيظلّ أهلوها يقظينَ طويلاً
يتحدثون فيما بينهم.
عن اليوم المنصرم.
ومن خلفِ السحبِ الكليلةِ الشاحبةِ
تلتمع أضويةُ الصبح
فوق العاصمةِ الهادئة،
دون أن تقعَ على شيء
من آثار كارثةِ الأمس:
كانت البلّيةُ متدثرة بلونِ الأرجوان.

كل شيء عاد مثلما كان،
وفي الشوارعِ الفسيحةِ
يتنقّلُ القومُ بأحاسيسهم الفاترة،
ها هم الموظفون
وقد غادروا مخادعهم
يتّجهون إلى دوائرهم.
والتاجرُ الشهم
دونما كللٍ أو قنوط
يفتح قبوه، وقد انتهبه النيفا،
عازماً أن ينتقمَ لخسارته.
فيستردّها قريباً،
وانزلت القواربُ في الأقبية.
وكان الكونت الشاعر خفوستوف،
صديقُ الآلهة،
قد أنهى قصيدته الخالدةَ
عن فاجعةِ النيفا.

إنما آهٍ لفتايَ المسكين..
إن عقله المضطربَ
لم يستطع ثباتاً أمام الصدمةِ المروّعة.
إن النيفا لهادرٌ، هائجٌ في أذنيه

والرياحَ مدوّيةٌ.
وهو يجول صامتاً
غريقَ أخيلته المريعة.
كان فريسةَ حُلمٍ غريبٍ.
منذ أسبوع مضى
لم يعد إلى غرفته،
وحالما انتهى الشهر
حلّ فيها مستأجر آخر:
واحد من الشعراء المدقعين.
لم يحضر يفجيني لأجل متاعه،
سرعان ما أمسى غريباً عن العالم.
حافياً يتسكعُ طَوالَ يومه،
متمدداً، ليلته، على الأرصفةِ
وقوتُه هذه اللقمُ تُمنح من النوافذ،
وثيابه الرثيثةُ
ممزقة بالية.. إن الصبيةَ الأشرار
يلاحقونه بحجارتهم
وغالباً ما لسعت ظهره
سياطُ الحوذيين،
فلم يكن، أبداً، يتبّين طريقه.
ويبدو أنه لم يعد يلاحظُ شيئاً
فقد أصمّه

ضجيج رعبهِ الباطني.
هكذا أمضى يفجيني عائشاً عمره الشقي
ما هو بإنسانٍ أو حيوان،
ما هو بواحدٍ من قاطني المدينةِ
أو بشبحٍ من أشباح الموتى..
مرةً كان نائماً
على رصيف النيفا
الصيفُ في أُخرياته،
والريحُ تهبُّ ممطرةً
والأمواجُ القاتمة تضطربُ مزبدةً في المرفأ،
ضاربةً المرقاة الملساءَ
كمن يتوَسلُ طارقاً
أبوابَ قضاةٍ لا يأبهون به.
كان الليل مظلماً حين استيقظ يفجيني،
المطر يقطر، والريح في انتحابٍ كئيب
وصيحات العسس في تجاوبٍ
بعيداً في ظلمةِ الليل.
فينتفض يفجيني
متذكراً أهوالَ أمسه في جلاء،
فيسرع واقفاً ويأخذ بالتسكع،
ثم يتوقف فجأةً

متطلعاً، من حوله، في هدوء
وقد ارتسم على وجهه رعب ضارٍ.
فيجد نفسه عند أعمدةِ المنزلِ الكبير
حيث يقف على سقيفةِ البابِ منه
الأسدان في هيئةِ حارسين
بأيدٍ مرفوعةٍ وكأنهما حيّان،
وقُبالتَه تماماً، في الأعالي القاتمةِ
فوق الصخرةِ المسوّرةِ،
يرى الوثنَ ممتطياً جواده البرونزي
باسطاً يدَه أمامه

ها هو، وقد أخذته رعدةٌ،
إن خواطرَ مريعةً لتصحو في ذهنه.
إنه يتذكر هذه البقعةَ حيث كان الطوفان،
حيث كانت الأمواجُ الضاريةُ
تتدأدأ هائجةً من حوله،
ويتذكرُ الأسدين والساحةَ
وهذا المتشامخَ وسطَ الظلمةِ
بهامته النحاسية المكينة،
ومن استطاع بإرادتهِ القدريةِ
إقامةَ هذه المدينةِ مشرفةً على البحر.

مرعب هو في الظلمةِ المكتنفة!
أي فكرٍ في جبهته هذه!
أية قوةٍ كامنةٍ فيه!
وأي لهبٍ يتدفق في هذا الجواد!
إلى أين ترى أنتَ مندفع أيها الجوادُ الفخور،
وأين ترى تستقرّ بحافرك؟
أيتها القوة المتحكمة بالمصائر!
أو لستَ من أنهض روسيا عالياً،
قابضاً على لجامها الحديدي
واثباً بها فوق الهاويةِ نفسها؟

هوذا المجنونُ الشقي
لم يزل دائراً حول قاعدةِ التمثال
مُصَوّباً عينين وحشيتين
إلى عاهلِ الروسيا المترامية.
إن أنفاسه تتقطع وتضيق
وجبينه يلامس الحاجزَ الحديدي الباردَ،
وعلى عينيه غشاوة من ضبابٍ،
في قلبه يستعرُ اللهبُ
ودماؤه في غليان..
إن وجهه ليكفهرُّ قُبالة الوثنِ المتشامخ،

وقد أطبق على أسنانه قوياً، شاداً قبضَته
مثل من تتلبّسُه قوى شرّيرةٌ:
(مرحباً يا باني الأعاجيب!
أنا لك!)
همس يفجيني متوعّداً، مرتعداً،
وفجأةً يندفعُ مهرولاً
فقد تراءى له أن القيصر الرهيب
قد احتدم، في برهةٍ، غضباً
محوّلاً وجهه إليه ببطء.
وفي الساحةِ المقفرةِ
يُرى يفجيني متراكضاً،
سامعاً وراءه ما يُشبهُ الرعدَ القاصفَ:
إن على الرصيفِ المتزعزعِ
دويّ حوافر ثقيلةٍ.
هوذا الفارسُ النحاسي يندفع من خلفه
مضاءً بشعاعِ القمر الشاحبِ،
باسطاً يده في الأعالي،
فوق جواده المتسارع الصاخب.
وَطوالَ ليلتهِ، أينما اتجه المجنونُ الشقي بخطاه
كان هذا الفارسُ النحاسي من خلفه،
وهذا ألرَديانُ الثقيل.

منذ ذلك الحين، كلما اتفقَ له
أن يعبر تلك الساحة
بدا على وجهه الإضطراب،
وأسرعَ واضعاً يده
على قلبه
كما لو كان يكبح ألماً،
نازعاً قبعته الباليةَ،
متنحّياً جانباً
دون أن يرفع عينيه الحائرتين.

عند ساحل البحر
ترى جزيرةٌ صغيرة،
حيث يرسو، أحياناً، صائدٌ متأخر،
ساحباً شبكته، ليهيّء عشاءه البسيط،
أو يقومُ بنزهةِ الأحد
موظفٌ ما في قارب
وقد اجتذبته الجزيرةُ المقفرةُ.
هناك، حيث لم تنبتْ عشبة واحدة،
ألقى الفيضانُ
ببيتٍ صغيرٍ رثيثٍ،

فاستقر فوق المياه
أشبه بالشجيرةِ القاتمة.
وفي الربيع المنصرم
نقلته سفينةٌ ما. كان مقفراً
ومخرّباً تماماً. وعلى عتبته
عثروا بمجنوني هذا،
وفي المكانِ نفسهِ، مرضاةً للّه،
واروا جثته الباردة.

1833

ألكساندر بلوك
(1880- 1921)
قصائد مختارة

مقدّمة

يظلّ الاهتمام، مع امتداد الزمن، متزايداً بإبداعات الشاعر الروسي الكساندر بلوك. وقد اعتُبر، بحق، شاعر الرمزية الروسية الأول، ففي قصائده وأعماله المسرحية وجدت الرمزية إيناعها الأقصى.

إن المعنى الرمزي الأعمق هو تجاوز المادي إلى الروحي. كتب ميرجكوفسكي* عام 1892 (ينبغي أن نحدد عصرنا بميزتين متناقضتين.. إنه عصر أكثر الفلسفات المادية تطرفاً، وهو أيضاً عصر أشدّ ثورات الروح إندفاعاً. إننا نعيش صراعاً خطيراً بين نظرتين إلى الحياة، بين فكرتين في الوجود يقف كل منهما في تناقض حاد مع الآخر). لسنا هنا في مواجهة المادية وحدها.. إنما نحن في مواجهة الواقعية أيضاً. إنَّ الشعر الرمزي في مسار مغاير تماماً لما كان شائعاً في الأدب من اتجاه واقعي متغلغل. يقول الشاعر الروسي بالمونت**: (مع

* ميرجكوفسكي (1865 ـ 1941) كان ناقدا ومؤلف روايات وأبحاث إجتماعية. من رواد الحركة الرمزية في الأدب الروسي ومن أشد المتحمسين للأفكار الصوفية. أصدر أول مجموعة شعرية عام 1888. وظهر كتابه النقدي (عن تدهور الأدب الروسي المعاصر وعن إتجاهاته الجديدة) عام 1893، وكان حرباً على الواقعية واعتبره الإتجاه الشكلي من الرمزية بياناً له. من مؤسسي المجلة المثالية (الطريق الجديد). هاجر بعد ثورة أكتوبر وكان معادياً لها (المترجم).

** «بالمونت» (1867 ـ 1942: من شعراء الرمزية الروسية. ولد في أسرة إقطاعية. فصل من الدراسة الثانوية لمشاركته في أعمال ثورية. درس الحقوق =

امتداد القرن التاسع عشر نرى في وقت واحد اتجاهين أدبيين متناقضين. فإلى جانب ديكنز نرى ادغار بو، وإلى جانب بلزاك وفلوبير نرى بودلير، وإلى جانب تولستوي هناك ابسن. غير أننا ينبغي أن نعترف أننا كلما اقتربنا من القرن العشرين كانت أصوات الشعراء الرمزيين أكثر إلحاحاً، وكان إحساسنا يكبر بأننا نفتقر إلى وسائل أكثر رقةً في التعبير عن عاطفتنا أو فكرنا، وهذا ما يؤلّف الصفة المميزة للشعر الرمزي).

إننا أمام نظرة جديدة إلى الفن والعالم. إن التعطش إلى النشوة الروحية، في جفاف الواقع الشامل، يجد تعبيراً له في هذه الرقة الجمالية التي يتشبث بها الرمزيون. يقول الشاعر بريوسوف*: (الفن هو أن ندرك العالم بطرق أخرى، طرق غير منطقية. الفن هو ما ندعوه في ميادين أخرى بالإلهام. إنَّ العملية الفنية هي أن نفتح الأبواب قليلاً في اتجاه الأبدية). هي ذي الكلمة الأكثر قرباً من اللهفة الرمزية: الأبدية. ويضيف بريوسوف: (ليس هذا السجن الأخضر مقفلاً علينا دونما أمل. ثمة منافذ عديدة تفضي إلى الخروج منه، ثمة بصيص ضوء. وهذا البصيص

= في جامعة موسكو. أصدر أول مجموعة شعرية عام 1890 . وأصدر أكثر مجاميعه شهرة عام 1903 (سوف نصبح كالشمس... كتاب رموز) ومضامينه ذاتية ومتطرفة في عدائها للأعراف السائدة. ترجم أعمالاً لادغاربو وشيلي وسواهما. استقبل ثورة 1905 بحماس، واضطر لأن يهاجر إلى باريس. بعد ثورة أكتوبر حاول أن يكتب شعراً ثورياً. وقد استغّل ايفاده إلى الخارج فانتمى إلى معسكر المهاجرين البيض (المترجم) .

* «بريوسوف» (1873 ـ 1924). بدأ شاعراً رمزياً. عمل في المجلات الأدبية وأسهم في نشر قصائد بلوك الأولى. ثم أخذ يترجم عن الحركات الأدبية الجديدة من أوربا. كان مع ثورة أكتوبر. وعيِّن في اللجنة المشرفة على ترجمة الآداب من مختلف اللغات (المترجم).

هو لحظات الوجد أو النشوة الروحية، وفي حدسنا فوق الشعوري هذا، إنما نعطي إدراكاً آخر لظواهر العالم، متغلغلين عميقاً وراء القشرة الخارجية، في اللب منها. وإن مهمة الفن الأساس إنما تكمن في التعبير عن هذه اللحظات الملهمة البصيرة) .

من أية نقطة، ترى، بدأ هذا الاتجاه في الشعر الروسي؟ وما هو هذا الاتجاه أولاً؟ يقول بالمونت: (كيف يمكن أن نعرّف الشعر الرمزي بدقة أكثر؟ هو الشعر الذي يمتزج فيه عضوياً، وليس بشكل تعسفي، وجودان: التجريد الخفي والجمال الصريح الجلي، يمتزجان بسهولة وبشكل طبيعي مثلما يمتزج ماء النهر في صبيحة صيف، منسجماً، مع ضوء الشمس.) وفي هذا التوق الدائم يجد الشاعر الرمزي نفسه ملزماً أن يعثر على شيء ما يصل عالمه الصغير بالعالم الكبير. وإنَّ ما يبدو له هنا، رمزاً لا يكون هو الحقيقة ذاتها، إنما هو شيء يُصغي ويومئ إلى الحقيقة كما أشار الناقد السوفيتي دافيدوف.

وجدت الفلسفة الأفلاطونية والأفلاطونية المحدثة خاصةً.. استمراراً وتطوراً لها لدى الفيلسوف والشاعر الروسي الرمزي سولفيوف*.. في موضوع ثنائية طبيعة العالم، والتناقض القائم بين

* «سولفيوف» (1853 ـ 1900): فيلسوف روسي مثالي وشاعر. من أسلاف الرمزية في الأدب الروسي، ويعتبره الرمزيون أباً روحياً لهم. وقد تركت أفكاره الصوفية تأثيراً عميقاً في نفوس الرمزيين الشباب. كان والده مؤرخاً معروفاً. عمل أستاذاً في جامعة موسكو. ثم انتقل إلى بيتربورغ. أصدر أول مجموعة شعرية عام 1891 . من مؤلفاته الفلسفية: نقد المبادئ المجردة، محاضرات في الإنسان والله، تاريخ السلطة الدينية ومستقبلها (المترجم) .

الواقع وماهيَّة الوجود المثالية. ليس العالم الواقعي إلا ظواهر عابرة يقابلها عالم الغيب، عالم المثُل الأبدية، عالم الحقيقة السامية. ليس العالم الواقعي إلا إنعكاساً مشوهاً، ملتمعاً بالأشياء المرئية والمفهومة بالتجربة. وحين يؤكد سولفيوف، المعلم الأول كما يدعوه بلوك، الترابط بين عالم المثُل الأبدية وعالم الظواهر العابرة.. يخرج إلى كون الواجب الإنساني كامناً في إعادة توحيد الأرضي والسماوي، عبر الوصول الصوفي إلى العالم العلوي. وفي هذا الوصول يكمن كنهُ النشاط الفني عند الإنسان. وبقوةِ تطلعه الروحي، بقوةِ بصيرته الصوفية، يستطيع أن يثب إلى «مشروع العالم الأول» ويدرك جوهر الظاهرة الداخلي، الكامن من خلف حدود التجربة الحسية، أو القشرة الخارجية كما أشار بريوسوف من بعد، ويلمس النار الإلهية الملتهبة تحت قناع المادة الهامدة. إنَّ الشخصية المركزية في أعمال هذا الفيلسوف الروسي، كما لاحظ الناقد السوفيتي أورلوف، هي روح العالم ـ الأنوثة الأبدية، والتي يمكن تصورها كالبداية الإلهية المطلقة الشاملة، والتي من الممكن أن تهبط على الأرض وتبعث في الإنسانية الهالكة حياةً جديدة. إن روح العالم ـ الأنوثة الأبدية، إنما تعني في أفكار سولفيوف طبيعة العالم الموحدة الداخلية، إنها تعيش في جميع الظواهر، وتجسد الوحدة المثالية الشاملة التي تمثل الهدف والمعنى لعملية التطور التاريخي العام. وضمن هذا المدار الفلسفي وجد بلوك منطلقاً للفكرة التي رافقت روحه طويلاً: فكرة التوافق بين حياة الفرد الذاتية والوجود الكوني المطلق.. أي الإحساس بامتزاج نفسه المتفردة

مع روح العالم الموحدة الشاملة. وبمعنى آخر توافق الذات مع موسيقية الكون.

من هنا تتضح لنا معاناة الذات الشاعرة، لدى بلوك، وتطلعها إلى الإحساس بالوصول إلى الوحدة الكونية الأبدية التي تفتح الطريق من «ظلام الليلة المدلهمَّة ـ الغربة الأرضية» إلى النور العظيم «للنهار الآتي ـ الزوجة الأبدية». يقول بلوك: (إنني أرى في قلق العالم الهائل بداية النهاية الشاملة الكبرى). وهنا نتلمس آماله في تجديد العالم. إن حلمه هو الإنسان الشمولي الرائع، إنسان الإنسجام المطلق. ما نحن ببعيدين، هنا، عن دستوييفسكي في بحثه الدائب عن الإنسان الرائع، في روايتيه «الابله» و«الاخوة كرامازوف».

لم تكن صوفية سولفيوف، إذن، اتجاهاً فردياً في البحث عن الوصول إلى الوحدة الكونية، إلى الالتقاء الروحي مع صوفيا أو الأُنوثة الأبدية. كانت اتجاهاً تاريخياً.. أي بحثاً عن الخلاص الإنساني الشامل. ومن هنا كان هذا «الالتزام» في رمزية بلوك اتجاه الإنسان، اتجاه الواقع الأرضي ولم يكن توقه إلى «الغريبة» معاناة شاعر منغلق على رؤاه.. بعيداً عن الحركة التاريخية. كان موضوع الثورة منذ 1905 آخذاً في أشعاره مساراً معقداً في تطوره ووضوحه الأخير.. ليفترق نهائيا عن العصبة الرمزية كلها عام 1917 في التقائه مع الثورة.

يقول دافيدوف: (كان بلوك يرى أن الاتجاه الرئيس في هذا العصر الفولاذي هو تراجع العضوي أمام اللاعضوي، الطبيعي أمام الميكانيكي، الإنسان أمام الآلة، التقليدي الأبوي أمام الاقتصادي

الشمولي، الروحي المتسامي أمام الوضعي الرصين). تلك هي نظرة شاعر لمَّا يزل يرى إلى المجرى التاريخي عبر ضباب من صوفية آخذة بالتصدع. وسيظل بلوك، طويلاً، مرتجف الخطى في تلمسه الطريق إلى الموقف الشعري من الآخرين.

في قصائده عن السيدة الرائعة التي صدرت مجموعة منها عام 1904 كان الشاعر في أوج تطلعاته الصوفية، وابتهاله في هياكل الأنوثة الأبدية، غير أننا نسمع جيداً نبرة أرضية في ترانيمه هذه، بالرغم من الفكرة الصوفية السائدة، فكرة المعاناة والتطلع إلى الوحدة الكونية.. إنَّ لهذه السيدة، روح العالم المتسربلة بالضباب ، هذه تقاطيع أرضيةً تأتلق في هذه الصورة أو تلك. ويظل هذا الوجه منتَظراً عبر القصائد كلها. يظل طيفاً يُبحث عنه في أجواء المعابد الخافقة بارتجافات الشموع والأكاليل. ويبدو جلياً أن هذه القصائد قد كتبت في مناخ نفسي واحد. إن حماساً روحياً خاصاً يلفها جميعاً. وغالباً ما يتداخل السماوي والأرضي في تلاوينها.

ومنذ عام 1904 تأخذ «الأرضية» في قصائد بلوك لوناً أكثر حدةً واتضاحاً. ومع إن الصوفية هي منطلق هذا الاتجاه الرمزي عند بلوك.. إلا أننا نحس، احساساً مبهماً أول الأمر، باقتراب الشاعر من عالم «المدينة». وكان دستويفسكي وراء هذا الاقتراب. إن المدينة لتنكشف الآن أمام عينيه الذاهلتين بتناقضاتها وعريها. كتب بلوك من بعد: (كنت أعرف قبل الثورة الأولى «1905» أن التعاسة والتوتر في كل مكان، وأعرف أنَّ الفاجعة آتية لا ريب فيها.) كانت ثورة 1905

قد أزاحت الستار عن (وجه الحياة وقد استفاقت تواً من النوم.) ولم يكن تفسير بلوك لقضية الثورة الروسية، تاريخياً وسياسياً، بالتفسير الثوري كما أشار أورلوف. لقد تداخلت الأحداث عنده، ودخلت الثورة، بالنسبة له، مع مشكلة مصيره الشخصي في تناقض قدري رهيب. كان يفهم الثورة عقاباً عظيماً وعادلاً لا مفر منه، يُنزله الشعب بمستغلّيه إنتقاماً لتعاساتهِ وأوجاعه عبر القرون الطويلة القاتمة. كان يتحرق باعتقاده أن هذا القصاص نازل به هو أيضاً، ما دام منحدراً من أسرة ارستقراطية.. فلا شيء يستطيع إنقاذه من القدر الثوري، فهو الآخر لم يزل حاملاً أثقال «خطايا الآباء». وكان إنهيار الثورة الأولى ذا تأثير عميق في طريق بلوك الإبداعي. فإذا كان المدّ الرجعي الذي تصاعد في أعقاب الثورة المنكسرة يمثل مرحلة توقف وتهالك لدى أكثرية الرمزيين.. فقد كان، بالنسبة لبلوك مرحلة إبداعٍ وتحوّلٍ فكري باتجاه الحركة التاريخية، واشتعالاً بحب الأرض الروسية. لقد أخذ السؤال الكبير «ما هو الفن؟ ولماذا؟» يطرح نفسه بإلحاح على الشاعر. إنّ المسألة المركزية في هذا التساؤل بالنسبة لبلوك، هي العلاقة بين الشاعر والشعب،بين الإنتيليجينسيا والثورة، بين العناصر والثقافة.

بالرغم من هذه الخطى المقتربة من الحركة التاريخية يظل بلوك رمزياً في منطلقاته ونتائجه.

بين عامي 1905 و1910 مرت الحركة الرمزية، كا أشار بلوك في «الوضع الراهن للرمزية الروسية»، في مرحلتين هما القضية ونقيضها. وقد ابتدأت المرحلة الأولى حين انتهت «حفنة من الغنوصيين» إلى الاقتناع،

بعد تجارب خاصة، بأن ثمة عوالم أخرى غير عالمنا هذا. وهي تختلف عنه أساساً. وإن هذه العوالم ذات صفة خاصة وفردية. وهي متعددة في مثل تعدد التجارب الشعرية التي اكُتشفت من خلالها. فالقضية: (أنت حُرٌّ في هذا العالم السحري الذي اكتشفته، المليء بالتوافق) وإن هذا العالم (لك وحدك). إنَّ فيك الأسرار كلها (فيك الفجر والغسق) وأنت وحدك (سيد هذا العالم الخفي، والعالم كله في أحلامك وحدها). إن الشاعر ليتجول منفرداً في عالمه السحري هذا، منفرداً وحراً.

إنَّ ما يجعل هذا التَجوالَ رمزياً هي خصوصيته، أي ابتعاده عن أن يغدو عامّاً، رائجاً في الأسواق، مما يضفي عليه صفةَ رخصٍ وابتذال.. وذلك حين تصبح التجارب الرمزية تقليداً شائعاً. يقول بلوك: (وهكذا ظهرت مجموعة من المزيفين المهرة. وطاف ميادين الأدب الروسي كتّاب يرتدون أحذيتهم الجلدية لوطء الأزهار بدلاً من ملامستها بالروح. وإنَّ جيوبهم ملأى بقصاصات الورق الملون، وهم مطمئنون إلى احتياطهم الذهبي من المنجزات السابقة عليهم.) وهكذا أيضاً فإنَّ مهمة هذا التجوال ليست في انحطاط رواجه، وإنما في أن يغدو أسطورة شاملة، يجد الشاعر طريقه من خلالها إلى قلب الشعب. تلك هي فكرة الرمزيين، في تجاربهم الروحية، عن تجوالهم المنفرد هذا.

إنَّ ما يشترط هنا، هو أن تكون سيداً على عالمك السحري المكتشف، وأن تكون حراً في تجوالك فيه. يقول بلوك: (منذ اللحظة التي تستقرّ فيها هذه المبادئ في أرواح الآخرين تولد الرمزية.. تنشأ مدرسة. هي الشباب الأول، هي الجدّة الطفولية في الاكتشافات

الأولى. هنا لا يعرف أحد في أي عالم يوجد الآخر. لا يعرف في أي عالم هو نفسه.. وهم كلهم في تغامُز. وإن ما يتفقون عليه هو أن هناك إنفصالاً بين هذا العالم والعوالم الأخرى. وإنَّ قواهم تتكاتف في النضال من أجل تلكم العوالم المجهولةِ الأخرى.)

وهي عوالم لا تعرف حياة.. ومن هنا فهي غير ميتة أيضاً. إن الشاعر الرمزي، عبر تجاربه الباطنية، يراها ملتفةً بغلائل من الضوء الليلكي.. بلون «الوجود» الشبحي غير الحي. وفي لحظات النشوة الفائقة يخترق السيف الذهبي هذه التلاوين الليلكية المتكاثفة. وفي المعنى الرمزي، عند بلوك، يأخذ هذا السيف مكانةً خاصة، فهو الضرورة الفائقة في الحركة الكونية، ضرورة التحول والإنعطاف في اتجاه آخر. وفي إشراقة هذا السيف الذهبي الذي يخترق «أرجوان العوالم الليلكية» يتلقى الشاعر النبأ القدسي بإمكانية الحياة الحقة. منذ هذه اللحظة الفائقة يبدأ التواصل بين عالمنا هذا وتلكم العوالم الليلكية الخفية، وقد أُضيءَ أرجوانها بالتماعة الذهب. مثلما يُحدث السيف الذهبي تغييره في عوالم الرمز المكتئبة.. يحدثُ تغييراً مماثلاً في العالم الأرضي، حيث تنصبّ فوقه الإنعكاسات اللونية نفسها والإيقاع المتغّير نفسه. إنَّ لهباً آخر ينتشر على الأرض، وإيقاعاً آخر يأخذ مداه في الحركة «التاريخية» هما لهب الثورة وايقاعها. هكذا تتضح العلاقة بين ما يحدث على الأرض، في هذا العالم، وما يجري من تغيير في العوالم الليلكية. غير أن القضية الرمزية لا تقف عند هذه النقطة. إنما تنطلق منها إلى نقيضها كما سنرى فيما بعد.

يقول بلوك: (القلب الغِرُّ الجسور يهمس: أنت حُرٌّ في عوالم سحرية! في حين يوجّه السيف السحري إلى الصدر. فالفنّان الرمزي ساحر منذ البداية.. أي هو صاحب معرفة سرية يقوم وراءها فعل سري. غير أن الفنان لن يتبين أن هذا سرّه هو إلا فيما بعد. إنه يرى فيه كنزاً تزهر فوقه زهرة السرخس في منتصف ليلةٍ حزيرانية. ويريد أن يقطف الزهرة الزرقاء في منتصف هذه الليلة الزرقاء.. في زرقة نظرة يسكن الساحر. هذه النظرة تخترق كالسيف العوالم كلها.. البحار والأنهر.. الغابة البعيدة والقمم المغطاة بالثلوج.. ولن تصل اليه في البداية من خلال العوالم كلها إلا إشراقةُ ابتسامةٍ هادئة) .

وتصبح الدعوة الآتية من العوالم أكثر إلحاحاً. إنَّ أصواتاً متناغمةً محزنة تنطلق إليك من أغوارها. وإنَّك لتسمع همسات وتصلك نداءات.. ثم (يهيمن لون، من السهل عليَّ أنْ أدعوه باللون الليلكي الأرجواني.. والسيف الذهبي الذي يخترق أرجوان العوالم الليلكية يبرق بريقاً يبهر الأبصار.. وينفذ إلى قلب الساحر.. هنا يبدأ وجه في الظهور بين الورود السماوية، ويُسمع صوتٌ وينشأ حوار) .

إنَّ هذا الوجه الآخذ بالظهور هو وجه الغريبة عندَ بلوك الرمزي، الوجه الغامض المخادع.. الذي يطرح نفسه بديلاً عن «المعجزة» المنتظرة على الأرض. غير أن مهمة الشاعر هي غير الاكتفاء بالتوقف عند هذه النقطة.. «نقطة الوصول الميتة».

كان الفنّان الرمزي يظن أنه قد وضع يده (على المصدر الخلّاق لواقع جديد).. في حين إنَّ مهمة الفنّان القصوى هي أن (يصمد أمام

الرياح المنطلقة من عوالم الفن التي لا تشبه عالمنا، بل تترك فيه تأثيرها المرعب.. ففي تلك العوالم ما من وجود واضح للأسباب أو النتائج.. للزمان أو المكان.. لما هو حي أو غير حي.) فالفن، إذن، هو أشبه بجحيم دانتي كما يلاحظ بلوك، وإنَّ العبور من خلاله لن يتمّ إلا بصحبة مرشدٍ، وحلمٍ يأخذ بيده إلى حيث لا يجرؤ المرشد أن يدخل كما أخذت بياتريشة بيد دانتي.

عند هذا نصل إلى «نقيض القضية» الرمزية كما يقول بلوك نفسه: انبهار الفنّان أمام إبداعه والاكتفاء به (هكذا تحقق الرمز: عالمي السحري الخاص أمسى مسرحاً لأفعالي الشخصية.. أمسى عرضاً هزلياً أؤدي فيه أنا نفسي دوراً إلى جانب دُماي العجيبة. إنطفأَ السيف الذهبي، والعوالم الليلكية تدفقت إلى قلبي.. لم أعد أميز الحياة عن النوم عن الموت. لم أعد أميّز هذا العالم عن غيره من العوالم. لقد جعلت من حياتي فنَّاً. ما إن أتلفظ بتعاويذي حتى تبرُزَ أخيراً ما أدعوها بالغريبة: الدمية الرائعة، الشبح الأزرق، المعجزة الأرضية).

إن هذه الغريبة ليست سيدةً فحسب، إنها «مزيج شيطاني» من عوالم متعددة من «الليلكي والأزرق في المقام الأول». وهذا ما يتجلى في قصائد الشاعر التي كتبت تحت تأثير شبحه الأنثوي الأزرق.

هنا تصل الرمزية، عند بلوك، إلى نقطة إنتهائها. إنَّ ذروتها هي النقطة التي يبدأ عندها الإنهيار. لقد انتهت «القضية» وبدأ «النقيض». حصل هذا كما يشير دافيدوف: (حين ظن الشعر أنَّ رؤياه للوجه الوضيء هي تجسد هذا الوجه وإنَّ اشتياقه لتجدد الواقع هو التجدد.

وإنَّ حنينه إلى التحوّل الأساس في الحياة هو التحوّل ذاته) .

يرى بلوك إنَّ الثورة قد حدثت في عوالم أخرى. فمثلما إنطفأ لهب 1905 في الروسيا كان السيف الذهبي قد إنطفأ في العوالم الليلكية.. (في ظلمة العالم الرحيب الليلكية يتأرجح نعشٌ أبيض هائل، وفوقه دمية ميتة لها وجه يذكّرنا بالوجه الذي تراءى بين الورود السماوية.) هذا ما انتهت إليه الرمزية الروسية. لقد امسى الشعر مكتفياً بنقطة الوصول الساكنة هذه، كما يشير دافيدوف، وكفّ عن أنْ يمعن البصرَ في الواقع الأرضي. كان هذا الواقع بعيداً عن عالم الشاعر الخاص. لقد فقدت العوالم التي اخترقها السيف المتلألئ ظلالها الأرجوانية.. إنَّ غسق العالم الأزرق. كما يقول بلوك، أخذ يتدفق مثلما تتدفق المياه من السدود المنهارة. إن تحولاً جذرياً يحدث الآن. فقد انتهت القصيدة الرمزية إلى رؤى تتناقض مع غاياتها الأولى. إنَّ وجهاً ميتاً يتراءى لهم هو غير حلمهم الشعري الوضيء. لقد خُيّل للشاعر الرمزي أنه موشك أن «يحلَّ لغزَ الابتسامة الهادئة» وأنه سيرى الوجه سافراً.. وأنَّ «القناع الأسود سيُزاح أخيراً عن الوجه الجميل.. وستكشف الأرض عن أعماقها تحت لهب الزهرة الزرقاء». غير أنَّ ما بدا أمام عيني بلوك لم يكن غير نعش الدمية الجميلة الأبيض.

هنا يقف بلوك عند لحظة اشراقٍ يتعرف في ضوئها على (حقيقة أنَّ النقيض كان فترةَ جنونِ الشعر الرمزي.. حينما آمن الشعراءُ بوهم النقيض أكثرَ من إيمانهم بواقعِ القضية.. كان هذا خطأهم التاريخي)، كما أشار دافيدوف.

ومن ظلمة هذا الجحيم، كما يقول بلوك، كان الفنان يأخذ صوره وألوانه. وقد توارى الحلم الهادي، توارت بياتريشة دانتي هاجرةً الشاعرَ في تخبطه الرهيب هذا. وفي عالم الجحيم القاتم ترى الشاعر متحيراً، متجهاً ببصيرته إلى العوالم الأخرى. وحين ينطفئ السيف الذهبي، وقد امتدت به لحظةً يدٌ مجهولة، تتداخل العوالم، لدى الشاعر الرمزي في عالم واحد (وفي صمت منتصف ليل الفن يتعرض الفنان إلى الجنون أو يهلك.. وفي هذهِ الحالة التي نحن فيها يوجد عدد غير قليل من المخارج المرعبة. لقد اجتاحت العوالم الليلكية بهذا الشكل أو ذاك ليرمنتوف فألقى بنفسه طائعاً أمام المسدس، وغوغول الذي أحرق نفسه متخبطاً بين أذرع العنكبوت، وما يجري أمام أعيننا لشيء أكثر بلاغةً: جنون فروبيل وموت كوميسار جيفسكايا).

هكذا بدأ بلوك يقترب من الواقع الأرضي، من الحركة التاريخية. إنَّ قصائده لتأخذ مادتها من «المدينة» من «العالم المرعب». وإنَّ الشبح الأزرق ليتحول الآن إلى امرأة من نساء الحفلات الراقية. إنَّ شبحه الأنثوي لم يعد في هالة من الضباب البنفسجي.. هو الآن في غلالة من ثلوج بيتروغراد، وخطاه تسمع في ممراتها أو شوارعها.

ومع هذا التحول يتنامى اهتمامه بمسألة الإنسان الجديد. إنَّ هذا الكائن «الفنّان» المقتدر في عطائه، المتعطش إلى الحياة والعمل.. يغدو مثاله الشعري الأكثر أهميةً. وهذا ما يبدو في مجلّده الشعري الثالث وملحمته «العقاب».. وفي أعماله المسرحية. وكان لتعرفه بكتابات سترندبيرغ دور كبير في اهتمامه الأخير هذا كما أشار أورلوف. إن

شخصية ستر ندبير غ المتناقضة، المتطرفة في يأسها وانفتاحها، في رؤاها الصوفية وواقعيتها المرة، قد تركت لدى بلوك إنطباعاً حاداً. إنَّ ما أثار اهتمامه بهذا الفنّان المسرحي تمرده العنيف في مواجهة الأعراف الشائعة في الحضارة الغربية.. ووقفته المتحدية في وجه العالم القديم، العالم البرجوازي. لقد التقى بلوك، في شخصية سترندبيرغ وفي فنه، بمثاله عن الإنسان الجديد.. المتحرر، بقوته الروحية، من حبائل الضجر الثقيل والخدر العاطفي الرقيق. ثم هذا التوافق بين الاثنين، اضفاء هالةٍ «مثالية»، غالباً ما تفيض بالرحمة أو الأسى، على الصورة الأنثوية.

يقول بلوك: (لا بد من أن نتعلم، من جديد، من العالم ومن الطفل الذي لم يزل حياً في أنفسنا المحترقة). في رماد عوالمه البنفسجية المنطفئة لما تزل ثمة شرارة باقية.. وستتوهج مع الزمن، عبر السنين المكبّلة بالتسلط الرجعي المتزايد بعد إخماد الثورة الروسية الأولى، وستأخذ مساراً آخر في بحثه الموجع المتواصل عن العلاقة بين المثقف والشعب. ومع الزمن تتسع الفرقة بين الشاعر والعوالم الليلكية. فإذا كان في مسرحيته القصيرة «الغريبة» (1906) محاصراً بالسؤال التراجيدي عن السقوط الجمالي على الأرض، عن الذات الشعرية المحبطة.. فهو في عمله المسرحي الآخر «أغنية القدر» (1908).. إنما يتجه اتجاهاً آخر في بحث مسألة أُخرى، طالما أقلقتهُ وآلمتهُ، هي مسألة الهوَّة الفاصلة بين المثقف المنغلق على اهتماماته المصيرية الخاصة والشعب المتعطش إلى الحياة الحرة. فإذا كان المثقف الروسي منطوياً على

الرغبة العدمية في الموت.. كانت الروح الشعبية مترعةً بإرادة الحياة والثورة. كان هذا هو الاتجاه الجديد الذي يمر به الشاعر مبتعداً من (مرحلة النقيض إلى مرحلة جديدة.. هي مرحلة المعرفة الاجتماعية بالذات ومحاولة توضيح موقعه الحقيقي في الحركة الاجتماعية) .

غير أن هذه المسألة لم تصل، عند بلوك إلى حلها الأخير إلا بعد سنوات مريرة من الشك والتساؤل والتوجع. يقول الشاعر عام 1910 (إنَّ وجدان الفنان يهدف في الأزمنة كافة إلى خلق عوالم أخرى، مستخدماً في ذلك، لغة عالمنا هذا وأشكاله وألوانه). إنَّ التناقض لم يزل قائماً بين الفن والواقع.. ولم يزل الشاعر في محاولةِ العبور إلى الشاطىء الآخر، وهو يترقب (تدّخل قوةٍ ما تضم في إناء عميق واحد كُلاًّ من وجدانِ الفراشةِ الجميلة وصبر الجمل النافع المثابر، وتكشف للعالم عن الضرورة الحرة والوعي بالواجب الرائع) .

في أخريات عام 1913 يكتب بلوك: (لقد شهدت روسيا الدم والفؤوس والنار.. وسيأتي الدم والفأس مرة أخرى. ليس ممكناً التكهن بكل شيء، غير أنَّ الدم والنار سينطقان حين لا يتوقع أن يفعلا هذا).

لم يمر وقت طويل حتى وجد الشاعر نفسه أمام تكهناته هذه. فقد إندلعت الحرب الأولى بعد شهور.. وكانت الثورة الثانية تدق الأبواب بقوة. كان لإيقاعها الراعد خلخلة رهيبة في الروح المثقفة. وقد انطرح السؤال التاريخي: مع الثورة أو ضدّها؟ مع الحركة التاريخية أو مع المدار الذاتي المغلق؟ مع العوالم الليلكية الرمادية أو مع السيف الذهبي الساطع؟ .

من المهم أنْ نلاحظ أنَّ بلوك لم يكن يفهم الثورة حركةً سياسيةً معينة، إنما يراها حركة الأمةِ التاريخية. فالثورة هي روسيا في مسارها القدري، في تصور هذا الشاعر الذي طالما تساءل، مؤرقاً، عن القدر الروسي، عن هذه الترويكا المندفعة كما يراها غوغول. يقول بلوك: (إنني أميّ من الناحية السياسة. ولذلك لن أحاول أن أقرر الشكل الذي ينبغي أن يتم بموجبه الاتفاق بين المثقفين والبلاشفة، إلا أنَّ دافعاً داخلياً يقودني إلى الاعتقاد أنه سيكون اتفاقاً موسيقياً، وهذه الموسيقى لا تخدم أشخاصاً بعينهم، إنما تتردد أصداؤها في المثقفين مثلما تتردد في البلاشفة) .

هكذا يصل الشاعر إلى قناعة أخيرةٍ بعد التردد والقلق، بعد التساؤل الموجع الذي دام عشر سنوات. وعند هذه النقطة تتعانق أخيراً، كما يشير دافيدوف، روح الشاعر الرمزي مع الروح الشعبية، وبعد الاعتقاد الرمزي في أنَّ العمل الشعري إنما ينطوي على دلالة سحرية خاصة.. أمسى الشاعر مقتنعاً في أنَّ القصيدة لم تكن غير «الحلقة الموصلة» بين الفن والثورة، بين الجماهير والذات المبدعة.

عام 1918 كتب بلوك قصيدتيه الشهيرتين: «الاثنا عشر» «السيثيّون».

وقد وضعت القصيدة الأولى حدّاً فاصلاً ونهائياً بين الشاعر والأغلبية من أصدقائه الرمزيين. كانت هي القطيعة النهائية مثلما كانت هي الخطوة الأخيرة التي وضعت الشاعر في الشاطئ الثوري الآخر. لم يتعرض شاعر، في حينها، لحملةٍ من الاضطهاد المنظم مثلما تعرض

بلوك. فقد شنت في وجهه زوبعة من التهجم في الصحف المعادية، وعلى امتداد الجبهة الثقافية المضادة. كان الشائع في هذه الحملة الظالمة أنَّ «الابن الضال» كما تقول الشاعرة زينائيدا غيبوس*، قد خسر نفسه نهائياً، وأطبقت على روحه أكفّ الشيطان وفي الجبهة الثانية، في الصف الثوري، كان لهذه القصيدة دويّ ممجّد هائل. إنَّ مقاطع منها تُخطُّ كبيرةً على اللافتات، و«البرافدا» تعتبرها أضخم إنجاز شعري، والجنود الحمر يرددونها في تجمعاتهم.

وكانت «السيثيون» هي الردّ الشعري القومي في وجه التدخل الغربي ومحاولة الالتفاف على الثورة.

إذن، كان اتفاق الشاعر مع الثورة «اتفاقاً موسيقياً» كما يقول.. وكان نابعاً أيضاً من الاهتمام المرير في تفهم الحركة التاريخية، الذي رافق الشاعر فترةً غير قصيرة. بدأ العنصر التاريخي يتلمس طريقه إلى أعمال الشاعر متمثّلاً، في تحوله الأول، بروسيا وتحركها القدري التراجيدي. ويبدو هذا في مجموعته الشعرية «العالم المرعب» وملحمة « العقاب» وفي مسرحيته «الوردة والصليب» التي أتمّها عام 1912، وهي أكثر أعماله اقتراباً من الواقعية بالرغم مما يكتنفها من هذا الحس

---

* «زينائيدا غيبيوس» (1869 ـ 1945): شاعرة وكاتبة وناقدة أدبية (باسم مستعار: انطون كرايني) من أكثر المتطرفين في الجناح الرجعي من الحركة الرمزية. وهي زوجة الشاعر ميريجكوفسكي. أصدرت مجموعة قصصية عام 1896 تحت عنوان: (نفوس جديدة). ظهرت مجموعتها الشعرية الأولى: (قصائد) عام 1904 . من محرري مجلة (الطريق الجديد). هاجرت بعد ثورة أكتوبر. كانت معادية لها (المترجم) .

التراجيدي الأبدي.. الذي يلقي بظلاله الرمادية على طريقه الشعري، المليء بالتساؤل والمرارة.

كان بلوك يرى في الثورة «بداية الحياة»، ويرى أنَّ أهميتها القصوى في أنها توقظ الإنسان كلياً ليتمسّك بالحياة، و«تفتح أعماق الوعي التي ظلت مقفلةً بقوة». كان الشاعر يؤكد: أنه كان يحس، خلال كتابة «الاثني عشر» وبعدها بأيام، بدوّيٍ هائل يدور في ذهنه «لعله دويّ إنهيار العالم القديم». من هنا كان إيقاع القصيدة الجديد هذا، في توثبها وامتدادها في الأفق التاريخي الذي يتبيّن الشاعر، عبر الرمادية التراجيدية المخيمة، تألقه القدري المتزايد.

لم ينشأ الوعي الثقافي، كما يفهمه بلوك، منفصلاً عن روح الموسيقى. فالثقافة، عنده، إنما تولد من روح الموسيقى. ومن الواضح أنَّ الشاعر ينطلق في فكرته هذه من نيتشه في دراسته المعروفة «مولد التراجيديا من روح الموسيقى».

كتب الشاعر عام 1919: (في البدء كانت الموسيقى.. الموسيقى هي جوهر العالم. والعالم ينمو في إيقاعات متعاودة، يتراجع إلى وراء.. ثم يندفع في تموج من الإيقاعات. وهذا هو قانون الحياة العضوية على الأرض، بما فيها البشرية: موجات من الطاقة المندفعة. والثقافة هي نمو العالم.. هي الإيقاع الموسيقي). ومع نيتشه يصل الشاعر في فكرته إلى إنهيار الحركة الناشئة من روح الموسيقى.. فيكتب: (إن أية حركة متولدة من روح الموسيقى تنحلّ وتنهار بعد إنقضاء مرحلة معينة من الزمن.. هنا تمسي مفتقدةً النداوة الموسيقية التي نشأت فيها. كما إنها

بهذه الحقيقة عينها تحكم على نفسها بالدمار، فهي تكفّ عن كونها حركة ثقافية وتتحول إلى حضارة) .

وسريعاً ما يتعارض الشاعر مع نيتشه وفكرته الرئيسةِ عن الصفوة الروحية. إنَّ النقطة المهمة، هنا، في تطور الشاعر، هي نظرته التاريخية إلى الروح الشعبية، بعيداً عن صفوة نيتشه «الفائقة».

يقول بلوك: (إنَّ حارس الموسيقى هو روح القوى الأولية التي تمتلك الموسيقى. وليس من المفارقة أنْ نقول إنَّ الجماهير تبدو، هنا، باعتبارها حامية الثقافة، دون أنْ تمتلك أي شيء آخر عدا روح الموسيقى، وهذا ما يحدث في الأزمنة التي تغدو الحضارة فيها معاديةً لحركة الثقافة) .

من هنا تبدو لنا نظرة بلوك إلى «الحضارة» الغربية ملأى بالشكوى والظلمة. فهذا العالم القديم في أوج «معاناة أوجاعه اللذيذة»، وإنه آيل إلى خرابٍ روحي شامل.

كان بلوك شاعر الروح التراجيدي في تعطشه المرير إلى الوجود الإنساني المتكامل.. وفي بحثه الدائب عن الجمالية الغربية في عصره العاتي، عصر الألم والتحولات.

حسب الشيخ جعفر

1980/7/28

القصـــائد

«هي المترعرعة عبر الجبال»

هي المترعرعة عبر الجبال السحيقة،
الوهدة الخالية كانت موئلاً لها.
مامِنْ أحدٍ منكم أبصرَ بها
بعينين متقدتين.. هي المترعرعة في وحدتها .

ليس غير وجه النجم الوضاء كالنهار
رأى أنوثتها في تفتحها المزهر،
وهي تتعالى إليه نبتةً خضلةً.
مختزنةً في أغوارها ذكرى خفيّةً
ثم مضت إلى موتها برغبةٍ وتوق.

ما من أحد منكم أبصر برفاتها على الأرض.
وفجأةً أزهرت جليلةً في الزرقةِ السماوية،
متشحةً بالثلوج
في أقاصٍ أخرى، فوق ذرىً غير أرضيةٍ.

أيكم، أيها الحمقى، زار مزارها الأبيض؟
هي المزهرة عبر القمم السحيقة
في سرب كواكب غريبَة.

1901

«من مواطن أُخرى»

من مواطن أخرى تجيئكِ الدعوات
وها أنتِ تتهيأين لرحلةٍ بعيدة.
دونما أملٍ هو الوداع
والحسرات تتردد بكثرة.

ثم فاجأنا الشتاء،
ومع تساقط الثلج الأول
ترتحلين آخذة اندفاعتنا القدسية
التي أعانتنا على أن نعيش.

نتطلع إلى طريقك مودّعين
والزوبعة الثلجية تطمس الأثر
وها نحن نتراجع
إلى كسل الأمس المخزي.

إنَّ بحثنا السحري ذاك
لن يشغلنا، بعد، في اللغز الصوفي.
وفي أخريات الليل ننهض خلسةً
لنحلم في ضوء القمر الشاحب.

1901

«الظلال الغريبة»

الظلال الغريبة الصافية
تسبح نحوكِ، ومعها تسبحين،
مُسلمةً نفسكَ
في عناقِ حلمٍ لازوردي لا نعرف له كنهاً.

أمامك البحار والحقول، الجبال والغابات
وهي تزرقّ دونما انتهاء،
وفي الأعالي الطليقة يتجاوب الطير
والضباب يتعالى، والسماء تغدو ورديةً.

وهنا، في الأسفل، حيث التراب والضعة
وقد أبصر، لبرهةً واحدةٍ، بتقاطيعكِ الأبدية
فأترع نفسه الإلهام،
يتغنّى بك عبدٌ مغمورٌ تجهلين من هو،

وفي الحشد البشري، حين يتتبعكِ مكبّلاً إليك ببصره،
متذوقاً أبديتكِ لبرهة واحدة،
لن تتبيني ملمحاً له
أو تكافئيه بابتسامة.

1901

«أَوَ لستِ حلوةَ الخطى»

أو لستِ حلوةَ الخطى التي خطرت في حلمي
فوق ضفةِ النيفا، عبر تخوم العاصمة؟
أو لستِ التي انتزعت مخاوف قلبي
بجرأةِ رجلٍ ورقّةِ أنثى؟

أغنيةً بلا انتهاء كنت تذوبين في تساقط الثلوج
مرددةً نغم الربيع المبكّر بلطف.
ونجمةً كنت تقتربين مني في النهار الوضيء
فتتقدس بك حجارة الشارع والساحة.

أجل. أنت أغنيتي! غير أنَّ ضوءك وقد تهلّل لي
توارى فجأةً في الضبابِ البعيد.
ودون أن ألمحك

ما زلتُ أُسدّدَ طرفي إلى عوالم خفيةٍ
وقد طال غياب الآلهة.
غير أنني مؤمن بشروقك ثانيةً، حيث السَحرُ يلتهب أرجوانياً،
متمهلاً يطبق عليَّ بدائرته المبهمة.

1901

«عند عتبة الكنيسة»

عند عتبة الكنيسةِ يتكاثف الظلام
في الزفاف، في الولادة أو المأتم.
وعن بعدٍ يتلوّى طريق واسع
حيث يمر عابر سبيلٍ مضاءً بحمرةِ الغروب.

هنالك تنطلق السهوب دونما حدود
وهنا، في الظل، تتراكم حلكة دامسة.
وفي كل مرة يسمع عابر السبيل
خطىً تتجاوب آتيةً من الغسق.

إنَّ قبة الكنيسة تبعث برنينها المتواتر
داعيةً لعابري السبل بعودةٍ قريبة.
وفي العمق منها، على حائط الأيقونات الغسقية
ينسكب، محترساً، ضوءٌ ما.

وفي تحيّر وتأمل، وقد اجتاز السهوب المتبسمةَ،
يتوقف هنا العابر منتظراً
أن يلتمع الضوء، ويخفتَ الرنين
فيواصل طريقه مضاءً بحمرة الغروب.

1902

«في منتصف غسق الكاتدرائية»

في منتصف غسق الكاتدرائية
تتراءى الأيقونات في ضوء القناديل.
والليل الحيّ
قريباً يتسلل إلى عينيكَ المؤرّقتين.

ويتحدثون عن الحكمةِ السماوية
فتحسّ بما يذكركَ بالأرض.
وتحت القبب قد أقام الغسق المبهم
وهنا.. صقيع المصطبةِ الحجرية.

ومن أعالي المبنى
فوق هذه الشموع الناعسة
وعلى الأيقونات والأزاهير
تفوح حرارة عميقة.. آثار لقاءٍ عابر.

وفي السكون الملهم
تلاحقكَ أفكار كامنة،
وتحاول أن تدرك فيعتريك الغموض
وتحس بخفقةِ الأفعى واليمامة.

1902

«كثيراً ما ألتجئ»

كثيراً ما ألتجئ إلى الهياكل المظلمة
وأقوم بطقوسٍ فقيرة،
متوسلاً أن تلوحَ السيدة الرائعة
في تألُّقِ قناديلِ الأيقونات الحمر الخافت.

وفي الظل عند العمود الأشم
أرتجفُ لدى كل صريرٍ ينبعث من الباب.
وفي الوجه مني تحدّقُ
الصورةُ المضاءةُ وحدها، طيفٌ منها ليس غير.

آهٍ لقد تعوّدَ البصرُ هذه المسوحَ
التي تسربل الزوجةَ الأبديةَ.
وعالياً تتراكض على الأفاريز:
البسماتُ والخرافاتُ والخيالاتُ.

آه، أيتها الطاهرة.. لكم هي حنونة تلكم الشموع
ولكم هي سارّة تقاطيعك!
لا الزفرات أسمعُ أو الهمسات
إنما مؤمن أنا: بديعة أنتِ.

1902

«آخذ مكاني قابعاً»

إلى عمانوئيل كانت

آخذ مكاني قابعاً خلف ستار. ان لديّ
مثل هاتين الساقين الضئيلتين،
مثل هذه الأيدي،
مثل هذه الكوة المظلمة.
غرفتي دافئة وقاتمة. إني لأطفئ
ما يُجلب لي من شموع
لكنني أقدّم لهم الشكر..
منذ وقت بعيد يتوسّلون إليّ أنْ أُرَفِّهَ عن نفسي
غير أن لي مثل هذه الأيدي.. وأنا عاشق
لبشرتي المتغضنة.
يمكنني أن أرى حلماً ممتعاً،
لكنني لا أزعج نفسي
لن أزعج غيبوبتي هذه
أو أزعج بقع الضوء في الكوّة..
اصالب ذراعيّ
وأصالب ساقيّ مثلَهما
وآخذ مكاني خلف ستار، هنا أحس بالدفء
ثمة شخص ما معي،

وما أنا بحاجةٍ إلى شموع.
ان عينيّ لا قرار لهما كالزجاج
ويدي المتغضنة تحمل خاتماً.

1903

«عند القبور المهجورة»

عند القبور المهجورة والقديمة يتعالى العشب.
نسينا البارحة.. نسينا الكلمات،
والصمت قد أطبقَ من حولنا.

أو لستِ ما زلت حيّةً متألقةً
بسبب من موت أولئك الراحلين، المحترقين حتى الرماد؟
أو ليس قلبك ربيعاً أخضر؟

هنا فحسب، عند قاعدة القبر، بوسعنا أن نتنفس،
هنا حيث كتبت، مرةً قصائدَ رقيقةً
عن موعد ربما كان معكِ..

حيث كنتِ، لأول مرة، تتنسّمين في تقاطيعي الشمعية
أنفاس حياة نائية

طالعةً في عشبِ المقابر هذا.

1903

هذيان

أنا أعرف أنكِ لقريبة مني..
ما أشدَّ احتياجةَ المريض إلى الراحة.
مشدوداً إلى الأعصر الشائبة
كنت أهذي حالماً في ازدهاء كبير.

معكِ أتحدثُ يا ضيائي.
أين هي خمرتك يا ألمي وفرحتك؟
أتعدينني بشروق فجر؟
سأحترق تماماً مع هذه الشمعة.
فاسمعي إذن! إنَّ ذاكرتي لمرهفة،
ليس عبثاً أنك تجدينني.. في هذيان الموت هذا.
أمس لِمّا تزل الغابات والذرى الجليلة
قائمةً بعد.
طويلاً كنت أبحث عن عذراء الأزمنة الغابرة
أتسمعينني؟ أتصدّقين؟ أم أنت نائمة؟
طويلاً كنت أبحث عن عذراء الأزمنة الغابرة

ونفيري في مثل زمزمة الرعود.
هو ذا الندى الثلجي قد علا غدائري
أنفاسي قد استرقها الشتاء
وعيناي أعمتهما الرياح
وباطلاً أمسى دويّ نفيري.

إنما اسمعيني مثلما كنتُ أسمع آنذاك
هدير الزوابع الثلجية النائحة

إنَّ ما حدثَ لي قديماً
لن يتكرر لأحدٍ من البشر.

ها أنا أصعد بقدم غير مرتجفة
فاسمعي وصيتي قبل أن أموت.
أقول لك للمرة الأخيرة:
انني أستنهض البتول البيضاء.

هي ذي غافية في غمامةٍ ضبابية
فوق ذروة الصخرة القاتمة،
حيث تتجاوب النسور مدويةً
ممعنةً في مدائحها.

يا لهذياني الجنائزي الغريب!
هي الروح تهذي وقد ضُيّقَ عليها
انتِ.. يا ضيائي الفريد
ما من امرأة سواك في مأتمي هذا.

إنَّ أطيافي السوداء الباعثة على الارتياح
وإنَّ ذاكرتي لتنتعش فيها:
في رؤى الأزمنةِ الشائبة هذه
رؤى المَواطِن الأليفة.

هنالك كنا.. غير أنَّ شملنا قد انفضَّ،
وإني لأتذكّرُ النغمَ الجنائزي
أتذكّرُ الأيدي حاملةً نعشي الثقيل
وكيف تهاوت عليَّ كتلُ الطين.

1905

«إنَّ وجهكِ لأشدّ شحوباً»

إنَّ وجهكِ لأشدّ شحوباً
مما كان عليه يوم أومأتُ إليكِ
فأسرعت إليّ، بعد تباطؤ،

بخطوتكِ الغروبيةِ الخفيفة.

ها أنا أقف مستكيناً لأيما حكمٍ
عند هذا الحائط الخالي من أي بصيص.
(أي شيء هو القلب؟ لفافة عجيبة
حيث تقترن الرغبةُ والألم).

صدّقيني، لقد عرفنا السماءَ معاً:
نجمةً مخضبةً كنتِ تنسربين،
كنتُ مبصراً بطريقك الأليم كله
حينما بدأتِ آخذةً في الانحدار.

معاً عرفنا، معرفةً فائقة،
الأعالي الزرقاءَ نفسها
وسقطنا معًا خلف حلكة من ضباب
تاركين بعدنا أثراً مائلاً.

غير أنني التقيتك ثانيةً
عند بوابةٍ لم ينْشهَا أيما بصيص،
ونظرتكِ هذه.. لم تكن أقلّ بريقاً
من تألقها في الأعالي الضبابية تلك.

يا نجمتي المذّنبة!
في الكواكب قرأت قصتك المبكرة كلها،
وإني لأعرف بريق الأنجم الكاذبَ هذا
خلف نقابك الحريري الأسود.

ها أنتِ آخذة طريقك أمامي
مبتعدةً في الظلال مثلما ابتعدتِ قديماً،
في الزرقة السماويةِ نفسها
ساحبةً ذيل ثوبك كتلك النجمةِ المذنبة.

احتجبي، إذن، غيرَ متمهلةٍ في الظلال المعتمة
ولا تتهيّبي أن تتذكري أو تنظري إلينا.
لقد كُتبَ على حزامك الفضيّ الضيّق
أن يمُسيَ مجرّةً لساحر مثلي* .

الغريبة

في الأماسي، على امتداد المطاعم
يمرّ الهواء الحار سرّياً وخافتاً،
ويسوق ولولةَ السكارى

* أي يهتدي بأثرها الضوئي الطويل متخلصاً من ظلاله (المترجم).

روحٌ ربيعيٌّ قاتم.

وبعيداً، فوقَ غبار المنعطفات
وكآبةِ أكواخِ الضواحي
يلتمع ذهبُ كعكةٍ غاربة
ويرتفع أنينُ طفل.

في كل أمسية، عبر حواجز الطرق،
بقبعاتهم المائلة بصلافة،
يقود رجال نكتةٍ مجرّبون
سيداتهم، وسط الخنادق الجافة.

وعلى البحيرة تصرُّ مقابضُ المجاذيف
وتعلو صيحاتُ نساء ثاقبة،
وفي السماء، مثلما تعوّد في وجه كل شيء
يمطُّ قرصٌ شفتيه في غباء.

في كل أمسيةٍ صديق واحد
أراه مرتسماً في قدحي
وبتأثير خمرةٍ سريةٍ ولاذعة
مستكين مثلي ومشدوه.

وبين الموائد المجاورة
يتسكع خدمٌ يغالبهم النعاس،
ويهتف سكارى لهم عيون الأرانب:
الحقيقة في الخمر.

في كل أمسية، في ساعةٍ معينة،
(أم أن هذا يخيل لي وحدي؟)
قامةٌ شابةٌ، ملتفة بالحرير،
تلوحُ في ضباب النافذة.

وبخطى متباطئة تتسلّل بين السكارى
وحيدةً، دونما رفقة،
ناشرةً من حولها الأرجَ والضباب
وتأخذ مكانها عند النافذة.

إنَّ حريرها الفضفاض
يفوح بشذى اعتقاداتٍ غابرة،
قبعتها بريشٍ جنائزي أسود
ويدها النحيلة مثقلة بخواتم.

فأجدني، مكبّلاً بقرابةٍ عجيبة،

أتطلعُ عَبْرَ عتمةِ النقاب
فأرى شاطئاً فاتناً
وأبعاداً خلّابة.

إن أسراراً دارسة مودعة عندي
وشمساً ما قد وضُعتْ بين يديّ،
وفي كل منعطفات نفسي
تتسرّب خمرة لاذعة.

ريش النعام المقوّس
يرتجف في دماغي،
وعينان زرقاوان لا قرارَ لهما
تزهران عند الضفةِ السحيقة.

في صدري يختبئ كنزٌ
مفتاحه أعطيَ لي وحدي.
مُحِقٌّ أنتَ أيها الغول السكّير
أنا أعرف: الحقيقة في الخمر*.

1906

* تتطور فكرة هذه القصيدة بعد فترة... فيكتب الشاعر مسرحية تحمل العنوان نفسه (المترجم).

«في الساعة التي تسبق المغيب»

في الساعة التي تسبق المغيب
كنت، مع الغسقِ، أهبط المرتفعات،
فإذا بي عَبْرَ العتمة الكابية
قُبالةَ تقاطيعِ الأختِ المكتئبة.

خطواتها لا تُسمع
في الظلمةِ المتسارعة وراءها،
حيث تتأوّهُ مهجٌ لا حصرَ لها
في الوهاد والأودية الضيقة.

ـ يا أختنا، من أية جهة في البرد والمطر
آتيةٌ مع هذه الحشودِ الكئيبة،
المطاردةِ بسياطِ الجوع
حيث الحياة قبر متنقّل؟

هي ذي تقترب، وتتوقف
وترفع شعلتها في الضباب،
ملقيةً ضوءاً خافتاً
على خبايا الأرض كلها.

هناك في الأقنيةِ عند الطرقات
كنت أتبيّن، مرتعشاً،
ملامحَ أوجاعٍ لا تحتمل
وتشنجات أبدانٍ متهالكة.

وثانيةً تنخفض الشعلة المحتَبسةُ
فتنصرف متبسمةً لي
خفيفةً، دخانيةً
كهذا الضباب المتكاثف من حولي.

ولما أزل محتفظاً بذكرى تلكم التقاطيع
والصمتِ في محاجرها الفارغة
وسيظلّ واقفاً قُبالتي
ذلك الرتلُ المقضيُّ عليه بالهلاك.

1906

الخَمرَة الثلجيَة

وثانيةً تُنزلين الذعر في قلبي
متلألئةً في قدح الخمر
بابتسامتك الطفولية

بين غدائرك الأفعوانيةِ الثقيلة.

ثانيةً، دونما رغبةٍ،
وقد اجتاحني هذا السيل الأسود،
أستنشق حلم قبلاتك المنسي
في التفاف الزوابعِ الثلجية من حولك.

وأنت تضحكين ضحكتك البديعةَ
متلويةً كالحيّةِ في القدح الذهبي،
وعلى فرائك السمّوري
تتراكض الريح الزرقاء.

وكيف، وأنا أرى وجهي في هذا السيل المتألق
لا أجدني متوجاً بإكليل؟
أو لا أتذكر قبلاتك على وجهي
*وقد ألقيتُ به إلى خلف؟**

1906

---

* هذه القصيدة وأغلب قصائد عام 1907 كُتبت، وكان الشاعر قد تعلق بالممثلة الشهيرة فولوخوفا، في حالة شعرية خاصة: كان مندفعاً في حبه وشعره... وقد أهدى إليها مجموعته بهذه الكلمات: (لكِ أيتها الفارعة في ردائها الأسود... أقدم هذه القصائد... يا امرأةً بعينين مجنّحتين، مولّهتين بلهب مدينتي الثلجية وضبابها)، وتبرز صورتها في مسرحيته «أغنية القدر» (المترجم).

«ها قد جئتِني أخيراً»

ها قد جئتِني أخيراً
مزرية بأية أنيقةٍ سواك،
فوجدتُ نفسي طريقها
إلى مدارٍ لها محددٍ من حولك.

ومع الآهةِ الثلجيةِ المتقدة
تتهلل ملامحُ وجهكِ الفاتن.
وفي الغيبوبةِ الثلجيةِ الناصعة
وحيدةً تندفع عربتنا ذاتُ الأجراس.

وانطلقتِ بي إلى العراء
ملوحة بالجلاجل الصادحة،
وانفتح فراؤكِ السمّوري عن آخره
وفاض شذىً حريركِ الأسود.

أتوقاً لمشيئتكِ الحرةِ هذه
تنتحبُ حيال الشاطئ الرياح،
وترنّ الجلاجل عاليةً
وتنطفئ النيرانُ عبر السهول؟

إنَّ حزامك الذهبي ليشدّ عليك بقوة،
وطرفك المتوحش متواضع بوقاحة،
فامكري، إذن، بهم جميعاً في برهة واحدة
وليغرقوا في الشعلة الملتهبة.

ودعي الريح تصدح متغنيةً
بمكركِ هذا، وبردائكِ الحريري.
وليجهل البشر أبداً
أيةَ يدٍ ضيقةٍ لديك!

وأي مدىً لبرهةٍ قد انكشفَ لي
عَبْرَ خماركِ الأسود..
وكيف ارتمى على المدى الثلجي الناصع
خمارك الأسودُ هذا!

1906

كليوبترة

متحفُ الشمع الكئيب، وقد مرّ عليه
عام وثانٍ وثالث، ولما يزل مفتوحاً.
ونحن نحثّ الخطى إليه

حشداً من السكارى والوقحين، حيث تنتظر الملكة

مستلقيةً في تابوتها الزجاجي
ليست بالحيةِ أو الميتة،
وهمسات الناس الصفيقة
تدور حولها دونما انقطاع.

متمددة على طولها بكسل
لتنسى الى الأبد، ولتغفو إلى الأبد..
وبلطفٍ وتأنٍ
تلدغ الأفعى ثديها الشمعي.

وأنا المأجور الشائن
بدائرتين زرقاوين حول عيني،
أتيت لأ تمتع بمنظرٍ جانبيٍّ من الشمع
يُعرض تحت كل عين.

كل صعلوك بمقدوره أن يحلق بك الآن،
ولو لم يكن تابوتكِ فارغاً
لكنتُ اسمع شفاهك الرماد
وهي تزفر همستها المتغطرسة :

قرّبوا مني المجمرةَ وأكاليل الزهر،
أنا التي كنتُ في غابرِ الزمن
ملكةَ مصرَ المتوجةً
لستُ الآن إلا شمعاً. أنا العدم، أنا الهباء.

أيتها الملكة! أنا أسيرُ يديك.
عبداً رقيقاً كنتُ بالأمس في مصر
وقد قضى القدر بأن أصبح اليوم
شاعراً وملكاً.

أتراكِ تبصرين، عبر زجاج التابوت،
أن روسيا مثل روما مخمورة بك؟
وأنني وقيصر
معاً نمتلك المصير نفسه عبر القرون؟

أصمت. أتطلعُ. لم تكن مصغيةً لي،
غير أن صدرها يخفق بصعوبة
متنفساً عبر الغلالة الشفافة..
وكنتُ أسمع همساً خافتاً يقول:

يومذاك كنتُ سيدةَ العواصف،

واليوم أنتزع أكثرَ الأشياءِ حرقةً.
دموعَ الشاعر السكير
وقهقهةَ البغي المخمورة.

1907

عشِق

هي ذي ثانيةً عتمتك الغسقية العذبة أيها العشق،
وثانيةً: إلى الأبد.. غضّ طرفاً..
والنهار الضبابي والليالي المؤرقة،
وبعيداً، بعيداً على موجها تطير المراكب.

فوق السهول الثلجية
يتبسم الفجر حالماً في اتجاهٍ ما.
وبأجنحتك الناصعة كالثلوج
تغمرين في ظللكِ عاهلاً راحلاً إلى الرقدةِ الأبدية.

الملاك، وهو يقطّبُ حاجبيه غيظاً،
يصالب سيفيه الشعاعيين في الأعالي.
غير أنني أحسّ بابتسامتك تنصبّ في كل عرقٍ مني
في صليل الغضب الفولاذي المتساقط.

1907

اضطراب

(أهي نحن. هذه الظلال المتراقصة؟
أم نحن من يلقي بهذه الظلال؟
إنَّ كل نهار لينطفئ مثقلاً
بالتوهم والخديعةِ والتهاويل.

لستُ مدركاً.. ما الذي يجتذبنا اليه،
ولستِ تدركين ما جرى لي،
ترى أية تحديقةٍ تحت هذا القناع
يضبّبها الغسقُ الثلجي العاصف؟)

أهي حقاً عيونك، هذه التي تتوهج قُبالتي
أم أنني في حلم؟
أفي الظهيرة نفسها
تتكوم من حولي هذه الخصل الليلية المتكاثفة؟

أكان مقدّراً عليك
أن تنتزعيني بعيداً عن طريقي؟
أم هي رقتي ورغباتي
تود أن تندفع زوبعة ثلجية متلوية؟

ألا دعني أتسمّعُ أيهذا القناع
إلى خفقات قلبك القاتم الحادّة،
ألا أعد ليَ روحي، أعدْها
يا شقائي الوضيء.

1907

الطريق المسدُود

لا مفرَّ من هذه الزوبعةِ الثلجية،
وإني ليفرحني أن أهلك فيها.
هاقد أوصلتني إلى دائرتها المفرغة
وأخفتني بحجابٍ من فضةِ الثلوج.

هادئةً تتطلع إليّ
ذات العينين السوداوين.
مُرنّحاً بالعواصفِ القدريةِ
أحلق مترنمًا.
ضائعاً في مجاهل الثلج الهائج.

وعلى الأسرّةِ الثلجية
يغفو قياصرة الأمس ورجاله

في رقدتهم البيضاء الأخيرة:
ضحاياكِ المتجلّدة.. أيتها الغريبة.

ويتطلعون في وجهي مرحّبين:
لتنهض من بين الموتى.

1907

على الشعلة الثلجَية

وشَبّت الشعلةُ العالية
فوق هذا المتسمّر على الصليب.
والليالي بأعينها الثلجية
عالياً تعبر غير آبهةٍ بشيء.

وتعبر الليالي الفتّية
أخواتٍ يغزلن ثلوجاً
ويحدّقن بأعين متسعة
ويفتلن الدخان الأبيض.

وبأعين مجنحةٍ
حنوناً تتطلع الأعالي

فتلوّي أيتها الشعلة، خفيفةً تلوّي
حثيثاً حول هذا الصليب.

يا فارساً جميلاً في قناعه الثلجي
لتحترق في قناعك الثلجي!
أأنا التي لم تعشق وتترنم
ولم تغمرك بالقُبَل
من الفجر إلى الفجر؟

لتتولّه، إذن، بحبي،
رشيقة أنا يا فارسي الجميل،
فبهذا الدمِ الثلجي كله
وفيةً كنتُ لكَ يا فارسي الجميل.

طوال ليالٍ ثلاث كنت أدعوك
ممشطةً جدائلي،
وأمْكَنْتُكَ أن تحدّق مني في عيني هاتين
ووهبْتُكَ هذه الأجنحةَ الخفيفة.

لتحترقْ، إذن غيوراً، وضيئاً..
وبيدٍ خفيفةٍ

سأشتّتُ على اتساع السهل الثلجي
رمادكَ الخفيف.

1907/1/13

حُب في الخَريف
- 1 -

حين يأخذ العنقود بالتورد
بين أوراق الغبيراء المغراء الرطبة،
حين يدق الجلّاد بيدٍ بارزةٍ عظامها
آخر مسمارٍ في راحةِ يدي،

حين أبدأ بالتأرجح على صليبي
فوق ترقرق النهر الرصاصي،
في الأعالي الرطبةِ الرماديةِ
قُبالةَ وجهِ موطني المتجهم،

بعيداً، عندئذ، وعلى امتداد البصر
أحدّق، عبر دمٍ من أدمعٍ تسبق الموت،
فأرى: في النهر الفسيح
أرى المسيح مجدّفاً في قاربه، مقبلاً نحوي.

ملء عينيه مثل هذا الأمل
وعلى بدنهِ الأسمال نفسها،
ومن بين ثيابه تبدو يده المثقوبةُ
باعثةً على الأسى.

ايهٍ يسوع! إنَّ وطني الرحيب لحزين!
وأنا رازح تحت أعباء الصليب،
أَوَ ترسو بقاربك
عند صليبي السامق هذا ؟

- 2 -

هي ذي شجيرات الصفصاف، وقد تساقطت اوراقها
تهشّمها وتمعن في قتلها الرياح.
وكغبار الطريق
تنطرح الكهولةُ العابسةُ على خديّ.
غير أن مقتلي في محجريهما القاتمين،
تترامقان، وتلتمعان بوهج لا يُحتمل..

والبهجة كلها، والمجد كله
في هذه الإشراقة النائية،

هذه الإشراقة التي لا يُسبر لها غور.
غير أن أعشابي الموطوءةَ
تلوح مكتئبةً،
وفي غابها المتعرّي تدوّم بقايا الاوراق.
وأنا أحلم دونما انقطاع
بالشمس الأليفة!
غير أن أسفي عليك ليزداد..

آه، يا قلبي الأحمق
يا صبياً متضاحكاً
متى ستكفّ عن الخفقان؟

- 3 -

أية متعةٍ أن أعانق أكتافكِ المقرورة
في مهب الرياح!
وتظنين أنها رقة حانية،
إنما هو فرحُ التمرد العظيم.

وتلتمع عيونكِ خافتةً كالشموع في الظلمة
وبشراهةٍ أصغي إليك:

فأرى بداية خرافية مرعبة
وتخومَ أنجم تتنفس.

آه في هذه الأمسية المتألقة
رائعةً، مثلكِ دوماً، ستكونين،
وستلوحين لي نجمةً وضّاءةً
مُترَعةً نفسُكِ بجنتك المبهمة.

أعرف أن الرياح قارسة
وأن خريفنا هذا بلا أحاسيس،
غير أنَّ أحداً لن يعرف، وأنت في معطفك القاتم،
أنكِ كنتِ على مأدبتي منذ حين.

ومعا نندفع في السهوبِ الخريفية
وفي أسماعنا أصوات نفير بعيد،
معاً نذرع الطرق الليلية
في مرتفعات روحي الباردة.

انطوت ساعات حفلنا الزاهي،
وها هي شفاهي الثملة
في الهلع الرهيب الذي يسبقُ الموت،

تُقَبل شفتيكِ الباردتين

1907

«في تلكم الليالي المقفرة»

في تلكم الليالي المقفرةِ، الوضيئة
حين تنعكسُ الجسورُ في النيفا،
التقيا أشبهَ بغريبين
ناسْيين أن يتحدثا كصديقين.

معاً كانا شابّيْن وجميلينْ،
غير أنها، وقد تجنحت بالفراغ،
أضمرت تحت جمالها المتوحش
برداً لاذعاً عجيباً.

وبقلبه المتدفق، الصارم أبداً،
لم يكن ليعرفَ أو يقدرَ أن يحب
ولم تكن لتحب إلا أن تُغيظَ وتروّضَ
وحشاً كامناً في صدره.

ثم صافحها كغريب

فأسرعت الجهات الشمالية
بإعانةِ الضجر والرقة الجميلة
فأحالت الليلةَ الحيّةَ إلى نهار.

هكذا في العراء الليلي الوضيء
تطلعت متمهلةً، وقد احتضنها الليل،
إلى وجهها في قبةِ الفلك الزرقاء الشاحبة،
روحٌ مقضيّ عليها بالهلاك.

1907

عَذراء الثلوج

من الأقاصي البدائية
أقبلت ابنةُ الازمنةِ الليليةُ الأخرى.
لم يكن أحد من أهلها في انتظارها
ولم تَتَهَلَّل لمقدمها السماء.

لكنها، حين رأت أبا الهول بوجهه المحفّر
مطلاً على النيفا الهائل*،
أطلقت صيحةَ مرحٍ خفيفةً

---

* أبو الهول، في هذه القصيدة، واحد من التماثيل القديمة على ضفة النيفا .

في الزوبعةِ الثلجيةِ الليلية.

فتغمر الزوبعةُ الثلجية
صدرها وأكتافها نجوماً..
وعبر الضباب الشمالي العاتم
تتراءى لها مصرُ دونما انقطاع.

وبهذا اليقين الخفي الغريب
تتقبل مدينتي الحديدية الرماديةَ
مملكةً لها،
حيث الريح والمطر، حيث الضباب والتموج الخفيف.

إنها لتعجبها الهياكل الضخمة،
الهياكل الناعسة في المجاهل الليلية.
وإنَّ روحها لتمتزج حالمةً
بقناديلِ الأيقونات الخافتة في النوافذ.

إنها لتتفهّم التموّجَ والدخان،
النيرانَ والظلماتِ والمنازل..
تتفهّم مدينتي الغامضة المبهمةَ
هي المبهمةُ الغامضةُ الأخرى.

إنَّ هديتها لي خاتمُ الزوبعةِ الثلجية
إطراءً لمعطفي المتضوئ أنجماً،
وقد أبصرتني في درعي الفولاذي
بهذا الصليب القاسي على الدرع.

وتحدّق في عينيّ بقوة
مُكْبِرةً فيَّ خصمًا لها غيرَ هيّاب،
ومن سهولها الليليةِ المقرورةِ
تندفع إلى أعماقي الثلوج.

إن قلبها لأبكم
فلن تمتدَّ يدها إلى الحسام
لتشقَّ بقبضةٍ متلهفةٍ
أحزمةَ خوذتي الفولاذية.

وأنا كزعيم جحفلٍ عدوّ
مكبلٍ أبداً بهذا الحديد
أطوي حناياي على اختلاجةٍ قدسيةٍ
حالماً بعناقٍ حافلٍ معها.

1907

«وعشتُ سنةً جنونية»

وعشتُ سنةً جنونيةً
عندَ ذيلِ ثوبٍ أسود.
ومن أجل أوجاعي، من أجل عذاباتي ونكباتي
لامست يداها شعري
وحدّقت بي عيناها السوداوان،
والزوبعة الزرقاء القاتمة تتنفّس.

أرنو إليها، وعيناي محاطتان
بدائرتين زرقاوين.
وكصديق مكتئب
تقصُّ عليّ شيئاً من حلمِ البارحة.
وفي أمسيتنا الطويلة، في الأمسية المظلمة
عبر النافذةِ لما تزل الريح تدور.

ثم تنتهي من غزلها
وبهدوء تطويه.
ومع نوبةِ الحراسةِ الثالثة
كانت رغبتي الكئيبة قد تلاشت.
أتطلع إليها.. أُقبّلُ غدائرها الفاحمةَ،

وفي قلبي ينصبُّ نطْقُها القاتم.

هكذا تنقضي الليالي والأيام
عند ذيل ثوبها، في الصالةِ الهادئة.
وفي الموقد تُحتضَرُ النيران
وعبر النافذة
تتراقص الثلوج المتسارعة...
وها هي تنهض لتغادر.

وقد عصبتْ رأسها قوياً
بمنديلها الحريري الأسود،
وللمرةِ الأخيرة تلاطفني
ملقيةً إليّ بإيماءةٍ حلوةٍ،
وتغادر.. حركاتها آخذة بالتسارع
وفي عينيها تتضاءلُ شرارةٌ ما.

وأصيخ بسمعي
إلى دقةٍ على الباب الزجاجي النائي،
إلى النغمِ الخافتِ المتلاشي
منبعثاً من الفحم في الموقد الخابي،
ثم أقذف ثانيةً بنفسي إلى الباب

راكضاً وراءها.. في الحديقةِ العامةِ المتجلّدةِ،

عَبْرَ الطرقات يتأوّه الليلُ،
وبخطاها المتمهلةِ
تجتازُ أحواضَ الزهرِ، دائرةً حولها الواحد بعد الآخر،
متراجعةً،
مقتربةً، ومتقدمةً جانباً..
والصخبُ النائي يكاد لا يُسمع،
والمدينة تغفو مكتظةً بالثلوج.

في الهواء المتجلّد.. وحدها
ترنّ الخطى مدويةً،
وفي ضوء مصباحٍ قلقٍ في زقاق
أعرف أفعاي الرائعةَ:
زاحفةً من بقعةِ ضوءٍ إلى أخرى
وذيل ثوبها يتلوّى كطرفِ النجم المذنّب.
وحين أُدركها، مندفعاً بحمّى جديدةٍ،
هامساً بكلماتٍ رقيقة،
ثانيةً أُحسّ بدوار.
وأقف أمامها كحيوان متوحش
مضاءً بلهب حريقٍ بعيد،

وتدقّ الباب المتثائب.
وندخل كما في هاوية، كما في عراء الليل،
ارتقاؤنا وعرٌ، شديدُ الانحدار..
وها هو الهذيان والظلمة، والعيون تتألق.
وعلى أكتافها تنحدر الغدائر
موجةً رصاصيةً.. أكثرَ سواداً من فحمةِ الليل.
آه، يا ليلةَ الزفافِ الأليم.

أي هيجانٍ لبرهةٍ واحدةٍ! أي حلمٍ وضيء!
واحتدامُ عناقاتٍ غيرِ مجديةٍ
وصخبُ الصباحِ الآتي:
عَبْرَ ستار النافذةِ السميكِ
تتزاحمُ الملائكة،
غير أن الليل يبقى معنا، هائجاً، ثملاً.

أجل! يبقى معنا الليل! وبسلطةٍ جديدةٍ
يكبّلنا ليلنا النهاري
لكي ينطفئَ النهار المرهق
في الرغبة الموجعة.
ولساعات طويلةٍ، فوقنا
يخفقُ ليلنا النهاري ضارباً بأجنحته..

وثانيةً يحلُّ المساء.

1907

أغنية فاينا*

حين أُحدّقُ في عينيكَ
بعيني أفعى ضيقتين
وأصافح يدكَ بحب،

كن حذراً! فأنا أفعى بكليتي!
انظرْ: لبرهةٍ واحدةٍ كنتُ لكَ
وهجرتكَ.

إنكَ لبغيض إلى نفسي، فانصرف
سأُقضّي هذه الليلةَ مع غيرك!
فابحث عن زوجتك.

امض إليها، ستبدّدُ لك حزنَكَ،
دعها تلاطفك وتقبّلك،
فانصرفْ.. سأهوي عليك بالسوط.

---

* «فاينا»: اختار الشاعر هذا الإسم «الحريري الرقيق الغامض» لمعشوقته الممثلة: فولوخوفا (المترجم).

ليحاول من يرغب، ليتقدم في حديقتي
ليحدّق في طرفي الأسود الضيق..
سيحترق في حديقتي.

أنا ربيع بكليتي.. كل شيء فيّ من لهب!
وأنت الآخر لا تقترب
فأنا أنتظر من أهوى.

من كان شيخاً أو في ميعة الصبا
من يتقدم بنقود أكثر رنيناً
ليقترب على ندائي الصادح!

فوق الجمال، فوق الشيب،
فوق رأسكم الأحمق
يتعالى صفير سوطي الدقيق

1907

فوقَ البحَيرة

معَ البحيرةِ أتحدّثُ عندَ المغيبِ
مترنماً بنغمٍ مرتفعٍ. وفي أجمةِ الصنوبرِ النحيفةِ

حيث تلوح الرمال ناتئةً،
وعَبْرَ المدافنِ والأضرحةِ
حيث تتوقّد القناديل، والغسقُ رماديٌّ أزرق،
أبعث إليها بأغنياتِ حب.

هي لا تراني.. ولا أجدُ هذا مهماً.
وكامرأةٍ مرهقة
تنطرحُ محدّقةً في السماء.
آخذةً بالتضبّب، والأفق يبدو مُشْرباً بالضباب،
منتهبةً حمرةَ الغروبِ كلها.
إن كل شيء ليشبع نزواتها:
ذلك القارب النحيل ملاطفاً صفحةَ الماءِ الآمنة
وهذا الصف الأهيف من جذوع الصنوبر
والنصبُ في الضفة البعيدة
بلهبه الاخضر المنعكسِ
في مياهها المتوردة.

وإليها تزحف الأفعى ذات الأعين الثلاث
في طريقها الفولاذي الفريد.
وقبل أن أسمع الصفير.. تحمل لي البحيرةُ
ضجة الأفعى البحاء الزاحفة

وأنا على الجرف الناتيء.. من فوقي
قبرٌ من الجرانيت الداكن.. ومن تحتي
طريقٌ ضيقٌ يتراءى أبيضَ في الغسق.
من يُلقِ عليّ نظرةً من الأسفل
يصبْه الرعبُ: جامداً كنتُ
بقّبعةٍ عريضةٍ، بين المقابرِ الليلية،
شابكاً ذراعي، نحيفاً
مأخوذاً بحبِ العالم.

لكنني خفيٌّ عن الأنظار. في الأسفل
يتجوّل المحبّون، ولا يهمهم شيء من أمرِ البحيرة
أو أيُّ شيء من أمري
وقد وقفتُ عالياً.
إنَّ ما يهمهم هو التنهدات البشرية،
وما يهمني هو أنفاسُ الصنوبرِ والماء،
وإن ما يهم البحيرةَ الحسناءَ:

أن أتغنى، خفّياً عن الأنظار،
بأغنيتي المتصاعدةِ عن الفجر الصافي
والصنوبرِ الأهيفِ وروحي الحرةِ.

مضتْ أزواجُ المحبين، والغسقُ أكثرُ زرقةً
والضبابُ أشدّ بياضاً، وأنا أُبصر في الأسفل
بثنايا خفيفةٍ من رداءِ فتاة،
واجمةً تعبرُ الطريق الضيّقَ
وتجلس وحيدةً على درجاتِ قبرٍ
دون أن تلاحظني.
فأتبيّن منظرها الجانبي الناحلَ، ولتظلَّ جاهلةً أمري،
وتكهّني بتأملاتها الحالمةِ في مثلِ هذه الساعة
حيث أكواخ الضواحي البعيدة
تتضوّأُ جميعاً.. هناك السماور على النار
ودخانُ السيجارِ الأزرق، والضحكُ التافه.
اذن، جاءت دونما رفقةٍ،
ولعلها تذودُ عنها
هذا الفتى في السترةِ الخاكيةِ المقفلة
ذا الساقين الملتفّتين، في مِشيته المتهادية،
بأنبوبتي بنطلونه.

وهي تبدو وكأنها تتطلع عَبْرَ الضبابِ،
عَبْرَ البحيرةِ والصَنوبرِ والتلال ،
بعيداً، بعيداً..
حيث أعجزُ أن أتطلّعَ.

أيتها الرقة! أيها النحول! وها أنا أُسارع
باحثًا لها عن اسم:
ليكن اسمها آديلينا، ماريا أو تيكلا!
أجل! تيكلا.. وهي تتطلع متأملةً
في الضباب وقد أخذ يتصاعد متلوياً..
آه.. إنها لتذوده عنها حقاً.
والفتى الخاكيُّ يقترب: سترةً بصفِ أزرارٍ واحد
يعلوها شاربان وأنف كالزر
مفلطح تحت سدارته.
ها هو يقترب.. ها هو يصافحها،
وعيناه القلقتان تحدّقان في عينيها الصافيتين.
وكنت قد ابتعدتُ عن الضريح
فجأةً.. أخذ يقبّلها قبلاً طويلةً، متمطّقاً،
يناولها ذراعه، ويقودها إلى كوخٍ صيفي.

أنطلقُ مقهقهاً، صاعداً
وأقذفهم بعرانيسِ الصنوبر والرمال، وأزعقُ راقصاً
بين القبور، طويلاً، خفيّاً عن الأنظار..
وأصرخُ: أنتِ يا فيوكلا، فيوكلا.. وهما
خائفان، مرتبكان، لا يعرفان
من أين تأتيهم العرانيسُ والقهقهةُ والرمالُ..

فيحثُّ خطاه، غيرَ ناسٍ
أن يتهادى رشيقاً
وهي تكاد تركض خلفه
ضامّةً نفسَها إلى سترته.

أي! طابت ليلتكما!
وأنعكسُ في البحيرة
راكضاً على جرفها المنحدر
ونحن نرى وجهينا متقابلين
فأهتف: مرحبا..
وبصوتٍ حسناء
تجاوبني غابةُ الشاطئ: مرحبا..
وأصرخ: وداعاً.. فتصرخ بي:
وداعاً
وتظلُّ البحيرة صامتةً، وقد اشتدت رطوبةُ الضباب،
غير أننا ننعكس في مياهها بجلاء
أنا وحلفائي جميعاً:
الليلة البيضاء والسماء والصنوبر.
وتحملني الليلةُ البيضاءُ الحالمةُ الى منزلي
والريحُ آخذةٌ بالصفير
في وجهي الملتهب، والحافلة تطير..
وفي غرفتي يبيضُّ الفجرُ

منطرحاً على الكتبِ والمناضدِ
على السرير والأريكةِ الوثيرةِ،
على رسالةٍ من ممثلةٍ تراجيديةٍ:
«لقد تعبتُ تماماً. أنا مريضة جداً.
لم تعد الزهور باعثةً على الفرح. اكتبْ لي..
اغفرْ لي وأحرقْ هذياني هذا..»

وكلمات منهكة أخرى.. وخطُّها الطويلُ
مرهقٌ مثل ذيلِ ثوبِها المرهق.
وحروفها تتوهج منهكةً، رقيقةً
كالحجرِ الكريمِ الساطعِ في شعرِها الأسود.

1907

بَين الكثبان

لا أحُب المفرداتِ الفارغةَ
مفرداتِ الغرامِ والتعابير الباعثة على الشفقة:
أنتِ لي، أنا لكِ، أحبكِ إلى الأبد..
أنا أبغضُ العبوديةَ. بنظرةٍ طليقةٍ
أُحدّقُ في عيني الامرأةِ الجميلةِ
وأقول: اليوم ليل. إنما غداً

سيحلُّ نهارٌ جديدٌ مشرقٌ.. تعالي.
ولتأخذيني أيتها الرغبة الحافلة،
وغداً سأنطلق وأغنيّ.

إنَّ نفسي لبسيطة،
غذّتها رياحُ البحرِ المالحةُ وروحُ الصنوبرِ الحالكةُ،
وفيها مثلُ هذه العلائمِ المرتسمةِ
على وجهي الملفّح بالرياح
وإنّي لرائع.. بالجمالِ التاعس
لهذه الكثبانِ المتزعزعةِ والبحارِ الشمالية.

هكذا كنتُ أفكّرُ، مطوّفاً على الحدود الفنلندية،
مُلمّاً بما يدور حولي من لفظٍ مبهمٍ
يتفوّهُ به الفنلنديون غيرُ الحليقين، ذوو العيونِ الخضرِ.
ثم سادَ الهدوء. وعند رصيف السكةِ الحديد
يطلقُ القطارُ المتأهبُ أبخرته.
والحرس الكمركي الروسي
يستريح متكاسلاً
على الجرف الرملي،
حيث ينتهي شريطُ السكةِ.
هناك تنفتح أراضٍ أخرى،

والمعبدُ الروسي يتطلع إلى الرتبةِ الغريبةِ
أشبهَ بالمتشردين.

هكذا كنتُ أفكر. وها قد أقبلتْ
وانتصبتْ على المنحدر. عيناها
محمرّتان بالشمس والرمال
وشعرها كالصنوبر في مثل لون القار
يسقط عى أكتافها، ضارباً إلى الزرقة.
ها هي تصالب نظرتها المتوحشة
مع نظرتي المتوحشة. وتضحك
ضحكةً عالية، وتقذفني
بحزمةٍ من العشبِ وقبضةٍ من الرمالِ الذهبيةِ
ثم تهبُّ واقفةً
وتندفع حاجلةً على المنحدر الرملي.

فأخذتُ أطاردها بعيداً
وقد تخمّشَ وجهي بالصنوبرِ ودميتْ يداي
وتمزّقَ ثوبي. كنتُ أطاردها صارخاً
كما أطاردُ وحشاً. أطاردُ وأنادي
وصيحتي المتأججة في مثل هزيم النفير.
وهي تُبقي أثراً خفيفاً وراءها

بين الكثبانِ المتزعزعةِ، وتتوارى في الغابة الصنوبرية،
وزرقةُ الليل آخذة بالتموجِ من فوقها.

وأنطرحُ لاهثاً من الركضِ،
وحيداً، متعفّراً بالرمال، ولم تزل في عينيّ الملتهبتين
راكضةً، متفجرةً ضحكاً:
شعرها يقهقه، ساقاها تُقهقهان،
ثوبها يقهقه منتفخاً في انطلاقها.
أنْطَرِحُ وأفكر:
اليوم ليل
وغداً ليل..
ولن أغادرَ هذا المكان،
دون أن أصطادهَا كوحشٍ
معترضاً طريقَها
داعياً بملء صيحتي الراعدةِ كالنفير
ولن أقولَ:
أنت لِي، أنت لِي.. لتصرخ بي هي:
أنا لكَ، أنا لكَ.

1907

«بلا بدايةٍ هو الربيع»

آه، بلا بدايةٍ هو الربيع ودونما انتهاء،
بلا بداية ودونما انتهاء هو الحلم.
أعرفكِ أيتها الحياة.. أتقبّلكِ
وأحييكَ بدويّ المجنّ.
أتقبّلكِ أيتها الخيبة
وأُحيّيك أيها الفوز.
لا شيءَ مخزياً في أقاليم البكاء المسحورة
أو في خفايا الضحكِ والسرور.
أتقبّلُ الليالي المؤرّقةَ الطويلةَ،
وأترك عينيَّ المحمرتيْن،
والصبحُ عَبْرَ الستائرِ القاتمةِ،
تعّبانِ من خمرةِ الربيعِ الحادّةِ.
أتقبّلُ القرى المقفرةَ الموحشةَ
وآبارَ المدنِ الأرضية،
رحابةَ العراءِ الوضيء
وأعباءَ الكدحِ العبودي.
وألتقيكِ عند عتبةِ المنزل،
الريحُ عاصفةٌ في غدائركِ المتلويةِ كالأفاعي
وعلى شفتيكِ المزمومتين الباردتين

لغز الآلهةِ الذي لا يُفَسَّرُ.
في لقاءٍ لدودٍ كهذا
لن أُلقي بمجنّي جانباً،
ولن تكشفي لي عن كتفيكِ،
غير أن حلمًا ثملاً يظل مرتجفاً فوقنا.
وأتطلعُ في غور كراهيتك
مبغضاً لكِ، لاعناً ومحباً لكِ:
لقاءَ آلامي.. لقاءَ هلاكي بكِ، أنا أدري،
أتقبلكِ على أيةِ حال.

1907

«مثلُ هِبةٍ معدنية»

مثلُ هِبةٍ معدنيةٍ هو العالم
وأنا ثريٌّ كقبضةٍ من الذهب.
إن لهباً ضاجّاً يتصاعدُ،
إن عينيكِ تتوهجان.
أي هلعٍ! أي سطوعٍ هذا!
كل هذه المدينة حزمةٌ من لهبٍ
والنهرُ في مثل صفاءِ الزجاجِ
غيرَ أنني بعيد.

أنا هنا في الزواية.. أنا مصلوبٌ هناك،
أنظري: إنني مسمّرٌ على الحائط.
وعيناكِ تتوهجان.. تتوهجان.
كفجرْين أسودْين.
سأظل هنا. سنحترق جميعاً:
أنا والنهر والمدينة..
فلتعمّديني يا جميلتي
بهذه النار المطهّرة.

1907

«هي ذي الخائنة»

هي ذي الخائنة
تُسقطُ منديلها.. عند الباب.
لاً أحدَ، هنا، سوى الليلِ والحريةِ
والسكون المريع.
وأتخبّطُ في حديثي معها،
كاشفاً لها عن خفايا العيش مع الآخرين،
ما كنتُ لأخبرَ أحداً عن لقاءٍ كهذا
ليشاع: أنها لي..
غير أنها انفلتتْ في الظلمةِ وتلبُّدِ السحب

مثلما ينفلتُ الطيرُ،
هناك حيث تخفقُ عالياً ألويةُ العيد
بلهبها الأرجواني.
وأظلُّ عند المنزلِ المتألقِ
في اضطرابي مع الظلمةِ وحدها
ما كان مستحيلاً أمسى ممكناً
غير أن الممكن لم يكن سوى حلم.

1907

«في الصَّخب»

في الصخبِ، واللغطِ المتواتر
في بهرجةِ المدينةِ الباطلة،
أتسكعُ خاملَ الروح
في الثلج العاصف والظلمة والفراغ.
وأُقطعُ خيطَ وعيي
ناسياً : ماذا وكيف..
من حولي الثلوج والترامات والمباني
وقُبالتي النيران والظلمة.
فإذا ما عدتُ مذلاً إليكِ،
أنا المستلب اللب،

قاطعاً خيطَ وعيي..

أتراكِ تغفرينَ لي؟

أنت يا من تدركين أقصى مطمحٍ لي،

يا مناري الهادي

اتغفرين لي زوابعي الثلجيةَ هذه،

هذياني وقصائدي وظلماتي؟

أم أنَّ من الخير لي أنْ توقظي أجراسي الراقدةَ،

غيرَ غافرةٍ لي،

لئلاَّ تأخذَني بعيداً عن موطني

هذه الطرقُ الليليةُ الموحلة.

1909

«وحيداً تقبعُ في غرفتك»

وحيداً تقبعُ في غرفتك،

أتسمعني؟

أنا ادري أنك غير نائمٍ الآن،

تتنفّس ولا تتنفس.

لمَ أقفلتَ عليك واطفأتَ ضوءَكَ؟

لا تخفْ!

أنا ساعتك المنسيةُ منذ زمنٍ بعيد

ها أنا أدق.. فافتح.
أنا أدري أنك، الليلةَ، في هذيان،
في هذيان هائج.
غير أنني سأدخل على أية حال،
أنا صاحبك القديم الحنون.
لا تخشَ أن تتذكرني:
كنتَ فتياً آنذاك،
ممتطيًا جوادَكَ الأبيضَ
وقد أحرقَ خديك لذعُ الرياحِ الخريفية.
بعيداً بعيداً كنتَ تنطلق
إلى حمرةِ الغروبِ الكهرمانية.
أكنتَ تعرف أيها الساذج، آنذاك،
طريق عودتك التاعسَ؟
الآن وقد غدوت عاقلاً.. لا تعارضني،
وأية فائدةٍ من النقاش؟
أتراك ذاكراً حبكَ الأولَ
وتولّهَكَ بالفجر؟
لماذا تنحني بوجهك على الأرض
مثلَ هذه الانحناءةِ الخفيضةِ؟
تصبّرْ.. فالريحُ المعولةُ خلف النافذة
نعيّ ساعتِكَ الأخيرةِ الآتية.

فافتح، إذنْ، وأجبْ على سؤالي:
أكان يومك ساطعاً؟
إن هديتي لكَ
هي هذا الكفنُ الملكيُّ الجليل.

1909

«في هذه الأيام»

في هذه الأيام الصفراء، بين المنازل
نلتقي معاً لبرهة.
وبنظرةٍ منكِ تحرقينني
وتختفين في زقاقٍ مظلمٍ مسدود.
ليس عبثاً أن ترشّني عيُنكِ
بلهيبها الصامت،
ليس عبثًا أن أنحنيَ أمامك، أيتها الكذبةُ الصامتةُ،
في حركةٍ غامضة.
ولربما تقذفُ بنا ليلةٌ من ليالي الشتاءِ
في حفلٍ راقصٍ مجنون،
وتقضي عليَّ أخيراً
نظرتُكِ: هذا الخنجر المستفز.

1909

الصنو

مرةً في ضباب تشرين الأول،
كنت أهذي، محاولاً تذكّرَ نغمٍ ما.
(ايه! يا برهةً لم تُبعِ القبلاُت فيها!
يا لطف صبايا لم يُشترَ بالمال!)
وأخيراً، في الضباب الحالك،
انطلقَ النغمُ المنسيُّ القديم.
وأخذَ الِصبا يتراءى لي
وكنت كامرأةٍ حيةٍ قُبالتي..
بعيداً يأخذني الحلمُ
بعيداً عن الريحِ والظلمةِ والمطر..
(هكذا يتراءى لنا الصبا المبكّر،
وأنتِ؟ أتراك عائدةً لي؟)
فجأةً.. في الضبابِ الليلي
أرى فتىً مكتهلاً
راعشَ الخطى، مقترباً مني
(عجباً.. ألم أرَ هذا الفتى في حلم؟)
وفي الليلة الضبابية
يتقدمُ مني دونما تردّد.
ها هو يهمسُ: (أنهكني التّسكُّعُ

وتنفَّسُ الضبابِ الرطب،
وانعكاسُ وجهي في مرايا الآخرين
وتقبيلُ نساءٍ غريبات..)
عجباً! يبدو لي
أنني ثانيةً أراه.
ابتسمَ بوقاحةٍ في وجهي،
وفجأةً.. لم أعدْ أرى أحداً بقربي.
ليس غريباً عليَّ هذا الفتى المكتئب
فقد التقينا في مكانٍ ما..
ولربما كنت ملتقياً بصورتي نفسِها
في صقيلِ المرايا.

1909

نشيد الجحيم

انْطفأَ النهارُ على الأرض الأخرى،
حيث آملُ طُرقاً ونهاراتٍ أكثرَ قِصَرا.
هناك تنطرح العتماتُ بنفسجيةً.
لم أكن هناك.. كنتُ أعبرُ الممرَّ الليليَّ السفليّ
منزلقًا على حافةِ الصخر الناتئ الزَّلِق.
هو الجحيمُ نفسه ينفتح في عينيَّ الفارغتين.

على الأَرض كنت ملقىً في حفل ساطع
وفي رقصة الأقنعة والمشاهد الوحشية
لم أكن أتذكّرُ الحبَّ أو أجد الصداقة.
أين هو رفيقي؟ أين أنت يا بياتريشه؟
وحيداً أتقدم، وقد أضعت الطريقَ القويم،
في الدوائر السفلية.. كما تشاء التقاليد،
لأغرق في الرعب والظلمة.
المجرى يحمل جثثَ النسوة والصحاب،
هنا أو هناك يتلامع ثديٌ أو نظرةٌ متوسّلة،
ونادراً ما تنبعثُ من شفةٍ ما
استغاثةُ رحمةٍ أو نداءٌ رخيم: هنا تموت الكلمات
ويُضيّقُ على الرأسِ، دونما معنى،
بطوقِ الألمِ الحديديِ المثلّم.
وأنا، من تغنى قديماً برقةٍ،
أجدني منبوذاً، فاقداً أيما حق.
الخطى كلها ساعيةٌ إلى هاويةٍ لا أملَ في عودةٍ منها
وأنا في أثرهم. وفي الشقوق الصخرية
فوقَ رغوةِ المجرى الناصعة
هي ذي صالة لا نهايةَ لها تمتدّ أمامي:
فأرى وروداً عبقةً وأشراكَ صبار،
أرى ظلمةً في أعماقِ المرايا

وبصيصاً باهتاً آتياً من صبيحاتٍ نائية
ينطرحُ ذهبياً خافتاً على وثنٍ متهاوٍ،
وأنفاسنا تختنقُ متضايقةً.
إن هذه الصالة لتذكرني بعالمنا المرعب
حيث كنت أتسكّعُ أعمى كما في خرافةٍ وحشية
حيث أدركتني آخر مأدبة تقام.
هناك أُلقيتِ الأقنعةُ منكشفةً
هناك.. أغوى الزوجةَ فاسقٌ هرمٌ
فباغتهما ضوءٌ وقحٌ.. في عناقٍ شنيع.
غير أنَّ قبلة الصباح الباردة
ألقت بحمرتها على إطار النافذة
وأضحى الهدوء وردياً غريباً
في مثل هذه الساعة يحلُّ رقادنا في الموطن الرغيد،
وهنا، ليس غير، يبدو خداعنا الارضي عاجزاً
فأتطلع، وقد أقلقتني الهواجس،
في أعماق المرايا عبر الضبابِ الصباحي.
ومن أنسجة العنكبوت القاتمة
يخرج فتى في اتجاهي. إن قامته مشدودة
وفي عروة بدلته السوداء
تتراءى وردة ذابلة
أكثر شحوباً من شفةٍ على وجهِ ميت،

وعلى أصبعه.. علامةُ القران الخفيّ:
تلتمع حجراً كريماً مدّبباً.
فأتطلعُ في قلقٍ غامض
إلى تقاطيعِ وجههِ الذاوي
وأتساءلُ مختنقَ النبرةِ:
(بأيةِ جريرةٍ أراك تعاني
شريداً في دوائرَ لا عودةَ منها؟)
فَتضْطّرِبُ قسماته الدقيقة
وفمه المحترق يبتلع الهواء في شراهة
ويجيئني صوته من أعماق فراغ:
(ألا أعرف.. أنني مقضيٌّ عليَّ بعذابٍ لا رحمةَ فيه
لقاء تهالكي تحت نيرِ الرغبةِ القاتمةِ
في عالمنا الارضي المرير.
كنتُ أشبهَ بالصَّبيَّةِ الساقطة المهانة
أبحثُ عن النسيان في فرحةِ الخمر
مع الظلمة الهابطة على مدينتنا كل يوم،
حاملاً بدني الموشومَ بالشؤم
وقد أوهنني النغمُ المائجُ المخبول..
ثم دقت ساعة القصاص أخيراً.
من أغوار حلم بديعٍ لا نظير له
خطرتْ لي باهرةً، وضيئةً:

قلتُ هي ذي الزوجة الفاتنة!
هكذا أدركتُ الغبطةَ الأولى
وقد التقيْتها، هي الفريدة المستهينة بتملقِ الرجال،
في ضبابِ نشوةٍ عابرة
في رنينِ القدح الليليّ الواهي.
فأغرقتُ نفسي في حدقتيْ عينيها
وأطلقتُ، لاول مرة، صيحة متأججة.
هكذا حلّت هذه اللحظةُ سريعاً، دون توقّع،
وكانت الظلمةُ حالكةً، والمساءُ طويلاً ضبابياً
ولاحت، غريبة، في السماء النيازك.
كان حجر الخاتم هذا ملطخاً بالدماء،
فارتشفْتُ الدمَ من أكتافها الأرجة
وكانت رشفتي خانقةً في مثل طعم القار.
إنما لا تلعن هذه الروايةَ الغريبة
عن حلم غامض طويل..
من أغوار الليالي وضباب الهاوية
تعالى إلينا أنينُ الأقبية
وارتفعتْ، صافرةً فوقنا، ألسنةُ النار
لتحرقَ أزمنةً عابثةً لم يكتمل مسارُها.
وها نحن قد دفع بنا إعصارٌ ما إلى العالم السفلي
متراصّين بأغلال لا انتهاءَ لطولها.

تلك هي.. مكبلة أبداً بأطيافها الموحشة
وقد قُضيَ عليها أن تعانيَ الألمَ وتتذكّرَ المأدبةَ
كلما انحنى الخفّاشُ الهائلُ، متهلفاً مع الليلِ،
على أكتافها الملساء، الشبيهةِ بالأطلس.
غير أن قدري.. أتراني أحسبه مريعاً؟
مع مقدم الفجر المريض البارد
وهو يملأ الجحيم بأشعته اللامباليةِ
أتسكّعُ من صالةٍ إلى صالةٍ، لأنفّذَ الأمرَ،
طريدَ هذه الرغبةِ الكئيبةِ الازليةِ..
فلتتذكّرْ يا شاعري وتُشفقْ:
كلَّ فجرٍ، حيث تغفو في غرفتها المظلمةِ البعيدةِ
متنفسةً بقوةٍ وحرارةٍ،
عليَّ أن انحنيَ عليها، والهاً آسفاً،
وأغرزَ خاتمي المدّببَ في كتفها الناصع) .*

1909

* يقول بلوك، عن هذه القصيدة، كنت أحاول أن أعبِّر جحيمياً، حسب مصطلح دستويفسكي، عن خُفّاشيةِ عصرنا بطريقة دانتي. وحين أقول: انطفأ النهار... انما استعير بداية الأنشودة الثانية في «الجحيم» التي تقول: كان النهار آخذاً في الزوال. (أين هو رفيقي؟ أين أنت يا بياتريشه؟ وحيداً أتقدم...) إن المعاصرين، هنا، لا يفتقدون رفيقة الطريق إلى النعيم فحسب، إنما يفتقدون أيضاً دليلاً مثل فرجيل الذي قاد دانتي عبر الجحيم، وعند بوابة النعيم اسلمه لبياتريشه (المترجم) .

فِي المطعَم

أبداً لا أنسى (كان أم لم يكن
هذا المساء): بلهيب الغروب
إنكشفت السماءُ الشاحبةُ متوهجةً
وتفتحت القناديل في الصفرة.
في القاعة المزدحمة جلستُ حيث الشبّاك
وفي مكان ما أجهشت اقواسٌ عاشقة.
وبعثتُ إليكِ بوردةٍ سوداءَ في قدحٍ
مترعٍ بخمرةِ آي الذهبيةِ كالسماء.
فالتفتِ. وبتحدٍ وتحيّرٍ
واجهتُ نظرتكِ المتكبرةَ وانحنيتُ.
ومتعمدةً قلتِ لرفيقكِ بحدة:
وهذا عاشق آخر.
وفي الحال، بشيء ما، أجابت الأوتارُ مدويةً
وبجنون ترنمت الأقواس..
غير أنّكِ كنتِ معي باستهانتك الفتيةِ كلها
وبرعشةٍ تكاد تُرى في يديكِ.
إندفعتِ بحركةِ طائرٍ مذعور
ومررتِ خفيفةً كطيف..
أهدابكِ ناعسة، وشذاك في بوح

وحريركِ يتهامس في قلق.
ومن أعماق المرايا رميتِ لي بنظرةٍ
صارخةً: خذ..
فوسوسَ العقدُ، وتلوّت الغجريةُ
وأَعولتْ باكية الهوى.

1910

«تمرّ السّاعات»

تمرّ الساعات، تمرّ الأيام، تمرّ السنون
وأود أنْ أنفضَ عني حلماً ما،
أنْ أتطلعَ في وجه البشر والطبيعة
وأشتّتَ أغساقَ الزمن المعتمة.
هناك شخص ما يستفزُّني، ملوّحاً بضوء
(هكذا أطلّ عليَّ غريبٌ، في ليلةِ شتاء
شبحياً فوق سقيفةِ بابٍ
وسرعان ما استتَرَ وجهه.)
هو ذا السيف. وكانَ هنا. لكنه لم يعد ضرورياً.
من ترى استلبَ من يدي قوتَها؟
إنني لاتذكر صفّاً لؤلؤياً ناعماً
تلامعَ، ذاتَ ليلةٍ، تحت ضوء القمر.

الريح القارسة سقيمةً تتوجعُ
والبحر يترامى جليدياً أملسَ..
ومن تحت الأهداب يتبارقُ الرعبُ،
الرعبُ القديم نفسهُ (دعيني أفهمْ)..
أهي كلمات؟ لم تكن ثمة كلمات. أي شيء، اذن، كان؟
لم يكن حلماً أو حقيقةً، بعيداً، بعيداً
أرعدتْ منطفئةً، متنائيةً
وانفصلت عن الأَرض.
إنطفأ كل شيء. غير أن الشفاه لم تزل تتغنى
وانقضت ساعات أو سنوات..
(ليس غير أزيزِ أسلاك التلغراف
تحت السماء السوداء..)
وبغتة (أعرفه وأتذكره جيداً)
جليّةً تنفجرُ صيحةٌ بعيدة:
إنَّ هذا لرجل.
ويتهاوى السيف من يدي المرتجفة.
مضمداً بالحرير الخانق
(لكي لا يتسرب الدم من عروقي السوداء)
كنتُ مرحاً ومطيعاً
مؤدّياً ما عليَّ.. دونما سلاح.
غير أن الساعةَ قد حانت. فأتذكر

وأذكر: لا.. ما أنا بخادمٍ.
فاسقطي، إذن، ايتها الضمادة المضرّجة
وتفجّرْ يا دمي، مخضّباً الثلوج*.

1910

هوَان

(في فتائل الشجر العاري السوداء،
عبر النافذةِ، يتعلّقُ الغروبُ الشتائي الأصفر
إلى منصة الموت يساقُ المحكومون بالإعدام
في مثلِ هذا الغروب).
إنَّ قطيفةَ الأرائك الباهتةَ الحمراء
وشراشيب الستائر الثقيلة مشبعة بالغبرة..
في هذه الغرفة، حيث يعلو رنينُ الاقداح،
تجد التاجر والطالب ومحتال القمار.
تصاويرُ هذه المجلةِ الخليعة
ما لامستها إلا يدٌ غيرُ بشريةٍ..
وخسيسةٌ هُي اليد التي داست
على زرّ هذا الجرسِ القذر.

---

* السطر الأخير في هذه القصيدة مقتبس من (تريستان وايزولدا) لفاغنر حيث ينتزع تريستان الضمادة عن يده ويلقي بها على الأرض (المترجم).

اسمعي! على السجاد الوثير
تخفق االمهاميز، ويختنق الضحك بالأبواب المقفلة.
ترى أهذا بيت؟ أهو في الحقيقة بيت؟
ترى هكذا هي علاقات الناس؟
أسعيدٌ أنا بلقاءِ هذا اليوم؟
وبوجهك الابيضِ كمنديل؟
وبهذا الغروب الباردِ الهائل
المتراجفِ في أكتافكِ العارية؟
الشفتان، ليس غير، بقطراتِ دمٍ خاثرٍ
ترتسمان خطاً مجنوناً
(أترانا دعونا مثلَ هذا غراماً؟)
على أيقونتك الذهبية.
في الغروب الشتائي الهائل، الاصفر
يغرق (يا للجلال!) السرير..
لم يزل النفَسُ متضايقا من العناق،
وأنت تصفرين، وتصفرين.
لم يكن مرحاً صفيركِ المقابري هذا..
اسمعي! ثانيةً تتعالى غمغمةُ المهاميز
وكالأفعى ينزلقُ من الأريكةِ على السجاد
ذيلُ ثوبكِ الثقيل، المغبّرُ.
جريئةٌ أنت! لتكوني أكثرَ جُرأةً.

ما أنا بزوجٍ لكِ أو خطيبٍ أو صديق!
لتغرزي، إذن يا ملاكاً كان لي بالأمس،
عميقاً في قلبي كعبَ حذائكِ الفرنسي المسنون.

1911

«كانت أُمسيةً خريفية»

«الليل خـــالٍ من تلك التي تدعى
باسمها الوضيء: لينورا»
ادغار آلان بـــو*

كانت أُمسيةً خريفيةً. مصغياً إلى ضربات المطر على الزجاج
لم أزل أحاولُ حلاً للمسألة الاليمة نفسها،
حين انسلَّ إلى مكتبي الضبابي الكبير
ذلك السيدُ، يتبعه كلبهُ الاشعث.
على الاريكة قرب النار، يستقرُّ ضيفي متهالكاً
وعند أقدامه ينطرح الكلبُ على السجادة.
وبلطفٍ يخاطبني: «أقليل ما حصلتَ عليه؟
آن أن ترضخَ لحكم القدرِ أيها السيد..»
«لكنَّ في الكهولةِ عودةً إلى الصبا والحماس..»

---

* بيتا أدغار آلان بو هنا من قصيدته «الغراب»، يقول بلوك: كان أدغار آلان بو أكثر من أي شاعر تأثيراً على الرمزيين (المترجم).

هكذا بدأتُ.. غير أنه يقطع عليّ كلامي بإصرار:
«إنها القصةُ نفسها: لينورا المجنونِ ادغار.
ما من عودة! أتريدُ مزيداً؟ قلتُ لك الآن كل شيء.»
عجباً! كانت الحياة فرحاً وعاصفةً وجحيماً،
وهنا في ساعة المساء هذه، منفرداً مع رجل غريب
وتحت نظرته المجرّبةِ، الهادئةِ منذ أمدٍ بعيد،
تبدو لي الحياة أكثرَ بساطةً.
وينصرفُ السيدُ ذاك، لكنَّ كلبه يبقى معي
وفي الساعة المريرة يشخص إليّ بنظرة طيبة
واضعاً كفّه القاسيةَ على ركبتي.
كأنما يقول: آن أن ترضخ أيها السيد..

1912

«ليل، شارع، مصباح»

ليل، شارع، مصباح، صيدليةٌ
وضوء خافت لا معنى له.
عِشْ ربعَ قرنٍ آخرَ إذا شئت:
كل شيء سيظل كما هو الآن. ما من مخرج.
وتموت.. وتبدأُ ثانيةً من جديد
وكل شيء يعود مثلما كان من قبل:

الليل وتموّجُ القناةِ الجليدي،
الصيدلية والشارع والمصباح.

1912

«في الشارع المقفر»

في الشارع المقفر ضوء وحيد في نافذةٍ ما،
وفي حلمه يتأوّه الصيدليّ.
وأمام خزانةٍ كُتِبَ عليها: أدوية سامة.
راح ينبش في محتوياتها هيكل عظمي
لاوياً ركبتيه الصرارتين جيداً
متدثراً بمعطفه المطري حتى عينيه،
مكشّراً عن فمه الاسود.
ها قد وجد غايته.. وفي اصطدامه بشيء ما دون تعمّد
يُسْمَعُ لعظامه صليل.. فيدير جمجمته.
ويكحّ الصيدلي، ويهمّ أن ينهض،
ويسقطُ على جنبهِ الآخر.
غير أن الضيف يسرع، أثناء هذا، فيناول من تحت معطفه
الزجاجةَ الصغيرةَ المأمولةَ
لامرأتين أنفَ لهما
في الشارع، تحت المصباح الضاربِ إلى بياض.

1912

الدّم الأسوَد

- 1 -

تنهضين نحوي في نصف استدارة
فيبدو صدرك لي ويدك.
إن أمك لتمنعك من زيارتي
وفي إذلالك إغراءٌ لي.
لا .. عبثاً أغضّ من طرفي،
هي ذي الزوبعة الممطرة تلاحقنا، لاهثةً، عن قرب.
نظرتي تتوقدُ فوق وجنتك
وفي يدي رجفة متراكضة
إنَّ دائرةَ ناري لتتسع من حولك
وتحدجينني بطرفٍ متهرب.
إنَّ رماداً خفيفاً يغمر الشعلةَ العاصفة
في نظراتكِ المتهربةِ، نظراتكِ المنزلقة.
أبداً! هذا الدم الأسود
لن يروضه حبّ أو وعود.

- 2 -

أتطلّعُ إليك. كلّ جنّيٍ كامن في أعماقي
يتطلع إليك.

كل جنيّ كامن فيكِ يأخذ حذره
مختبئاً في هدوء الزوبعة.
وصدرك يتعالى بشراهة..
أيمكن إجفالُ مثل هذه الشياطين المرعبة؟
أبداً. تتحوّلُ العيون جانباً، متهيبةً النظرَ
في هذه الهوّةِ المخيفة.

- 3 -

إني لأحتقر حتى اسمكِ،
لكن.. حينما تضّيقين من عينيك
أسمع السيلَ المزبدَ مولولاً
والزوبعةَ تغادرُ البرّيةَ مقتربةً.
عينكِ تصمتُ ذهبيةً، بندقيةً
والاصابعُ النحيلةُ تتلمسُ طريقَها إلى الحنجرة.
تعالي.. اقتربي.. وأصفع
وكالقطة تكشرين عن أنيابك.

- 4 -

آه، أبداً. لا أريد أن نسقط نحن الاثنين معاً

في عناقٍ رهيب أو أن يطول الألم كثيراً
حين يحرم على الشفة أن تنبس في ظلمة الليل،
وعلى الأيدي المتشابكةِ أن تتحررَ.
لا أريد لبرقِ الزوبعة أن يبهر بصري،
دافناً رأسي الملتهبَ في رمادكِ
دون أن أسمعَ عواء الكمان هائج النغم
أو أغرق في سآمةٍ ثقيلةٍ غريبة.
كأول رِجلٍ، ملتهباً بألوهيتي،
أريد أن أُعيدك إلى شاطئ النعيم الأبدي الازرق،
قاتلاً كلَّ كذبةٍ، مُبطلاً أي سمٍ فيك.
غير أنك تجتذبينني.. ونظرتك المسمومة
تتكهن بنعيم آخر.. فأرضخ لكِ
عارفاً أن جنة أفاعيك.. جحيمُ وحشةٍ لا قرار لها.

- 5 -

ثانيةً أجدني في منزلي مذلاًّ، غاضباً، فرحاً.
أنهارٌ هو؟ أم هو الليل عبر نافذتي هناك؟
هو ذا القمر على امتداد السطوحِ الهائلة
كالمهرج يعوجُّ بوجهه لي.
سحقاً لشمس النهار.. سحقا لأي ندم!

من ترى يجرؤ على معونتي؟
في دماغي الفارغ يندفع الليل،
يندفع الليل وحده!
في صدري الخاوي تتغلغل نظرةٌ واحدة،
تنغرز نظرةٌ نهمة.
وكل شيء يتوارى دون عودةٍ، وتحين الساعةُ المستحيلةُ
ما إن تصرخي بي: نعم.

- 6 -

ها أنتِ في قَبضةِ الذعر
منجذبة مع الدّوامة..
أيةُ قرابةٍ تشدّكِ إلى هذه الغرفة؟
أكلّ شيء، ترى، يتوارى دونما عودة؟
وفي هلع تتمتمين دونما ارتباط..
مخفيةً وجهكِ،
وعلى يديك الجافلتين
تشتدُّ ضيقاً.. سلسلتي ذاتُ الرنين الرخيم.
وها هي أولى أشعةِ الفجر الصادحة
تخترقُ الستائر الصفرَ
وعلى بدنك الغافي
تخطّ الآلهةُ زخرفَها النوراني.

- 7 -

الليل يتطاول كالقرون، وفي أذرعنا رعشةٌ منهكة
وفي الغرفة هذيانٌ ملتهب..
الشفةُ تتمتمُ عن نعيمٍ غريبٍ
وفي النافذة ضوءٌ ضئيلٌ غابر.
إنها لقناعة باطلة..
دونما كلمةٍ واحدة.
النهار الشاحب ينبلج بصعوبة
وهذا ما يفتقد أية أهمية.
حينذاك.. في نظرتك الكليلة
يلوح كذُبكِ لي.
حينذاك.. يبدو فمي، بإنحناءتهِ القرمزيةِ،
في مثل غموضِ فمِكِ.

- 8 -

أخيراً هزمتها!
اجتذبتها إلى قصري.
في ممرٍ لا نهايةَ له تتراءى ثلاث شموع
وخطانا على الطنافسِ الثقيلةِ المغبّرة.

تحت لهبِ الشموعِ السمراء الثلاث
يتراءى مخملُ أكتافها العاريةِ الأسمر،
وعاصفةُ غدائرها المتشابكةِ ونظرتها الذابلةُ،
وفي خاتمها ألماز منطفئ.
فمها المحترق الدامي
لمّا يزل متوسلاً عذاباتِ هوىً أخرى.
وفي أعماقِ النوافذ المغلقة
يُسمعُ حفيفُ ألويةٍ في غموض:
أبواقٌ ووقعُ حوافرِ خيلٍ
ونعشٌ يتأرجح ثقيلاً.
ـ (يا هواي.. إن أحداً غيرنا في الزوايا،
يا هواي الشقي، أطفئ النار.
أبعْد عني هذا الرعبَ المبهمَ) .
إن عواءً جنائزياً يقترب.
هو ذا الدم يضجُّ ملءَ أُذنيها
وعلى شفَتيها المقرورتين زفرةٌ غامضة:
ـ (يا فتاي الجميلَ، يا عاري وجلادي..)
والليل يقذفنا بصيحته الضبابية،
وتنطفئ الشموع والأعين والكلمات..
ـ أخيراً ها أنت مِيتة!
شربتُ دمكِ،

وها أنا أطرحكِ في نعشك وأتغنى،
وكل ليلةٍ ضبابيةٍ سيتغنى دمكِ ملءَ عروقي
أغنيته عن الربيع الحنون.

- 9 -

فوق هذا البدن الرائع
خبرتُ قوةَ الاحتقار
وتلذّذتُ بضربها بالعصا.
ترتدي ثيابها على عجلٍ، وتخرج
متلفتةً، خائفةً،
إلى نوافذي الرماديةِ الزرقاء.
لم يعد لها من أثرٍ هنا. وفي نوافذي الرمادية الزرقاء
تنصبّ أمسيةٌ غائمةٌ، متجهمة،
وبعيداً عَبْرَ ظلمةِ الطقسِ المتلبّدِ
تشتعلُ حاشيةُ شالها أشبهَ بحمرةِ الغروب.
أيتها الأدويةُ الخَضلةُ النائية!
أيتها السعادةُ العاصفةُ الدانية!
وحيداً أقفُ، مصيخاً السمعَ
ملماً بصداحِ الكماناتِ لي.
وأسمعُ إيقاعاتِها البدائيةَ

تتغنى بي، وقد انتزعتُ أغلالي أخيراً،
وقايضتُ بحظٍ أفضلِ
هذه الرغبةَ الوضيعةَ.

1909 – 1914

امـــرَأة

إلى ذكرى اوغست سترندبيرغ

أجل، ذُقتُ كل عذابٍ على الارض،
وبتعطّشٍ كنتُ أنتظر النهايةَ.
إنما لا .. يداي توقفتا
وها أنا أحيا بكآبةٍ مرتسمةٍ على وجهي.
ذاتَ ربيع كنتُ أتجول في المقبرة
فعثرت على تلٍ صغير.
لاحدثن هذا القبرَ الصغيرَ المجهولَ
بمجرى حياتي كلها.
جئتُ بأزهاري المفضلة
لأضعَها على القبر ساعةَ الغروب.
فإذا برجلٍ ما يقترب مني
ويحدّق في وجهي.
في نظرته هذه التي أدركتها صدفةً

قرأتُ إنتباهةً معينة.

لا ... إني لوحيدة في هذا العالم.

فأشحتُ بوجهي وانصرفت.

أكان وجهي باعثاً على الشفقة؟

أم ترى أعجبه

اعياءُ وجهي المكتئب؟

أم هي الوحدةُ قد دفعته نحوي؟

لا.. يجملُ بي أن أُغلقَ عينيّ:

إنه لرشيق، إنه لمحزون،

لن أدعَ لهذه الكآبةِ التي تُوحّدُ الغرباءَ

أن تمتدَّ بيني وبينه.

فإذا بي أُحسُّ به، عن كثب،

واقفاً وراء أكتافي.

وكنتُ قد تهيأتُ لأن أصدّه

بكلماتٍ غاضبة.

فَجأةً أسمعه يتلفظُ في خفوتٍ

كمن يتكلفُ مشقةً مؤلمةً:

(اوه، لا تخافي.. هنا في هذا القبر

يرقد طفلي..)

فاعتذرتُ معبرّةً عن أساي

بانحناءةٍ من رأسي.

فقال، وقد أعاد أزهاري لي:
(نسيتِ باقتك) .
(في ذكرى لقائنا هذا
أقدم أزهاري هديةً لطفلك) .
فيهز أكتافه ببرودةٍ، قائلاً:
(إنكِ أكثرُ احتياجاً لها) .
أجل، اعترفُ بخطأي هذا،
إنما.. لن اغفرَ له حتى ساعتي الأخيرةِ
تلك الابتسامةَ المتفضلةَ على وجهه
وهو يرمقُني بها وأنا أنصرف.

1914

الشَيطان

اتبعيني، اتبعيني مطيعةً
كالجارية الوفية،
وفوق القمةِ الجبلية المتلامعة
سأطير بك بجناحٍ واثقٍ أمين.
أحملكُ، عالياً، فوق الهاوية،
باعثاً الغيظَ في قاعها السحيق.
ولن يكونَ ذُعركِ الباطلُ

إلا حافزاً ملهماً لي.
ستكونين في مأمنٍ معي
من الدوار والمطر الغباري الأثيري.
وتحت ظلٍ من أجنحتي، وبقوةِ أذرعي كلها
أحملك في أمان.
وعلى الجبال، في ومضها المتلألئ،
في مرجٍ ناصعٍ لم تَشُبْه شائبة،
في عناق لم يتعود البشرُ مثيلاً له
أحرقك بهذا البدنِ الإلهي الرائع.
أتعرفين أى شيء تافهٍ
خداعكم الأرضي ذاك،
ورأفتكم الحزينةُ
أو ما تعتبرينه رغبةً وحشيةً فيكم؟
حين تبدو الأمسيةُ أكثرَ هدوءاً،
وقد افتتنتِ بي،
تأخذك الرغبةُ بالطيران إلى أعالٍ أبعدَ
في الزرقةِ الملتهبةِ المقفرة.
أجل، وآخذكِ معي
حاملاً بدنكِ إلى هناك،
حيث تتراءى الارضُ نجمةً
والنجمةُ تلوح أرضاً.

وتتطلعين، وقد أخرستك الدهشةُ،
إلى العوالمِ الجديدةِ
إلى رؤى خارقةٍ،
هي ابتكاراتُ لعبتي نفسِها.
حينذاك، مرتعدةً من الرعبِ والوهن،
تهمسين في أذني: دعني..
فأنشرُ جَناحي في هدوء
مبتسماً لكِ: إنطلقي..
وتحت ابتسامتي الإلهيةِ هذه
تندفعين، وقد أهلككِ الطيران،
كالحجر المتزعزع
في الفراغِ الوضيء.

1916

الاثنا عَشَر

- 1 -

سوداءُ هي الأمسيةُ
أبيضُ هو الثلجُ.
وأيةُ ريحٍ، أيةُ ريح!
من الصعب على المرء أن يقفَ على قدميه.

أيةُ ريحٍ، أية ريحٍ
على امتدادِ أرضِ الله كلها.
الريح تفتلُ
الثلجَ الأبيضَ.
وتحت الثلج ثمة جليدٌ،
الطريقُ زلقٌ ووعر
وكلّ عابرٍ لا بد من أن ينزلقَ..
ها هو التعس.. طُوّحَ به على الأرض.
من مبنىً إلى مبنىً
يمتد حبلٌ طويلٌ،
وعلى الحبل لافتة:
(السلطة كلها للمجلس التأسيسي)
ثمة عجوز تولول متكدرةً:
أي معنىً في أن تُعلقَ لافتة كهذه
وبكل سَعةِ هذا القُماشِ الهائل؟
كم من جواربَ كان يمكن أن يُوفّر منها للأولاد،
وكل واحدٍ منهم شبهُ عارٍ وحافٍ.
وكالدجاجة
تكومت العجوزُ، كيفما اتفق، عبر كثيبِ ثلجٍ:
ـ أوه، أيتها الأم الحامية!
أوه، البلاشفةُ يطاردوننا حتى الموت.

الريحُ لاذعةٌ
والصقيعُ ليس أقلَّ لذعاً!
وعلى مفترق الطرق
يقف البرجوازيّ
وقد أخفى أنفه في ياقته.
ومن ترى هذا؟ شعره طويلٌ
ويتكلم ملءَ صوته:
ـ أيها الخونة!
لقد ضاعت روسيا.
لا بد أنه الكاتب فيتيا..
وها هو ذو المسوحِ الطويلةِ
ينعطفُ جانباً خلف كومةِ ثلج..
أحزينٌ أنتَ الآن
ايها الرفيق القس؟
اتذكر
كيف كنتَ تتقدمُ ببطنٍ منتفخ
متوهجٍ
بصليبه الذهبي على وجوهِ الناس؟
هي ذي سيدةُ أراضٍ في فرو استراخان
تلتفتُ إلى صاحبتها:
ـ وبكينا، بكينا كثيراً..

وزلّت قدمُها،

وانطرحت منهدمةً بطولها على الأرض!

آي، آي!

جُرّها إليكَ وأنهضْها.

الريح مرحةً تهب

فرحةً وخبيثةً،

تلوي أذيالَ الثياب

وتطيحُ بالعابرين،

ممزقةً، مجعدةً وحاملةً

اللافتةَ الكبيرةَ:

(السلطة كلها للمجلس التأسيسي)

وتجيء بمثلِ هذا اللغط:

.. وكنا نحن أيضا في اجتماعٍ

هنا في هذا المبنى.

تناقشنا

وأجمعنا :

للآونةِ عشرة.. لليلةِ خمسة وعشرون

ولن يؤخذَ من أحدٍ أقلُّ من هذا ..

آن أن تنام.

في أخريات المساء

والشوارع تخلو..

ثمة متشردٌ ما
يتسكع محدودبَ الظهر،
والريح تصفر..
أنت، أيها التعس
اقترب
ليقّبل بعضنا بعضاً.
يا لحصادنا!
ماذا في انتظارنا ؟
لنمضِ.
سوداءُ، سوداءُ هي السماء.
حنقٌ، حنقٌ حزينٌ
يغتلي في الصدر..
حنقٌ أسودُ، حنقٌ مقدس.
أيها الرفيق
كن حذراً.

- 2 -

الريح تتجول، والثلج يرفرف
واثنا عشر رجلاً يواصلون السير.
بنادقُهم بسيورٍ سودٍ

ومن حولهم أفقٌ من نار.
الاسنان مطبقةٌ على لفافةٍ، والسدارةُ منسحقةٌ متغضنة،
وعلى الظهر ينبغي أن يُلصقَ آس ديناري.
يا لهذه الحرية،
آي، آي دون أي صليب!
تراتا تا!
باردٌ، باردٌ هو الليل يا رفاقي.
ـ وفي الخمارة يتسامر فانكا مع كاتكا تلك..
إنَّ كيسها الطويلَ لمليء بالروبلات الكيرينسكية!
ـ فانوشكا نفسه ثريٌّ الآن.
كان واحداً منا.. وأصبح جندياً.
ـ هيا يا فانكا يا ابنَ الكلبةِ البرجوازي،
جرّب أن تقبّلَ صاحبتي.
يا لهذه الحرية،
آي، آي دون أي صليب!
وكاتكا منشغلةٌ مع فانكا..
فيمَ؟ فيمَ هي منشغلة؟
تراتا تا!
من حولهم أفقٌ من نار
وعلى أكتافهم شُدّت الأسلحة.
لتتقدموا بخطوةٍ ثورية!

خصمكم أبداً على أهُبةِ الهجوم .
شدَّ على بندقيتكَ دون خوفٍ يا رفيقي
ولنلسع ظهرَ روسيا المقدسةِ بالرصاص،
ظهرَ روسيا الخشبيةِ
روسيا الأكواخِ الهزيلةِ
روسيا الهرمةِ ذات المؤخرةِ الكبيرة.
آي، آي دون أي صليب !

- 3 -

لنمض، إذن، يا فتيان ولنكن
جنوداً في الحرس الأحمر
جنوداً في الحرس الأحمر..
مضحّين برأسنا الجموح.
أي شقاءٍ مريرٍ
عيشُنا الحلو هذا!
معطفٌ مهلهلٌ
وبندقيةٌ نمساوية!
الويل لكل البرجوازيين
سنجعله حريقاً شاملاً،
حريقاً عالمياً دموياً.
طوبى لك يا رب!

- 4 -

الثلجُ يدوّمُ، ومتهور ما يصرخُ،
العربةُ تنطلق
حاملةً فانكا وكاتكا،
وعلى عريشها مصباح.
آه، آه ليهلكن.
ها هو في معطفٍ جندي ثقيلٍ
وبسحنةٍ بلهاء
يُمعنُ في فتل شاربه الأسود،
يفتله
متفوّهاً بالنكات.
هو ذا فانكا.. بمنكبين عريضين
هوذا فانكا.. مجرد مهذار،
يعانق كاتكا البلهاءَ
ويندفع معها في حديث..
ها قد استلقت بوجهها إلى وراء
وأسنانها تلمع لؤلؤيةً..
آه يا كاتيا، يا كاتياي
يا ذاتَ البوزِ الغليظ.

- 5 -

عندَكِ، على العنق، يا كاتيا
ضربةُ سكينٍ لم تلتئم ندبتُها بعد،
عندكِ، تحت الثدي، يا كاتيا
لما يزل ذلك الخدشُ طرياً.
آي، آي ارقصي!
ساقاك أكثر من فاتنتين.
كنتِ في قميص مزركش بالدنتلا تتنزهين،
فتنزهي، تنزهي..
ومع الضباطِ كنتِ تتسكعين،
فتسكعي، تسكعي..
آي، آي تسكعي!
إنَّ قلبكِ ليخفق بقوة في صدركِ.
تذكرين ضابطك يا كاتيا؟
لم يفلت من مديتي.
أم لعلك ناسية أيتها الكوليرا؟
أم أن ذاكرتك غير طرية؟
آي، آي أنعشيها
وهيئي مخدعك لي.
كنت تلبسين جواربَ جوخيةً

وتلتهمين شوكولاتة من صنفِ مينون،
مع طالب الكلية العسكرية كنت تتجولين
وها أنت تتجولين مع الجنود.
آه، آه اقترفي الذنب!
ستكون الوطأةُ أخفَّ على النفس.
هو ذا المتهور يواجهنا ثانيةً،
مندفعاً على حصانه المتوثب،
صارخاً، مولولاً.
قف، قف! اندروخا أعنّي!
وأسرعْ من الخلف يا بتروخا.
تراخ ترارا خ تاخ تاخ تاخ تاخ!

- 6 -

وانفتلَ غبارُ الثلج مِدوّماً إلى السماء.
لقد ولّى المتهورُ، ومع فانكا، أدبارَه..
ثانيةً، أطلق الزنادَ.
تراخ ترارا خ! ستعرفُ
كيف تتنزهُ ثانيةً مع فتاةِ رجلٍ آخر.
فاتني الخسيسُ، هذه المرةَ، لكني
سأنكّلُ به غداً.

وأين هي كاتكا؟ ميتةٌ، ميتة!
لقد خرقَ رأسَهاالرصاص.
أَسعيدة أنتِ يا كاتيا؟ صه، بلا كلمة واحدة..
انطرحي أيتها الجيفةُ على الثلج!
لتتقدموا بخطوةٍ ثوريةٍ،
خصمكم أبداً على أُهبةِ الهجوم.

- 7 -

وثانيةً يتقدمُ الاثنا عشر،
البنادقُ على أكتافهم،
القاتلُ التعسُ وحده
لا يُرى له وجه..
خطوته
أسرع فأسرع..
على عنقه يلفّ منديلاً
ولا يعرف كيف يتمالكُ نفسَه.
ـ لِمَ تبدو مرتبكاً أيها الرفيق؟
لِمَ تبدو مرتبكاً يا صاحبي؟
مالك منكّس الأنف يا بتروخا،
أم أنك آسف على كاتكا؟

ـ أوه يا رفاقي، يا إخوتي
كنت أُحبّ هذه الصبيةَ.
قضّيتُ مع هذه الصبيةَ.
لياليَ سوداءَ نشوى.
من أجل الجرأةِ المتقحمة
في عينيها الناريتين،
من أجل الشامةِ القرمزيةِ
قرب كتفها الأيمن
قتلتُها أنا المشوش الذهن،
قتلتها منفعلاً .. اوه !
ـ أَوَ بدأتَ قصتكَ المملةَ أيها السافل،
أم أنتَ صبية يا بيتكا ؟
ـ لاشكَّ أنكَ قد خطرَ ببالك
أن تعرضَ أمامنا خفايا نفسك كلها.. تفضل!
ـ تماسك!
وراقب نفسك جيداً.
ـ ليس هذا هو الوقت الملائم
لأن يُعتنى بكَ كطفل.
سيكون العبء أكثر ثقلاً علينا
يا رفيقنا العزيز.
ويباطئ بتروخا

من خطواته الحثيثة..
ويرفع رأسه سريعاً
وها هو مرحٌ من جديد.
آي، آي!
ليس التسلّي بخطيئة.
أقفلوا عليكم أبوابكم،
سيبدأ النهبُ الآن.
افتحوا أقفالَ أقبيتكم،
الصعاليك في الشوارع الآن !

- 8 -

اوه، أي شقاءٍ مرير!
أي ضجرٍ ممل،
ضجر مميت!
لأمضينَّ الوقتَ،
لأمضينّه جيداً.
لأنتفنّ له يا فوخه
لأنتفنّه جيداً.
لأقشرنّه كما تُقشَّرُ البذرةُ
لأقشرنّه جيداً.

ولأطعننه

لأطعننه بالمُدية.

طِرْ أيها البرجوازي إذا استطعت كعصفور!

سأشرب من دمكَ،

منتقماً لعشيقتي

ذات الحاجبين الأسودين.

ليتغمد الرب برحمته روحَ عبده.

يا لهذا الضجر!

- 9 -

لم تعد تُسمع ضجةٌ لساكنِ المدينة،

وعلى برج النيفا استقرَّ الصمت.

لا أثر لشرطي منذ اليوم..

تجولوا ايها الفتيان دونما نبيذ.

على مفترقِ الطرق يقفُ البرجوازي

وقد أخفى أنفه في ياقته.

وإلى جانبه ينكمش في شعره القاسي

كلبٌ أجربُ لاوياً ذيله.

يقف البرجوازي ككلب جائع،

يقف ساكناً أشبهَ بسؤال.

والعالم القديم ككلب ضالّ لا أهلَ له
يقف خلفه لاوياً ذيله.

- 10 -

وهبّت الزوبعةُ الثلجيةُ هائجةً،
وأية زوبعة!
لا يرى أحدنا الآخر تماماً
عبر أربع خطوات.
الثلج يلتوي قمعاً
الثلج يتعالى عموداً.
ـ اوه، اية زوبعةٍ ثلجيةٍ هذه!
ـ لا تفرطن في كذبكَ يا بيتكا،
أي شيء، ترى، تخشى
من حائطِ الأيقوناتِ الذهبي؟
حقاً أنت في غير وعيك،
تبصّر، وفكّر بصواب.
أم أنَّ يديك لم تلطخا بالدم
جرّاءَ حبك لكاتيا؟
ـ تقدم بخطوة ثورية!
خصمك اليقظ غير بعيد عنك.

أماماً، أماماً، أماماً

أيها الشعب العامل!

- 11 -

وبدون اسمٍ مقدس

يتقدم الأثنا عشر بعيداً..

متهيئين لأي شيء

غير آسفين على شيء.

بنادقهم الفولاذية

على خصمهم المختبئ..

في الأزقة المقفرة

حيث تذري الزوبعةُ الثلجيةُ غبارَها،

وحيث تغوصُ الجزمةُ في كومةِ الثلجِ الزغبية

فلا تستطيع لها سحباً.

ملء عيونهم

تتخافق الرايةُ الحمراء.

وتدوّي الخطى

متوافقةً.

هاهو عدوك اللدود

ينتبه.

وطَوالَ الليل والنهار
في أعينهم
تذري الزوبعةُ الثلجيةُ غبارها.
أماماً، أماماً
أيها الشعب العامل!

- 12 -

.. بخطوة جليلةٍ يتوغلون بعيداً.
ـ من هناك أيضا؟ اخرج.
هي ذي الريحُ تنطلقُ لاهيةً
مع الرايةِ الحمراءِ المتقدمة.
أمامهم يلوح كثيبُ ثلج،
ـ ومن ذا في الكثيب؟ اخرج.
ليس غير الكلب الجائع التعس
يطلعُ من خلفهم.
ـ إليكَ عني أيها الأجرب المتقيح.
سأنغزك بالحربة.
يا عالماً قديماً ككلب أجرب
تطوّحْ شظايا.
الذئب جائعاً يكشّرُ عن أنيابه

والكلبُ المقرورُ، الكلب الضالُّ
غيرَ متخلفٍ عنه يهزُّ بذنبه..
ـ اجبني.. من ترى يخطو هناك؟
ـ من ذا الذي يُلوّحُ بالراية الحمراء؟
ـ أية ظلمةٍ! تعوّدْ أن ترى فيها.
ـ من ترى يسرع بخطوته الهاربةِ هناك،
متوارياً وراء المنازل؟
ـ سأنالُ منكَ على أية حال،
أفضلُ لك أن تستسلم لي حيّاً.
ـ ستكونُ الحال أسوأ يا صاحبي
اخرج.. سنبدأُ بإطلاقِ النار.
تراخ تاخ تاخ.. ليس غير الصدى
يتجاوبُ بين المنازل.
ليس غير الزوبعةِ الثلجية
تنصبُّ ضحكةً طويلةً على الثلوج.
تراخ تاخ تاخ!
تراخ تاخ تاخ!
.. هكذا يواصلون سيرهم بخطوة جليلة،
من خلفهم.. كلب جائع
وفي مقدمتهم.. برايةٍ مخضبةٍ،
غيرَ مرئي عَبْرَ الزوبعةِ الثلجيةِ

معافى، لا يضرّ به الرصاص،

بمشيةٍ حلوةٍ فوق الثلوج العاصفة

بطلعةٍ كنضيدِ اللؤلؤ الثلجي،

متوجاً بأكليلِ وردٍ أبيضَ

في مقدمتهم.. يسوع المسيح.

1918

السيثيون*

«المنغولية ! مع انها اسم بدائي

إنما يطيب لأذنـــي سماعهـــا.»

سولفيوف

تُعدّون بالملايين. ونحن حشود وحشود وحشود

جرّبوا أن تقاتلونا!

أجل نحن سيثيون، اجل آسيويون نحن،

بعيونٍ منحرفةٍ شرهةٍ.

ما تحسبونه قروناً، نحسبه ساعةً واحدةً،

وكفلاحين مطيعين

---

* «الشيشون»: هم القبائل السهوبية المتنقلة أو تلك التي استقرت منذ بضعة قرون قبل الميلاد شمالي البحر الأسود، وفي المناطق القريبة من هذه الجهات (المترجم) .

أمسكنا المجنّ طويلاً بين العنصرين المتعاديين:
المغول واوربا.
طَوالَ قرونٍ وأتونكم القديم يتأجّج
طاغياً على الرعود الثلجيةِ المنهارة،
وخرافةً بدائيةً كان بالنسبةِ لكم
سقوطُ ميسّينا ولشبونه.*
مئاتِ السنين وأنتم تتطلعون إلى الشرق
تنبشون درّنا أو تسبكونه،
ولم تنتظروا، في ازدرائكم، غيرَ ساعةٍ معينةٍ
لتصوّبوا عندها فوهاتِ المدافع.
ها قد حانت الساعةُ، والكارثةُ تضربُ بأجنحتها
وكلَّ يوم يتضاعفُ الحيف،
وسيحلُّ يوم لن يتبقى فيه أيما أثرٍ
*من مدنكم الشبيهةِ ببستوم**، ربما.*
أيها العالم القديم! ما دمت لم تهلك تماماً بعدُ،
ما دمتَ تعاني من أوجاعك اللذيذة،
توقّفْ وقفةَ اوديب بحكمةٍ

---

* «مسّينا»: مدينة تقع جنوبي إيطاليا هدمتها الزلازل عام 1908. بينما تهدمت «لشبونة» بالزلازل أيضاً مرتين في القرنين الرابع عشر والثامن عشر (المترجم).
** «بستوم»: مستعمرة اغريقية قديمة تقع في الجنوب الإيطالي هوجمت وأسقطت في القرن التاسع (المترجم).

أمامَ أبي الهول ولغزهِ الغابر.
إنَّ روسيا كأبي الهول. مبتهجةً ومكتربةً
ومتضرجةً بالدم الأسود
تتطلعُ وتتطلعُ إليك
بمحبةٍ وبغضاء.
اجل، منذ زمن بعيدٍ ولم يعرف أحدٌ منكم
مثلَ هذا الحبِ المتقد في دمنا.
لقد نسيتم أن في العالم حُبّاً،
حبّاً يحرق ويدمّر.
نحن نعشقُ كل شيء: حرارةَ الأرقامِ الباردة
وهبةَ الرؤى الإلهية.
كل شيء جليّ لنا: الفكر الغاليّ المرهف
والنبوغ الجرماني المتجهم.
ونتذكر كل شيء: جحيمَ الشوارع الباريسية
وبرودةَ فينيسيا المعتدلة،
الشذى النائي المنبعثَ من أحراش الليمون
وهياكلَ مدنكم الدخانية الهائلة.
نحن نهوى البدنَ، بطعمه ولونه
ورائحتهِ المميتةِ الخانقةِ.
أمذنبون نحن في أن يقعقع هيكلكم العظمي
في أكفنا الثقيلةِ الحانية؟

فقد تعوّدنا، قابضين على أعنّةِ خيلنا،
خيلنا الجامحةِ اللعوب،
أن نهشّمَ عصعصَ الحصانِ الثقيل
ونروّضَ الجاريةَ الشموس.
هلموا، بعيداً عن قتالكم الشنيع،
إلى أحضاننا الأخوية.
لم يتأخر الوقتُ بعد.. والحسامُ القديمُ في غمده
ولكن، يا رفاقنا، إخوةً.
فإذا ما شئتم غيرَ هذا.. لن نخسرَ شيئاً،
وسهلٌ علينا أن نغدرَ مثلَ غدركم.
وطوال قرونٍ ستلعنكم
السلالةُ المريضة الآتية.
سننسحبُ جانباً،
منتشرين في غياضنا وغاباتِنا،
أمامَ أوروبا الحسناء!
ثم نتحوّلُ إليكم بسحنتنا الآسيوية.
هلموا الى الاورال جميعاً،
سنفسحُ مكاناً للمعركة،
بين مكائنكم الفولاذيةِ المتكاملة
والحشودِ المغوليةِ البدائية.
ومنذ هذه الساعة لم نعد لكم ترساً

ولن ندخلَ حرباً إلى جانبكم.
سنتفرج بأعيننا الضيقةِ
لنرَى كيف يغتلي القتال الطاحن.
لن نحركَ ساكناً حين يعيثُ الهوني الهمجي
نهباً في جيوب القتلى،
أو يحرقُ المدنَ ويسوقُ القطيعَ إلى الكنائس
أو يشوي لحمكم الأبيض.
للمرةِ الأخيرة.. ثبْ إلى رشدك أيها العالم القديم.
إلى مأدبةِ العملِ الأخويةِ،
للمرةِ الأخيرةِ.. إلى المأدبةِ الأخويةِ الزاهيةِ
تدعوكَ قيثارتي البربرية*.

1918

* يقف الشاعر، هنا مع أمته في مواجهة التدخل الغربي بعد ثورة اكتوبر. وقد أضحت الثورة والمصير القومي، لدى الشاعر الواعي، حياة واحدة هي روسيا، وهو موقف أي شاعر أصيل تجاه أمته.

يِسينين
(1895 ـ 1925)
قصائد مختارة

مقدمة

«أنا آخر الشعراء القرويين»

يسينين

جاء إلى عالمنا هذا عام 1895 .. في قرية روسية، منزوية كالعش في مقاطعة ريازان، تدعى كونستا نتينوفو، طفل أشقر قُدّر له أن يرقى بوجهه الطفولي وعينيه الزرقاوين المثقلتين بكآبة روسية.. كآبة السهوب المترامية والليل الروسي المديد.. إلى مرتفعات الشعر العالية. كان ابن الفلاح هذا يدعى سيرغي يسينين.

في الثانية من عمره، لفقر أبيه وكثرة أفراد أسرته، تكفل برعايته جده لأمه، وكان يقطن قرية مجاورة. وفي هذا البيت القروي أمضى طفولته كلها تقريباً، ومع إخوانه الثلاثة المتهورين كان يمرح نهاره كله. وقبل أن يبلغ الرابعة كانوا قد دربوه على امتطاء الخيل. وبعدها قذفوا به إلى الماء ليتعلم السباحة.

كان بين أصحابه مشاكساً، محباً للخصام. غالباً ما كان يرجع إلى المنزل دامي الوجه. وكثيراً ما كان يهيم على وجهه في السهوب والأحراش.. يتسلق الأشجار العالية بحثاً عن الأعشاش. شأنه، في هذا، شأن الكثير من الصبية الريفيين. وفي أيام الآحاد يذهبون به إلى الكنيسة، كانت جدته التي تحبه كثيراً تروي له الأساطير.. وتدعو إلى بيتها

العميان والمتشردين«الحفاة». وكانوا يطوفون في القرى، مرتلين أناشيد دينية. وكانت مربيته العجوز تقص عليه، أيضاً، ما تحفظ من قصص خرافية. أما الجد فقد كان مغرماً بالأغاني الشعبية. من هنا بدأ تعرُّفه بالشعر.

في الثانية عشرة من عمره، بعد سنوات الدراسة الأولى، أدخلوه مدرسة معلمين تابعة للكنيسة، ليكمل، بعدها دراسته في معهد للمعلمين بموسكو. كان أملهم الكبير أن يصبح ابنهم معلِّماً ريفياً. في السادسة عشرة أنهى سنوات المدرسة الأربع، رافضاً الالتحاق بمعهد موسكو.

هناك، قريباً من الكنيسة، كانت مكتبة عامة. غالباً ما كان يتردد عليها الصبي سيرغي.. ليقرأ، برغبة عارمة، أشعار بوشّكين وليرمنتوف الذي أحبه، في بداياته، أكثر مما أحب أي شاعر آخر، وقد أترعت أغواره بالكثير من الأساطير والأغاني الشعبية. وكل شيء فيها كان قد اغتسل، تواً، بخضرة الريف الروسي وأندائه صيفاً، أو بسهوله المغطاه بالثلج، ممتدة إلى آخر الأفق، موحشة، تتردد فوقها، في أعماق الليل، أصداء من صفير رهيب يطلقه قُطَّاع طرق مطاردون.. وتزرعها الزوابع الثلجية المعولة طوال أشهر الشتاء، صيف أخضر، كثيف الخضرة، وشتاء طويل أبيض يغطي كل شيء بأثواب ثلج ناصع.. حيث تتراءى الأشجار على جانبي طريق منعزل كعرائس الخرافات من جنيات العجائز المقرفصات حول الموقد.

في التاسعة من عمره بدأ خطواته الأولى مع الشعر. لكنه يقول إن

محاولته الجادة إنما بدأت في عامه السادس عشر. وقد ضم بعض قصائد هذه المرحلة إلى مجموعته الشعرية الأولى.

في خريف 1912 كان الشاعر الفتى قد ارتحل مع أبيه إلى موسكو، وعيناه تتلفتان إلى غابات الريف الذهبية. فوجد له أبوه عملاً في مخزن. غير أن الفتى، وكان يرفض الوقوف مع المستخدمين الآخرين كلما دخلت صاحبة المحل، أدار ظهره لهذا المكان غير الشاعري، وانهزم متخاصماً مع أبيه. ووجد نفسه فترة بلا عمل. فدفع به الجوع إلى القرية. وفي آذار عام 1913 غادر القرية ثانية إلى موسكو ليجد له عملاً في مطبعة. كان يعمل مصحّحاً هذه المرة. وقد كتب لوناجارسكي مرة: إن يسينين لم يغادر قريته فلاحاً.. إنما جاء مثقفاً بشكل ما. كان مزاجه حاداً، فما كان أحد في المطبعة ليتقبله شاعراً أو يفهمه مثقفاً. وكان يبحث عبثاً عن جريدة تنشر له قصائده. وقد ظل يعمل في المطبعة حتى أواسط صيف 1914، ثم انتقل إلى مطبعة أخرى، كان العمل يمتص أكثر وقته وجهده: من الثامنة صباحاً إلى السابعة مساءً. وفي هذا الضجيج الحجري القاتم لم يكن ليجدَ وقتاً لكتابة الشعر الذي يحب.

كانت حياته تختنق وراء جدران المطبعة، وضجيجها يحاصره طوال ساعات النهار.

ما الذي جاء بهذا الطائر القروي إلى مداخن المدينة وحوائطها الغليظة؟ .كتب يسينين في إحدى رسائله: «ها قد انطفأ الصيف الوردي، بأغساقه الملتهبة، دون أن أتمكن من التمتع به وراء جدران المطبعة» .كانت روحه تتشوق إلى أنداء الخضرة الريفية، وأعصابه

مشدودة إلى زيزفون القرى وصفصافها. لم تكن أشعاره لتشير إلى الأحياء العمالية التي تجثم حوله سميكة قاتمة. إنما كانت تخفق بصور زرقاء من طفولته، وتأخذ موضوعها من الموروث الديني أحياناً.

لم يجد من سبيل غير أن يهجر المطبعة، ويمنح وقته كله لكتابة الشعر. كان يكتب طوال أيام كاملة. وبدأت قصائده تأخذ طريقها إلى الجرائد أو المجلات. كان هذا عام 1914. لكنها مجلات لا تصل إلى قراء كثيرين. كان يتردد على حلقة من الشعراء وهواة الموسيقى جعلت من اسم الشاعر الريفي سوريكوف اسماً لها. ومع بدايات الحرب الأولى كانت حلقة سوريكوف تصدر مجلة«صديق الشعب». كان يسينين سكرتير تحريرها. وكان يقوم بزيارات إلى جامعة شنيافسكي الشعبية مستمعاً. وكان يتردد عليها أدباء شباب من جيله.

لم تكن صحافة موسكو تريد أن تعترف به شاعراً موهوباً. ولم يكن يجد الإقبال إلا بين مجموعة من أصدقائه. فأراد أن يجرِّب إمكاناته الشعرية في العاصمة بتروغراد. وقد قرر، إذا ما واجه خيبة فنية، أن يبحث عن عمل في معامل رافيل، حيث يعمل أحد أقربائه. لكن ما جرى كان شيئاً آخر. فبعد أسابيع قليلة من وصوله إلى بتروغراد كان قد أصاب شهرة كبيرة ومجداً سريعاً في أكثر الأوساط الأدبية بريقاً وتأثيراً. لقد أصبح الفتى القروي، الذي لم يكن قبل أيام ليعرف أن يجد له عملاً مناسباً، شاعراً لامعاً، تلك كانت طفرة مفاجئة. وعندئذ تبدّل مجرى حياته، وانكشف أمامه عالم آخر.

استقبل الشاعر القروي، في العاصمة، استقبالاً أدار له رأسه، كان في

التاسعة عشرة من عمره، كانت الصالونات الأدبية توجه إليه الدعوات، وكان قد أصبح معروفاً بشعره الأشقر وأناقته. لقد بدأ يتقن «اللعبة» الأدبية. هكذا بدأ اسم سيرغي يسينين يلتمع شاعراً موهوباً، طالعاً من القرى المنزوية البعيدة. لقد طرحَ موضوعاً روسياً لم يكن شائعاً في الحياة الشعرية: الجمال الروسي القروي.

في خريف 1915 ظهرت مجموعته الأولى: رادونيتسا، وتعني في الموروث الديني السلافي عيداً طقسياً تقام فيه صلاة الغائب على الموتى، في الخميس الأول من أسبوع الفصح.

كانت القرية الروسية قد وجدت طريقها إلى الشعر منذ بدايات الأدب الروسي، خاصة في الملحمة الشهيرة «سلوفو أو بولكو ايكوريف» وفي قصائد الشاعر الرومانسي جوكوفسكي وبوشكين والشاعر القروي كولتسوف.. إضافة إلى التراث الفولكلوري الغنائي. لكن يسينين كان يختلف بشكل ما عنهم جميعاً. كان قد انبثق من الريف، مغتسلاً بطراوته، مضمخاً بأريج العشب اليابس، بتقاطيع معاصرة. كان مفتوناً بالطبيعة الروسية. ومن هنا نلمس هذا الهوى الملتهب الذي يكنه للريف الروسي. كانت أعماقه قد تفتحت منذ طفولته، مترعة بالأغاني الدينية والقصص الريفي في الكوخ الخشبي بالقرب من الموقد. وفي الليالي الشتوية كانت تتردد في المنزل أصداء من الخرافات المتداولة بكثرة في القرى الروسية. كان الشاعر يحمل معه في القرية كراسة يضيف إليها أي شيء جديد يلتقطه من الأمثال الشعبية والتركيبات اللغوية الغريبة والإشارات المسجوعة التي يقذف

بها جوالون و«دراويش» شماليون، تعود بجذورها إلى أعماق اللغة «الطينية».

كان ينتهب صوره من أعماق الريف النائي، ومن أغوار الماضي القروي. ويتصور هذا الماضي نعيماً مفقوداً. لقد ظلت روحه مشدودة إلى السلام والهدوء اللذين «كانا» يرفرفان، كما خيل إليه، على القرى القديمة، الغافية عميقاً في ظل النظام الأبوي المندثر! وغالباً ما اختلط عليه الأمر، فكان يحلم في قصائده الثورية بالأعماق الأبوية الدارسة، فتتعانق عنده الاشتراكية بنظام الأبوة القديم.

يلاحظ الناقد زيلينسكي، وهو من أكثر المختصين اهتماماً بآثار يسينين وحياته، أنَّ الشاعر قد تتبع منذ صباه خطى ثلاثة شعراء معروفين: بلوك واندريه بيلي وكلويف.

كان بلوك قد أثار اهتمامه بالغنائية الغامضة وبهذا الاحتراق في حب روسيا ومعانقة أوجاعها الهائلة. ومن قبلهما قد فتح الطريق إلى قلب روسيا الشاعر الغنائي الملتهب ليرمنتوف، خاصة في «وطني» التي ظلت إلى اليوم تتردد على الشفاه، وفيها هذا الامتداد في الرحابة الروسية، رحابة الأنهار الفسيحة والسهوب الهائلة.

وكان اندريه بيلي، الشاعر الرمزي، قد أنار له الطريق إلى أهمية الشكل الفني، وأجواء الهياكل الرمزية الدينية الجديدة. وقد ظل يسينين يعتبر كتابات هذا الشاعر النثرية أروع مدرسة نثر في الأدب الروسي.

وكان الشاعر الثالث الذي أعان يسينين في تكوين شخصيته الفنية هو كلويف. كان هذا «فلاحاً» روسياً مثقفاً، استطاع أن يحتل مكانة أدبية

خاصة بأشعاره الشعبية. والشعبية لا تعني في الأدب الروسي لهجة عامية بعيدة عن الفصحى، إنما تعني اقتراباً من التراث الشعبي الروسي، القروي خاصة. وقد فتح كلويف عيني يسينين على ينابيع الأدب الشعبي. لكن يسينين كان يصر على اختلاف طريقته هو عن طريقة كلويف في تناول الموضوع الشعبي، رغم أنه قد تأثر به أكثر من تأثره بأي شاعر آخر. كان يسينين يحلق في أجواء شعرية شعبية أخرى، وكان كلويف غارقاً في ظلال الماضي، وقصائده أشبه بالتأملات الدينية. ففي الوقت الذي يتسمّر كلويف على أعتاب الاستغراق الديني السلافي والذهول الكنائسي الريفي القاتم.. كان يسينين يحلق بجناحين قويين في الهواء القروي الطلق المغسول بماء المطر أو الثلج، مترنماً كالقبرّة بالجمال الأرضي وتقلبات الطبيعة الفاتنة.

كان يسينين مغني الطبيعة الروسية العاشق.

لكن أشعاره، كانت تلتمع أيضاً، بألوان من الطقوس الكنائسية، وأطياف من روسيا الأبوية القديمة. ويتضح هذا في قصائده المبكرة.. في مجاميعه الأولى التي تحمل عناوين تذكرنا بالموروث اللغوي الديني.. مثل «رادونيتسا» و«دعاء قروي». وهذا الانجذاب إلى الصور الدينية السلافية التي ترتبط لديه بالقرى الوادعة المستكينة في كنف نظام الأبوة وبالخيالات الصوفية المسيحية.. لم يكن نابعاً من إيمان مسيحي عميق، إنما هو المزاج الرومانسي الحزين، والتشبث بالأمسيات القروية الضائعة التي سربلت طفولته بظلالها أو أشعتها. إنه الحنين إلى «النعيم» المفقود. الحنين الدافئ.. مناخ القصيدة اليسينينية. كان شعره يفوح

حنيناً. وهكذا يمكننا أن نتفهم هذه الحسرة المحرقة التي تلتهم أعصابه، وتشدها إلى البيت القروي الخشبي.. وحديقة الزيزفونات الأليفات، القريبات إلى قلبه كأخواته الصغيرات.

عام 1917 تزوج يسينين لأول مرة.. لكنه افترق عن زوجته بعد عام ليبدأ تجواله عبر روسيا.

كان الشاعر قد وقف بجانب ثورة اكتوبر الاشتراكية كفلاح ينحدر من أعماق الشعب. لم يكن أمامه أن يتساءل كما تساءل الكثير من المثقفين الروس: هل أقبل الثورة أم أرفضها؟ لقد تقبل الثورة بفرح غامر. لكنه لم يكن ليتفهم جوهرها كصراع هائل من أجل حياة جديدة، تأخذ فيه الطبقة العاملة دورها الطليعي، مسلحة بنظرية المادية التأريخية، كانت الثورة بالنسبة له، مثلما كانت بالنسبة لأدباء كثيرين، انفجاراً «روحياً» جديداً، وانهدام عالمٍ قديم. كانت ولادة فجر لم يكن يدري أو يدرك جيداً ما يكمن فيه من تحولات هائلة. ومن هنا كان هذا التناقض في موقف الشاعر الفني. فهو من جهة يعتبر نفسه واقفاً بكل قواه مع الثورة ضد أعدائها، يسهم بكتابة قصائد جديدة، ينتظر فيها أن تنبثق روسيا فولاذية من خلال دخان الأحداث، ملقية عنها أسمال الماضي بعنف. ومن جهة أخرى تتراءى الثورة أمام عينيه الغائمتين جواداً أحمر جموحاً.. يندفع بحياة الشعب إلى عهود النظام الأبوي السحيقة. غير أن أحلامه بهذه الاشتراكية الأبوية تلتهب حماساً بانجذابه المتعاظم إلى الثورة. وكانت قصيدته الطويلة «أنّا سنيكَينا» تجسيداً فنياً لانجذابه هذا.

بعد انتقال الشاعر إلى موسكو عام 1918 تبدأ في حياته مرحلة جديدة. في بداية هذه المرحلة يقترب الشاعر من حركة الثقافة هناك. كان شاعراً شهيراً، يتدفق الشباب إلى أمسياته الشعرية. لكن مزاجه الريفي وعلاقته المتزايدة بالأوساط الأدبية البوهيمية وحيرته أمام الأحداث الهائلة.. قد دفعت به إلى حافة هاوية مروّعة. لقد بدأت مرحلة الضياع.. مرحلة الصعلكة، وتخدير الروح بالمزيد من الفودكا. «إني أشرب لكي أنسى» ويقول أيضاً: «إني أشرب لكي لا أرى قيء الآخرين!» وهو يغني، هنا، عذابات الناس الثقيلة وانهيار كثير منهم تحت عبء الأحداث الفادح.. انهيار أوساط أدبية مرتجفة على هامش التيار العام، التيار المندفع بلا تردد أو توقف. لم يكن ليتفهم ما يجري. ومن هنا كان إحساسه بالاختناق والغربة في عالم يتحول بسرعة لم تخطر ببال أحد.

في عام 1919 يقترب الشاعر من حركة أدبية أخرى: الايماجينيزم. كان لهذه الحركة أثرها القوي في تطوره الفني. كان أكثر شعرائها من بقايا وأنقاض الحركات الأدبية التجديدية التي نبتت فروعها قبيل الثورة. كان«منظّر» هذه الحركة هو الشاعر شيرشينيفيج. في كراسته الشهيرة «2×2=5» في عالم ثقافي تقوض فيه كل شيء من أساسه، حيث يطالب المستقبليون بتحطيم «التماثيل» الكلاسيكية في اللغة والأدب، وإعدام التراث كله مع البرجوازية الغاربة في الساحات العامة، ويبصق شعراء الثقافة البروليتارية باحتقار وصفاقة في وجه الرقة والحنان و«الأسمال والخرق» الجمالية والعاطفية، في هذا العالم العاصف المتصارع أراد

شير شينيفيج أن يثبت أن الصورة في القصيدة تملك من الأهمية البالغة ما يجعلها قيمة كبيرة ومستقلة عن المضمون الشعري، عن المعنى العام. كانت الصورة، عنده، عالماً قائماً بذاته في القصيدة. كانت هي الغاية القصوى. وكان يدعو إلى كتابة القصيدة التي يمكن أن تقرأ سواء من الأعلى أو الأسفل، دون أن تغير هذه الطريقة في القراءة من قيمة القصيدة أو من تطورها أو من نموها شيئاً. الشاعر إذن، حر أمام الصورة، يقذف بها أينما يحلو له في عالم القصيدة. لكنه في الوقت نفسه كان يحبها. كان يكنُّ لها حباً رهيباً. لكنه الحب الجنوني الذاهل، ومن هنا كان هذا العبث «المقدس» بالصورة وتكويناتها المذهلة.

إن اقتراب يسينين من هذه الحركة قد ترك عنده هذا الافتتان الطاغي بالصورة، باعتبارها طاقة هائلة تنفجر في القصيدة..

فتمنحها هذه التحليقات الجمالية، وهذا التوغل المأخوذ في أعماق اللغة وغاباتها الملتفة. من هنا، إذن، كان اهتمامه المتزايد بالصورة المدهشة التي تترك القارئ مفتتناً أمام انفجارها البديع، وكان هذا الركض وراء أذيال التشبيهات الساخنة، الحادة التي تسهم في إذهال القارئ، وتفتّحُ أعماقه المقفلة، أعماقه الباطنة الثرية. ومن جانب آخر.. ساعدت هذه الحركة في إنماء تمرد الشاعر ضد المدينة. وكان كرههُ للمدينة وأذرعها الأسفلتية متغلغلاً في أغواره منذ مطبعة موسكو الخانقة.

لم تكن صحبة يسينين لحركة الايماجينيزم بطويلة. بدأ الشاعر يبتعد عنها، وقد وضع أصابعه على مفاتيح طاقاتها وإيقاعاتها.. شأن أي شاعر

جيد يحطّ بجناحيه فترةً على هذا المرتفع أو ذاك، دون أن يتسمّر فوق صخرة معينة. إن عينيه تلتهمان الأفق.

كتب يسينين مقالاً نقدياً موجهاً ضد أصدقائه هؤلاء تحت عنوان «الظرف الحياتي والفن».. وفيه يرفض اعتبار الفن قائماً كفنّ فحسب، بعيداً عن تأثيرات الظرف الحياتي والمسائل التي تنهض في وجه الإنسان.. ويشكك في إيمانهم بأن الصورة و«الكلمة» هما كل شيء في عالم الشعر. كان يعتبر مثل هذا الفهم الفني في الدخول إلى القصيدة عملاً غير جاد. إن أهم ما يتوقف عنده، في الشعر، هو الجمال الحق والصدق. ومن هنا كان هذا الرنين الصادق في أشعاره، وهذه الجمالية الدافئة حتى البكاء.

عام 1921 يتعرف الشاعر، في إحدى الأمسيات الفنية بالراقصة الأميركية الشهيرة ايزادورا دنكان. وفي العاشر من أيار يتزوجها. ويرتحل معها إلى الخارج.

عاش يسينين فترات غير قصيرة في المانيا وايطاليا وبلجيكا وفرنسا. ومكث مع ايزادورا طوال عام في الولايات المتحدة. وطوال بقائه في الخارج عانى لوناً عنيفاً من الغربة. وهو يجد نفسه قابعاً في ظل الراقصة الشهيرة، متنقلاً معها حيثما ارتحلت إلى المسارح الكبرى. وحين يصفق المعجبون بفنها.. يتذكر الشاعر، لا بد أن يتذكر الأمسيات الشعرية الحافلة في موسكو وبتروغراد، واسمه الشعري اللامع طائراً من مدينة روسية إلى أخرى. ولعل حياة الراقصة دنكان الغريبة وتقلباتها العنيفة كانت سبباً قوياً في هذا العذاب الروحي الذي يغرز أظافر طويلة

في عنق الطائر الروسي القروي.. فلم يحل آب من عام 1923 حتى كانت القبّرة الروسية قد نشرت جناحيها وفرت من باريس إلى موسكو. كانت ايزادورا شعلة غريبة هبطت على الأرض أشبه بالنيازك الملتهبة المجهولة، وفجرت في الرقص روحاً عنيفةً جديدة .وقد ظل كوكب عبقريتها ملتمعاً بقوة بين نجوم الباليه العظام مثل بافلوفا وينجينسكي.

أنا آخر الشعراء القرويين..

تلك صيحة سيرغي يسينين في إحدى قصائده، وكان بحق الشاعر القروي الروسي الأخير. كان أثره في الشعر الغنائي«القروي» أبعد مدى وأكثر غنى من الشعراء القرويين الذين سبقوه، كان أكثر تدفقاً وصدقاً، فاستطاع أن يجتاز المسافات الغنائية الريفية التي اكتشفَ جانباً منها، من قبل، كولتسوف، الشاعر الذي منح القرية الروسية حياة فنية كاملة. وكان يسينين في محاولاته الشعرية الأولى معجباً بهذا الشاعر متتبعاً آثار خطاه الفنية.

في قصائد يسينين يحتدم الاصطدام عنيفاً بين موضوعي المدينة والقرية. وتتمثل نتيجة هذا التصادم في فرار الشاعر إلى الحلم، والتمسك بأذيال ظلال القرية الهاربة، وأشجارها المبتلة صيفاً.. المزهرة ثلجاً كعرائس الجنيات شتاء، إنَّ عدة عوامل استطاعت أنْ تعمق من حدة هذا التصادم.. أهمها «غربة» الشاعر عن الأحداث الكبرى، وضعف قدرته في إدراك جوهرها.. وهذا الاختناق الرهيب الذي عانى منه الشاعر في هجرته عبر أوربا وأميركا الشمالية... حيث اشتد تعلق الشاعر بوطنه، وكان بالنسبة له هو عالمه الطفولي، عالم القرى المتناثرة

بين الأحراش وعلى جوانب الطرق الزراعية. فهذا الحشد من أوباش الحانات الذي يصخب أمام عينيه المخمورتين كان يذكره بلطف أمه ورقتها.. والخيول التي تجر العربات هزيلة لاهثةً تزيح ستاراً من دخان ثقيل.. تنبثق من خلفه سهوب بيضاء وعربة تنهب الطريق الثلجي، مندفعة بفتىً جموح طائش. لقد وجد الشاعر نفسه محاصرةً بمجموعة كبيرة من ابناء الليل، أطرحتها الأحداث على هامشها. كانت الحانة مستقراً غيرآمن لها. وفي هذا الجو الداخن المتوتر كان الشاعر يختنق معذباً، يائساً، وما من سبيل أمامه، كما كان يظن، غير أن يغوص أكثر في ضباب السائل المخدر. وهذه الحمأة كانت تمثل المدينة أمام عينيه.. وفي الضفة الأخرى من الهاوية يلتمع عالم آخر.. قرية الطفولة الزرقاء الآمنة بعيداً عن التيار المندفع المغيّر كما خُيّل إليه. وكم كانت خيبته قاتمة حين عاد إلى عشــــه القروي «الآمـــن» فيجد كل شيء قد تغير. فقد كان التيار مندفعـــاً هناك أيضاً، جارفـــاً العلاقات القديمة وهدأة الطفولة الصغيرة الحالمة.. ما مـــن مكان، إذن ليسينين المتوحد الغارق في ضباب من رؤى الطفولة في عالم الثورة المنبثق ملطخاً بالدخان والجراح.. ليبني فوق الخراب الشامل عالماً جديداً تمام الجدة.

إن علاقات الشاعر بالوسط «المثقف» البوهيمي لتزداد يوماً بعد يوم. وبعد عودته إلى وطنه كانت تناقضات عالمه الداخلي تشتد عنفاً وتدميراً، إنه رجل واقف بقدم على ضفة عالم جديد.. وبقدم أخرى غائرة في ضباب عالم زائل، كما صور هو نفسه مرة. فهو في مرحلته هذه يكتب مواضيع جديدةً من جهة: «أنا سنيكَينا» «روسيا السوفيتية»

«حكاية الستة والعشرين» (وهم القادة الثوريون الذين أعدمهم الغزاة الانكَليز المتدخلون أيام الحرب الأهلية في اذربيجان). ومن جهة ثانية نجده يطرح مواضيع أخرى يترنح أبطالها وسط دخان الحانات، يمزقهم الحنين إلى طفولتهم وقراهم، منكفئين على أنقاض حياتها، بعيداً عن اللهب التاريخي المندفع، ويتمثل هذا في مجاميعه«اعتراف صعلوك» «موسكو الحانات» و«أشعار رجل مشاغب». إن أبطال مرحلته هذه هم قُطّاع الطرق والبغايا، ومسرحهم الذي يتحركون عليه هو المطعم أو الحانة.

لقد تركت الحرب الأولى والحرب الأهلية التي اندلعت نيرانها في أعقاب ثورة اكتوبر، حقولاً من رماد وقرى مخربة مهجورة. كان دميان بيدني ومايكوفسكي الرائع يقذفان بالحمم الشعرية في الحفلات والمصانع.. أمام جموع ثائرة من أنصاف العراة والجياع لكن عيونهم تلتهب بنيران فجر جديد.. كانت ممتلئةً بأضواء المستقبل. كانت اللافتات القرمزية تخفق مقدامة في كل مكان. وفي الحانات والطرقات المظلمة، في دخان الحرب الأهلية وأنقاضها كان هناك أيضاً: النشالون والسكارى والعاهرات والرجال المنهكون، الخائرون.. ممن التهمت قواهم المعارك وأضرّ بهم الجوع والتشرد. وفي هذا الحفل الهالك المخمور كان يخبو وجه يسينين، ما الذي جاء به إلى هذه الحانة الخاوية.. في الغسق الشتوي المنطفئ؟ ما الذي أوقفه، ذابلاً مرتجعاً، مزرقّ الوجه، وسط هذا الحشد من اللصوص والبغايا؟ لم يكن فراره إلى هذا «الوجر» موقفاً. إنما كان توقفاً عند حافة الهاوية.. وقد دفعته إليها

قوى «مجهولة» سوداء: عزلته عن الأحداث وغربته في تاريخ يُبنى فوق أنقاض «هدأته» القروية الحالمة.

كان أكثر عذابه يكمن في النهاية الفاجعة التي يترقبها: الموت. ولعل تشرده الروحي عبر سهوب الرماد المتخلف كان سبباً آخر في توتر أزمة الشاعر النفسية، وفي تعجيل انفجارها. كان يرى ذبول «وردته» بعينيه، ويداه تتلمسان برودة الموت في كل شيء. وكان انصرافه إلى الحانة نتيجة وسبباً: نتيجة الغربة الروحية القائمة، وسبباً في تمزق الخيط الحريري الرقيق الذي يشدّه إلى «الوردة» العبقة الآخذة بالذبول. كانت روحه ورقة خضراء أذبلها البرد والدخان.

أضاف سيرغي يسينين إلى الشعر الروسي هذه الرعشة الجديدة التي سترتبط باسمه: الصعلكة. ولعل هذه الكلمة أكثر من غيرها قرباً وحيوية في ترجمة ما يعني به الشاعر من كلمة «خوليكَان» الشائعة في روسيا، وهي تعني حرفياً: الشقي أو العربيد. إن صعلوك يسينين لا يمكن أن يعتبر، بأية حال، كما لاحظ زيلينسكي، ذاك الشقي الذي يكنُّ للمجتمع كرهاً حاداً كما يعني المعنى الشائع لهذه الكلمة الروسية. كان صعلوكه ملتصقاً، في ذهنه، بالثائر القروي.. الفلاح «العاصي» المتمرد على الطغيان. كان انحدار الشاعر الريفي قد أنبت في اعتقاده هذا التقارب بين الثوري وفلاح القرية المتمرد عبر تاريخ الريف الروسي. كان أيضاً صيحة تمرد في وجه «المدينة» الزائف ودخانها وبريقها البرجوازي الفاجع كأصباغ مومس مصدورة. كان صيحة قلق وتحدٍ. كان صعلوكه هو الشاعر ذاته. فكلما تحدث في موضوع الصعلكة هذا.. تحدث عن

أوجاعه الخاصة وضياعه هو، إن موضوع الصعلكة ليرن عنده، كما أشار زيلينسكي أيضاً، رنيناً ناضحاً بحب الناس، خاصة أولئك الذين خسروا جولتهم الوحيدة في صراع الزمن هذا.

هي إنسانية الضياع، إذن.

كتب يسينين مرة: «إني كشاعر رومانتيكي لا أستطيع أن ألتحق بركب الشعر الثوري، لكن روحي ترفرف في طريقه كفلاح مسكين». لم يكن في مقدوره أن يفجر في قصائده تلك الشرارات التي استطاع مايكوفسكي تفجيرها. ولم يستطع أيضاً أن يرى تلك الرؤى «النبوية» الثورية التي تمكن الكساندر بلوك من رؤيتها عبر اللهب والدخان في قصيدته الشهيرة «السيثيون»، لقد ظلت أعماقه، في أغلب الأحيان، مظلمة وباردة.

كان يسينين من أكثر الشعراء الروس دراية وقدرةً في تفجير المفردة الشعبية، وإعطائها القوة الفنية المعاصرة. كان يغوص إلى أعماق اللغة، فينتزع المفردة، من هناك بجذورها الموحلة وأوراقها المتشابكة السميكة.. أو بصحو سمائها الريفية، ويقذف بها في عالم القصيدة العصري حية متألقة أو مبتلة بالطين، طين الجذور. كان يعرف جيداً كيف يقذف بالمفردة في البرهة الشعرية التي لا يمكن أن يُقذف بها في برهة سواها، كانت لغته، في كثير من قصائده، لغة الجذور التي تمتد عميقاً في السهوب الروسية الشاسعة، لغة البيدر والمذراة.. لغة الغابات وظلالها العميقة في الصيف الشمالي البارد. وكان ينهل من التراث الفولكلوري الغنائي بأصالة وعنف كما ينهل الطفل الجائع من ثدي أمه

المترع. لقد اعتكف على قراءة الفولكلور، خاصة كتاب العلامة الفولكلوري افانسيف «المعتقدات السلافيّة الشعرية في الطبيعة» وكان هذا السفر حافلاً بالأساطير والمعتقدات الشعبية والأغاني التي طرحت بأشكال تصويرية جريئة.

إن أشعار يسينين لتجذب القارئ بقوة حركتها وتدفقها... وببساطتها ورونقها الأرضي الفاتن. فالمادة الشعرية التي يتناولها، والطبيعة قبل أي موضوع آخر، تأتي في تكويناته حافلة بالحركة. ومن هنا نلمس، كما أشار زيلينسكي، غزارة الأشكال الفعلية في قصائده. «فالهلال الذي يشبهه بحمل مجعد كان يمرح في العشب الأزرق.. وإذا ما حدّقتَ عن بعدٍ بالماء وجدته يهز الضفة كالأرجوحة. وليس ضباباً هذا الذي يرتفع فوق السهب.. إنما هو السهب يفوح بخورا» .

كان الإنسان، عنده، ممتزجاً بالطبيعة، متحداً معها. وفكرة «كون الإنسان والطبيعة قائمين على الطريق» أي كونهما عابرين، أخذت بيدي الشاعر إلى التفكير بانتهاء هذه الحركة: بالموت، ومن هنا كان هذا الإحساس التراجيدي بجريان الزمن.. الذائب بين يديه كقطعة ثلج أطبق أصابعه المرتعشة عليها، في زقاق شتوي شبه مظلم، أمام باب حانة روسية ما.

في أوج شبابه كان يصيخ السمع مفجوعاً إلى خطوات الموت الشبحية.. في منتصف ليل الحانات، إن هذا الحس الكئيب يخفق ظلالاً قاتمة في قصائد كثيرة من شعره، تمتلك جمالية عالية ونمواً فنياً ناضجاً. كان الإحساس بالنهاية يقترن، عنده، بالتشوق المتزايد إلى

تَلَمُّس الجمال، تلمس الوردة العبقة.. لكن الآخذة بالذبول. ولعل هذا التوجس بدنو الفاجعة المرتقبة كان سبباً قوياً في تفتح شهية الشاعر الجمالية، وإقباله «الطفولي» على الحياة، ومن هنا أيضاً كان إدراكه لمكامن الجمال الدافق، واغترافه هذه الصور الأخاذة.

عام 1925 جرّب يسينين الزواج مرةً ثالثة، فاقترن بحفيدة تولستوي. لكن روح الشاعر كانت قاتمة، فما استمر هذا الزواج أكثر من بضعة أشهر. حاول أن يجد في الأسرة سبيلاً إلى خلاصه.. لكن عبثاً. كان يعيش، يومئذ، اختناقه وحنينه الفاجع إلى عشه الطفولي الهادئ وسط ضباب حانات باردة ضاجة، كان يجثو كل ليلة عند ركبتي امرأة. وكان القدح مترعاً في قبضته، كان الرجال «المحترمون» يعتبرونه شبحاً مسكينا ضائعاً إلى الأبد. وكان اسمه لعنة تسقط كالحجارة في وجوههم. فتشكلت حول اسمه الشعري جماعة كبيرة من الصبية وفتيات الحانات. وقد انتحل هؤلاء اسم يسينين كظاهرة ينطلقون بها من حانة إلى أخرى. هؤلاء هم «اليسينينيون» الزائفون. لم يكن أي منهم ليتفهم أوجاع الشاعر أو يغوص إلى جذورمأساته، ويتلمس غربة روحه الخانقة. كانوا يعتبرون هروبه إلى الحافة «موقفاً»، إنما كان وحيداً يائساً.. ولم يكن أمامه، مثلما صورت له أزمته، غير بصيص ضوء ناعم في الليلة الخريفية المدلهمة: باب حانة موارب. في الثامن والعشرين من كانون الأول عام 1925، في ليلة شمالية باردة، في غرفة بفندق انكليتير في لينينغراد، كان يسينين قد انتحر، شانقاً نفسه. قبل انتحاره أراد أن يكتب شعراً، ولم يكن معه أو في الفندق من حبر،

فجرح يده وكتب بدمه هذه الأبيات الشعرية :

وداعاً، وداعاً
يا صديقي، أنت في القلب مني.
إن افتراقنا المحدد هذا
ليعدنا بلقاء فيما بعد

*

وداعاً، صديقي، دون مصافحة، دون كلمات،
لا تحزن، ولا تقطّبْ حاجباً.
ليس جديداً أن نموت في عالمنا هذا
وليس أكثر جدةً، بالطبع، أن نعيش.

وعرّج على أصدقاء له في مطعم.. فأعطاها لأحدهم ليقرأها بعد ساعات. وكان الصديق قد نسي أمر هذه القصاصة، ولم يتذكرها حتى جاءه نبأ انتحار الشاعر. وهكذا انطفأت هذه الشعلة التي خفقت باهرةً، وجديدةً على التماعات الجليد الروسي.

كان طيراً قروياً شارداً، وجد نفسه في حفل من الأقنعة والدخان.. فرقص، دون أن يحفل بأحد رقصته المأساوية، على الحبل الممتد فوق الهاوية المروّعة التي تراءت له.. في «قاع زجاجته» المحطمة.

وهذه المجموعة من القصائد اخترتها، بعد تتبع طويل، من أعمال يسينين الشعرية. وارتأيت أن أتتبع تجربته الشعرية منذ أولى قصائده

حتى آخر ما كتب من شعر. وهكذا يجد القارئ نماذج متعددة لمراحله الشعرية جميعاً. وبالطبع، ثمة قصائد أخرى جيدة لم أشأ ترجمتها، مقتنعاً أن هذه المجموعة التي أقدمها يمكن أن تعطي صورة واضحة عن تطور الشاعر وفنه الشعري*.

حسب الشيخ جعفر

1980/6/24

* أمانةً وامتناناً، أود أن أشير، هنا، إلى أنني، في ملاحظاتي هذه، قد استفدت كثيراً من الدراسة النقدية المهمة التي قدم بها الناقد السوفيتي زيلينسكي مجموعة أعمال يسينين التي صدرت في خمسة مجلدات عام 1961م.

القصـــائد

«ها قد حلَّ المساء»*

ها قد حلّ المساء.
الندى يلتمع فوق نبتة القُرّاص.
وأنا أقف عند الطريق
متكئاً إلى شجرة صفصاف.

*

القمر الكبير
فوق سقفنا تماماً.
ومن مكان بعيد
تصلني أغنية عندليب.

*

الطقس دافئ ولطيف
أشبه بالجلوس، شتاء، قرب موقد.
وأشجار البتولا منتصبة
كشموع كبيرة

*

وبعيداً، عَبْرَ النهر،
عند حافة الغابة الصغيرة

---

* غالباً ما يكتب الشاعر قصيدته بلا عنوان .

يُرى الحارس الوسنان

*قارعاً بمطرقته الخشبية** .

1910

أغنية قاطع الطريق الهرم

خَبتْ فتّوتي

وذوى لون وجهي،

ولم أعد أمتلك جرأتي تلك

وكأنني ما كنت قوياً في يوم من الأيام.

*

يوماً ما كنت أجندل خمسة رجال

بضربة واحدة من هراوتي.

وها أنا عجوز واهن

أندب مصيري.

*

طالماً ترددت أغنياتي

---

* تقول سوفيا تولستايا، زوجة الشاعر، ان يسينين لم يشأ نشر هذه القصيدة في مجموعة أشعاره الكبيرة. كان يعتبرها ضعيفة. ولم يوافق على طبعها إلا بعد رجاء من أصدقائه. وقد اشترط ان يشار إلى أنها أولى قصائده. وعن الفقرة الأخيرة من القصيدة، فلقد كان من عادة الحراس الليلين في روسيا أن يدقوا بمطارق خشبية أثناء تطوافهم ليلاً (المترجم) .

من الصبح إلى ساعة متأخرة من الليل،
وها هو الغم يمتصني
والحزن ينخر فؤادي.

*

يوماً ما كنت قوياً مقداماً
أقطع الطرق على المسافرين،
وها قد أمسيت عجوزاً واهناً
فوداعاً يا جرأتي تلك.

1912

في الخاتا

في بيتنا تفوح رائحة الدراجن الرخو
والكفاس في وعائه عند العتبة،
وعلى ثغرات الفرن الجانبية
تدب الصراصر إلى الشقوق*.

*

* «الخاتا»: بيت الفلاح «الموجيك» الروسي. «الدراجن»: معجنات يمزج فيها البيض والحليب والسمن. و«الكفاس»: غالباً ما يرد ذكره في الروايات الروسية، وهو شراب شعبي شائع إلى اليوم، يُستخرج من نقيع الخبز الأسود المخمر مع دقيق الشعير (المترجم) .

باب فرننا علاه الهباب
وفتائل الموقد تتفحم،
وعلى الدكة الطويلة، قرب المملحة.
قشارة بيض نيء.

*

أمي منشغلة بملاقطها
مطأطئة رأسها،
وقطّنا العجوز
يتسلّل إلى قدر الحليب الطازج.

*

فوق عريش المحراث
تقوقئ الدجاجات القلقة،
وفي الفناء يتردّد إيقاع رائع:
هي الديكة في دعائها الصباحي.
وعبر النافذة، على منحدر القش،
وقد أخافتها الضجّة المرتعبة،
من الزوايا تدبُّ الجراء الشعثاء
لائذةً بالنّير.

1914

«في تلك الأطراف»

في تلك الأطراف، حيث القراص الأصفر
وأسيجة الغصون اليابسة المجدولة،
تلتجئ أكواخ القرى كاليتامى
متشبثةً بأشجار الصفصاف.

*

هنالك في السهول، عبر أجمات الوهاد الزرقاء
وفي خضرة البحيرات،
يمتد الطريق الرملي
إلى الأعالي السيبيرية.

*

حيث تتلاشى الروسيا في سهول موردفا وجودي
غير مبالية: وخائفة،
يمر على هذي الطريق الرجال،
الرجال المكبّلون بالسلاسل.

*

هم جميعاً قتلة أو لصوص
كما قُدّر لهم أن يكونوا،
ولقد أحببت نظراتهم الكئيبة
وخدودهم الغائرة.

*

غالباً ما كانت أفراحهم مبعث شرور،
وقلوبهم بسيطة.
لكنَّ أفواههم الزرقاء
تميل في وجوههم المسودة باعوجاج رهيب.

*

إني لأضمُّ برقّةٍ أمنيةً واحدة في حناياي
أن تظل روحي طاهرة.
غير أنني، في الصفير الخريفي،
ربما أُقْدِمُ، أنا الآخر، على ذبح أحدٍ ما،

*

وعبر التموجات الترابية
في الطريق الرملي نفسه،
سيقودونني بحبلٍ ملتفٍ على عنقي
لأشبع وحشةً وحزنا.

*

وحين أبرز صدري متباهياً
وعلى وجهي ابتسامة عابرة،
يلحس الطقس المتلبّد
طريقي السيبيري المحتوم.

1915

أغنية الكلبة*

صباحاً، في معلف الحنطة السوداء،
حيث تصطف الحصران ذهبيةً،
وضعت الكلبة سبعةً،
سبعةَ جراء شقراء.

*

لقد ظلت تلاطفهم حتى ساعة المغيب
ممشطةً شعرهم بلسانها،
والثلج الآخذ بالذوبان
يسيل تحت بطنها الدافئ.

*

وفي المساء، وقد أخذ الدجاج
جلسته قرب الموقد،
خرج سيدها العابس
ليجمع الجراء في الكيس

*

لكم ركضتْ عبر كثبان الثلج
مقتفيةً آثارهم بصعوبة..

---

* «الحنطة السوداء أو الجودار»: تكثر زراعتها في روسيا. ويكتسب خبزها لوناً أسْوَدَ داكناً، وهو الخبز الأسود الشائع في روسيا كلها.

وطويلاً، طويلاً
كان النهر يتراجف، غير متجمد بعد.
وحين عادتْ متثاقلة الخطى
لاعقةً العرق الناضح عن جانبيها،
تراءى لها القمر، فوق الخاتا،
واحداً من جرائها.

*

وفي الزرقة العالية
كانت تحدق ناشجةً، متشكيةً،
والقمر النحيل ينزلق على السهول
متوارياً وراء التلال.

*

أعطايا هي تلكم الحجارة
يقذفها الصبية مقهقهين!
وعيناها الهادئتان
قد أخذتا تسيلان نجوماً ذهبيةً على الثلوج*.

1915

---

* يتحدث مكسيم غوركي عن قراءة الشاعر لهذه القصيدة في برلين عام 1922، فيقول: رجوته أن يقرأ علينا قصيدته عن الكلبة التي قذفوا بجرائها إلى النهر، إذا لم تكن القراءة قد اتعبته، فأجاب أنه لا يتعب من قراءة الشعر. وحين سألني اذا كانت قصيدته هذه تعجبني... قلت: في رأيي أنها المرة الأولى التي يُكتب فيها شعر روسي بمثل هذا الحب الصادق عن الحيوان. ومع السطور الأخيرة كانت الدموع تلتمع في عيني الشاعر (المترجم).

«غداً ايقظيني ساعة الفجر»

غداً ايقظيني ساعة الفجر
يا أمي الصابرة.
عليّ أن أغدو عبر تلال الطريق
لألقى ضيفاً عزيزاً.

*

في الأجمة الكثيفة، اليومَ،
أبصرت آثار عجلات عريضة على المرج.
وتحت الغيوم المتشتتة
كانت الريح تهز قوسها الذهبي.

*

غداً يسرع مندفعاً مع الفجر،
مميلاً القمرَ قبعةً تحت الشجيرات،
وعلى السهل المنبسط
لعوباً يتأرجح ذيل مهرته الأحمر

*

ايقظيني غداً ساعة الفجر
واوقدي في الغرفة الضوء،
يقولون إني سأصبح قريباً
شاعراً روسياً ذائع الصيت،

*

أتغنى بكِ أنتِ.. أتغنى بالضيف،
بالديك والموقد والمأوى..
وعلى أغنيتي
يندلق حليب بقراتك الشقراء

1917

«هي ذي السعادة الحمقاء»

هي ذي السعادة الحمقاء:
نوافذَ بيضاءَ تطل على حديقة.
وفوق البركة ينحدر المساء الهادئ
بجعة قانية.

*

طاب مساؤك أيتها السكينة الذهبية
حيث تنطرح ظلال البتولا على الماء.
وجمعٌ من الزاغ فوق السقف
يتلو صلاته المسائية على مسمع النجوم

*

وفي مكانٍ ما، عبر الحديقة،
حيث تزهر شجيرة الكَالينا*

* «الكَالينا»: شجيرة ذات زهر أبيض وثمر صغير مر وأحمر، وهي من أنواع توت العليق (المترجم).

في ردائها الأبيض، تتغنى صبية رقيقة خجلى
بأغنية ناعمة.

*

وعلى الحقول تنبسط برودةُ الليل
مسوحَ رهبان زرقاء.
أيتها السعادة العزيزه الحمقاء،
يا وردةَ الخدود الغضة.

1918

«أيَّتُها الريح»

أيتها الريح، أيتها الريح الثلجية
أزيحي في طريقك أيامي الذاوية.
صبياً وضيئاً أودُّ أن أكون
أو زهرةً على تخوم المروج.

*

أودُّ أن أموت مصغياً لصفير الرعيان
من أجلي، ومن أجل الآخرين.
والثلوج المنهمرة مساءً تملأ مسامعي
برنين أجراس كوكبيّة.

*

يا لفتنة هذه الترنيمة الصافية
وهي تُغرق الأسى في الزوبعة الثلجية.
أود أن أقف مثل شجرةٍ
بقدم واحدة على الطريق.

*

أود أن أعانق الشجيرة الجارة
وفي مسامعي شخير الخيل.
فارفعي، إذن، يا أكفّ القمر كآبتي
دلواً مترعاً إلى أعاليك.

1919

«أنا آخر الشعراء القرويين»

إلى مارييِنكَوف*

أنا آخر الشعراء القرويين،
متواضع بقصائدي كالقنطرة الخشبية.
كلّ صباح توقفني البتولا
موسوسة بصلاة وداع.

*

---

* يهدي يسينين قصيدته إلى الشاعر الروسي مارينيكَوف (1897 ـ 1962) وهو من أقرب أصدقائه إليه (المترجم) .

هي ذي الشموع الكنائسية
تخفق بلهبها الذهبي.
وساعة القمر الخشبية
بحّاء تدق ساعتي الثانية عشرة.

*

على ممشى الحقل الأزرق
قريباً سيظهر الضيف الحديدي.
وبقبضته السوداء
سيلمّ الشوفان، وقد انهمر الفجر فوقه،

*

أيتها الأيدي الغريبة الميتة
ما من حياة، قربك، لهذه الأغاني.
وحدها.. ستحزن الخيول
على سيدها العجوز.

*

ستمتص الرياح حمحمتها
وهي تقيم حفل تأبينها الراقص
قريباً، قريباً تدق الساعة الخشبية البحّاء
ساعتي الثانية عشرةَ.

1920

الصَعلوك

بمكانسَ مبتلةٍ يذهب المطر، عبر المروج،
بحثالة صفصاف السلال
ابصقي، أيتها الريح، أوراق الشجر أكواماً
فأنا صعلوك مثلك.

*

إني لأعشق الأجمات وزرقتها العميقة
حين تلطخ الجذوع حتى الركب،
أعشقها ملتفةً كثيران ثقيلة الخطى
ببطون لها خشخشة الورق.

*

هو ذا قطيعي الأشقر!
من، ترى، يتغنى به أفضل مني؟
إني لأرى، أرى آثار أقدام البشر
منطرحةً مثلما ينطرح الغسق.

*

آه يا روسيا،
يا روسيا الخشبية!
أنا مغنيك، وحامي حماك الوحيد.
قصائدي الوحشية هذه

أطعمتها بالخزامى والنعناع.

*

اقتربْ يا منتصف الليل، ودعْ كوز القمر
يغترف من حليب أشجار البتولا .
هي ذي المقبرة الريفية كما لو أنها تريد
أن تخنق أحدهم بأكفٍّ من الصلبان.

*

إنَّ رعباً أسود يتسكع فوق التلال،
ويصبّ في حديقتنا شحناء اللصوص.
أنا وحدي قاطع الطريق الجلف
وسارق الخيل السهوبي الأصيل.

*

من ذا الذي أبصر شجر البطمة في الليل
وقد أزبدت حشودُه الفائرة؟
آه لو كنت واقفاً في السهوب الليلية الزرقاء
وقد انتصب شعري كالفرشاة.

*

واحسرتا،
لقد ذوت شجيرة شعري
وامتصني أسر الأناشيد الطويل.
لقد حُكِمَ عليّ بأشغال الأحاسيس الشاقة المؤبدة

أدير أحجار رحى القصائد.

*

لكن لا تفزعي أيتها المجنونة
وابصقي أوراق الشجر بأمان عبر المروج
لم تُدر لي رأسي شهرتي كشاعر
ففي أغنياتي.. أنا صعلوك مثلك.

1920

اعتراف صعلوك

ليس كل إنسانٍ قادراً على الغناء
ولم يوهب كل إنسان القدرةَ
على أن يسقط كتفاحةٍ عند أقدام الغرباء.

*

إن أكثر الاعترافات عظمةً
يتقدم به، الساعةَ، شاعرٌ صعلوك.

*

متعمداً أخرج إلى الطريق بشعرٍ غير ممشط
منحدرٍ على أكتافي كضوء المصباح الغازي.
يعجبني أن أباغت بالضوء
ظلمات خريف أرواحكم الأجرد.

تعجبني حجارة الشتائم

تتطاير صوبي كبرَد الزوبعة المتجشئة،

فأطبق يدي قوياً

على فقاعة شعري المترنحة.

*

هكذا يطيب لي أن أتذكر

البركة المغطاة بالطحلب، وأنين الحور الأبح،

وأنَّ لي أماً وأباً، في مكان ما،

لا تستحق أشعاري عندهما غير بصقة.

غير أني عزيز عليهما كالأرض، كشخصٍ من لحمهم ودمهم،

كالمطر الذي يفجر الخضرة في الربيع.

ولقاء كل صرخة تقذفونني بها

لأقْبَلا يثخنانكم طعناً بالمذراة.

*

يا فلاحيّ المسكينين!

لقد أمسيتما، في الأكثر، غير جميلين،

وما زلتما تخافان الله وباطن المستنقع القاتم.

آه لو كنتما تدركان

أن ابنكما أفضل شاعر

في روسيا.

أأنتما، رحمةً به، لم يقشعرَّ لكما قلب

يوم كان يخوض بقدميه الحافيتين
برك الخريف الموحلة؟
هو اليوم يخطر بقبعة عالية
وأحذيةٍ من جلدٍ لمّاع.

*

لكنه لما يزل يحمل حِدّته القديمة،
حدّةَ القروي المشاكس.
إنه لينحني من بعيد
مُحيّيا كلَّ بقرةٍ معلقةٍ في واجهة قصاب،
وحين يلتقي بالحوذيين في الساحات،
متذكراً رائحة الروث في الحقول،
يود أن يرفع ذيل كل حصان
كما يرفع ذيل ثوب الزفاف.

*

أحب وطني.
أحب وطني كثيراً،
بكآبة صفصافه الذاوي المبقّع بالعفن.
قريبة من نفسي أبواز الخنازير الملوثة بالوحل
ونقيق الضفادع البرية في هدأة الليل.
إني لمريض بذكريات طفولتي،
وكثيراً ما أحلم بأمسيات نيسان الرطبة المتجهمة،

والاسفندان وقد جلس القرفصاء
كما لو كان يتدفأ أمام نار الفجر المشتعلة.
آه، كثير هو البيض الذي سرقته من أعشاش الغربان
متسلقاً، إليها، غصونه القوية.
ألما يزل، مثلما كان، بذروته الخضراء؟
وكعهدي به، لما يزل لحاؤه قوياً؟

*

وأنت يا عزيزي
يا كلبي الأمين الأبلق؟
ها قد جعلك الكبر أعمى، كثير الهرير،
تتسكع عبر الفناِء، ساحباً ذيلك المتهدل،
فاقداً قوة شمّك، لا تتبين أين الزريبة أو الباب.
آه، لكم هي عزيزة تلك الألاعيب
يوم كنا نختلس من أمي قطعة خبز
ونقضمها، بسرعة، ومرةً واحدة،
دون أن يضنّ أحدنا على الآخر بشيء.

*

أنا لمّا أزل مثلما كنت
لما أزل بقلبي مثلما كنت.
تزهر عيناي في وجهي كزهرتي عنبر زرقاوين في حقل جودار
يطيب لي أن أتحدث معكم برقة
باسطاً لكم حصران قصائدي الذهبية.

ها قد كفّ منجلُ الفجر عن صليله في أدغال الغسق..
بي رغبة قوية، من كوة بيتنا الآن،
أن أرشَّ القمر ببولي..
يا لفتنة الضوء الأزرق، وأية زرقة!
في مثل هذه الزرقة لا يؤسفني حتى أن أموت.
وماذا يهم إذا كنت أبدو مستهتراً
معلقاً على مؤخرتي أحد المصابيح؟
يا حصاني العجوز الطيب المنهك
أضروري لي خببك الناعم*؟
لقد جئت فناناً رائعاً
لأمجّد بأغنياتي الجرذان.
رأسي أشبه بآب الممطر
في تهطال خمرة شعره الهائج.

*

أود أن أغدو شراعاً أصفر
مندفعاً إلى حيث تقودكم الأقدار.

1920

---

* في الأصل يقول الشاعر: «يا بيغاسي الطيب العجوز، المنهك القوى». وبيغاس، هنا، اسم لمقهى معروف يومذاك في شارع تريفسكوي في موسكو، وكان يدعى مربط بيغاس... أي مربط الجواد بيغاس. كان يتجمع فيه أنصار حركة الآيما جينيزم عام 1919، وكانت المقاهي الأدبية شائعة في موسكو آنذاك، حيث تتمركز كل حركة أدبية في مقهى أو حانة خاصة بأصحابها (المترجم).

«إنَّ ما يتبقَّى معنا»

إن ما يتبقى معنا
قد وُسِمَ، منذ الصغر، بميسم خاص.
فلو لم أصبح شاعراً
لربما أصبحت لصاً أو نصاباً.

*

نحيلاً، قصيرَ القامة
كنت بين الصبيان أكثرَهم جرأةً،
غالباً، غالباً ما كنت أعود
بأنف مدمّى إلى البيت.

*

ولأمي التي تستقبلني مرتعبةً
كنت أقول من خلال أسناني الدامية:
لا بأس، لقد تعثرت بحجر،
كل شيء سيندمل مع الصبح.

*

والآن، وقد خمدَ
وحلُ هذه الأيام الفائر،
فإن قوةً وقحةً، قلقة
قد بدأت تتدفق في أشعاري

*

إن أكواماً من اللفظ الذهبي لما تزل معي،
وفوق كل سطر
تنعكس بلا انقطاع
جرأة الطائش العربيد السابقة.

*

ومثلما كنت أبقى فخوراً، باسلاً
على الأرض البكر وحدها تتقدم بي خطاي..
فإن كنتُ، من قبل، قد ضُربت على وجهي
فاليوم أراني سابحاً في دمائي.

*

غير أني لم أعد أغمغم لأمي،
إنما وسط حشدٍ من الأوباش المقهقهين:
لا بأس، لقد تعثرت بحجر،
كل شيء سيندمل مع الصبح.

1922

«إيه يا عالمي الخفيّ»

إيه يا عالمي الخفيّ، يا عالمي الغابر
كالريح قد هدأت جالساً القرفصاء.
هاهو الطريق المعبّد

بيديه الحجريتين يشد على عنق القرية.

*

الرعب يرتجف مروَّعاً
في أكفانه الثلجية.
مرحباً بكِ يا منّيتي السوداء
ها أنذا خارجٌ لأستقبلك.

*

أيتها المدينة، أيتها المدينة! في حومتك القاسية
كالجيف تصلبيننا، كحثالة بذيئة.
وفي كآبته المتسعة العينين، يتجمد الحقل
شانقاً نفسه فوق أعمدة التلغراف.

*

ليس من الصعب على عضلات العنق الشيطانية المفتولة
أن تحطم قنطرةً من الصفر.
وماذا بعد؟ ليست هي المرة الأولى
التي تتضعضع وتنهدم.

*

وهذه الأغنية، أغنية القوانين الوحشية
لتكن جارحة، متباطئةً أكثر في فؤادي.
.. هكذا يطارد الذئبَ صيادوه
قابضين عليه بالأحبولة.

*

قويةً كانت سقطة الحيوان.. ومن أغوار الغابة المتجهمة
قد أفلت أحدهم زناده..
وتفاجئك وثبة.. وتمزق الأنياب قِطَعاً
خصمها ذا القدمين الاثنتين

*

إليك تحيتي يا وحشي العزيز
فما أسلمت عنقك لسكينهم بسهولة.
مطارداً، مثلك، من كل ناحيةٍ
أعبر طريقي، وسط أعدائي الحديديين.

*

ومثلك متهيِّءٌ أبداً
وإِن يكن نفير نصري متعالياً.
إِن وثبتي الأخيرة ساعة هلاكي
ينبغي أن تذوق شيئاً من دم العدو

*

وهبني سقطت على الثلوج الهشة
تغمرني أكوامه البيضاء،
فسأسمع من يردّد لي، على الضفّة الثانية
أنشودةَ ثأري.

1922

«ولماذا أخدع نفسي؟»

ولماذا أخدع نفسي؟
إنَّ هماً ثقيلاً قد ربض في قلبي الداخن.
بأية جريرةٍ ذاع صيتي كرجل دجّال؟
بأية جريرةٍ ذاع صيتي كرجل مشاغب؟

*

ما كنت نذلاً، ولم أسلب الناس في الغابات،
ولم أعدم أحداً بالرصاص في غياهب السجون.
ما أنا إلا فتى شوارع طائش
أبتسمُ، أبداً، في أوجه العابرين.

*

أنا المتسكع اللعوب في طرقات موسكو،
على امتداد شارع تروفسكي،
كل كلب سائب في أزقته
لَيعرِف مشيتي الخفيفة.

*

كل حصان مبتذل، رثٍ
يومئُ لي، مُحيّياً، برأسه في الطريق.
أنا زميل الحيوانات الطيب
كل بيت من شعري لينعش منها الروح

*

لا لأجل النساء أخرج بقبعة عالية
فلم يعد قلبي قادراً على الرغبات الحمقاء.
إنما يطيب له أن يُقلّل من كآبته
ويعلف الفرس بالشوفان الذهبي

*

ما من صداقة لي مع الناس،
فقد انتميت، مذعناً، إلى مملكة أخرى.
بي رغبة أن أضع أفضل رباط عنق لدي
على رقبة أي حصان عابر.

*

لم أعد راغباً، بعد، أن أتوجع
فقد انكشفت حمأة قلبي الداخن.
ولهذا ذاع صيتي كرجل دجال،
لهذا ذاع صيتي كرجل مشاغب.

1922

«أجل لقد اتخذت قراري»

أجل. لقد اتخذت قراري
وهجرت قريتي بلا عودة.
لن توسوس، بعد، أشجار الحور من فوقي

بحفيف من أجنحة أوراقها.

*

إِن منزلنا الواطئ قد احدودب مقفراً مني،
وكلبنا الهرم قد نفق منذ زمن بعيد.
وفي شوارع موسكو المتلوية
قضى عليّ ربي أن أهلك أخيراً.

*

إني لأعشق هذه المدينة الموحلة
وإِن تكن عجوزاً مترهلة،
إن آسيا الذهبية الناعسة
آخذةٌ على قبابها بالنوم

*

وفي الليل حين يلتمع القمر
حين يلتمع.. الشيطان يدري كيف!
آخذ طريقي مطأطئ الرأس في الأزقّة
إلى حانتي المعهودة.

*

ورغم الضجيج والغوغاء، في هذا الوجر المشؤوم،
حتى ساعة متأخرة من الليل
أقرأ قصائدي على البغايا
وأعب السبيرتو مع قطاع الطرق.

*

إن قلبي ليخفق أسرع فأسرع.
وأنا أبعثر أقوالي في غير مظانّها.
ميئوس منّي كأي واحد منكم،
ما من عودة لي، بعد، إلى الماضي

*

إِن منزلنا الواطئ قد احدودب مقفراً مني
وكلبنا الهرم قد نفق منذ زمن بعيد.
وفي شوارع موسكو المتلوية
قضى عليّ ربي أن أهلك أخيراً.*

1922

«ها قد بدأوا»

ها قد بدأوا، ثانيةً هنا، يشربون ويتضاربون
ويبكون مع أنين الهرمونيكا الأصفر

---

* يقول الشاعر: في سنوات الحرب والثورة كان مصيري يقذف بي من جهة إلى أخرى. فقد ذرعت روسيا كلها طولاً وعرضاً... من المحيط المتجمّد حتى البحر الأسود، ومن الغرب إلى فارس والصين والهند. أفضل أيامي أحسبها قد مرت عام 1919. يومئذٍ عشنا الشتاء القاسي في غرفة باردة، غالباً ما كانت درجة البرودة فيها لا تقل عن خمس تحت الصفر. ولم يكن معنا حطب. حين لم يكن معنا ورق كنا نكتب شعرنا على جدران دير ستراستني، ونقرأ القصائد في أي مكان، في الشوارع أو الساحات، أكثر المتحمسين لأشعارنا كانوا من البغايا وقطاع الطرق. كانت تجمعنا معهم صداقة كبيرة (المترجم).

إنهم يلعنون خيبتهم
ويتذكرون روسيا الموسكوفية.

*

وأنا أيضاً، وقد أطرقت برأسي.
أغرق عيني في الخمر.
لا أريد أن أقرأ القدر المحتّم مكتوباً على الجبين
ولأفكر، ولو للحظة، بشيء بعيد آخر.

*

إن شيئاً عزيزاً قد أضاعه الجميع إلى الأبد.
يا زرقة تموز! يازرقة أيار العميقة!
أليس بسبب هذا أرى رائحة الجثث تفوح دخاناً
فوق هذا الحفل الهالك؟

*

آه، سعداء هم الروس اليوم،
فالكحول يجري أنهاراً...
وها هو عازف الهرمونيكا بأنف كسقفٍ منهار
يتغنى لهم عن الفولغا والجيكا.
أرى شراً مستطيراً في عيونهم المخبولة
وأسمع في صراخهم فتنةً تكاد تشبّ.
حزانى هم اولئك الصبية البلهاء
الذين عصفت بأعمارهم انفعالاتهم الطائشة.

*

أين أنتم يا من رحلتم بعيداً ؟
أتراها تضيء لكم قوياً أشعتنا هذه ؟
عازف الهرمونيكا بشراب الكحول يحاول
أن يشفي السفلس الذي جاء به من سهوب قرغيزيا.

*

أبداً، مثل هؤلاء لن يهزّهم بعث أو نشور
لقد تعفنت نفوسهم، طويلاً، في اللامبالاة.
وأنت يا راسّيا ... يا راسّيا
*يا وطني الآسيوي...**

1923

«ركضاً، ركضاً...»

ركضاً، ركضاً أيتها الهرمونيكا.. يا لهذا الضجر!
عازف الهرمونيكا يترك أصابعه تنصبّ كالموج.
اشربي معي أيتها الكلبة الجرباء

---

* في هذه القصيدة، وفي قصائد أخرى مماثلة، حيث يبدو واضحاً الإحساس بالخيبة والتوجع على الماضي الطفولي، كان الشاعر مثقل النفس بكآبته هو، وبانطباعاته عن مقاهي المهاجرين البيض في أوربا... وبتجربته المرة في الحانات الخانقة، حيث كان يتردد اللصوص وانقاض المثقفين ممن أطرحتهم الأحداث على هامشها... وهي من مجموعة «أشعار رجل مشاغب». وراسيا التي يصادفها القارئ هنا هي روسيا كما ينطقها الموجيك في مناطق من روسيا، والهرمونيكا: آلة موسيقية شعبية روسية (المترجم).

اشربي معي.

*

أغرموا بك حيناً، ثم اطّرحوك خرقةً بالية
وقد نفد منهم الصبر .
مالك تحدقين بي بعينين كرشاش الماء الأزرق؟
أم تريدين صفعةً على البوز؟

*

مثلك تُعلّق فزاع طيور في بستان خضار
لتبث الذعر في الغربان.
لقد مزقتني حتى الكليتين
من كل جانبٍ وصوب.

*

ركضاً أيتها الهرمونيكا، ركضاً يا بضعةً مني،
واشربي يا كلبةَ الماء اشربي.
خير لي أن أتعلق بثقيلة الثديين تلك
فهي، في الأقل، أغبى منك.

*

لست الأولى من النساء اللواتي..
فما أكثركن،
إنما مع وغدةٍ مثلك؟
فهي المرة الأولى.

*

كلما اشتد الأذى تعالى الأنين
هنا أو هناك.
لا تتصوري أنني أقتل نفسي،
اذهبي إلى الشياطين.

*

آن أن ابتعد
عن عصبة كلاب الصيد هذه.
أيتها الغالية، ها أنا أبكي
فاغفري.. اغفري.

1923

«ليس غريباً»

ليس غريباً عليّ هذا الشارع
وليس غريباً هذا المنزل الواطئ،
وقد انقلبت على نافذته
شبكةُ قّشٍ زرقاء.

*

مرت سنوات التعاسات الثقيلة،
سنوات القوى المجنونة العنيفة.
وها أنا أتذكر طفولتي القروية،

ها أنا أتذكر زرقة الريف.

*

لم أكن أبحث عن المجد أو الراحة،
فلقد عرفتُ هذا المجد الباطل.
كلما أغمضت عينيّ الآن
لم أعد أرى غير بيتنا الواطئ.

*

أرى الحديقةَ مبتلةً بقطراتٍ زرقٍ كبيرة
وقد اتكأ آب هادئاً على السياج.
والزيزفونات بأكف زرقاء
تمسك بزقزقة الطير.

*

لقد أحببتُ هذا البيت الخشبي،
حيث الحطب بتقطيبةٍ قاتمة يتوهج بخفوت.
وموقدنا بشيء غريب ووحشي
يولول في الليلة الماطرة،

*

إن نشيجه ليرتفع عاليا
وكأنه يندب عزيزاً حياً مفقودا.
ما الذي أبصره هذا الجمل الآجري
في شهقات المطر المنهمر.

*

لقد رأى بالطبع أصقاعاً نائية
ومواسمَ مزهرةً، وأحلاماً أخر،
رأى رمال افغانستان الذهبية
وقبة بخارى الزجاجية العابسة.

*

آه لقد عرفت أنا الآخر تلكم الجهات
وقضّيت هنالك وقتاً ليس بالقصير.
إنما الآن لا أرجو غير الرجوع
قريباً من قرانا وأحراشنا.

*

لكن ذاك الوسن الرقيق قد انطفأ
وتحوّل كل شيء إلى دخان أزرق.
لك السلام يا قشّ الحقول،
لك السلام يا بيتنا الخشبي.

1923

« لهب أزرق»

إن لهباً أزرق قد بدا يتأرجح
وأبعاد ريفنا يلفها نعاس.
لأول مرة أجدني متغنياً بحبي

لأول مرةٍ أكفّ عن المشاغبة.

*

كنت أشبه بالحديقة المهملة،
كنت حريصاً على النساء والعقاقير.
وها أنا أكره أن أرقص، بعد، أو أسكر
أو أبعثر أيامي دونما احتراس.

*

رغبتي الوحيدة أن أتطلع إليك،
أن أرى عمق عينيك الذهبي البندقي،
آملاً أن تكوني قد أدرت ظهرك للماضي
فلا تهجرينني من أجل آخر.

*

يا خطىً ناعمة، يا قامةً ممشوقة
ليتك تدركين، بقلبك العنيد هذا،
أي حبٍّ يمكن أن يكنه صعلوك مثلي
وأي رجل مطيع يمكنه أن يكون.
إذن لنسيتُ الحانات إلى الأبد
ولعزفتُ عن كتابة القصائد،
فقط لو استطعت لمسَ يديك برقة
وشعرك المائل إلى صفرة الخريف.

*

ولتبعتُ خطاك

في أرضنا هذه أو بلاد الآخرين..

لأول مرة أجدني متغنياً بحبي

لأول مرةٍ أكفّ عن المشاغبة

1923

«دعي عنكِ تعذيبي»

دعي عنكِ تعذيبي بنظرتك الباردة

وسؤالك: كم لي من العمر.

لم تعد نفسي غير هيكل عظمي أصفر

طريح الصرع الأليم.

*

مرّ زمن كنت أنطلق من ضاحيتنا

محلقاً في دخان من أحلام صباي

في أن أكون ثرياً وشهيراً

محبوباً من الجميع.

*

أجل! ثريّ أنا وأكثر من ثري.

كنت أملك قبعةً عالية، وها قد فقدتها،

لم يبق معي غير صدر قميص

وحذاء مهتري شائع طِرازه.

*

وشهرتي ليست بأسوأ كثيراً،
فمن موسكو إلى أطراف باريس المهلهلة
يبعث أسمي الذعر في المسامع
كشتيمة بذيئة عالية

*

والحب؟ ألم يعد أمراً مضحكاً؟
تقبلينني وشفتاك كالصفيح.
أنا أعرف أن أحاسيسي قد أفرطت في نضجها،
وقلبك؟ وهل يتفتّح لك قلب؟

*

لمّا يزل التحسر مبكراً
وإن يكن ثمة حزن.. فماذا بكارثة.
ذهبياً أكثر من جدائلك
يخفق القاقلي الفتى، موسوساً، عبر تلاله.

*

بي رغبة أن أرى ضاحيتنا تلك،
وفي وسوسة القاقلي الفتيّ
أغرق نفسي، أبداً، في النسيان
محلقاً في أحلام من دخان صباي.

*

إنِ حلمي لشيء آخر
شيء غريب على مسمع الأرض وأعشابها،
لا القلب يُعّبرُ عنه بكلمة
ولا أحد يعرف له إسما.

1923

«لم أكنْ مثقلاً...»

لم أكنْ مثقلاً بمثل هذا التعب من قبل،
في هذا الطقس الثلجي الراشح
أجدني حالماً بسماء ريازان
وبطيشي القديم.

*

أحبّتني نساء عديدات
وأنا الآخر أحببت أكثر من واحدة،
أتراني جرّاء هذا
تدفع بي القوى المظلمة لأن أشرب؟

*

هذه الليالي المخمورة بلا انتهاء
والكآبة بعد السكر الغامر.. ليست جديدةً.
أجرّاءَ هذا ينخر السكر عيوني

كما تنخر الدودة أوراق أشجارها.

*

لم تعد الخيانة موجعة من أية جهة تجيء،
وسهولة النصر لا تبعث أي سرور في نفسي.
إنَّ لون شعري.. لون القمح الذهبي
أراه يتحول إلى لون الرماد
يتحول إلى رماد وماء
حيث ترشح الثمالة الخريفية.
ما أنا بآسف عليك أيتها السنوات المنصرمة،
ولست راغباً باستعادة شيء،

*

أنهكني أن أعذّبَ نفسي دونما هدف،
وبابتسامة غريبة على وجهي
يطيب لي أن تأخذ هيئتي الرقيقة
هدوءَ رجل ميت، وبريق ضوء خافت.

*

لم يعد ثقيلاً عليّ
أن أحمل بدني، ظالعاً من وكر إلى وكر،
وكمن يُدخل في قميص المجانين
أتقبّل الطبيعة على أنها حائط الخرسان.

*

وبقوانين كهذه
يخبو فيّ الحماس المستعر.
غير أني لما أزل أتوجه بانحناءةٍ
إلى تلك الحقول التي أحببتها ذات يوم.

*

إلى تلك الجهات، حيث ترعرعت تحت ظل الاسفندان
ورتعت مرحاً على العشب الأصفر
أبعث بتحيتي إلى الغربان والعصافير
والبومة المنتحبةِ في الليل.

*

إليهم، في سهوبهم الربيعية، تحيتي.
يا طيوراً صديقة في الزرقة المرتعشة
لم أعد بالرجل المشاغب المعهود.
عنيفةً، لتضرب الريح في الأقل
سيقان الحنطة السوداء المتبقية بعد الحصاد.

1923

رسالة إلى أمي

ما زلتِ حية ترزقين يا عجوزي؟
وحيّ أنا. سلاماً، سلاماً.

لتنهمر فوق منزلك الخشبي
ألوان أمسية لا توصف فتنتها.

*

يكتبون لي أنك تذوين قلقاً عليّ،
وقد استبدّ بك شوق هائل،
وأنّكِ، غالبًا ما تترددين على الطريق
في سترتك الرثة القديمة.

*

وفي عتمة أُخريات النهار الزرقاء
شيء واحد يتراءى لك بلا انقطاع.
كما لو أن أحدهم في شجار بإحدى الحانات
قد غيّب في صدري سكينه الفنلندي.

*

لا شيء من هذا يا أمي. اهدأي،
ليس هذا غير توهمات أَرَقٍ وإرهاق.
فما أنا بهذا السكير الضائع
بحيث أقضي نحبي دون رؤية مُحيّاك.

*

ما زلتُ، كعهدكِ بي، رقيقاً، حنونا
وليس لي إلا حلم واحد:
أن آوي إلى منزلنا الخفيض.

فقد هاجت بي كآبة هائلة.

*

انتظريني، إذن، حين تنتصب
أغصان حديقتنا خيمةً بيضاء في الربيع
إنما.. لا توقظيني ساعة الفجر
كعهدك قبل ثماني سنوات.

*

لا تُوقظي حياةً لم تكن إلا حلما،
لا تُقلقي حياة لم أعشها يوماً ما.
مبكراً قُدر عليَّ
أن أجرب الضنى والفقدان.

*

ولا تسأليني ابتهالاً.. فمالي انتفاع بهذا.
ما من عودة، بعدُ، إلى الماضي.
أنت وحدك لي عون وسلوى
أنت وحدك لي ضوء لا توصف فتنته

*

اطّرحي، إذن، عنك قلقك هذا
ولا يستبدنّ بك الحزن.
ولا تترددي، كل يوم، على الطريق

*في سترتك الرثة القديمة**

1924

«لم يَعُد المرج»

لم يعد المرج الذهبي يتغنى
بلغة البتولا المرحة،
وارتحلت الغرانيق الحزينة
غير آسفة على أحد.

*

وعلى من تأسف؟ المرُّ عابر على الأرض
يروح ويغدو، وثانيةً يغادر الدار.
ولربما يحلم بنا هذا الحقل من القنبِ
وفوق البركة الزرقاء يلتمع القمر الكبير.

*

وحيداً أقف وسط السهل العاري
والريح تذهب بعيداً بالغرانيق المرتحلة.

---

* كلمة سترة، هنا، ترجمة غير دقيقة تماماً لكلمة شو شون الروسية. وهي مما ترتديه النساء الفلاحات فوق الثوب في روسيا القديمة، وهي أشبه بالبلوز الواسع الكبير الخفيف أو ما يقرب منه (المترجم) .

إِن نفسي لممتلئةٌ بذكرى الصبى المبتهج
غير متحسرة، بعدُ، على الماضي.

*

غير متحسرة على السنين الضائعة
غير متحسرة على زهرة الروح الليلكية.
وفي الحديقة تلتهب شعلة الغبيراء الحمراء
دون أن تحرق أحداً.

*

لا تحترقي يا عناقيد الغبيراء
فما أهلك العشبةَ اصفرارُها.
وكما تُسقط الشجرةُ أوراقها في سكينة
ها أنا أُسقطُ كلماتي الكئيبة.

*

وإذا ما الزمن، وقد كنسها كما تفعل الريح بالأوراق،
يجمعها في كومة تافهة
فلتقولي معي.. لم يعد المرج الذهبي يتغنى
بلغته الجميلة.

1924

الجرو

ثانيةً تنحسر العتمة عن الماضي
فيُسفر موسوساً كمرج أُقحوان
فأتذكر كلبةً
كانت صديقة صباي.

*

لم يعد الصبى يتغنى مثلما كان
هو اليوم أشبه بشجرة اسفندنان خاوية عبر النافذة،
غير أنني أتذكر فحسب، صبيّة في رداء أبيض
كانت كلبتي ساعي بريدي إليها.

*

سعيدٌ من يجد صنوه الأعزّ
إنما كانت أشبه بأغنية لي
فلم تنتزع أية رسالة في أي يوم
من طوق كلبتي تلك.

*

لم تقرأ، أبداً، أية رسالة
ولم تتعرف أبداً على كتابتي،
إنما كانت تحلم طويلاً بشيء ما
عند شجرة الكالينا، عبر البركة الشاحبة.

*

كما لو كان أمه.. وأي تشابهٍ هذا!
عبثاً كنت أنتظر..
وها أنا، بعد سنوات، ثانيةً أمام بيتنا
أقف شاعراً شهيراً.

*

إن كلبتي نافقة منذ سنين،
إنما بذاك الشعر الضارب إلى الزرقة،
وبزخة عارمة من نباحه الطائش
قد استقبلني جروها الفتيّ.

*

كما لو كان أمه.. وأي تشابه هذا!
ثانيةً تمتلئ النفس بالأذى
فأحس بي أكثر شباباً
وبي رغبة أن أكتب رسائل جديدة.

*

ثمة أغنية تشيع الفرح في نفسي
فلا تنبح، لا تنبح، لاتنبح
أتريد، يا كلبي، أن أقبّلك
لقاء هذا الربيع الذي استيقظ في قلبي؟

*

أقبّلك، وأضمُّكَ إلى صدري

وكصديقٍ أقودك إلى البيت.
أجل، كنت معجباً بذات الرداء الأبيض.
وأنا اليوم مولّهٌ بأخرى ترتدي اللازورد.

1924

«أبداً ذكراكَ...»

أبداً ذكراك مقيمة في نفسي
يا منزلاً واطئاً أزرق الشبابيك،
ليست ببعيدةٍ تماماً
أعوامي التي انطفأت صامتة في العتمات،

*

لمّا يزل يتراءى لي
الحقل والمرج والغابة،
وسماء هذه الجهات الشمالية المدقعة
متدثرة بلون الشيت الأشهب.

*

لم أعد أعرف كيف أُعجب بشيء،
لم أعد راغباً أن أضيعَ في مجاهل الغابات،
غير أنني، في الأكثر، إلى آخر يوم أظلُّ ممتلئاً
بهذه الرقة الروسية الحزينة.

*

إني لأعشق تلكم الغرانيق الشائبة
لاغطةً في سهوبها الهزيلة.
وقد أعياها بحثها في رحابة الحقول
عن أيما بقايا مشبعة.
لم تعد ترى، حولها، غير البتولا
وأشجار الصفصاف مائلةً عارية.
لم تعد تسمع غير صفير قطّاع الطرق
صفيرهم الذي ينتزع الروح.

*

لكم أردت ألا أحب،
فما استطعت أن أتعلم شيئاً.
عزيزة أنت أيتها الأرض المحروثة
مدثرة بهذا الشيت الرخيص.

*

إنّ عمري الذي لم يعد شاباً
لما يزل يخفق برائحة الصبى.
أبداً، ذكراك مقيمة في نفسي
يا منزلاً واطئاً، أزرق الشبابيك.

1924

رسالة إلى امرأة

تذكرين،
تذكرين، بالطبع، كل شيء،
كيف كنت أقف
مقترباً من الحائط.
وأنت تذرعين الغرفة قلقةً
قاذفةً في وجهي
بكلمةٍ لاذعةٍ ما.

*

كنت تقولين :
«آن أن نفترق».
فقد عذّبتك طويلاً
تصرفاتي الطائشة،
وآن لك أن تنصرفي لمشاغلك،
إن قدري:
أن أنحدر أكثر إلى الحضيض.

*

حبيبتي
ما كنتِ بِمُحِبّةٍ لي.
لم تدركي أنني كنت في زحمة الآخرين

كالفرس الجامحة، راغية الفم،
يهمزها فارس شجاع.

*

لم تدركي
أنني في العجاج المطبق،
في عالمنا الذي خَرَّبَتْهُ العاصفة
كنت أتعذبُ لأني لا أدري
إلى أية جهة تسوقنا الأقدار.

*

وجهاً لوجه
لا نتبين شيئاً.
والحدث الأكبر لا يُرى إلا عن بُعد
حين يغلي وجه البحر هائجاً
فالسفينة في وضع يرثى له.

*

الأرض سفينة.
باتجاه حياة جديدة ومجد جديد
في فؤاد الزوابع والثلوج المنهمرة
قد وجّهها أحدهم بقوة.

*

لكنْ.. أيُّ واحدٍ منا على ظهر السفينة الواسع

لم يتعثر أو يسقط أو يطلق الشتائم؟
قلّة تلك التي ظلّت واقفة، بنفسها المجرّبة،
في اضطراب الموج.

*

وعندئذٍ
في الضجيج الضاري،
مدركاً خطوتي جيداً
انحدرت إلى عنبر السفينة
كيلا أرى قيء الآخرين.
وكان عنبري
هو الحانةَ الروسية.
فانحنيت بوجهي على الكأس
لأهلك نفسي
في سَوْرة السكر
غير متألم على أحد.

*

حبيبتي!
لقد عذبتك طويلاً.
كنت أرى كآبتك
في عينيك المتعبتين.
يؤلمك أنني أعرض أمامكِ

ضياعَ نفسي في المشاحنات.
غير أنك لم تعرفي
أنني في العَجاج المطبق،
في عالمنا الذي خرّبته العاصفة
كنت أتعذب لأنني لا أدري
إلى أيةِ جهةٍ تسوقنا الأقدار.

*

تقدمَ بنا الزمن الآن
وأنا في سنٍ غير تلك
أحس وأفكر بطريقة أخرى.
وأهتف على مائدة الخمر في العيد:
الحمد والمجد لقائد الدفة.

*

أنا اليوم
في هجمة الأحاسيس الرقيقة.
أتذكر هيئتك المتعبة الكئيبة.
وها أنا
أسرع لأخبركِ
كيف كنتُ
وأي شيء تَبقّى مني

*

حبيبتي!

يطيب لي أن أقول:

إِنني تجنبت السقوط من الجرف العالي.

ففي الجانب السوفيتي

أنا اليوم أكثر الانتهازيين اندفاعا.

*

لم أعد

ما كُنْتُهُ من قبل.

ما كنت لأعذبك

مثلما كنت أفعل قديما.

خلف راية الحرية

والعمل الوضيء

متهيىء أن أصل حتى إلى المانش.

*

اعذريني..

أعرف أنك اليوم امرأة أخرى

فأنت تعيشين

مع زوج جادٌ وذكي،

وأنِّ عملنا الشاق غير ضروري لك،

وأنا نفسي

غير ضروري مطلقاً.

واصلي عيشَك، إذن،
إلى حيث يقودك نجمك
تحت ظل سقف جديد،
مع تحيات
من يتذكرك دوماً
صديقك
سيرغي يسينين.

1924

الزوبعة الثلجية

لنغزل، ثانيةً، ما غزلنا من قبل،
أبداً لن يعود روحاً حياً.
لا!
مطلقاً لن أتآلف مع نفسي،
معها نفسها
لم أعد إلا رجلاً غريباً.

*

أريد أن أقرأ ويفلت الكتاب من يدي
وآخذ بالتثاؤب،
وهكذا أغمض عيني..

وعبر النافذة

تواصل الريح نحيبها،

كما لو أنني

أحس باقتراب جنازة.

*

واسفنداننا، وقد تساقط لحاؤه،

بذروته السوداء

يخن، بهمسهِ الأجش، نادباً أيامنا السالفة.

وأي اسفندان هو؟

لقد أمسى كعمود العار

فهو يصلح أن يكون مشنقةً

أو يُنتهى منه باجتثاث جذعه أخيرا.

*

وأنا

أول من ينبغي شنقه عليه،

ويداي متصالبتان وراء ظهري

لقاءَ

أغنية بحّاء سقيمة

أقلقت بها وطني،

ساعةَ النوم.

*

لا أحب أبداً

صيحات الديكة،

وأقول:

لو كنت أستطيع

لانتزعت

أحشاء الديكة جميعاً

لتنقطع إلى الأبد

صيحاتها الليلية.

*

غير أني نسيت

فأنا الآخر ديكٌ أيضاً

فكم هتفت ملء صوتي

عند مقدم الفجر،

منتهكاً نصائح والديّ،

مضطرباً

بمشاغل قلبي

وشعري،

*

والزوبعة الثلجية تولول

كما لو أنها خنزير برّي

وقد أُحيط به ليجهَزَ عليه.

والضباب

بارد متجلد،

لا يمكن أن تتبين

بعيداً

أو قريباً.

*

القمر، في الأكثر،

قد التهمته الكلاب.

فمنذ زمن بعيد

لم يبدُ له أثر في السماء.

وأمي منتزعةً خيطَ الكتّان،

تواصل حديثها

مع المغزل.

*

وقطّنا الأصمُّ

يصغي إلى حديثها،

وقد تدلى رأسه الضخم

من الدكة الطويلة.

ليس عبثاً أن يقول

جيراننا المتخوفون

إنه أشبه

بالبومة السوداء.

*

تنطبق عيناي
وما إن أفتحهما
حتى أرى في انتباهتي
قطاً يمد لي مخلبه،
عبر الأزمنة الخرافيّة الغابرة،
مشيراً إليّ إشارة تحدٍ واستهانة.
وأمي أشبه بساحرة
من أعالي كييف.

*

لست موقناً
أمريض أنا أم غير مريض
لكن أفكاري
تتسكع في غير أماكنها.
وفي مسامعي
دقات مجرفة المدافن
وانتحاب نواقيس نائية.

*

أرى نفسي
ميتاً، ممدداً في تابوت

ومن فوقي يئن أحدُ القساوسة:

هلليلويا.

وأنا الرجل الميت

أرخي جفوني على عينيّ

وقد وضعت فوقهما

قطعتين نحاسيتين من فئة الخمسة كوبيكات.

*

بهذا المال

مع هذه العيون الميتة،

سيحسُّ حفّار القبور بدفء أكثر

فما إن ينتهي من دفني

حتى يبدأ بتجرع فودكاه الرديئة.

وعالياً يصيح :

هاكم رجلاً غريب الأطوار!

لم تكن عربدته قليلةً في حياته

لكنه لم يقو على قراءة

خمس صفحات

من رأس المال.

1924

«شاهانا، شاهاناي!»

شاهانا، شاهاناي!
ما دمتُ رجلاً من الشمال
يمكنني أن أقصَّ عليك، خلسةً،
شيئاً عن الحنطة السوداء المقمرة المتموجة،
شاهانا، شاهاناي!

*

ما دمت رجلاً من الشمال
حيث القمر هنالك أكبرُ مائة مرة،
ومهما تكن شيراز جميلةً
فما هي أكثر جمالاً من سهوب ريازان الفسيحة،
ما دمت رجلاً من الشمال،

*

يمكنني أن أقصَّ عليك، خلسةً،
إني أخذت هذا الشعر من اصفرار السنابل،
وإذا شئتِ.. لفّيه على إِصبعك
فلن أُحسَّ بألم،
يمكنني أن أقصَّ عليك، خلسةً

*

شيئاً عن الحنطة السوداء المقمرة المتموجة،

من موج شعري هذا يمكن أن تحرزي تموجها،
ابتسمي يا غاليتي، قولي شيئاً لطيفاً
إنما لا توقظي في ذاكرتي
شيئاً عن الحنطةِ السوداء المقمرة المتموجة،

*

شاهانا، شاهاناي!
في الشمال صبية أخرى
تشبهك كما لو كنتِ هي،
ولعلها، الساعةَ، تحلم بي.
شاهانا، شاهاناي*!

1924

«لم أكنْ ذات يوم...»

لم أكن، ذات يوم، على البسفور
فلا تسأليني شيئاً عنه.
في عينيك هاتين
أرى البحر ملتهباً بنار خضراء

*

* «شاهانا»: اسم لفتاة فارسية. والقصيدة التي تلي تخاطب أيضاً فارسية، فالقصيدتان من مجموعة الشاعر الصغيرة «فارسيات» والتي كتبها، متأثراً، بانطباعاته عن رحلة له في فارس والجنوب السوفيتي (المترجم).

لم ترتحل بي قافلة إلى بغداد
محملة بالحرير والحنّاء.
فانحني عليّ بقامتك الجميلة
لأرتاح عند ركبتيك،

*

أم مرةً ثانية، ومهما أعدت السؤال،
لا يهمك في قليل أو كثير
أنني في الأصقاع النائية التي تُدعى روسيا
شاعرٌ ذائعُ الصيت.

*

في أغوار نفسي ترن التليانكا*
وإني لأسمعُ نباحاً مألوفاً لي تحت قمر الليل.
ألا يعجبك أيتها الفارسية
أن تري جهاتنا الزرقاء السحيقة؟

*

لم تُلق بي إليكم كآبةٌ أو ضجر
إنما جاءت بي دعوةٌ خفيةٌ منك.
وذراعاك الناعمتان كريش البجع
قد التفّا عليّ كجناحين.

*

---

* التليانكا: آلة موسيقية روسية شعبية (المترجم).

منذ زمن بعيد وأنا أبحث عن مصير هادئ.
مع إني لم ألعن حياتي المنصرمة.
حدثيني، إذن، بأي شيء
عن مدينتك المرحة.

*

واخمدي في أغوار نفسي كآبة التليانكا
ودعيني أرتشف أنفاس مفاتنك الغضة،
فلا أعود أحنّ أو أتنهد أو أشتاق
إلى حبيبتي الشمالية النائية.

*

وإن كنت لم أقف، ذات يومٍ، على البسفور
يمكنني أن أتخيل لكِ شيئاً عنه.
وأي فرق.. فعيناك هاتان كالبحر
وقد اضطرب بنار خضراء.

1924

كلب كاجالوف*

اعطني، جيم، يدك التي تجلب الحظ
لم أجد لمثل يدك شبيها.
هلم لننبح طوال الليل المقمر
في هذا السكون الصافي،
اعطني، جيم، يدك التي تجلب الحظ.

*

أرجوك، ليس هذا بوقت نوم،
افهم مني، في الأقل، أكثر أقوالي بساطةً
فما أنت دارٍ أيّ شيء هي الحياة
وأي شيء يعدل العيش على الأرض.

*

---

* «كاجالوف»: ممثل مسرحي سوفيتي شهير (1875 ـ 1948). كتب مقالة له بعنوان: «لقاءات مع يسينين عام 1928» بعد انتحار الشاعر بثلاث سنوات، جاء فيها: عدتُ، مرّة، إلى البيت بعد المسرح فسمعت نباح جيم الفرِح، وهو الكلب الذي كتب عنه يسينين، من بعد، قصيدة. دخلت فوجدت يسينين وجيماً، وكانا قد تعارفا، يجلسان على الأريكة متلاصقين. كان يسينين يلف إحدى يديه على عنق جيم، ويمسك بالأخرى كفه ويردد بصوت أبحَّ: أي كف هذه! لم أر لهذه الكف شبيهاً. بعد تعرفي بيسينين لأول مرة، عدت ذات يوم إلى البيت، فأخبروني أن يسينين مع ضيفين آخرين كان قد أقبل لزيارتنا فلم يجدني. كان يسينين يعتمر قبعة عالية، وقد أوضح لهم أنه جاء بقبعة عالية ليبدو في هيئة أفضل فهو في زيارة خاصَّة لجيم، وقد حمل إليه قصيدة كتبها عنه. ولما كان تقديم هذه القصيدة لجيم يتطلب حضور سيده... فهو سيأتي في مرة أخرى (المترجم).

سيدك ذو لطف وصيت ذائع
وعلى بيته يتردد أضياف عديدون.
كل منهم يحاول جهده متبسماً
أن يلمس منك شعرك المخملي.

*

أنت ككلب جميل دونما حدود
بهذه الألفة السريعة المحببة.
وكصديق ثمل، دون أن تسأل أحداً،
تلقي بنفسك علينا وتغمرنا بقبلاتك.
يا عزيزي جيم! كثيرة هي الوجوه المترددة
بين أضيافكم العديدين.
إنما تلك التي تبدو أكثرهم سكوناً وأسىً
ألم تأتِ صدفةً، إلى هنا ؟

*

إنها تأتي، خذها مني كلمة صديق،
وبدلاً مني اشخص إليها بنظرك
والعق لها يدها الناعمة
معتذراً من كل شيء، مذنباً كنتُ فيه أم غير مذنب.

1924

«أية فتنة زرقاء»

أية فتنة زرقاء، ناعمة، فائقة!
هادئ ريفنا بعد الرياح العاصفة الممطرة،
ونفسي.. حقل بلا انتهاء
يتنفس شذى الورد والعسل.

*

هادئ أنا. وقد عملت السنون عملها،
غير أني لن أصبّ لعنتي على الماضي.
كان أشبه بعربة مخبولة الخيول
مندفعة عبر عرض البلاد.

*

أثارت حولها الغبرة، واصطكت حوافرها قوياً
ثم توارت مع صفير الشيطان.
وفي مثواي الغابي هذا
ها أنا أسمع حتى سقوط ورقة.

*

أأجراسٌ تدق؟ أم أنه صدى بعيد؟
وصدري يمتص كل شيء في هدوء.
قفي، يا نفس، فقد اجتزنا معاً
طريقنا العاصف المدمّر.

ها نحن نتبّين الصورة كلها،
كل شيء جرى في أرضنا أو حدث،
ها نحن نغتفر كل إساءة وُجهت إلينا
دون ذنبٍ منا أو بذنب.

*

كل شيء أتقبله، كان أو لم يكن
إنما لأحس بأسف في عامي الثلاثين،
فما كنت لأرجو في صباي إلا قليلاً
غائب الوعي كنت في دخان الحانات.

*

لكنّ شجرة البلوط الفتيةَ لا تمنح ثمراً،
متمايلةً كالعشبة في حقلها..
إيه يا صباي، يا صباي العاصف
يا عهود التهور الذهبي.

1925

«خانقاً يسيل ضوء القمر»

خانقاً يسيل ضوء القمر
في وحشة السهول المترامية بلا انتهاء.
هو ذا ما كنت أتملّى في صباي اللعوب،

ما كنت ألعنه بمحبةٍ مع غيري.

*

على الطريق يقف الصفصاف اليابس
ويتردد لحن عجلات العربات..
لحن لم أعد راغباً بسماعه
لقاء أي ثمن كان.

*

لم أعد مكترثاً بمنازل القرى
ولم تعد نيران مواقدها صديقةً لي،
ومن أجل بؤس هذه الحقول
كرهتْ نفسي عاصفةَ الثلج الربيعية المزهرة.

*

شيء آخر قريب إلى نفسي اليوم..
ففي ضوء القمر المصدور
عبر الحجر والفولاذ
أرى عزةَ وطني الآتية.

*

يا روسيا الريفية
كفى المحراث انسحاباً على الحقول.
يوجع البتولا أن ترى فقرك
ويوجع الحور.

*

لست أعرف ماذا سيحلّ بي..
ولربما لم أعد صالحاً لحياة جديدة.
غير أني أريد أن أراها فولاذيةً
هذه الروسيا الشحاذةَ التعسة.

*

وفي غمرة عواصف الثلج والريح والمطر
مصغياً إلى نباح المحركات،
لا أريد أن أسمع.. لقاء أي ثمن كان
لحن عجلات العربات*.

1925

«هو ذا قدرنا أبداً»

هو ذا قدرنا أبداً :
حين نبلغ الثلاثين
محترقين، مشوهين،
يقوى تكالبنا على التمسك بالحياة .

*

قريبا أبدأُ الثلاثين يا صديقتي،

---

* كان الشاعر قد بعث بهذه القصيدة إلى مجلة «العالم الجديد» وقد نشرت بعد وفاته. وظهرت ضمن مجموعة أعماله لأول مرّة عام 1961.

والأرض تحلو لي مع كل يوم.
ولهذا يُخيل لي
أنني ألتهب بنار خضراء.

*

وما دمت أحترق فلأحترق تماماً،
ليس عبثاً أنني استللتُ، مرةً، من ببغاء
خاتماً زائفاً
رمزاً لاحتراقنا معا.

*

غجريةٌ ألبستني الخاتم
وانتزعتهُ من يدي لأقدمه اليك،
والآن.. حين تتوجع الربابة
أجدني، مرغماً، أن أتذكر وأخجل.

*

في الرأس تتخمر حمأةُ المستنقع
وعلى القلب يزحف البرد والضباب،
ربما لأحدهم، لرجل آخر
ضاحكةً ستقدمين هذا الخاتم.

*

ولعله، وهو يغمرك بقبلاته إلى الصبح،
يبادرك سائلاً:

كيف استطعتِ أن تقودي شاعراً أحمق
لكتابة مثل هذه القوافي الملتهبة؟

*

وماذا يهم؟ سيندمل هذا الجرح أيضاً،
إنما مريرٌ عليَّ أن أرى حافة الحياة.
هي المرة الأولى التي يخدع فيها صعلوكاً مثلي
بغاءُ لعين*.

1925

«توهجي يا نجمتي»

توهجي يا نجمتي، ولا تسقطي من أعاليك،
وأريقي أشعتك الباردة..
فخلف سياج هذه المقبرة
لا ينبض قلب حي.

*

إنك تلقين بضوئك على الجودار في ليلة من آب
وتترعين هدأة الحقول

---

* كتب الشاعر هذه القصيدة عن زيارته لقريته. وتؤكد زوجته سوفيا تولستايا أن الشاعر أراد مرّة من غجرية فوّالة أن تقرأ له مستقبله، وكان معها ببغاء. فتناول من الطائر خاتم خطبة (المترجم).

بارتعاشة نحيب، يتركها بعده،
طيران الغرانيق المتواصل.

*

إني لأرفع الرأس قليلاً
فأسمع، ثانيةً، أغنيةً عن بيتنا القروي
لا أعرف من ذا الذي يغنيها،
ولا أعرف إن كانت تجيء من وراء الحرج أو التل.

*

الخريف، وهو يسرع لأن يصبح ذهبياً،
وقد تناقصت العصارة في البتولا،
حسرةً على الذين أحببتهم وهجرتهم،
ها هو يبكي بدموع من أوراقه المتساقطة على التراب.

*

إني لأعرف، أعرف. قريباً، قريباً
لا بجريرتي أو جريرة أحدٍ سواي،
تحت سياج هذه المقبرة الواطئ
سيأتي، أخيراً، دوري في الرقدة الأخيرة.

*

تنطفئ الشعلة اللعوب
ويتحول القلب النابض إلى غبار.
وسيضع الأصدقاء حجراً رمادياً:

شاهدة بأبيات تبعث على الضحك.

*

غير أني، وقد أيقظني أنين الأقبية الرهيبة،
أودُّ لو أكتب على شاهدة قبري:
هنا يرقد شاعر أحبَّ وطنه
كما يحب الحانةَ السكير.

1925

«أوراق الشجر تتساقط»

أوراق الشجر تتساقط، وتتساقط
والريح تئن
أنيناً خافتاً، متواصلاً.
من ترى يُفرح قلبي يا صاحبي؟
من ترى يمنحه السكينة؟

*

بجفون متثاقلة
كثيراً ما أتطلع إلى القمر.
وفي الهدوء الشامل
ثانيةً تتصايح الديكة.

*

الوقت قبيل الصبح
ويُحَسُّ بغبطة النجوم المرفرفة
أية رغبة، ترى، تملأني؟
أية رغبة ترى؟

*

وماذا أتمنى تحت العبء الدنيوي الثقيل،
وقد لعنت منزلي ومصيري؟
بي رغبة أن أرى اليوم، عبر نافذة ما،
صبيةً حلوة.
وبعينين كزهرتي عنبر زرقاوين
لي وحدي
لا لأحدٍ سواي،
وبكلماتٍ وأحاسيس جديدة
تبعث السكينة في قلبي.

*

فأراني، في هدأة هذه القمراء،
بصبىً مرح آخر
غير آسف، أبداً، على صباي،
وقد كُتبَ لي أن أهنأ أخيراً
فلا أتتبع، مهزولاً مرهقاً،
قافيتي الشريدة.

1925

«آه، يا لكثرة القطط»

إلى أختي شورا*

آه، يا لكثرة القطط!

ليس بمقدورنا، أنا وأنت، تعدادها.

والقلب يحلم بأرج الفاصولياء

ورنين كوكب أزرق

*

أفي يقظةٍ أنا؟ أم في هذيان؟ أم بين اليقظة والنوم؟

---

* كتبت أخت الشاعر في ذكرياتها عنه:

ذات يوم من أيلول عام 1925 اقترح سيرغي أن نخرج أنا وزوجته سوفيا وهو في عربة للنزهة. كان يوماً دافئاً، هادئاً. وكنا في وضع نفسي جيد. وقد طاب لنا أن نتجول عبر المدينة، وقد سارت بنا العربة سيراً لطيفاً. وما أن ابتعدنا عن البيت حتى أثارت انتباهي كثرة القطط في الشارع. كان عددها كبيراً جداً. وما كنت قد رأيت من قبل قططاً بهذه الكثرة. فحدثت سيرغي بهذا. في البداية لم يقل شيئاً. ابتسم فقط ثم واصل جلسته الهادئة غارقاً في أفكاره. لكنه بعد ذلك ضحك عالياً، وقد لاحظ كثرة القطط. وقد بدا اكتشافي هذا مسلياً. فحاول أن يجعل منه لعبة، مقترحاً علينا أن نعدد كل القطط التي تصادفنا في الشارع. وحيث وصلنا إلى ساحة المسارح دعانا سيرغي لتناول الغداء. وها أنا أدخل المطعم لأول مرة في حياتي. أدهشتني الثريات والمرايا الكبيرة والطنافس والخدم. ورأيت صورتي في إحدى المرايا فارتبكت: وجدتني صغيرة خرقاء في ثوب ريفي. وكنت مع سوفيا وسيرغي. كانا يتصرفان بحرية وبساطة. واقتربت من المائدة متشبثه بهما. وعندما جلسنا، وقد انتبه سيرغي لارتباكي، كان يبتسم طوال الوقت. ولأجل أن يزيد في ارتباكي قال لي: انظري كم أنت جميلة. انهم جميعاً يتطلعون إليك. وفي اليوم التالي كتب لي قصيدته: «آه، يا لكثرة القطط» (المترجم).

إني لأتذكر، فحسب، من الأيام الخالية
قطّنا الهرم، وهو يهر فوق الدكة، قريباً من النار
ويتطلع إلى وجهي دونما اكتراث.

*

كنت، يومئذ، صغيراً،
وحين تغني جدتنا أغنيتها كان ينتصب
فيرتمي أشبه بنمرٍ فتيّ
على الوشيعة التي تفلتها يدها الهرمة.

*

ها قد انتهى كل شيء. وافتقدتُ جدتي،
وبعد سنوات قليلة
كانوا قد صنعوا من جلد قطّنا قبعةً
راح يعتمرها جدنا العجوز.

1925

«أتسمع... مركبات الثلج تنطلق»*

أتسمع... مركبات الثلج تنطلق، أتسمع. تنطلق مركباتُ
الثلج،

---

* مركبة الثلج: هي الزلاقة أو الزحافة التي ينزلقون بها شتاءً على الثلوج. وفي خريف 1925 كان الشاعر قد عاد من باكو إلى موسكو، وكان يتحدث عن رغبته في =

جميل أن نتوارى مع امرأة حبيبةٍ في العراء.

*

النَسمُ المرح يهب خجولاً، متهيباً،

وعلى السهل العاري تنزلق مركبةٌ ذات أجراس.

*

يا لك من مركبات ثلج! يا لك من مركبات! يا جوادي

= كتابة مجموعة من القصائد عن الشتاء الروسي. وكانت هذه هي الأولى من المجموعة. وخلال ثلاثة أشهر وحتى موته لم ينقطع الشاعر عن كتابة هذه القصائد. كتب منها اثنتي عشرة قصيدة. وقد تجسدت فيها طبيعة الشتاء الروسي. وكانت ثمة قصائد أخرى، لكنها لم تصل إلينا كاملة، فقد اختفت بعد وفاة الشاعر بشكل لم يعرف إلى اليوم. ولم يتبق منها غير شظايا متناثرة...

سطور متفرقة في ذاكرة بعض من سمع الشاعر وهو يتلوها كعادته. ومن هذه السطور:

العاصفة تعوي وتتوعد
والقمر كطائر
يسعى لأن يتسلل بجناحه من وراء السحب.

***

بي رغبة هائلة أن أتضارب
مع شجرة الحور الثملة في الحديقة.

***

ترى، أيمكنني أن أفارق
هذا الدفء، هذا العراء

***

نتحدث نحن الإثنين
وبيننا قدح روم لم نفرغ منه بعد.
(المترجم).

الأشقر

في مكان ما، وسط مرج في الغابة، يرقص اسفندان ثمل.

*

لنمضِ إليه نسأله: ما الذي يجري هنا؟

ولنرقص ثلاثتنا معاً على نغم التليانكا.

1925

«يا لكِ من مركبات ثلج»

يا لكِ من مركبات ثلج! والأحصنة، الأحصنة!

ما جاء بمثلها إلى أرضنا غير الشياطين.

متهورةً تتراكض عبر السهوب الثلجية

مقهقهة أجراسها حتى انفجار الدموع.

*

القمر غائب، ولا يُسمعُ ثمة نباح

في العراء المقفر المترامي.

تماسكي يا جرأتي

فما امتدت بنا السنّ تماماً.

*

غنّ أيها الحوذي لاعناً في عتابك هذه الليلة.

وإذا رغبتَ سأتغنى لك

عن عينيّ حبيبتيّ الماكرتين
عن صباي المرح.

*

إيه! قديماً كنت أميل القبعة على جبيني
وأشدّ عريش العربة إلى الحصان
وأرتقي كومة القش،
ولتتذكر من أنا إذا استطعت.

*

وفجأةً تبرز أمامي هيئةٌ ما،
ففي سكينة منتصف الليل
قد استدرجت التليانكا المثرثرة
أكثر من تليانكا أخرى.

*

انقضى كل شيء. والشَعرُ قد تناقص.
وحصاننا نافق، وبيتنا قد أقفر
وافتقدت التليانكا رنينها.
ولم تعد، بَعْدُ قادرةً على كلام.

*

غير أن الروح لم تنطفئ تماماً،
وأحسّني فرحاً مع انهمار الثلوج،
ففوق كل شيء كان وانقضى

أسمع أجراس المركبة مقهقهة حتى انفجار الدموع.

1925

«يتصدّع الوحل المتجلّد»

يتصدّع الوحل المتجلّد، متهشماً، تحت العجلات
وفي الأعالي يلتمع القمر البارد.
ثانيةً أرى سياجَ قريتنا
وعبر الزوبعة الثلجية أتبين الضوء في الشباك.

*

ضئيلة هي حاجتنا نحن المتشردين
أغنيتي هي كل ما قُدّر لي.
ها أنا ثانيةً أرى أمي الشائبة
عند مائدتنا ساعة العشاء.

*

تحدّق في وجهي وعيناها تدمعان،
صامتةً دون آهة، وكأنها لم تتعذب بشيء.
تحاول أن تتناول فنجان شايها
وينزلق من يدها.

*

يا عجوزي الحنون، الطيبة

لا تقيمي صداقةً مع الأفكار الأليمة.
اسمعي.. مع أنين هرمونيكا العاصفة الثلجية
أقصُّ عليك ما جرى لي.

*

كم قد رأيت وطّوفت،
كم قد أحببت وتألمت.
ولأني لم أجد أحداً أكثر لطفاً منك
أغرقت روحي في السكر والصعلكة.

*

وها أنا ثانيةً أتدفأ على الدكة الطويلة
نازعاً سترتي، خالعاً حذائي.
ثانية أنتعش وآمل،
مثلما كنت في طفولتي..

*

وعبر النافذة، مع نشيج العاصفة الثلجية
وفي دخانها الأبيض الهائج
يتراءى لي أن زيزفوننا الأبيض
يتهاوى متكوماً في الحديقة.

1925

«يترامى العراء مدثراً بثلوجه»

يترامى العراء مدثراً بثلوجه، والضباب أزرق
ويلوح القمر أصفر هزيلاً.
يطيب لقلبي أن يتذكر، متألماً في هدوء،
شيئاً من طفولتي.

*

الثلج على دكة بابنا يتموج كالرمال،
في مثل هذه الليلة، وتحت مثل هذا القمر، دون كلمة
وقد أملت قبعتي على جبيني
هجرت، خفية، مأواي هذا،

*

وها أنا قد عدت إلى قريتي،
من ترى يتذكرني؟ ومن ترى أضاعتني ذاكرته؟
كئيباً أقف كعابر السبيل
أنا سيد هذا المنزل القديم.

*

صامتاً أُجمّعُ قبعتي في يدي
غير مكترث لفراء السُمّور،
متذكراً جدّيَّ الهرمين
متذكراً ثلوج المقبرة الهشة.

*

ها قد غادروا جميعاً، وجميعاً سنغادر إلى هناك،
مثلما جئنا إلى هذه الدنيا، برضا منا أو بغير رضا.
ولهذا أجدني تائقاً إلى رؤية الناس،
لهذا أحمل لهم مثل هذه المودة.

*

هو ذا ما يجعلني، موشكاً على البكاء،
وبابتسامة روح خامدة،
أحس كما لو أنني لآخر مرة
أرى بيتنا القروي، والكلبَ على دكة الباب.

1925

«أنتِ لا تحبينني»

أنتِ لا تحبينني، لا ترقّين لي،
أو لستُ على شيء من فتنة؟
ذائبة في رغباتك، غير ملتفتة إلى وجهي
تضعين يديك على كتفي.

*

يا شابةً بتكشيرة شبقة
لستُ رقيقاً معك أو فظاً.
اخبريني.. كم من رجل قد لاطفت يداك؟

كم من يد تتذكرين؟ كم من شفة؟

*

أنا أعرف.. لم يكونوا في حياتك غير ظلال عابرة
فلم يلمسوا من لهيبك شيئاً.
ما أكثرهم أولئك الذين جلستِ على رُكَبهم
وها أنت على ركبتي تجلسين.

*

لتبقَ عيناك نصف مغلقتين،
وأنت تحلمين برجل آخر.
فما أنا بالغارق في حبك،
إنني غارق في الماضي الأعز السحيق.

*

لا تسمي هذه السورة قدراً
فما هي إلا علاقة طائشة،
وكما التقيت صدفةً بكِ،
مبتسماً، هادئاً أنصرف عنك.

*

أجل، وتذهبين في طريقك
مبددةً أيامك المقفرة من البهجة.
إنما.. لا تقتربي ممن لم يجربوا القبلات بعد،
لا تجتذبي من لم يعرف النار بعد.

*

وحيث تمرين بصحبة رجل آخر
مثرثرة، في الأزقة، عن الهوى،
قد أمرُّ في الأزقة نفسها
وثانية نلتقي عابرين.

*

ستقولين، منعطفة بكتفك إليه،
وقد انحنيتِ برأسك قليلاً:
مساء الخير.
وأجيبكِ: مساء الخير مِسْ.

*

ولا شيء يبعث القلق في نفسي.
لا شيء يبعث أية ارتعاشة.
من أحب ليس بمقدوره أن يحب ثانيةً،
ومن احترق أنىّ لك أن تحرقيه.

1925

«ربَّما كان متأخراً»

ربَّما كان متأخراً، ربما كان مبكراً كثيراً،
منذ زمن طويل وأنا لا أفكر في شيء،
وكشاعر أصيل طائش

أمسيت أَشْبَهَ بدون جوان.

*

ترى ما جرى؟ ماذا جرى لي؟
كل يوم عند ركبتي امرأة.
كل يوم أفتقد شيئاً من الرأفة بنفسي.
غير راضخ لحكم الخيانة الممض.

*

أبداً كنت أريد أن يخفق قلبي قليلاً
في أحاسيس رقيقة، بسيطة.
فما الذي أبحث عنه في أعين هذه النسوة،
أعينهن الفارغة، الكاذبة، الطائشة؟

*

أين أنتِ مني يا أنفتي
كنتِ، دوماً، سمةً لي.
إن في أعماقي غلياناً بارداً
وحفيف ليلك أزرق.

*

ولما أزل أسمع عبر الضباب.
وفي الغور مني خفق غروب أصفر،
أن لهذه الحرية في الأحاسيس عاقبةً تنتظر،
فتقبل التحدي يا دون جوان.

*

ومتقبلاً الدعوةَ في هدوء،
أرى أنه سواء عليَّ
أن أنشد الزوبعة الثلجية كزرقة أيار المزهرة
وأن أدعو رعشة الرغباتِ حباً.

*

هكذا جرى الأمر، وهذا ما حدثَ لي،
فمن أجل أن تبتسم السعادة لي كل يوم،
كل يوم أجدني عند ركبتي امرأة
غير راضخ لحكم الخيانة الممض.

1925

مايكوفسكي
(1893 - 1930)
قصائد مختارة

مقدمــة

غالبا ما كنت أمّر على ساحة مايكوفسكي في موسكو، في طريقي إلى مقهى الشباب الهادئ طوال النهار، لآخذ لي ركناً من مائدة تطل، عبر الواجهة الزجاجية، على شارع غوركي.. وأغرق في قراءة كتاب، متناولاً بين حين وآخر فنجان قهوة، أو أضع أمامي قدح بونش أمتصه عبر عود قش. ومع هبوط الليل يزدحم المقهى بالزبائن من الشباب. وتتهيأ الجوقة لعزف موسيقى الليل الراقصة. فأغلق كتابي وأغادر. وأمّر في طريق عودتي على ساحة مايكوفسكي. وأتطلع الى تمثاله المنتصب، تحت الثلج أو المطر، في شموخ وتحد وثقة هائلة بالنفس، وقد انفتحت أزرار سترته ليتلقى صدره هجمات الريح اللاذعة.. كما كان يتلقى في حياته هجمات النقاد والأدباء الحاسدين.. ممن لا يرتفعون بمواهبهم الصغيرة إلى ركبتيه.

وقبل أن أسافر إلى موسكو كنت اسمع عنه كثيراً، واقرأ له مقاطع متناثرة، وكنت قد قرأت كتاب إلزا تريولي عن جوانب من حياته وشعره. لكن إلزا لم تتحدث تقريباً إلا عن ذكرياتها هي.. عن لقاءاتها مع الشاعر في بداية توجهه الشعري عام 1912 وبعدها بقليل.. في منزلهم البرجوازي بموسكو، أو عن لقائهما في باريس، وقد مرت أعوام وأصبح مايكوفسكي شاعراً لامعاً. وكانت إلزا قد غادرت موطنها

متزوجة من فرنسي، قبل زواجها من اراكون ليتألق جمالها الروسي في كل صفحة من أشعاره. والحق أن إلزا كانت تتحدث عما رأته أو لمسته هي، ولم تذكر لنا إلا لماماً عن العلاقة الكبيرة المتقلبة بين مايكوفسكي وأختها ليلي الشقراء المتبرجة كما يدعوها مايكوفسكي. كانت ليلي متزوجةً من رجل آخر وتقطن في بتروغراد وقد تعرف بها الشاعر عند زياراته إلى إلزا في بيت ليلي نفسها. وكانت إلزا تزورها في بتروغراد أيام العطل. ولم يحب مايكوفسكي في حياته امرأة كما أحب ليلي، وبعد الثورة هجرت ليلي بتروغراد لتعيش مع الشاعر أو قريباً منه. كان يقضي ليله في منزل ريفي صغير استأجره في ضواحي موسكو. ويعمل نهاراً في غرفة في ممر لوبيانسكي وسط المدينة. وفي هذه الغرفة مات مايكوفسكي منتحراً برصاصة مسدس عام 1930. وكان اسم ليلي في وصيته الشهيرة باعتبارها حبه الكبير وجزءاً من أسرته.

كانت ليلي امرأة ذات جمال خاص، جمال المدينة الضاجة المزدحمة. فوجهها أقرب إلى القسوة والصلابة بالفم الواسع المخضب بحمرة ساطعة، والاسنان الصلدة الملتمعة، والعينين البراقتين، كما وصفتها إلزا: «وجه يطغى عليه تعبير يكاد يكون غير محتشم لفرط عنقه، ويجعلها سواء كانت كهلة او شابة تحمل المارة على ان يلتفتوا لدى مرورها». ولعل هذا ما قرّب بينها وبين مايكوفسكي.. المستقبلي المتمرد على لطف الرمزية وأنوثتها الغامضة.. المتسربلة بظلال الفكر الصوفي وألق القناديل الخافق في خفوت. مرتعشاً فوق أوجه

الأيقونات.. في هياكل تلجأ إليها فلسفة أرهقتها المدينة، لتبحث عن علاقة جديدة بين الأرض والسماء، هذا الفكر المشيح بنظره احتقاراً عن مدينة العقد الأول من القرن العشرين المتطلع إلى صوفية جمالية حالمة.. كان في رأي مايكوفسكي جزءاً من برجوازية آن لها أن تتنحى عن الطريق، فاسحةً الدرب واسعاً أمام القوة المغيرة العاصفة، قوة المستقبلية الثورية. فقد كان مايكوفسكي أكثر من أي مستقبلي آخر قد جعل الثورية أساساً في حركة المستقبلية. كان مايكوفسكي يتحدث ساخراً عن إمكان تأثير الرمزية في الشعر المستقبلي: ما حاجتنا لأن نطعم جسمنا بساق ميتة.

بعيداً، إذن، عن هذه الساق الميتة بدأ مايكوفسكي في كتابة قصائده الأولى، شيء واحد قد انحدر إليه من الرمزيين، الكساندر بلوك خاصة، هو محاولة التجسيد المغلي لمعالم المدينة، العالم المرعب كما يصفه بلوك. ففي قصائد بلوك قد بدأت ترتسم لأول مرة ألوان المدينة وإيقاعاتها الجديدة في الشعر الروسي: ألوان الساحة والشارع وإيقاعات العروض الهزلية الشعبية. وكان بلوك في توجهه هذا متتبعاً آثار دستوييفسكي، وتعريته لوجه المدينة الكالح المغطى بالأصباغ والمساحيق كوجه غانية هرمة أذبلها الزمن وفراغ الروح.

منذ البداية كان فلاديمير مايكوفسكي غير متفق تماماً في قصائده عن المدينة مع المستقبليين. في شعره تسمع أحياناً رنة إنسانية خاصة. وقد ميز المستقبليون في قصائد مايكوفسكي اتجاهاً آخر غريباً عن حركتهم: إنك لنكراسوف آخر. في شعرك دمعة لم تنسكب تماماً بعد.

وهم يعنون تلك العاطفة الإنسانية وتصوير آلام المعذبين في أشعار نكراسوف. والحق أن مايكوفسكي كان جاف العينين تماما. كان بعيداً عن تصوير الآلام البشرية كما صورها نكراسوف أو غوركي أو سواهما. لم يكن مايكوفسكي يصف الآلام أو يصوّرها، إنما كان يرفع صوته متحدياً في وجه العالم البرجوازي، مطلقاً شتائم رهيبة. قبل أن يتجه الى العمل الشعري كان مناضلاً سياسياً في خلية من خلايا البلاشفة السرية في موسكو.. منذ بداية عام 1908، وقد قرأ طويلاً في فترات سجنه في الاقتصاد السياسي والفلسفة، فلسفة هيجل خاصة. وكان يعي جيداً دور العمل الثوري في تغيير الوضع الاجتماعي وبنائه من جديد. لكنه كان يريد أيضاً أن ينسف الوضع الفني، وينشئ أساساً فنياً آخر. وهكذا كان أحد الأربعة الموقعين على البيان المستقبلي الشهير: صفعة في وجه الذوق العام، وتلك صيحة، رغم طفوليتها، كانت تمتلك ما يبرر بعض اندفاعاتها وتهورها. وقد أصدرت هذه الحركة بيانها عام 1912 في موسكو.. ووقّع عليه بورليوك، وهو أول من اكتشف شاعرية مايكوفسكي، وكروجينيخ وفكتور خليبنيكوف. وكان كاندينسكي من المساهمين في مجموعة الكتابات التي تصدّرها البيان وحملت عنوانه. وقد غلب على هذا الاتجاه اسم المستقبلية التكعيبية.

نشأت المستقبلية في روسيا عام 1910، متأثرة بالمستقبلية الايطالية والحركات الفنية الجديدة في العالم الغربي كالتكعيبية والانطباعية. وكان أكثر الشعراء المستقبليين في بداياتهم متجهين إلى الرسم. غير أن المستقبلية الروسية لم تكن جزءاً من المستقبلية الايطالية أو وليدتها. فقد

نشأت قبل صدور بيان مارينتي. وكان يمكن أن تنشأ دون أن تسمع بمارينتي، لكنها قد تأثرت ببعض أفكار المستقبلية الايطالية، خاصة في تمجيدها الآلة ورفض الماضي والتغني بالتقدم الميكانيكي. ثم إن هناك فارقاً مهماً بين الحركتين.. واعني به الثورية لدى المستقبليين الروس، أو لدى أكثرهم في الأقل، وهي ثورية نابعة من آرائهم السياسية، خاصة عند مايكوفسكي وخليبنيكوف. بينما كان مارينتي يقترب كثيراً من تمجيد القوة والانحدار إلى الفاشية.

مثلما أدارت المستقبلية الروسية ظهرها لبوشكين، وقد اعتبرته أكثر غموضاً من الهيروغليفية على طريقتها التهكمية الخاصة، فقد أشاحت بعيداً عن الاتجاهات الشعرية المعاصرة، وكانت الرمزية أبرزها وأكثرها تعرضاً لتهكم المستقبلية وازدرائها : كل ما يحلم به هؤلاء الرمزيون وأضرابهم من الكتاب المعاصرين بيت ريفي على شاطئ النهر. أما هم المستقبليون فمن ذرى الناطحات الشامخة ينظرون باحتقار إلى هذه «الحثالة» الأدبية من أمثال كوبرين وبالمونت وسولوكوب وبروسوف واندرييف وغيرهم.. وغيرهم.

في مجموعتهم المشتركة الأولى «صفعة في وجه الذوق العام» وهي تضم إضافةً إلى بيانهم الأول، قصائد ومحاولات مسرحية ودراسات، يقول بروليوك في مقالة له :

«بالأمس لم نكن نملك فنا، اليوم أصبح هذا الفن بين أيدينا. بالأمس كان الفن وسيلة، اليوم أصبح الفن غاية. والفن التشكيلي أصبح يتوخى مهماته الفنية وحدها. فهو اليوم يعيش لذاته. والبرجوازية المترصدة لم

تول ِالفن إلا رعاية مخزية. وها هو ذا الساحر يمتلك اليوم القدرة على الوصول إلى أسرار فنه الكائنة وراء الحجب».

وفي محاولته الدرامية «قصة العصر الحجري» في المجموعة نفسها، يطرح خليبنيكوف نماذج من العصر الحجري وهم سعداء في علاقاتهم المنسجمة مع الطبيعة وبساطتها، وهو في إعطاء الماضي الغابر هذه الهالة المثالية، وفي إعلانه البغض للغة القائمة إنما يعبر عن خيبته في الثقافة البرجوازية، وعن تمرده عليها.

وكان هذا الميل إلى العناوين الصارخة : رقصة تانغو مع الأبقار، حليب الخيل، بسيط كالخوار، القمر المتعفن، وهذه كلها وغيرها عناوين لمجاميع شعرية.

وهم لواثقون في بيانهم من اقترابهم من فجر جمالي ولغوي لم يكتشف من قبل :

«وإذا كانت سطورنا لما تزل، بعد، مدغومة بسماتٍ قذرة من إدراككم الصائب وذوقكم السليم.. فإنَّ وميض فجر جمالي ساطع، فجر الكلمة المكتفية بذاتها، قد بدأ يخفق فوقها».

وهم يشنون حربهم، منذ الخطوة الأولى، ضد كل ما هو ماض أو معاصر في الفن: ألقوا ببوشكين ودستوييفسكي وتولستوي وأضرابهم من باخرة الحداثة.

هي ذي لغتهم الوقحة في بيانهم الأول.

وهذه اللغة، هذه الوقاحة نفسها، ستسمع انفجاراتها في المرحلة الأولى من تجربة مايكوفسكي الشعرية كلها: التحدي ومواجهة

المجتمع بالكره والازدراء الصريحين. لم يتردد مايكوفسكي أن يصرخ في قصيدة له يلقيها أمام الجمهور مبتهجاً: أبصق في وجوهكم.

عام 1913 أصدر المستقبليون مجموعة مشتركة أخرى تحت عنوان «القضاة في القفص». وفي بيانهم، هنا، يتبجحون بإضافاتهم واكتشافاتهم الفنية: القافية في مقدمة السطر عند بورليوك، والوسطى والعكسية عند مايكوفسكي. ويؤكدون على إيقاعاتهم المبتكرة، وتطويع العروض الشعرية لموسيقى الكلمة المحكية الحية كما عند خليبنيكوف. وأعلنوا في بيانهم عن فهمهم للحروف الصوتية باعتبارها شبيهة للزمن والفضاء الممتد. والحروف الساكنة بالنسبة لهم كاللون والنغم والرائحة. «الكلمة هي خالقة الأسطورة. الكلمة تلد الأسطورة وهي تموت. والكلمة تولد من موت الأسطورة». ويعلنون أيضاً عن وقوعهم تحت هيمنة مواضيع جديدة: اللاضرورة، اللامعنى. «نحن نحتقر المجد. لم تعد خفيةً علينا هذه الاحاسيس التي لم يعرفها أحد من قبل». فهم وحدهم ممثلو الحياة الجديدة !

من أهم ما يميز المستقبلية: التطرُّف. فهم متطرفون في مواقفهم كلها. متطرفون في عدائهم للفن منذ بوشكين إلى بلوك. متطرفون في لغتهم التجريدية وتمسكهم بالشكل وحده. ومتطرفون، أيضا، في التهور واستفزاز الجمهور. كان بعضهم يصبغ وجهه بالأخضر أو يرسم على وجنته عصفوراً أو يعلق على أزرار سترته ملاعق الطعام. كان جلّ همهم أن يبتكروا أو يشتقُّوا مفرداتٍ لم تعرف من قبل وأن يختلفوا، بأية وسيلة كانت، عن غيرهم. الجِدَّة والقدرة على استفزاز القارئ وإلفات

نظره أكثر ما يهمهم في صورهم ومواضيعهم وإيقاعاتهم المبتكرة أو المتطورة. الشكل هو الغاية القصوى أو الفريدة لدى أغلبهم. ولغتهم تجريدية أو جانحة إلى الغرابة والغموض والمفردة المتداولة، وإلى الاشتقاق والغوص في المعاجم بحثاً عن ألفاظ يستفز انبعاثها المفاجئُ الناس.

وهذا كله شائع في المرحلة الأولى من شعر مايكوفسكي، مع هذا الحس الثوري والرغبة في التغيير.. أي أننا نجد في بعض قصائده الأولى وعياً ثورياً متوافقاً مع الشكل، ممتزجاً ببدائية الطاقات المتعطشة إلى الانفلات، وبوهيمية المقاهي الأدبية، فمثلما كان مهتماً بالمفردة المبتكرة أو المشتقة والإيقاع المتوثب أو الحرف المنساب كما يتطلب المقطع أو الجملة الواحدة وليس البناء العام، ومثلما كان مهتماً بالصورة المدهشة أو الغريبة والقافية المفاجئة والتلاعب بها أو التخلص منها، جاهداً بابتعاث آخر ما يمكن ابتعاثه من الموسيقى الكامنة في تجاور الكلمات أو وضعها في الموضع الملائم، المنفرد خاصة.. كان أيضاً ممتلئ الذاكرة والصدر بالحقد الاجتماعي، ويهمه كثيراً أن يغدو نذير عصره وبشيره في آن واحد.

غالباً ما يقترب من اللغة المتداولة، ويشتق مفرداته الخاصة.. ويخضع نفسه لعمل طويل وشاق في صياغة قصيدته. فما كان يفرغ منها دون أن يترك مسودات عديدة. كان يبتني صوره ومقاطعه أو قصائد بأكملها في ذهنه قبل أن يخطها على الورق. وهو في هذه الحالة يحاول، باذلاً أشقَّ الجهد، أن تكون غير متكلفة ومكتنزة، كان يشاهد

على شاطئ البحر الأسود وهو يهيم وحيداً في الريح البحرية، وقد اخضَّر لون بدلته والتمع بفعل الشمس والبحر، وذهنه منشغل بمفردات وصورٍ يُعِدُّها لقصيدته الطويلة «غيمة في بنطلون».

كان طاغي الذاتية.. ولعلَّ هذا متأتٍ من إحساس عجيب بالعظمة، ومن بدائية متفجرة. ومن هنا كان هذا التأكيد على النفس والإشادة الجنونية بها : أنا، أنا ونابليون، أنا آخر الشعراء وغيرها، كان يحس أن في داخله طاقاتٍ حبيسة هائلة.. وبسموه على الآخرين وغربته عنهم، فهو يرفع صوته قويا، محاولاً إقناعهم بتفرده وعظمته ومدى حاجة العصر إليه.. إلى عبقرية كعبقريته. في محاولاته الأولى كان يتعامل مع القصيدة كرسام أو موسيقي.. فالشكل والإيقاع ينبغي أن يأتيا طازجين، ملفتين للنظر. فنهر النيفا جَملٌ ذو سنامين، والمصباح أصلع يتلذذ بانتزاع جورب الشارع الأسود.. ونصف الكلمة الأول يكون قافية لبيت. وقد تتغير مواضع الحروف في كلمة منفردة لتصبح كلمة أخرى تأتي بعدها مباشرة، محتفظة بالإيقاع الحاد الخاص نفسه.

أليس هو مبتكر القافية الوسطى أو المعكوسة؟ والحق أنها كانت مرحلة متفجرة.. هذه المرحلة الأولى من تجربته الشعرية، لم يمر مايكوفسكي بعهد تجريبي أول. إن تجربته الأولى هي دخوله الضاجَّ العنيف في الجو الشعري، كان ممثلاً لتيار شعري انصبّ في الساحة الأدبية عنيفاً مدويا، كان إحساسه بذاتيته طاغياً كما ذكرنا، غير أنها ذاتية خاصة، فأنت تسمع في رعودها المتبجّحة وشتائمها الوقحة رنةَ التعاطف مع المجموع، أو محاولة التعبير عن المجموع من خلال

الذات. فقد نصَّب نفسه منذ البداية شاعراً لكل هذه الساحات المكتظَّة وسكك الترام والحدائق العامة والحثالات الرثة من المجتمع.. إنه يحمل الحي المحترق على رأسه كشعر مستعار أحمر، وهو شاعر كل هذه الاوجه الملطخة بالسخام، والشوارع الهابطة المتعفنة بجثة الكآبة المعلقة على الساحات العامة، شاعر الماكنة المتوافق مع هدير الحافلات، المشيح ازدراءً عن رنين أجراس العربات، عربات الخيل والماضي والمدن الريفية الخشبية.

وإذا كان مايكوفسكي يعتبر نفسه في أغلب الأحيان مرشحاً لتاج قيصر أو قائد.. أو أنه أكثر عظمةً من أي نابليون.. فهو في أحيان أخرى يصف نفسه في ثيابه المبرقشة كسمكة ملونة بالطفيلي على مائدة المومس.. أو هو لا يرغب بشيء مثلما يرغب بأن يعوي طويلاً ككلب في وجه العالم. وهذا التناقض الظاهري في الحالتين يختفي تماماً إذا عرفنا أن مايكوفسكي لا يهمه إلا إثارة الجمهور وتحديه.. وإظهار نفسه بمظهر المتفرد المختلف، بمظهر المستهين بعاداتهم ومؤسساتهم البرجوازية.. فهي عنده مجرد نفاق مُمَوَّه بأوراق زاهية.

حين يجد نفسه محاصراً بالكذب والأقنعة.. تمتلئ نفسه حنقا، ولم يعد يحس إلا بكره رهيب لهذا الزيف كله، ولا تتملكه إلا رغبة واحدة: أن يستفزّ ويتحدى. ليتحول، إذن، إلى حيوان ضخم يقف على ذروة العالم، أو إلى كلب يعوي في وجوه المارة.. ألم يكن متفوقاً عليهم؟ ومن هم بالنسبة لكلب ؟ أيبالي عظيم مثله بأعراضهم أو بصالوناتهم وادعائهم ؟

التحدي! أجل، هذه الكلمة هي المفتاح إلى كل بوابات قلعته الشعرية. التحدي والتفرد والمغالاة هي أهم ما يميز شاعرية مايكوفسكي.. أو هي أبرز العلامات في شعره، فهو يتحدى المجتمع البرجوازي مستفزا، شاتماً مؤسساته المختلفة وتقاليده في الحب والفن والمعتقد والاجتماع، وهذا ما بُنيت على أساسه قصيدته الطويلة «غيمة في بنطلون». فهو يكشف القناع عن حبهم الزائف، حب البيع والشراء.. الزواج لم يعد إلا عملية متاجرة. وهو يرفض فنهم، فن المخادع والرقة الزائفة والأعين النازّة أبداً بدمع لا يثير الا ازدراءه.. فن القصائد التي تُكتب لآنسات متبطلات. وهو يسخر من معتقداتهم سخريةً لم تخطر على بال أحد من قبل كما لاحظ غوركي مرة. وهو يندِّد بالمجتمع البرجوازي ويتوعده بالنسف من الجذور. أليس هو شاعر الآفاق الآتية، المتنبئ بالثورة التي لا بدّ أن يحلّ عامها متوَّجاً بإكليل الشوك كما تُوّج المصاب، عابراً جبال الزمن بالجموع من المتمردين.

هذه القصيدة هي عمل المرحلة الأولى المركزي.. أي منذ محاولاته الأولى عام 1912 وحتى ثورة 1917، والمرحلة الثانية تبدأ مع الثورة وتنتهي بآخر قصيدة له.. أي بانتحاره.. ونحن في هذه المجموعة المختارة من قصائده إنما نقدم نماذجَ من مرحلته الأولى فحسب. والمرحلة الثانية هي مرحلة الثورة والحرب الأهلية والبناء الاشتراكي، ومن الأفضل، في نظرنا، أن تُقَدَّم منفصلة في كتاب خاص مع دراسة خاصة.

والتفرُّد واضح في كل ما كتبه مايكوفسكي، فهو متفرِّد في لغته التي تقترب أحيانا من اللغة المتداولة. وهو متفرد في إيقاعاته. فهو يكتب قصيدته لتُلقى، ومن هنا هذا الإحساس بالحاجة الى إيقاع مؤثر، خاضع لما يتطلبه المنبر من أداء جيد وتفجّرٍ وإثارة.. وإلى قافية تكون جزءاً من هذه الإثارة، قافية مباغتة، حادّة او راعدة، وهو من أجلها يختصر المفردة أو يشتقُّها بحيث تأتي وليدة التجربة نفسها. وقد يرغمه إيقاعه أو قافيته المتفردان إلى القفز فوق قواعد اللغة أو التلاعب بها، مخترعاً حالات لغوية ومفردات خاصة به.

وهو متفرد في صوره، الصورة عند مايكوفسكي تؤلف عنصراً بالغ الأهمية في بنائه الشعري. وأهم ما تمتاز به هذه الصورة الجدَّة أو الابتكار. أي أنها صور لم تألفها الذاكرة الشعرية. لكنها أيضا صور منتزعة من الواقع اليومي.. أي من مظاهر وأحداثٍ وأشياءَ يراها الناس يوميا، دون أن تثير لديهم اهتماما، لكنَّ مايكوفسكي حين يلتقطها إنما يأخذها بأصابع شاعرية.. وبموهبته الكبيرة يكشف عن جمالها واتساقها أو عن قوتها وحركتها. فهو يعيد تركيب الأشياء ويغيِّر من مواضعها، بحيث تأتي الصورة مدهشة صادمة، لكنها صادقة أيضا.. صدق الاعتيادي المألوف. فأوراق الشجر هي ملابسه الداخلية يلقيها عنه ليقف عارياً دون خجل.. وللحائط وجه أَماله الرعب. وللمحيط وجنتان ناتئتان.. وأنابيب تصريف المياه يمكن أن تكون مزامير لعزف مؤلفات موسيقية.

وتبدو المغالاة واضحة في تهكمه من خصومه وفي تجسيداته

الغنية.. وهذه المغالاة متلائمة تماماً مع الميزتين المهمتين الأُخريين: التحدي والتفرد.. أو هي نابعة منهما. غالباً ما تكون المغالاة تعبيراً ملازماً لتقاطيع التحدي والتفرد. فهو حين يتحدى نسمعه مُدَّعياً قوة أكبر وقدرة لا يملكها أحد. وهو يغالي في تفرده. فقد تأتي الصورة ضعيفةً مبالغاً فيها.. لكنه يصرّ على إبقائها ما دامت غير مكتشفة من قبل. وهذه المغالاة أيضاً جزء من هذا الصراخ الهائل. وهي أحيانا دافع له. غالباً ما تتردد لفظة الرعد في أشعاره، كما لاحظ تروتسكي، في اشتقاقاته اللغوية وفي نسيجه الفني. فإذا ما تطلب الامر أن يكون صوته هادئا او اعتيادياً في الاقل.. نسمعه يهدر كعاصفة في مواضع عديدة من قصائده. وهذا متأتّ بالطبع من إصراره على التأكيد الذاتي، على إعطاء ذاته الأهمية القصوى. فالشعر، عنده، عملية هائلة في تأثيرها كأحداث التاريخ الكبرى. وغالباً ما تتجسد قواه الذاتية، منفردةً في شعره، وكأنها محركات التاريخ نفسها. وقد ينظر إلى حادث يومي اعتيادي نظرته إلى كارثة هائلة. ويتحدث عن هجران امرأة له كما يتحدث غيرُهُ عن الشعوب مثلما لاحظ تروتسكي. والصيغة الفنية لديه لا يمكن أن تكون مكتملة دون أن تبلغ الذروة.. متضخمةً، مبالغاً فيها.

حين يتهكم مايكوفسكي من خصومه تتحول كلماته إلى خطوط كاريكتيرية. إنه لا يهزأ بهم أو يعرّي عيوبهم فحسب، إنما يسحقهم سحقا، يفقدهم إنسانيتهم ويطوّح بهم بعيداً دون رحمة، وعندئذ لم نعُد نرى بشراً أو مايشبه البشر، ثمة كتل سابحة في السمن.. كتل هائلة لا ملامح لها. وإذا كان نابليون بالنسبة له ليس سوى كلبة صالون صغيرة

يقودها بسلسلة، متنزهاً في الشوارع.. فأي موقف نرى يقفه من ناقد يكرهه.. أو من أي خصم آخر ؟ فالناقد الكريه مجرد جرو دميم.. نتاج قصة مدنَّسة بين حوذي وغسَّالة ثرثارة :

توله الحوذي، مرة، بغسالة ثرثارة
فكان هذا الجرو الدميم.
وكصبي لا يلقى في القمامة أو يحمل في عربة يد.
وأعولت أمه ودعته : ناقدا.

*

رجلُ شهيرٌ ما
يسمع يوماً طرقة خفيفة فوق بابه
وسرعان ما يحتلب الناقد من ضرعه
سراويلَ ورغيفاً وربطة عنق.

*

وإذا ما تسرب من شِباك الصحافة
شيء يكتبه عن عظمة بوشكين أو دانتي
فيخيل لك أن جثة نادل سمين ضخم
قد أخذت تتفسخ في الجريدة.

*

ما أكثرنا نحن الكتاب، لنجمع، إذن مليون روبل
ولنشيد لنقادنا ملجأ عجزة في مدينة نيتا.

أتراكم تظنون أن من السهل عليهم
أن يشطفوا ألبستنا الداخلية كل يوم على صفحات الجرائد؟

والقاضي لا يملك عيناً.. إنما علبة صفيح في قمامة. فاذا ما أصابت نظرة منها ذيل الطاووس الزاهي سلبت منه كل لون، وهذا التهكم الساحق شائع في قصائد عديدة، وهو يجر خصومه في الفن والمجتمع ليلقي بهم في الوحل يتقلبون به كما تتقلب الديدان. وأحياناً قد تصيبه هو نفسه شظايا من هذه السخرية الرهيبة، رغم كل هذا التعلق الهائل بالذات، ومحاولة إقناع الآخرين بعظمتها وتسنُّمها الذرى في الفن عبر العصور جميعا. فهو يصور نفسه كهونيّ جلف.. أو متأنقاً طائشا يجرُّ خطى التسكع المبتذل على الارصفة.. أو هو ليس غير دون كيخوت آخر في درع من ورق. ومرةً تسمعه مصرِّحاً أنه ديك هولندي. وهذا الشاعر نفسه لا يرى حرجاً ما في أن يكتب، عن مهامِّه التاريخية وصدامه مع الآخرين، مسرحية شعرية تحمل اسمه عنواناً لها، ويجعل من نفسه بطلها الاول. ثم يقوم بتمثيل دوره ساخراً من المتفرجين :

ما إن ألمس رؤوسكم بأصابعي
حتى تنبت لكم
شفاه جديرة بالقبل
الهائلة
ولغة

هي لغة الشعوب كلها.
وكثيراً ما تتوالى إعلاناته عن نفسه :
على خد الساحة غير الحليق
أنا
من يسيل دمعة لا نفع فيها،
ربما كنت آخر شاعر على الأرض.

وفي نهاية المسرحية يقف الشاعر وحيداً أمام حشد من المتفرجين، ويهتف في وجوههم ساخرا، على عادته، منهم ومن نفسه أيضا، وقد أدار ظهره الى ستارة المسرح وقد أسدلت منذ لحظات :

أنا من كتب هذا كله
عنكم
يا جرذاناً مسكينة.
آسف لكوني لا أمتلك ثديين
لكان من الممكن أن أرضعكم كحاضنة طيبة.
أحياناً يُخَيَّل لي
أنني ديك هولندي
أو انني
ملك الرمال
وأحياناً يحلو لي أكثر من غيره

اسمي الحقيقي

فلاديمير مايكوفسكي.

كان محباً للاقتتال تشبُّثاً بموقفه الفني. والميل إلى الوقاحة والتبجح شائع في قصائده أو دفاعه عنها. غالباً ما يتعمد الصورة المستفزّة أو المنفرة أو الغريبة ليثير الحنق البرجوازي ليلفت الأنظار إليه. كان محاصراً بأعراف فنيَّةٍ واجتماعية يعتبرها عدوة، وتعتبره مجرد شاذ أو متهور. وكانت الساحة الشعرية ضاجَّة بأصوات متعددة، وإذا كانت الرمزية لم تعد تمتلك الأرض الخصبة التي نمّتها وغذّتها، أرض الانحسار الثوري بعد 1905 واشتداد الخيبة مع هيمنة القبضة الرجعية، فلقد كانت لها أصواتها المتنوعة ورسوخها في التجربة الشعريه الروسية. كان الكساندر بلوك يلوح بقامته الملتفة بالرداء الضيِّق ذي الأزرار المنغلقة حتى العنق، وبوجهه الحاد الملفوح برياح الخليج الفلندي المالحة.. كأول شاعر روسي معاصر. والحق كان بلوك هو القوة الشعرية الوحيدة التي لم تستطع المستقبلية زعزعتها، وإن كانت تتناوشها بوقاحتها وادِّعائها عن بعد. غير أنَّ من الواضح أنَّ الرمزية كمدرسة لم تعد قادرة على الامتداد والتأثير في الأجيال الشابة.ولم تكن تملك، عدا بلوك، شعراءَ كباراً يمكن ان يواجهوا او يقفوا طويلاً امام رياح التمرد العاتية، فقد كانت الحرب.. وصيحات التغيير والثورة في كل مكان.

أين يقف مايكوفسكي في خارطة الشعر الروسي منذ بوشكين وإلى

اليوم ؟. يمكنني أن أجيب دون تردد أنه أحد الشعراء الثلاثة الاكثر عظمةً وتأثيراً وبقاءً أي : بوشكين وبلوك ومايكوفسكي. فقد اختط منذ البداية طريقه الشعري المتفرد.. وقُدّر لهذا الطريق أن يمتد عبر دخان الحرب الأهلية والسنوات العجاف، وأن يرتقي بصاحبه الى ذروة من المجد لم يبلغها إلا قلائل. كان في حياته ملء كل أذن بتدفقه الشعري العاصف، وبقدرته الفذة على مخاطبة جمهور يكنُّ له كرهاً عنيفاً أو حباً عنيفا، والحق أن صيحات الاستنكار والتشنيع غالباً ما تطلق في وجهه عند إلقاء قصائده. وغالباً ما يحاصر بالحسد أو ضيق الأفق الفكري، فلا يطبع من كتبه ما يكفي العدد الهائل من قرائه.. وقد تُرفض مسرحية له أو تُنتزع صوره من المكتبات. غير أن صوته الشعري، رغم هذا الحسد والحقد وضيق الأفق، كان يرتفع عالياً فوق صغائر النقد الناجح حسدا، والادِّعاء والبغض، وكل يوم تترسخ قوته ويتنامى مجده. كان شاعر الشبيبة الاول، فهو ممثل تطلعها إلى المستقبل وطموحها في الحياة الحرة المتجددة.

في أوج قوته ومجده الشعريين أطلق مايكوفسكي النار على قلبه فمات فورا.. في غرفة عمله في الرابعَ عشرَ من نيسان عام 1930، وكان في السابعة والثلاثين من عمره. كان في أزمة خانقة لم يجد له مخرجاً منها غير أن ينتحر كما ذَكَرَ في وصيته الشهيرة، والحق لم تكن أزمته متأتية من هذا الإحساس بالغربة والاختناق الذي عاشه كثير من زملائه وأعدائه في مرحلة البناء الاشتراكي الاولى، فقد كان هؤلاء غرباء عن الفكر الاشتراكي والثوري، فهاجر أغلبهم فراراً عن عالم يكنّون له

بغضاً أو في الأقل لم يكونوا على وفاق معه، غير أن مايكوفسكي كان المبشّرَ بهذا العالم.

كان صوت الثورة الشعري الأول.. ومغني طموحاتها. فالثورة والشعر عند مايكوفسكي عملية واحدة.

فلماذا هذا الإحساس بالأزمة؟

غالباً ما بحثتُ عن جواب لهذا السؤال فلم أجد ما يقنعني تماما. في أخريات أيامه كان يحس بالحصار يشتدُّ حوله، وبالكره يواجهه بشكل لم يجد لحدّته مثيلاً من قبل. لكنه حصار تُضيّقه من حوله التجمعات الأدبية المغالية في طفولتها الثورية أو في عدائها لأي صوت يرتفع خارج السور البروليتاري، وإنْ كان هذا الصوت منصبّاً في المصبّ نفسه.. ولكنه كُره يواجهه به نويقدٌ تافه أو شويعر أغاظه هذا العلو الذي بلغه مايكوفسكي، وهذه العظمة الواضحة. كانت النظرة الحاسدة، إذن، وراء هذا الكره كله.. كُره الزملاء خاصة، كانوا يعرفون جيداً قوة تأثيره في الشبيبة، ويرون شموخ مكانته.. فكانت التقولات الخبيثة المتنوعة عن عدم التزامه إذا كتب في الحب أو عن نضوب قدراته أو عن تكرار مواضيعه وأجوائه.. كان سيلاً من أكاذيب ينصبُّ دون انقطاع، محاولاً النيل من عظمة شاعر.

لم تكن هذه بالحالة الاعتيادية. وهذه الأصابع المتهمة وصيحات العداء لا بد أن تزيد من عمق الأزمة المظلمة، لكن أهي وحدها التي جعلت الشاعرَ يحس باختناق لا مخرج له إلا بإطلاق النار؟. أظن أنَّ انتحار مايكوفسكي حالة نفسية خاصة عاشها الشاعر في أُخريات

أيامه.. لا يُعرف الى اليوم مبعثها الأكثر أهمية، وكان إحساسه بهذه اللامبالاة التي أحاطه بها الكره والحسد عاملاً مهماً أيضاً في اختناقه وانتحاره. فإذا صحّ افتراضنا بأنَّ ثمةَ عاملاً آخر اكثر اهميةً من هذه العوامل كلها.. فهو عامل شخصي لم يكتب عنه أحد شيئاً أكيدا.. عامل لا صلة له بموقفه من عملية البناء الاشتراكي، فقد كان حتى آخر لحظة شاعراً ثورياً ملتزماً بفكر الثورة وطموحاتها.

هذه القصائد التي أُقدمها إلى القارئ العربي ليست إلا اختياراتي من مرحلة مايكوفسكي الشعرية الأولى بين 1912 ـ 1917. وفي ظني، وأرجو أن أكون مصيبا، أنها أكثر قصائد المرحلة الأولى قوةً في الكشف عن نضجه المبكر وتطوره.. وأكثرها أيضاً تعبيراً عن موقفه كشاعر متمرد في فنه وفكره، كانت تغلي في عروقه رغبة عنيفة بالحرية.. الحرية في أن تجد طاقاته المتجمعة سبلها إلى التجسد كأفعال. وهي طاقات هائلة تتسم بالبدائية في اندفاعها. وغالباً ما تجد متنفَّسَها في هذه الصور العنيفة المتفجرة. فحين يرتدي قميصه الأصفر ويتحدى ويستفزّ ويصرخ عاليا.. إنما يحاول في هذا كله أن ينفث شيئاً من اللهب المتوثب داخل نفسه. وهو لهب يريد أن يحرق ويدمر كل ما في العالم البرجوازي من مؤسسات وأكاذيب.

في نهاية هذه الإشارات التي طرحتها، وهي ليست أكثر من إشارات إلى مرحلة الشاعر الأولى، أحب أنْ أؤكد تلك الحقيقة التي يعرفها كل قارئ لأشعاره : كل قصيدة لمايكوفسكي لا يمكن أن تأخذ مداها إلا

بإلقائها على الناس وبطريقته هو الفذة المؤثرة، فالصوت عنده ليس عنصراً مهماً في توصيل القصيدة إلى الآخرين فحسب، إنما هو جزء، ربما كان أكثر الأجزاء أهميةً، في العملية الشعرية نفسها. ولهذا ستظل كل ترجمةٍ لقصائده قاصرةً عن الاحتفاظ بهذا العنصر الشعري الأثير لدى مايكوفسكي: الصوت. فلكل لغة صوتها الخاص.. ثم هذا الخلو في ترجمتنا الشعرية من الايقاع. وهو شرٌّ لا بد منه إذا أردنا أن نكون أكثر قرباً من روح القصيدة الأجنبية وجماليتها، خاصة مع هذا البعد الشاسع في الإيقاع بين لغتين من عائلتين مختلفتين.

في كل ما كتب، كان يأخذ باعتباره أهمية الأداء القصوى. وكان مقتنعاً أيضاً بأن اتساع البث الإذاعي سيساعد كثيراً في اتساع الشعر نفسه، وبمعنى أكثر قرباً إلى تصوره: سيحتل التسجيل مكاناً إلى جانب الطباعة. والشعر المنبري، في ظنه، هو شعر المستقبل وستتسع مساحته مع انتشار الراديو وبفضله. فالقصيدة، في رأيه، قد كفّت، مع انفجار الثورة وانجازاتها، عن أن تظل مقروءةً فحسب. فمكان القصيدة الملائم، عنده، هو الساحة العامة. لكنَّ ثمة فرقاً شاسعاً بين مفهوم المنبرية الشعرية الشائع وبين مفهوم مايكوفسكي لها، كان من اكثر الشعراء إجهاداً لنفسه في محاولة الوصول إلى الشكل والروح الشعريين، الشكل الأكثر دقةً وصقلاً، والروح الأكثر صفاءً. ولعل مواهبه في التمثيل ورغبته في التأثير وراء هذه التعلق بالمنصة.

كل شتاء تحت الثلج المتساقط غزيراً، وفي الليل المرصع بالأضواء القوية.. يتجمع الآلاف من محبي الشعر ليستمعوا إلى الشعراء وهم

يلقون قصائدهم خلال مكبرات الصوت في يومٍ أو عيدٍ خاص بالشعر، يُحتفل به في موسكو.

والحق أن هذه الظاهرة، ولأكنْ مختلفاً مع مايكوفسكي، آخذة بالتضاؤل. ولست الآن معنياً بدراستها أو تقصي أسبابها. فالأداء الجيد، أخيراً، موهبة كالخطابةِ أو التمثيل. ولا أظن أن كل شاعر قد ولد ليكون ممثلاً.

قال بلوك مرةً : إنَّ مايكوفسكي موهبة هائلة. وهذه خير تحية نودّ أن نرفعها لهذا الرجل المتفرد.. وهي خير تحية، أيضا، يقدمها شاعر رائع لشاعر آخر من شاطئ فني آخر.

حسب الشيخ جعفر

1978/7/23

القصائد

صبيحة

عينا المطرِ العابسِ تنظران شزرا.
وعَبْرَ
تشابكِ
الأسلاكِ المحكم،
حيث يقبعُ فكر لا رحمةَ فيه،
تتراءى حشيةُ ريش
و
فوقها
تقف الأنجم متكئةً
على أقدامها الخفيفة.
غير أن هلا
كَ مصباحِ الشارع
المتّوج
بلهبِ الغاز،
كان أكثرَ إيلاماً
لأعينِ الباقةِ المعادية
المتجمعةِ من بغايا المتنزهاتِ العامة.
وبرعبٍ
متنامٍ

تتضخمُ

متعرجةً

ناقرةً المسامع،

ضحكةٌ

تُطلقها هذه الورودُ الصفراءُ السامة.

وعَبْرَ اللغط

والرعب

يُبهج العين

أن تلقي نظرةً

فترى

جموعَ

الصلبانِ المتألمة

بهدوء ودونما اكتراث،

وتوابيتَ

المنازلِ العامة

وقد ألقى بها المشرقُ في إناء واحد متوهج.

1912

من شارع إلى شارع

الشا

رع.

لهذه

الكلابِ الضخمة

وجوهٌ

أكثرُ

حدّةً

من وجوه السنين.

و

من

نوافذِ البيوتِ المتراكضة

تتطافر

أكعابُ الأحصنةِ الحديدية الأولى.

وبأعناق كأبراج الأجراس

في أحابيلَ من أسلاكِ التلفون

يطارد البجع بعضه بعضا.

وفي الأعالي تتهيأ صورةُ زرافة

لرش ألوانها على النواصي الصدئة.

مبرقش كسمكة ملونة

أنا ابن

الحقل المحروث الذي لم يعرف زخرفةً ما.

كمشعوذ،

مختبئاً في ساعات الأبراج العالية

أجرُّ سكة الحديد
من أشداق الترام.
لقد استوليَ علينا.
أيتها المناضح
المغاطس
المصاعد.
قد انحلت أزرار صُدرة الروح.
الأكف تشعل البدن .
سواء صرختِ أو لم تصرخي.
«لم أكن راغبة بهذا».
فالعذابات
تحرقنا
بألم يشتدُّ حدّة.
الريح الوخّازة
تنتبش
من المدخنة
نسالةَ الصوف المثقلةَ بالسخام.
والمصباح الأصلع
ينتزع،
متلذذا،
جوربَ الشارع الأسود.

1913

أكنتم تستطيعون ؟

دونما تردد طليتُ خارطةَ الروتين
صاباً فوقها قدح أصباغي،
وفي وعاء المرق
أبرزتُ وَجْنَتَيْ المحيط الناتئتين.
وعلى حراشف سمكة من صفيح
قرأتُ دعوةَ الشفاه الجديدة.
وأنتم
أكنتم تستطيعون أن تعزفوا
موسيقى نوكتريون
على مزمارِ أنابيبِ تصريف المياه؟

1913

شيء عن بيتر بورغ

من الأسطح تهبط الدموع في الأنابيب
راسمةً خطوطاً عريضة عند ذراع النهر.
وفي شفاه السماء المتهدلة
تنغرز حلماتُ المباني الحجرية.

*

وعن بعدٍ يتراءى واضحاً
سائق الجمالِ المبتل،
إلى هناك حيث يلتمع صحنُ البحر،
مُنهكاً يسوق جَملَ النيفا ذا السنامين.

1913

أنـــــــا*

على رصيف
نفسيَ المخرّب بدوس الأرجل،
تبرمُ خطى المجانين
أخمصَ التعابيرِ الجارحة.
حيث المدن
تتعلق في مشانقها
وفي عرى السحب
تتجمد
أعناقُ
الأبراج المعوجة،
وحيداً

* تحت هذا العنوان صدرت أولى مجاميع الشاعر عام 1913، ولم تزد الطبعة على 300 نسخة (المترجم).

أمضي لأنتحب

على رجال الشرطة

الممدّدين

فوق صلبان من مفترقات الطرق.

1913

ارهـــــــاق

أيتها الارض

دعيني أُقبّل رأسك الآخذ بالصلع

بأسمال شفاهي المبقعة بطلاء ذهبي غريب.

دعيني ألفّ صدرَ المستنقع الغائر

بدخانِ شعَري المتكومِ فوق حرائق

عيوني القصديرية.

نحن معاً

كأثنين من الأيائلِ الجرحى المنهكة

ينغزُنا صهيلُ أحصنةٍ أسرَجها الموت.

وبأذرعه الطويلة يطردنا الدخانُ من البيت

وبعكازته يشعلُ الحنَق في الأعين المطاردة

تحت شآبيب النار.

*

يا أختي !

ربما، في ملاجئ عجزةِ العصورِ الآتية

يتهيأ لي أن أجد أماً ،

وسأرمي لها بمعزفي المُدَمّى بالأغاني.

هي ذي المخبرةُ الخضراءُ

في قاع الساقية

تنط نحونا، باعثةً نقيقَها،

لتكبّلَنا بحبالِ الطرقِ الموحلة.

1913

هاكــــــــــم*

بعد ساعة، من هنا

ستسيل سمنتكم المترهلةُ في الزقاق النظيف،

وأنا... كم قد فتحتُ لكم من أصفاط قصائدي،

أنا متلاف الكلماتِ التي لا تقدر بثمن.

*

---

* ألقى الشاعر هذه القصيدة لأول مرّة في الكبارية الأدبي (القنديل الوردي) عند افتتاحه في موسكو. وقد كتبت إحدى الصحف في تعليق لها على الأمسية: «كان الجمهور حانقاً تماماً، وقد سمع صفير استهجان يصم الآذان. وترددت صيحات: يسقط، وكان مايكوفسكي رغم هذا يقف بإصرار وثبات. وانتهت الأمسية بتدخل الشرطة». وكانت هذه القصيدة سبباً في اغلاق(القنديل الوردي) (المترجم) .

ها أنت أيها الرجل، وعلى شاربيك
بقايا عالقة من حساءِ الكرنب،
ها أنت أيتها المرأةُ وعلى وجهك طلاءٌ
أبيض، كثيف،
حذرةً تنظرين كمحارةٍ في صدفةٍ من الحلي والثياب.

*

قذرين، بأحذيةٍ أو دون أحذية،
تحاولون جهدكم ارتقاءَ فراشةِ القلبِ الشاعر.
وحشدكم يتوحش،
وسيحتكُّ بعضُه ببعض
كقملةٍ بمئةِ رأسٍ، قد أوقفَ الغيظُ أرجلها

*

وإذا كنت اليوم، أنا الهونيُّ الجلف،
غيرَ راغبٍ أن أتملقكم.. فها أنا
أقهقه، وأبصق مبتهجاً
أبصقُ في وجهكم
أنا متلاف الكلماتِ التي لا تُقدَّر بثمن.

1913

لا يفهمون شيئاً

دخلتُ صالون حلاقة وقلتُ بهدوء :

«من فضلك سرّح لي أذني» .
وسرعان ما غدا الحلاقُ الاملس إبرياً كصنوبرة
واستطال وجهه كالكمثرى
وتطافرت الكلمات :
المجنون.
الأشقر.
وتقاذفت الشتائم مصاصئةً.
وطويلاً
كانت رأسُ أحدهم تضحك ضحكاً محبوسا،
مُنتزعَةً عن الحشدِ كرأس فجلٍ قديم

1913

قميص عصفور*

من مخمل صوتي
أخيط لنفسي بنطلوناً أسود
وقميصاً أصفر من ثلاثة أذرع من الغروب.
وعلى امتداد شارع نيغسكي الصقيل المتلامع

---

* يصح أيضاً أن يترجم العنوان بقميص الفتى الطائش المتأنق. وفي قصته «ليالي مصر». يضع بوشكين مُفتتَحاً، مُقْتَبساً من مجلة فكاهية، جاء فيه: «أي رجل هو؟ إن له موهبة كبيرة. يمكنه أن يصنع من صوته أي شيء يريد. كان ينبغي له يا سيدتي أن يصنع من صوته بنطلوناً» (المترجم) .

مزهوّاً أجر خُطى دون جوان.

*

دعْ الأرض تصرخ كامرأة أبطرتها الراحة:
«ها أنت ماضٍ لاغتصاب الربيعات الخضر».
وأدمي بكلماتي إلى الشمس مكشّراً بوقاحة:
على الأسفلتِ الأملس يطيب لي
أن ألثغ بالراء.

*

أو ليس بسببٍ من زرقة السماء
ولأن الارض أمست عشيقةً لي في تلألؤ
العيدِ هذا
صرتُ أهديكم أشعاراً مرحة كلعبةِ بي بابو*
وحادة، ونافعةً كخلّةِ أسنان.

*

أيتها النسوة المغرمات بلحمي، وهذه
الصَبِّية التي ترمقني كما ترمق أخاً لها،
ارشقنني، أنا الشاعر بالبسمات
فسأخيطها زهراتٍ فوق قميصي الأصفر.

1914

* لعبة كانت شائعة آنذاك.. من اللعب التي تباع في المخازن. وفي آخر المجموعة ملاحظات عن الاسماء التي لم نشر إليها برقم في أماكنها من القصائد.

اصـــــغِ

أصغ.
لئن بدَت النجوم موقدةً
أفلأنَّ أحداً ما بحاجة إليها ؟
لأن أحداً ما راغب بأن تتوقد ؟
ولأن أحداً ما يدعو هذه البصقاتِ لؤلؤا ؟

*

منهكاً
في غبار الظهيرة الثلجي العاصف
يندفع إلى الأعالي
خوفاً من أن يتأخر.
يبكي
يُقبّل اليدَ المعروقة
ويتوسل
أن تكون ثمة نجمةٌ بأية حال،
ويقسم
أن لا قدرة له على احتمال ألمٍ لا نجمة فيه.
وبعدئذ
يسير قلقا،
متظاهراً بالسكينة

ويتحدث الى أحدهم:
«ألستَ تشعر بخير الآن؟
ألستَ خائفاً ؟
أجل؟»
أصغ.
لئن بدت النجوم
موقدةً
أفلأن أحداً ما بحاجة إليها؟
لأن من الضروري
أن تتألق كلَّ أمسيةٍ
فوق السطوح
نجمةٌ واحدة في الأقل؟

1914

ومع ذلك

ينحدر الشارع كأنفِ مصابٍ بالسفلس.
الرغباتُ تتدفق نهراً من لعاب
والحدائق، ملقيةً عنها ثيابها الداخلية حتى
آخر ورقة
تستلقي، دون خجل، عاريةً في حزيران.

*

أخرجُ إلى الساحة
واضِعاً الحيَّ المحترقَ فوق رأسي
كشعرٍ مستعار أحمر
والرعبُ يتملك السابلة
من صرخةٍ لا يمكن ابتلاعُها
تتلاعب بأقدامها بين شفتيَّ.

*

غير أن احداً لا يدينني أو ينهرني
وكنبيّ يفرشون آثار أقدامي بالزهور.
كلُ هذه الأنوف المنخسفة
تعرف أنني شاعركم.

*

محكمتكم تزعجني كحانة.
ما من أحدٍ سواي، عَبْرَ الأبنية الملتهبة،
تحمله الخاطئات على أذرعهن كشيء مقدّس
ويظهرنه كشفيع لهن أمام الرب.

1914

عن بيتر بورغ أيضاً

في آذاني بقايا من الحفل الراقص الدافئ

ومن الجهاتِ الشماليةِ الأكثر شيباً من الثلج
يزحف ضبابٌ بسحنةِ آكل لحم البشرِ المتعطش
ليمضغَ المادة التي لا طعم لها

*

أسمعُ الساعةَ تدق كالشتيمةِ البذيئة
وهي تدرك السادسة بعد الخامسةِ سريعا.
ومن الأعالي تُطلُّ بعظمةٍ
نفايةٌ ما أشبه بليف تولستوي.

1914

الكمنجة وشيءٌ من العصبية

فجأة أغرقت الكمنجةُ في البكاء
كطفل،
وقد أُرهقتْ اعصابُها وتوسلت كثيرا.
فلم يستطع الطبلُ احتمالاً وراح يهدئها :
حسناً، حسناً، حسناً،
غير أنه قد أُنهكَ
فلم يستمع إلى شكواها حتى النهاية
وانسلَّ إلى شارع كوزنيتسكي الملتهب
وابتعد.

وكانت الجوقةُ دونما مشاركةٍ
دون كلمةٍ
دون حصافة
تتأمل كيف تنتحب الكمنجة.
صحنٌ أحمقٌ فحسبْ
في مكانٍ ما
كان يقعقع :
(ما هذا ؟
كيف حدث هذا؟)
وحينما
صرخ البوق
ذو السحنةِ النحاسية
وقد ابتلّ بالعرق :
(يا لهذه الغبية
الدمّاعة.
اطردوها).
نهضتُ
ورحتُ أدبُّ مترنحاً بين النوتات
حيث الحوامل تتقوس رعباً
وفجأة صرخت:
(يا الهي) .

وألقيتُ بنفسي على عنقها الخشبي:

(أتعرفين أيتها الكمنجة؟

نحن متشابهان تماما.

فها أنا أيضاً

أصرخ

لكنني لا أعرف كيف أقنعهم).

فتضاحك العازفون:

(يا لها من ورطة!

ها قد وَجدَ أخيراً عروسَه الخشبية.

الأحمق)!

لكنني لست مهتماً بتخرصاتهم

فأنا.. ممتاز.

أتعرفين أيتها الكمنجة؟

هلمي

نعش معاً نحن الإثنين.

اتريدين؟

1914

أنا ونابليون

أعيش في بريسنا الكبير

*36، 24**

وهو مكان مريح

هادئ.

إيه؟

ترى.. ماذا يعنيني أنا

أنهم في مكان ما

في عالمنا العاصف

افتكروا وعملوا لهم حرباً؟

*

هي ذي

ليلة طيبة،

متوددة.

ترى ما لهذا البعض من الآنسات

يرتعش هلعا،

ويلتفتن جانباً بأعينهن الكبيرة كالبروجكترات.

---

* «بريسنا الكبير ـ 36، 24»: كان هذا هو عنوان الشاعر في موسكو بين 1923 ـ 1915، وبريسنا كما هو واضح حي من أحياء موسكو (المترجم).

والسابلة المتزاحمة، على النداوة السماوية
تنكبُّ بشفاهها الملتهبة.
والمدينة ممعنةً في صلاتها الى الصلبان الحمر
تهز راياتها بأيديها.
الكنيسة الصغيرة تنكبُّ حسيرةَ الرأس
على الطرفِ الأمامي من المتنزه العام
كشوالٍ ممتلئٍ بالدموع،
وجُنيناتُ المتنزه المزهرةُ تنزف دماً
كقلبٍ مزقته أصابعُ رصاصة.
والهلعُ آخذاً بالسمنة
يلتهمُ العقلَ المتيبسَ بشراهة.
والمشاتل الزجاجية في مخزن نويف* لبيع الزهور
قد غطّى عليها الغازُ الشاحب المميت.

*

قولوا لموسكو
بأن تتماسك.
لا داعي
لأن ترتعدَ خوفا.
فخلال ثانية

* «نويف»: كان مالكاً لمخزن لبيع الزهور في موسكو (المترجم).

سأعلو وأقتل الشمس.

أترونها وهي تهز راياتها في الأعالي؟

وها هي

شقراءَ ممتلئةً

تنحدر على جثث السطوح

وتسقط حافراً أحمرَ مدوياً على الساحة.

*

هلموا يا من أبلى عيونَهم الأرق،

ضعوا وجوهكم في الشعلة.

لا فرق

فهذه هي شمسنا الأخيرة،

شمس اوسترليتز*.

*

هلموا يا مجانين روسيا وبولندا

فأنا اليوم.. نابليونكم.

أنا قائد جيش وأكثر.

فلتقارنوا

بينه وبيني.

*

* «شمس اوسترليتز»: قرب اوسترليتز، عام 1805. استطاع نابليون أن يحرز نصراً كاسحاً. وعند الفجر قبيل معركة بورودينو مع الجيش الروسي. ليس بعيداً عن موسكو، كان نابليون يهتف: هي ذي شمس اوسترليتز!» (المترجم).

لمرة واحدة قد اقتربَ بعرشه من الطاعون
مُنتهِكاً بشجاعته حرمةَ الموت،
وأنا كل يوم أسعى بين مرضى الطاعون
عَبْرَ الف يافا روسية.*
لمرة واحدة كان واقفاً دون اختلاجةٍ تحت الرصاص
لتمجده الأعصُر العديده،
وأنا في شهر تموز وحده
*عبرتُ آلافاً من أمثال جسر أركول**.*
إن لصرختي وسماً في جرانيت الزمن
ولسوف تدوي وتظل مدوية..
ففي قلبي المحترق
كصحراء مصر
أهرامٌ لا عدّ لها.

*

ليتبعني كلُّ من أبلى عيونه الأرق.
عاليا.

---

* «عبر الف يافا روسية»: عام 1799 قام نابليون بزيارة إلى مستشفى المصابين بالطاعون في يافا.

** «جسر اركول»: في عام 1796 في قتاله مع النمساويين كان نابليون قد قاد بنفسه هجوماً مضاداً. وقد اوشك أن يقتل عند عبوره الجسر في موضع ايطالي يدعى اركول (المترجم).

ووجوهكم في الشعلة

مرحبا

يا شمس ساعة احتضاري،

يا شمس اوسترليتز.

*

أنتم!

سترون.

أماماً

نحو الشمس.

ولتقشعرّ الشمس بردا.

لينطلق عالياً من حنجرة الهيكل المختنقة

لحننا الجنائزي الأجش.

أنتم!

حين تحيطون بهالةٍ من قدسيتكم

اسماء قتلى

أكثر شهرة مني.

تذكروا:

أن شاعراً آخر قد قتلته الحرب،

شاعراً من بريسنا الكبير.

1915

إليكـــــــم

أنتم المتنقلون من حفلةٍ تهتكيةٍ لأخرى
يا ممتلكي المغاطس والمرافقِ الدافئة.
ألم يُخجلكم انكبابكم على أعمدةِ الجرائد
بحثاً عن توصياتٍ بمنح صليبِ القديس جورج؟.

*

أتعرفون يا عديمي الموهبة الكثيرين
ومن لا يهمهم غيرُ ملءِ بطونهم بشراهةٍ أكثر،
ربما قد اقتطعتِ القنبلةُ الآن
ساقَ الملازم بِتروف ؟
ليته يبصُر بكم فجأةً
وهو الجريحُ المساقُ الى الذبح
كيف تغنون أشعارَ سيفريانين بشبق
وشفاهكم ملوثة بوجبتكم من لحم الضلوع.

*

ألمصلحةِ أمثالكم يا محبي النساء والاطعمة
أرضى بتقديم حياتي ؟
خير لي أن أوزّعَ عصيرَ الأناناس

نشيد القاضي

يمخر المحكومون بالأشغال الشاقة عبابَ البحرِ الأحمر.
مجدّفين في سفينتهم القديمة بمشقة
ويصرخون في طلبِ وطنهم بيرو
وقد غطى زئيرهم على صهيلِ السلاسل.

*

يصرخُ ابناءُ بيرو ناشدين جناتِ وطنهم
حيث الطيور والرقص والزوجات ،
وحيث تتعالى الحباحبُ الى السماء
فوق تيجانِ أزهارِ النارنج.

*

---

* قرأ مايكوفسكي هذه القصيدة عام 1915 في بتروغراد. في القبو التمثيلي: «الكلب الضال». وقد كتبت تولستايا ـ فيجيركا متذكرة: «بعد الثانية عشرة ليلاً قدم عريف الحفل الشاعر كأحد ممثلي الحركة المستقبلية. ولا أتذكر ماذا كان الشاعر مرتدياً. لكنني أتذكر أنه كان شاحباً جداً ومتجهماً. وكان يشعل اللفافة بعد الأخرى. وكان ينتظر هدوء الجمهور عابساً، وفجأة أخذ يقرأ... كان أكثر الحاضرين من الأثرياء. وكانوا في دهشة كبيرة. وقد تعالت هتافات معادية، لكن الشاعر ظلّ يواصل قراءته، رافعاً صوته ليغطي على الضجيج». «سيسفريانين»: شاعر روسي (1887 ـ 1942)، وكان مايكوفسكي ينظر إليه كممثل لشعراء الصالونات والمطاعم من مُلبّي متطلبات الذوق البرجوازي المبتذل.

يا لأكوام الفرح.. موز، أناناس!
الخمرُ في أوانٍ مختومة.
لكن ها هم القضاة قد دُفعَ بهم إلى بيرو
ولا تدري لأي سببٍ أو من أين.

*

ها هي الطيور والرقص ونساء بيرو
قد أحيطت جميعاً ببنودِ القوانين.
وعينا القاضي تلتمعان
كعلبتي صفيحٍ في حفرةِ قاذورات.

*

وتحت هذه النظرةِ الصارمة كالصوم
وقعَ الطاووسُ الأزرق البرتقالي،
وبلمح البصر
قد تبدّلَ ريشُ ذيلهِ الباهر.

*

وبالقرب من بيرو، فوق السهوب الفسيحة،
تطير أسراب الكوليبري الزاهية،
فأمسكَ بها القاضي
وما أبقى لها زغباً أو ريشا.

*

لم تعد تُرى اليوم في هذه الأودية

جبالٌ ملتهبة بالبراكين.
فقد كتبَ القاضي فوق الأودية كلها :
يمُنع دخول المدخنين.

*

وحتى قصائدي في بيرو المسكينة
قد مُنعت تحت طائلة التعذيب.
فقد قال القاضي :
كل هذه المبيعات محظورة كالشراب المخدر.

*

إن خطَّ الاستواء ليرتجف من رنين الأصفاد،
ولم تعد بيرو مأهولةً بطير أو بشر..
لا أحد غير القضاة يعيشون كآبتهم
وقد انزووا حقداً في أقبيةٍ من قوانينهم.

*

ولهذا فأنا أرثي لابن بيرو !
عبثاً يجدّف في سفينته القديمة.
فالقضاة المزعجون يمنعون الطير والرقص
وأنا وأنتم وبيرو.

1915

نشيد العلاّمة

كلُّ ساكني الإمبراطورية
من بشر وطير وأم أربع وأربعين
يتدلون على نافذته في فضول رهيب
وقد قفَّ شعرُهم أو انتفشَ منهم الريش.

*

الشمس ممتعة، ونحن في نيسان أيضا،
وممتعاً كان أن تنظر
حتى الى منظفِ المداخنِ الاسودِ المدهشِ وغيرِ الاعتيادي:
هيئةِ العلاّمةِ الشهير.

*

يتأملونه ولا يجدون صفةً إنسانيةً واحدة.
ليس بشرا، إنما شيء واهن ذو قدمين،
وقد التهمَ رأسَهُ تماماً
بحثٌ عن الثآليلِ في البرازيل.

*

عيناه تعضّان على الحرفِ بقوة،
آه، لكم أُحسُّ بالشفقةِ على الحرف!
هكذا، لا بدّ كان الوحش البحري المنقرض
يمضغ البنفسجة الواقعة صدفةً بين فكيه.

*

التوى عموده الفقري كمن ضُربَ بعريشِ عربة،
لكنْ هل يلتفت العلاّمةُ إلى مثل هذا الضرر الطفيف؟
إنه ليعرف جيداً أن دارون قد كتب يوماً
ما نحن إلا أخلاف قردة،

*

ومن خلال ثقبٍ ضئيل
تنزّ الشمس كجرحٍ صغير متقيح،
وتختبئ فوق الرف المترب
حيث تتكوم العلبُ بعضها فوق بعض.

*

ثمة قلبُ صبيةٍ مهرّأ في اليود،
كسرةٌ متحجرةٌ منذ الصيف الاسبق،
وشيءٌ آخرُ قد تعلّق بدبوس،
شيء ما أشبهُ بذيلٍ متيبسٍ لمُذنب صغير.

*

ساهراً الليل كله.. والشمس من وراء البيوت الصغيرة
ثانيةً تكشرّ في وجهِ الشناعة البشرية.
وتحتها على الأرصفة، ثانيةً، يسعى الطلبة نشطين
إلى مدارسهم الثانوية.

*

حُمرَ الآذان يمرون.. ولا يضجرْ

إنهم يشبّون أغبياءَ مستكينين،
فبدلاً من هذا يمكنه أن يستخرجَ كلَ ثانية
جذراً تربيعياً ما.

1915

هكذا صرت كلباً

إيه، إن هذا، أبدا، لا يطاق.
إن الحقد ليعضّني شبرا، شبرا.
إني لأحقد ليس كما لو استطعتم أن تحقدوا:
كما ينبح الكلب وجهَ القمرِ ذي الجبين العاري
وددت
لو أخذتُ أعوي دونما انقطاع.

*

لا بد أنها الأعصاب..
أخرج
أتنزه.
وفي الشارع لا أجد أحداً أستقرّ إليه.
امرأةٌ ما تصرخ بتحيةِ المساء.
ينبغي أن أردّ التحيةَ، فهي من معارفي.
أحاول

لكنني أُحس
أنني لا أستطيع التحدُّثَ بلغة الناس.

*

أيةُ شناعةٍ هذه !
أنائم أنا ؟
أتلمسُ نفسي
مازلت كما كنت،
وجهي مثلما كنتُ قد تعودتُ عليه.
أتلمس الشفة
فإذا بي من تحت الشفة يخرج لي
ناب.

*

أسرعتُ بتغطية وجهي بكفي كما لو كنت أتمخط
وانهزمتُ الى البيت مضاعفاً من خطاي،
دائراً بحذرٍ شديد حول مركز الشرطة،
فجأةً تنفجر صيحةٌ تصمّ الآذان :
أيها الشرطي ..
ذيل.

*

مررتُ بيدي عليّ.. وتحجرت.
إن هذا

لأكثر عجباً من أي ناب.
لم أكن قد لاحظت، في فراري الحانق،
أن عندي من تحت السترة
قد بدأ يتمروح
متلوياً خلفي
ذيلُ كلبٍ كبير.

*

ما العمل الآن؟
ها هو احدهم يصرخ فيلفت الأنظار،
ومن الثاني يقترب الثالث فالرابع
ويطأون عجوزاً صغيرة،
فتصرخ بشيء ما عن الشيطان
راسمة علامةَ الصليب.
وحين انتصبَ الشاربان في وجهي كمكنستين
وتكتّلَ المارة
حشداً هائلا
حانقا،
بدأتُ أقف على الأربع
وأخذت اعوي

1915

يـــــا !

مبتلةً تعبر الجموع
كما لو أنها قد لُعقتْ.
الهواءُ المتحمض يفوح عفونةً.
أنتِ
يا روسيا
أما من جديد
يحدث ؟

*

طوبى لمن استطاع مرةً
في إغماضةِ عينٍ، في الأقل،
أن ينساكم،
أنتم غير الضروريين كالزكام
الصُحاة من السكرِ
كالمياه المعدنية.

*

إنكم لتبعثون على السأم جميعا
كما لو أن كوننا خالٍ من كابري
وكابري لمّا تزل قائمةً
وهي تبدو، وقد تلألأتْ زهورُها،

كامرأةٍ تعتمرُ غطاءَ رأسٍ وردياً تتدلى شرائطه.

*

لتندفعْ قطاراتنا إلى الشواطئ..
وفي تأرجحِ المراكبِ نسلوها،
مكتشفين عشرات الاميركات
وعندَ القطبين الخفيين ننعَمُ بالراحة.

*

أنظر، كم أنت حاذق:
أما أنا
فتأمل أيةَ يدٍ فظةٍ لي.
ربما في المعارك
في المباريات ربما
أمكنني أنْ أكون أكثرَ الضاربين بالسيفِ براعةً.

*

أيةُ فرحةٍ أن تُوجّهَ ضربةً موفقة
وترى كيف تقفُ مباعداً بين ساقيك
وها هو خصمك
وفي الصميم منه
سَدّدتَ طعنَتكَ الصائبة.
وبعدها، في لهبِ القاعات المموهةِ بالذهب
ناسياً عادةَ النوم

تُمضي ليلَتكَ كلَّها
مفرقاً عينيك
في الكونياك ذي العين الصفراء.

*

وأخيرا، وقد قفَّ شعرُك كالقنفذ،
بخُمارٍ في الرأسِ تنثني إلى البيت
تتوعدُ الحبيبةَ الخائنة بالقتل
وبأنك ستُلقي جثتَها إلى البحر.

*

لننزع عنا هراءَ السترةِ والأكمام
ونرتدِ الدرعَ زينةً لصدورنا المنشّأةِ هذه
ونطبقْ قبضَتنا على سكينِ المائدة
ونصبح ليومٍ واحد في الأقل اسبانيين.

*

وفي غمرة العشق والضرب والقلق
ننسى عقلَنا الشماليَّ البارد.
أنت أيها الرجل
ادعُ الارضَ نفسَها
إلى رقصةِ فالس.

*

ولتطرز الأعالي بوشيٍ آخر

مبتكراً نجوماً لم تُرَ من قبل
واعرضْها، مثيراً جنونَ ارواحِ الممتلين
فتتصاعد ثاقبةً سطوحَ البيوت.

1915

اللعنـــــــة

أبداً
لا أُصدّق هذا
أبداً
وأنتِ أيضا
يا حبيبتي
لأي شيء.
لأي شيء ترى ؟
حسناً
كنت قد زرتكِ مراراً
وحملتُ زهوري إليك.
أم تراني جئت لأسرق ملاعقكم الفضية من صندوقها ؟

*

شاحبا،
مترنحاً أهبطُ من الطابق الخامس

الريحُ تحرق وجهي،
الشارع يتصاعدُ ملتوياً بزعيقه وصهيله
والصرخة شبقةً تتسلقُ الصرخة.

*

على بهرجةِ العاصمةِ المتبلدة
ارفعُ
جبينَ
أيقوناتي القديمة
الصارم.
وعلى بدنك، كما يحدث على فراش الموت،
كان قلب النهار
قد
توقّف.

*

في جريمة القتل الفظّةِ هذه لم تلوثي لك يدا.
رميتِ
بهذه الكلمات فحسب:
هو
في سريره الوثير
والفاكهة
والنبيذ

فوق راحة المنضدة الليلية الصغيرة.

*

يا حب !

في دماغي الملتهب

وحْدَهُ

كنتَ تتأجج.

آن أن توضع نهاية لهذه الكوميديا البلهاء.

انظروا

كيف أنزعُ عني دروعي الورقية

أنا

دون كيخوت الاعظم.

*

تذكروا:

تحت عبء صليب

لبرهةٍ

لاح المسيح مرهقا.

فتصارخ الحشد المتجمع

مطلقاً

شتائمه.

*

حقا!

كل

من

يتضرع في زماننا لاستراحةٍ ما

ينبغي أن يُبصق على يومه الربيعي الجميل.

لا رحمة من الناس

لجمعنا المتحمس ممن قضي عليهم كمتطوعين أبداً.

*

كفى !

*

الآن

أُقسم بقوتي الوثنية

هاتوا

أية صبية

فاتنة

وشابة.

دون أن أُنفق فلساً من كنوز روحي،

سأمتلكها

وفي قلبِها أبصقُ سخريتي المريرة.

*

العين بالعين.

*

احصدي، إذن، بذور انتقامي متزايداً ألفَ مرة.
واجأري في كل أُذن:
هذه الأرض:
محكوم بالأشغال الشاقة المؤبدة
قد حَلقتْ شفرةُ الشمس نصفَ رأسه.

*

العين بالعين.

*

يمكنكم قتلي
ودفني
لكنني شأشق عني الأرض.
وسأصقل سكين أسناني على الحجر جيدا.
وفي ثكنة النوم العامة
تحتَ أرضيتِها الخشبيةِ أنزوي ككلب.
وسأشدُّ أسناني على المُدية بقوة
وقد تملكني السعار.
يا من تفوح منكم رائحة العرق والسوق.

*

انتفضوا من نومكم
فقد دعوتكم
أنا.

ثوراً ابيضَ أتضخمُ فوق الأرض :
مو و و!
وعنقي تتوجع في النير متقرحةً
وعلى القروح أعاصيرُ ذباب.

*

أتحولُ إلى آيل ضخم
وفي الأحبولة
أضع رأسي ذا القرون المتشعبة،
وعيناي تتفايضان دما.
أجل
حيواناً مضطهداً أقفُ فوق العالم،

*

ما من مفرّ لأبن آدم!
الصلاة في فمه
وعلى لوح الصفيح ينطرحُ قذراً متسولاً.
وأنا
أنثرُ أصباغي
على وجه رازين المتألق
فوق البوابات الملكية.

*

أيتها الشمس! لا ترمي بأشعتك.

أيتها الأنهار جفّي ولا تطفئي له ظمأً،
فسيولد آلاف من تلامذتي
وفي الساحات ستنصبّ لعنةُ أبواقهم عليه.

*

وأخيراً
عندما
أقف على ذروة الأزمنة
ويحلُّ آخرُ يومٍ لهم
سأحترقُ شبحاً دموياً
في أرواحِ الفوضويين والقَتْلة السوداء.

*

ينبلج الفجر
وفمُ السماءِ ينفرجُ باتساعٍ متزايد
وجرعةً بعد جرعة
يبتلعُ الليل.
من النوافذ تندلعُ هالةُ ضوء
من النوافذ يسيل الحرّ
من النوافذ تنسكب الشمسُ الكثيفةُ على المدينة النائمة.

*

يا انتقامي المقدس!
ثانيةً

فوق غبار الشوارع
احملْني على مرقىً من كلماتي إلى الأعالي.
قلبي الممتلئ
حتى آخره
سأصبُّه في اعتراف.

*

يا من تجيئون من بعدي،
من أنتم؟
هو ذا أنا
كائنٌ من ألمٍ ورضوض.
أوصيكم
بحديقةِ فاكهة روحي العظيمة.

1916

ســـــأم

ضقتُ ذرعاً بالبقاء في البيت:
انينسكي، توتجف، فيت*.
ثانية
أخرجُ

* «انينسكي، توتجف، فيت»: أسماء شعراء روس (المترجم).

مقاداً برغبتي في رؤية الناس،
وأدخلُ السينما والحانة والمقهى .

*

آخذ لي مائدة،
المقهى يتلألأ ،
الأملُ يضيءُ جوانبَ القلبِ الأحمق،
فإذا ما جرى خلال اسبوع
أي تغير لابنِ روسيا
بنيران شفتي سأحرق خدّيه .

*

أرفعُ طرفي بحذر،
أشق لي طريقاً في كتلة السَترِ هذه:
ابتعدوا
ابتعدوا
ابتعدوا ...
من قلبي تنطلق صرخةُ رعب،
رُعْبٍ يتقلب على وجهي سئماً لا أمل فيه.

*

لا أصيخ سمعاً لأحد.
أرى
إلى يميني قليلا
مخلوقاً غامضاً

لا مثيل له على اليابسة أو في لجج البحار،
منهمكاً في تناول فخذ عجل.
ترنو إليه ولا تعرف: أهو يأكل أم لا.
ترنو إليه ولا تعرف: أهو يتنفس أم لا.
لا شيء غير عجينةٍ ورديةٍ لا ملامحَ لها، بسَعةِ ذراعين:
لا حزٌّ، في الاقل، يطرزُ زاويةً منها.

*

لا شيء غير طياتٍ رقيقة من لحمِ خديه المتلامعين
تتخافق متهدلةً على كتفيه.
فيتملك قلبي الحنق
ويهدر صارخا:
ابتعد
ماذا تنتظر أخيرا ؟

*

انظر إلى يساري
وأفغر فمي.
التفتُ الى الاول فتتغير الحال.
الى جنبِ هذه الشناعةِ الثانية
يبدو لي الاول :
ليوناردو دافينشي، وقد بُعثَ حياً

*

لم يُعدْ للبشرِ من وجود.

اتفهمون

هذه الصرخة التي يطلقها عذابُ آلاف الايام؟

إن روحي لتأبى ان تتجول بكماءَ بينكم.

لكن مع من اتحدث ؟

*

ارتمي على الارض

واشحذُ حجرا، منتزعاً لحاءه،

وأحك به وجهي لأدميه، غاسلاً الاسفلتَ بدموعي.

متشوقاً الى شيء من حنان

اغمر بآلافٍ من قبلاتي

بوزَالترامِ الذكي.

انصرف الى بيتي

فالتصق بظهري الى ورق الجدران.

أين هي الوردة الاكثر رقة ؟

اتريدين

أن اقرأَ لكِ

كتابي الارقش :

«بسيط كالخوار»* ؟

*

للتاريخ :

* «بسيط كالخوار»: مجموعة شعرية لمايكوفسكي صدرت عام 1916. ويصف الكتاب بالارقش لكثرة النقاط التي تشير إلى الأسطر التي حذفتها الرقابة (المترجم).

حين تستقرون جميعاً في الجنة او الجحيم
وتغدو الارض كمسألةٍ رياضيةٍ فُرِغَ من حلها.
تذكّروا :
في عام 1916
اختفى كل وجهٍ جميلٍ من بتروغراد.

1916

البيع الرخيص

هبني خدعتُ امرأةً في قصةٍ مثيرة،
هبني نظرتُ دون قصدٍ الى عابرٍ ما
فكلُّ يد تمتد إلى جيبها حذرا.
يا لهم من مضحكين!
أي شيء، ترى، يمكن ان يستلّه نشّال
من شحاذين كهؤلاء؟

*

بضع سنين ستمر، ويعرفون
انني، المرشح لثلاثة اذرعٍ فحسبْ في ردهةِ الجثثِ العامة،
اكثرُ ثراءً وبقاءً
من أي مورغان*.

*

* «مورغان»: مليونير أمريكي (المترجم).

بضع سنين ستمر،
فلن تبقيني كلماتي حيا،
وسواء نفقتُ جوعاً
أو انتحرتُ برصاصة،
أنا
فتى اليوم الاشقر
سيفهمك الاساتذة متدارسين حتى آخرِ حرفٍ لي
ليعرفوا كيف،
متى،
وأين اوضع.
وفوق منصته
سيلقي الابله ذو الجبين الكبير
كلاماً كالهراء عني.
والحشدُ المداهن
سينحني
ببهرجةٍ لي.
حتى انكم لن تعرفوا :
أأنا أم غيري،
أبخزيٍ يُكللُ رأسي الآخذُ بالصلع
أم بهالةٍ من إشراق.

*

كل مستمعةٍ في الصفوف العاليه
لن تنسبي
أن تذوبَ اعجاباً فوقَ اشعاري
قبل ان تتمدد لتنام.
وأن كمتشائم
اعرفُ
أن ارضَنا لن تخلو يوماً
من امثال هذه المستمعات.

*

اصغوا إليَّ اذن :

*

كل ما تمتلكه روحي،
وثروتُها لن تعرف نضوبا،
كل ما تمتلك من عظمةٍ
تجعلُ من مسيرتي خالدةً،
وخلودي نفسه
الذي تضجُّ بدويّه الازمنة
وتنحني له الدنيا برمّتها محتفلةً.
كل هذا.. اتريدونه ؟
سأمنحه لكم حالاً
لقاء كلمةٍ واحدة

لطيفةٍ
إنسانية.

*

أنتم !

*

هلموا من آخر ركنٍ من الارض
في زحمةٍ من غبار الطرقِ ووقْعِ الحوافر.
اليومَ
في بتروغراد
في شارع ناديجدينسكي
أغلى التيجان طرّاَ
يُباع مجّاناً تقريبا.
لقاء كلمةٍ إنسانية،
اليس هذا رخيصاً حقاً ؟
اذهبوا
وحاولوا
أن تعثروا
على مثل هذه الكلمة.

1916

الى نفسه المحبوبة
يهدي المؤلف هذه الابيات

أربع
فادحة كضربة.
ما لقيصر لقيصر، وما لله لله.
لكن، الى اين ترى
يندفعُ
رجل مثلي؟
وأين ترى قد هُيىءَ وجرٌ لي؟

*

لو انني كنت
صغيراً
كالمحيط العظيم
لنهضتُ على اطرافِ قدمي فوق الموج
وبمدٍّ من لججي كنتُ ألاطف القمر.
أين ترى يُعثر على حبيبةٍ
شبيهةٍ بي؟
لمثل هذه لا تتسع الأعالي الضئيلة.

*

لو انني كنتُ فقيراً

كملياردير
وما نفعُ النقودِ لروحٍ
قد استوطنها لصّ شره ؟
إنّ ذهَبَ كل كاليفورنيا
لا يكفي قطيعَ آمالي الجموح.

*

لو قُدّر لي أن اكونَ عيّياً
كدانتي
أو بترارك،
لأحرقتُ روحي في حبّ واحدةٍ،
وأمرتُ القوافي أن تحيلها الى رماد.
ولأمستْ كلماتي
وحبي
قوس نصر :
تجتازه
كل عشيقاتِ القرون
جليلةً،
دون ان تترك ـ أثرا.

*

آه، لو انني كنتُ
هادئاً

كالرعد.
لأوجعتُ بين احضاني المرتعشة
صومعةَ الأرضِ الهرمة.
واذا ما
اطلقتُ صوتي الهائل
بملء قوته،
إذن، لمدّتِ المذنباتُ إليّ أيديها الملتهبة
وتهاوتْ، وقد أمضّ بها الشوق.

*

لو انني كنت
معتماً
كالشمس
لقرضتُ باشعتي عينَ الليل.
شدّ ما يهمني
أن أسقي بتوهجي
رحمَ الارضِ الآخذَ بالهزال.

*

أعبرُ الشوارع
ساحباً حبي الهائل ورائي.
في مثل هذه الليلة
الهاذية

المتوعكة،
أيتسكع رجلٌ مثلي
وليدُ جبابرةٍ أَشداء،
ضخماً هذه الضخامة
وغير ضروريٍ لأحد؟

1916

ليـــــــلي*

مُمضّاً كان دخانُ تبغي المتكاثف.
الغرفة:
فصلٌ من جحيم كروجينيخ**.
تذكّري:
وراءَ هذه النافذة
لاول مرةٍ
مأخوذاً كنتُ اتلمس يديك.
وها انت جالسة اليوم

* ليلي بريك: صديقة الشاعر المعروفة. وقد توفيت في آب من عام 1978، أي عندما كان حسب الشيخ جعفر يعد هذه الترجمة للنشر (صدرت في بغداد عام 1979). وكان المترجم قد سأل عن ليلي في موسكو عام 1977، «ولم يكن الأصدقاء ليعرفوا عنها شيئاً»، كما كتب لاحقاً.

** «لهو في الجحيم» قصيدة طويلة كتبها الشاعران خلينبكوف وكروجينيخ.

وقلبك مُدرّعٌ بالحديد.

يوم آخر

وتطردينني،

ربما شاتمةً.

طويلا تحاولين ادخالَ يدكِ المرتعشةَ في كُمِّ الثوب

وقد تملّكك الاضطراب

في مدخلِ الصالةِ الكابي.

أفرُّ

ملقياً بنفسي الى الشارع.

متوحشاً

في نوبةِ جنون،

والخيبة تلسعني

لا ضرورة لهذا

يا عزيزتي

يا طَيبتي،

دعيني أودعك هذه اللحظة.

لا فرق

فحبي

يظل عبئاً ثقيلاً

مُعلّقاً على كتفيك

ولا مهربَ لك منه.

دعيني في صرخةٍ أخيرة
أنتزع كربةَ تأوهاتي المضامة.
فالثور إذا ما أهلكته المشقة
يمضي
وينطرح في المياه الباردة
غير حبكِ
لا بحرَ لدي،
وفي حبكِ لا راحةَ لمن يبكي متضرعاً إليك.
ملكاً على الرمال المحرقة يتمدّد الفيلُ المرهق
حين يبغي ساعةَ ارتياح.
غير حبك
لا شمسَ لديّ،
ولست عارفاً أين أنت أو مع مَن.
إن كنتِ قد أنهكتني طويلا
فأنا كشاعر
وددتُ لو استبدلتك بمالي وأمجادي.
فأنا
لا أجد فرحاً في أي رنين
غير رنينِ اسمكِ الغالي.
ولن أُلقي بنفسي من السلّم
ولن أتجّرعَ سما،

ولن أقدر أنْ أضغطَ زناداً على رسغي.
غير نظرتك
لا سلطان لشفرةِ أية سكّين
عليّ،
غداً ستنسين
أنني توجتكِ ملكةً.
وأحرقتُ في حبكِ روحي الزاهرة،
وأنّ كرنفال البهرجةِ المتصاعد
قد أبلى صفحاتِ أشعاري.
ترى هل باستطاعةِ أوراقِ كلماتي اليابسة
أن ترغمكِ على أن تتوقفي
منبهرةً بي؟
دعيني في الاقل
أفرش آخر رقّةٍ متبقيةٍ لديّ
تحت خطوتكِ المتباعدة.

1916

اسطورة بيتر بورغ الأخيرة

يقفُ الامبراطور بيتر الأول
مفكراً :

*سأقيمُ لي مأدُبةً في العراءِ الفسيح..**

وعن قربٍ

مع صيحاتِ السكارى

يُبنى فندق أستوريا.

*

يتلألأ الفندقُ الآن

مقدّماً غداء

بعد غداء.

وبغبطةٍ ينتزعُ الامبراطور نفسَهُ من الجرانيت

وينزل.

*ويتسلّلُ النحاسيون الثلاثة***

بهدوء

خشيةَ أن يُفزعوا مجلسَ الشيوخ.

*

السابلة تسعى خارجةً أو داخلة.

البواب يردُّ على الثلاثةِ تحيتَهم دون أن يحني رأسه قليلا.

أحدٌ ما

---

* «سأقيم لي مأدبة في العراء...» مقتبسة من قصيدة بوشكين الطويلة: «الفارس النحاسي» (المترجم).

** «النحاسيون الثلاثة»: يتكون التمثال من الامبراطور ممتطياً فرسه الواثبة وهي تدوس بحوافرها على ثعبان. عندما يقول الشاعر: يقف الامبراطور... فهو يقصد تمثاله (المترجم).

شاردَ الفكر

يطأ ذيل الثعبان دونَ قصد

ويرمي:

عفوا.

*

الامبراطور

والحصان والثعبان

وَفْقاً لقائمةِ الطعام

يُوصون على شرابِ غرينادين*.

ومن الشاربين والآكلين لم يلتفت أحد.

*

حين استيقظت في الحصان عادتُه القديمة

فراح يمضغُ حزمةً من أنابيبَ قَشّ الشراب،

في هذه اللحظة وحدها

تدافع الزبائن وقد هزتهم صيحة:

يمضغ!

والصائح يجهل من الضيوف.

يا له من قروي!

*

* «غرينادين»: من المرطبات الشائعة آنذاك، وكان يشرب من خلال عود من القش... كما هو ذائع الآن في تناول البونش وغيره (المترجم).

أطلق الخجلُ أرجلَ الحصانِ كإعصار
وقد ابيضّ عُرفُه من غازِ مصابيحِ الشارع.
وبدأَ الزعيقُ
على امتدادِ الضفةِ المرصوفة
يطاردُ أسطورةَ بيتربورغ الأخيرة
إلى مكانها.

*

ومرةً ثانية
يقفُ الامبراطور بلا صولجان،
الكآبةُ بادية على وجه الحصان
والثعبان تحت قوائمه.
ولا أحد يمكن أن يدركَ
كآبةَ بيتر الأسير،
المكبلِ في مدينته نفسِها.

1916

مزمار الفقرات*

نخبكن جميعا،

* حين طبع الجزء الأول من هذه القصيدة كان يحمل اهداءً إلى ليلي بريك. (المترجم).

يا من أعجبني أمس أو يعجبني اليوم
يا أيقوناتٍ مودعةً في كهفِ روحي،
أرفعُ جمجمتي المترعةَ بالقصائد
ككأسِ خمرٍ على مائدةِ شراب.

*

غالباً ما صرتُ افكر :
ألمْ يحنْ لي أن أجعلَ الرصاصة
نقطةَ ختامٍ لحياتي ؟
اليوم
ينبغي
أن أقيمَ حفلةَ موسيقاي الوداعية.

*

يا ذاكرتي
جمّعي في صالةِ دِماغي
صفوفَ حبيباتي التي لا تُعد.
لتنصبَّ الضحكةُ من عينٍ إلى عين
ولتكن أعراس الأمسِ زينةً لهذه الليلة،
ولتنسكب الغبطةُ من جسدٍ إلى جسد.
لتَظلَّ هذه الليلةُ ماثلةً في كلِ ذاكرة
اليومَ سأعزف على مزماري،
على عمودي الفقري نفسِه.

*

والسماءُ

وقد نسيتُ في الدخانِ المتلبّدِ أنها زرقاء،

والسحبُ الشبيهةُ بلاجئين في أطمارٍ رثة

سأقذفها بلهبٍ من حبي الأخير،

حبي الساطعِ كحمرةٍ في وجهِ مصدور.

*

وبالفرح سأغمر

عويلَ الشراذمِ المخصية

التي لم تعدّ تتذكر نعمةَ الراحةِ في البيت.

أيها البشر

اصغوا إليّ:

ازحفوا من خنادقكم

ولتكملوا حربكم فيما بعد.

*

وحتى

اذا ما احتدمت المعركة

مترنحةً من نشوة الدمِ كباخوس

فلن تبلى، في، أوجِها، كلمةُ الحب.

يا أعزائي الألمان!

إني لأعرف

أن على شفاهكم

يتردد غريتجن غوته.

*

والفرنسيُّ
يهوي والحرية في صدره
ويتحطم ملاّحُ الطائرةِ مصاباً برصاصة
ويموتان مبتسمين إذا ما تذكّرا
شفتيك المقبّلتين
يا غادة الكاميليا،

*

غيرَ أنني لستُ مبالياً بهذه الطراوة الوردية
التي علكتها السّنُون.
آنَ أن ينطرحَ العالمُ عندَ قدميك
فأنتِ من أُغني
يا شقرائي
المتبرجة.

*

حين تشيبُ القرونُ اللحى
ربما
لن يتبقّى
من هذه الأيامِ المريعةِ كأسنّةِ الحراب
غيرنا

نحن الاثنين،
وأنا أرمي بنفسي وراءك من مدينةٍ إلى مدينة.

*

سواء كنتِ مبعدةً وراء البحار
أو مختبئةً في وجرٍ تكتنفه الليلةُ المظلمة
فسأقبّلك خلال ضباب لندن
بشفاهٍ من نيرانِ المصابيح.

*

حين تقودين قوافلكِ في هجيرِ الفيافي
حيث الأسودُ آخذة حذرَها
فلأجلك
سأضع وجنتي المحترقة بوقدةِ الصحراء
تحت الغبارِ المتناهبِ بأكفّ الرياح.

*

أو حين تتأملين
واضعةً على شفتيك ابتسامةً :
يا لجمالِ مصارعِ الثيران،
فجأةً تجدينني
قاذفاً شرفاتِ المتفرجين
بالغيرةِ الملتهبةِ في مقلة الثور المحتضر.

*

وإذ ترتقين الجسرَ ساهيةَ الخطى
متفكرةً :
جميل أن أندفعَ إلى أسفل.
فأنا،
أنا السين المتدفّق تحت الجسر
مكشّراً عن أسناني النخرة.

*

وإذ تُلهبين في صحبةِ رجل آخر
متنزهَ ستريلكا او سوكولنيكي*
في نار من اندفاعةِ الخيولِ المتسابقة
فأنا من يتعلق عالياً
قمراً عاريا، وقد أنهكني الانتظار.

*

قويٌّ أنا
وهم بحاجةٍ لمثلي
فإذا أمروني :
(أهلكْ نفسك في الحرب..)
سيكونُ اسمك

* «ستريلكا وسوكولنيكي»: أماكن للنزهة تقع في ضواحي موسكو وبتروغراد أيضاً، والثاني من المنتزّهات الفسيحة الشهيرة في موسكو في وقتنا هذا، وكانت هذه الأماكن في الأصل غابات كبيرة بالقرب من العاصمة. (المترجم) .

آخر كلمةٍ
تتخثّرُ شفتي، وقد اقتطعتها القذيفة.

*

أأنتهي متوّجاً ؟
أم في جزيرة هيلانة؟*
مُسرجاً الموجةَ العاتيةَ، في عاصفةِ الزمن،
سأظل مرشّحاً متكافئاً
لعرشِ الكون
أو
لأغلال المنفى.

*

وإذا ما تعيّن لي أنْ أغدو قيصر
فسأرسم وجهكِ
على دراهمَ من ذهب الشمس،
وآمر شعبي:
هكذا لُتَسكّ نقودك،
وهناك
حيث يهزل العالمُ كقطيعٍ في السهوب القطبية
وحيث يساوم النهرُ الريحَ الشماليةَ

---

* «جزيرة هيلانة»: جزيرة في المحيط الأطلسي، حيث عاش نابليون آخر أعوامه منفياً إلى أن مات عام 1821. (المترجم) .

سأنقش اسمَ ليلي على سلسلةِ أغلالي
واقّبلُ حديدَها في ظلمةِ أشغالي الشاقة.

*

أصغوا إليَّ، إذن، يا من نسيتم أن السماءَ زرقاء
وكالوحوش صرتم
وقد انتفش شعرُ رؤوسكم،
لربما كان هذا
آخرَ حبٍ في العالم
قد أضرمته حمرةٌ في وجهِ مصدور.

*

سأنسى العامَ واليومَ والتاريخ
وسأغلق عليّ بابي منفرداً مع ورقةٍ بيضاء
وليبدع السحرُ الفائق
كلماتِه المتضوّأةَ بالآلام.

*

ما إن جئتكم اليوم
حتى أحسستُ
بأن الحال ليست كما ينبغي في البيت.
في ثوبك الحريري كنتِ تُخفين شيئاً ما،
وفي الغرفاتِ تنتشرُ رائحةُ بخور.
أفرحةٌ انتِ ؟

«جداً»

يا لها من كلمة باردة.

اضطرابٌ ما قد حطّمَ حاجزَ عقلك،

وأنا أكوّمُ يأسي ملتهبا، محموما.

*

اسمعي،

مهما تحاولي

فلن تُخفي الجثة.

أَنزلي كلمتكِ المرعبة كسيلٍ فوق رأسي

ما دامت

كلُ عضلةٍ من عضلاتِكِ

تصرخ

كما يُصرَخُ فيّ مكبّر صوت :

حبّنا مات، حبُّنا مات، حبُّنا مات!

لا،

اجيبي.

لا تكذبي.

ايمكن لمثلي أن يتراجع؟

عيناكِ قد اتسعتا في وجهكِ

كقبريْن فاغريْن

*

يزدادُ قبر عينيكِ عمقاً
وما من قرار.
يبدو لي
انني سأهوي من مِنصّةِ الأيام
وأمدُّ روحي حبلاً على الهاوية
فأتأرجح فوقها مشعوذاً بكلماتي.

*

أعرف
أن حُبّه قد تهرّأَ لديك.
فعلى وجهكِ أرى دلائل ضجرٍ عديدة.
استعيدي شبابكِ في توثّبِ روحي
وافتحي قلبكِ لعيدنا الجسدي.

*

أعرف أنهم لَينفقون عن سَعةٍ على المرأة.
لا ضير
إذا ما ألبستُكِ لفترةٍ
دخُانَ تبغي
وليس أبهةَ ثيابِ باريس.

*

ومثلما طوّفَ الحواري قديما
سأطّوفُ بحبي

عَبْرَ الف طريق.
إنَّ تاجاً في انتظارِكِ منذ قرون
وفي تاجِكِ هذا
قوسُ قزح من رعشاتِ قصائدي.

*

مثلما أتمّتِ الفيلةُ بألعابِها الفادحة
نصرَ بيروس*،
بخطوتي العبقرية قد هزمتُ عقلَك.
عبثا،
لا يمكنني انتزاعُك.

*

افرحي،
افرحي،
ها أنتِ قد أجهزتِ عليّ أخيرا.
والآن
أيةُ كآبة!
لا رغبةَ إلا أنْ أُسرعَ الخطى إلى القتال
وأغرق رأسي في تكشيرة مياهه.
كم أنت فظة بشفتيك هاتين!

---

* انتصر القيصر بيروس على الرومان عام 280 وكانت الفيلة المدربة عاملاً حاسماً في انتصاره (المترجم).

تمنحينني شفتيك
وما إن ألمسهما حتى أُحسّ بالبرد.
كما لو انني أُقبّلُ بشفتين تائبتين
حائطَ ديرٍ قُدَّ من صخرٍ بارد
*

الأبواب
في اصطفاق.
ويدخل هو
مرتوياً ببهجةِ الشوارع.
وأنا
كمن يتصدّعُ الى نصفين مُحْدثاً جلبة عالية.
أصرخ به :
حسناً!
سأذهب!
حسناَ!
أتركُها لك.
أغدقْ عليها بخرقك البالية،
لتترهل الأجنحةُ الخجلةُ تحت الحرير.
احذرْ أنْ تغيبَ عن عينكَ لحظةً،
وعلّقْ على جيد زوجتك هذه
عقودَ لآليك الثقيلة كالحجر.
*

آه

يا لهذه

الليلة !

شدّ ما صرتُ أُضيّق من حولي حبالَ يأسي.

من بكائي وقهقهتي

أمالَ الرعبُ سحنةَ الغرفة.

*

متعذباً

أمام تلك التي وهبتُها لغيري

أخرّ راكعاً على ركبتي.

إلى جانب رجل مثلي

يبدو الملك البيرت*،

وقد تخلّى عن مدائنهِ كلها،

سعيداً، مثقلاً بالهدايا.

*

امرحي ذهبيةً في ضوء شمسك أيتها الأزهار والأعشاب!

كوني ربيعاً يا حياةَ عناصرِ الطبيعة.

لا رغبة لي

---

* «الملك البيرت»: (1875 ـ 1934) ملك بلجيكا، في عام 1914 هاجمت المانيا الأراضي الفرنسية وكانت قد اجتاحت في طريقها المدن البلجيكية جيمعاً (المترجم).

إلا بسُمٍّ واحد
أن أشربَ
واشربَ قصائدي.

*

يا سارقةَ قلبي،
سالبةً كلَّ شيء منه،
يا هاجرةَ روحي
في هذيانِ أوجاعها،
يا غاليتي
تقبّلي هديتي هذه.
لربما
لن أبتكر لكِ شيئاً آخر.

*

ليأخذْ هذا اليوم من العام زينةَ الأعياد،
لِيبدعْ سحرِي الشبيهُ بالَصلْب
كلماتِه.
فكما ترون
ها أنا مُسمَّرٌ إلى الورقة
بمساميرِ الكلمات.

1915

غَيمة في بَنطلون*

فكركم
الحالمُ المتراخي على دماغِكم الطري
كخادمٍ آخذ بالترهلِ مستندٍ على متكأ متسخ،
سأُثيرهُ بمزقةِ القلبِ الدامية،
متهكماً منكم حتى الشبع
أنا السليط الجارح.

*

ما من شعرةٍ بيضاءَ واحدةٍ في روحي،
وخاليةٌ هي من رقّةِ الشيخوخة.
مدمراً العالمَ بقوةِ صوتي
أمضي جميلاً
في الثانيةِ والعشرين من عمري.

*

ايتها النفوس الرقيقة!

---

* عام 1913 كان مايكوفسكي عائداً من سراتوف في موسكو. ولكي يثبت نواياه الطيبة لمسافرة كانت معه في غرفة القطار قال لها: «ما أنا برجلٍ... أنا غيمة في بنطلون». وأدرك الشاعر لاحقاً أن لهذه العبارة وقعاً خاصاً، ومن الممكن إدخالها في قصيدة ما. وبعد سنتين حين أصرت الرقابة على تغيير عنوان القصيدة الأول: «الحواري الثالث عشر» جعل الشاعر عبارته هذه عنواناً لها. وقد أدخلها في ديباجة القصيدة قبل اعتراض الرقيب (المترجم).

حبكم تطوحونه على القياثر
والفظُّ يطرحه على الطبول.
لستم بقادرين، مثلي، أن تكشفوا أنفسكم عن آخرها
بحيث تبقى الشفاهُ وحدَها متحدثةً بلا انتهاء

*

هلموا لتتعلموا..
هي ذي موظفة رصينة في حلةٍ من التيلِ الرفيع
من غرفةِ استقبالِ الرابطةِ الملائكية.

*

تتصفّحُ الشفاهَ بهدوء
كما تتصفح الطاهية كتاباً في فن الطبخ.

*

أتريدونني
محض لحم متضورٍ هائج،
أم تريدون
أن أغدو سماويا، وقد غيّرتُ نبرتي،
رقيقاً لا عيبَ فيّ
ليس رجلا.. وإنما غيمة في بنطلون؟

*

لستُ مؤمناً بحدائقِ استجمامِ نِيتسا المزهرة.
ثانيةً يتمجّدُ بي

الرجالُ الممدون كمستشفى
والنساءُ الباليات كالمثلِ على الشفاه.

- 1 -

تظنون أنه هذيانُ ملاريا ؟
لقد حدثَ هذا،
حدثَ في اوديسا.

*

(أجيء في الرابعة) قالت ماريا.

*

الثامنة
التاسعة
العاشرة.
وها هو المساء
يغادرُ النوافذ
ليختلط بالرعبِ الليلي،
قاتماً
ديسمبريا.

*

الثُريّات

تقهقه، صاهلة، خلف ظهره الهرم.

*

ليس بإمكانكم أن تعرفوني الآن:
هيكلاً ضخماً كثيرَ العروق
يئن
ويتضور.
أي شيء، ترى تشتهيه هذه الكتلةُ الضخمة ؟
والكتلةُ تريدُ الكثير.

*

بيد أني ليس ضرورياً لي
أن أصبحَ برونزياً
أو بقلبٍ ليس غيرَ غُدَّةٍ باردة.
إنما أرغبُ أنْ أُخفي جَلجلتي
في شيءٍ ناعم،
شيءٍ أنثوي.

*

وها أنا
ضخماً أتقوسُ في النافذة
صاهراً بجبيني الزجاج
أيكون ثمة حب أم لا ؟
وأي حب ؟

أكبير أم ضئيل ؟
ومن أين يأتي لمثلِ هذا البدنِ حبٌّ كبير :
لا بدّ أنه حبٌّ صغير
وديع،
يتنحّى جانباً عن صغير الحافلات
راغباً بأجراسِ عرباتِ الخيول.

*

أكثرَ فأكثر
أغرقُ في المطر
دافناً وجهي في وجهه الأرقش،
منتظراً
ومن حولي يتطافر رعدُ المدينةِ المضطربة.

*

منتصفُ الليل، مندفعاً بسكين،
ها هو يُدركها
ويُجهز عليها
فتسقط
الساعةُ الثانيةَ عشرةَ
كما يسقط عن النطعِ رأسُ محكومٍ بالإعدام.

*

على الزجاج قطراتُ مطرٍ رمادية

تلتوي متضخمةً
متعاويةً
كما لو أن تماثيل كاتدرائية نوتردام الخرافية
آخذةٌ بالعواء

*

أيتها اللعينة !
وهذا أيضاً لا يكفي ؟
عما قريب ينفجر الغمُ بصرخة.

*

وأسمعُ :
هادئاً
كما يغادرُ المريضُ سريره
يثبُ العَصب.
وها هو :
في البَدء يتمشى
قليلا.. قليلا،
ثم يأخذ بالركض
مضطرباً
جليّاً .
وها هما اثنان آخران
يندفعان معَهُ اندفاعةَ رقصٍ متهور.

*

في الطابقِ الأرضي يتساقطُ الجصُّ على الارض.

*

هي ذي الأعصاب

كبيرةً

صغيرةً

عديدةً..

تعدو مخبولةً

وها هي، وقد أُنهِكتْ،

تتخاذلُ منها الرُّكَب.

*

والليلُ يتكاثفُ في الغرفة كالطحلب

فيصعب على العينِ المثقلة بكثافتهِ أن تنبسط.

*

فجأةً يتعالى صريرُ الأبواب

وكأنما الفندق

لا يستقرُّ عنده نابٌ على ناب.

*

وتدخلين

معتصرةً قفّازَكِ من جلدِ الغزال

وتقولين:

(أتدري؟

سأتزوج).

*

ليكن! تزوجي

لا بأس،

سأحتمل.

انظري إليّ كم انا هادئ!

هادئ كنبضِ

رجلٍ ميت.

*

أتذكرين؟

كنتِ تتحدثين:

(جاك لندن،

النقود،

الحب،

الرغبة..)

وكنتُ أرى شيئاً واحداً

هو أنكِ الجوكوندا

التي ينبغي أن تُسرق*.

*

---

* سُرقت الجيوكوندا (موناليزا) من اللوفر عام 1911 ثُمَّ عُثر عليها وأُعيدت إليه عام 1913 (المترجم).

وسرقوك.

*

ثانيةً اجدني خاسراً في لعبةِ الحب
مضيئاً منحنى حاجبيّ بالنار.
ليكن!
ففي المنزل الذي التهمته النيران
يجد المشردون، أحيانا، مأوى لهم.

*

(لديكَ من زمرّدِ الجنون
أقلَّ مما لدى الشحاذِ من كوبيكات) .
أتذكرون ؟ بومباي ؟
فهي التي هَلكت
حينما تحرشت بفيزوف.

*

أنتم
أيها السادة!
يا هواة
تدنيس المحرمات
والجرائم
والمجازر..
أرأيتم أكثرَ الأشياءِ فظاعةً

وجهي

عندما

أكون

هادئًا تماماً ؟

*

وأُحس

أنَّ أناي

لم تعد تكفيني.

إن شخصاً ما يحاول جهده أن ينفلتَ مني بعناد.

*

ألو!

من يتكلم؟

ماما؟

ماما!

*

إن ابنَك لمريضٌ مرضاً رائعا.

ماما!

إن لديه حريقاً في القلب.

خبّري أُخْتَيَّ ليودا و اولا

أنني لم أعدْ أجد مكاناً أستقر فيه.

كل كلمة

وحتى النكتة

التي أنفثها من فمي الملتهب

تنطلق كبغيّ عارية

تلقي بنفسها من ماخورٍ شبَّ فيه حريق.

*

الناس يتشممون..

ثمة رائحة شواء.

ويدرك بعضهم بعضا،

متألقين

معتمرين خوذا.

لا يجوز لبس الأحذيةِ العالية!

قولوا لرجال الإطفاء

أن يتسلقوا إلى قلبي المشتعل بشيء من حنان.

أنا نفسي.

بعينين دامعتين أحملق إلى الجانبين،

دعوني أتّكىء على الحافة.

ها أنا أنفلتُ، وأنفلتُ، وأنفلت..

وينهار كلُ شيء.

وأنت.. لا تنفلتين من قلبي.

*

على وجهي المحترق

من بين شفتيَّ المطبقتين
تنبُتُ قبلةٌ صغيرةٌ متفحمة، منتصبة أمامَ الأنظار.

*

ماما!
لم أعد قادراً على الغناء.
في القلب من الكنيسة يبتهل كورس المنشدين،
ومن الجمجمة
تخرج هياكلُ الأرقامِ والكلماتِ المحترقة
كأطفال يهربون من مبنىً ملتهب.
هكذا الرعبُ
شبَّ عالياً
بيدي لوزيتانيا المشتعلتين*
متشبّثاً بالسماء.

*

ثمة هالةُ حريق بمائة عينٍ تندفعُ من الأرصفة
في أوجه الناسِ المرتعدين
في هدوء الشفق.
أيتها الصرخة الأخيرة!

---

* «لوزيتانيا»: باخرة ركاب انكليزية تعرضت لضرب مميت من غواصة ألمانية، واحترقت في عرض البحر عام 1915 (المترجم).

دعي، في الاقل، أنينكِ متواصلاً لمئاتِ السنين
شاهداً على احتراقي هذا.

- 2 -

لأكن ممجَّداً عندكم،
أنا العظيم الذي لا ندَّ له.
إني لأضع فوق كل ما صُنع:
لا شيء!

*

أبداً
لا أُريد أن أقرأَ شيئا.
الكتب؟
مطلقا.

*

كنت أظن من قبلُ،
أنهم يكتبون مؤلفاتهم هكذا:
يجيء الشاعر
ويفتح شفتيه بسهولة
وسرعانَ ما يتغنى المغفلُ الملهم،
ولا شيءَ غير هذا.

لكن يبدو
أنهم قبل أن يبدأوا أغنيتهم.
يذرعون الغرفةَ طويلا، وقد استبدّ بهم التذمر،
وبهدوء تتخبّطُ في طحلب القلب
سمكةُ المخيلةِ البلهاء.
وريثما يسلقون، مصأصئين بالقوافي،
طبخةً ما من حبٍ وعنادل،
يتلوى الشارعُ دونما لسان
عاجزاً عن أن يصرخَ أو يتحدث.

*

ثانيةً نُعلي بفخر
أبراجَ المدنِ البابلية،
والآلهة
تهدمُ المدنَ على أبراجِها
وتعرقلُ
انبثاق الكلمة.

*

صامتاً ينوء الشارعُ تحت ثقل الألم،
والصرخةُ تقف منتصبةً خارجَ بلعومه.
وتتوقف متورطةً في عرض حنجرته.
التأكسياتُ المنتفخةُ والعرباتُ الهزيلة.

بأقدامهم أمضَّ العابرون صدرَه
وأُصيبَ بأسوأ سُل.

*

وبالظلمةِ أغلقتِ المدينةُ الطريق.

*

ومع هذا،
عندما
يتنخّم الزحمةَ في الساحة
مزيحاً طنفَ الكنيسةِ الزاحفَ على حنجرته،
يُظنُّ
أن الآلهةَ التي أُعتديَ عليها
تجيء في جوقٍ من الملائكةِ المترنمين
لتُنزل عقابها الصارم.

*

والشارع يزعقُ جالساً القرفصاء :
هلم بنا لنلتهم الوليمة.

*

وآل كروب* وأشباههم يضعون المكياج
على حاجبي المدينةِ المقطبين العابسين،
وملء فمها

---

* «آل كروب»: من الأسر الاحتكارية المعروفة (المترجم) .

تتعفن جثثُ الكلمات،

حيث لم يعُدْ يحيا غير كلمتين آخذتين بالترهل :

وغد،

وكلمة أخرى

يبدو أنها :

حساء الكرنب.

*

الشعراء

وقد ابتلوا تماماً ببكائهم ونشيجهم

تتقاذفهم الشوارع، مشعّثي الخصلات :

(كيف يمكننا التغنّي بمثل هاتين الكلمتين

عن الآنسةِ المرفهة

والحب

والزهرةِ المخضلةِ بالندى؟)

*

وخلف الشعراء

تُهْرَعُ حشود من ابناءِ الشوارع :

طلبة

ومومسات

ومتعهدون،

*

ايها السادة !

توقفوا.

لستم بشحاذين،

ليست لديكم الجرأةُ على طلَبِ الصدقات.

*

نحن الضخام الأشداء

بهذه الخطوةِ الواسعة

ليس لنا أن نصغي إليهم، علينا أن نمزقَهم

هم

من يلتصقون كالعلَق

ملحقاً مجانياً لجريدةٍ ما بكلِ سريرٍ يَسعُ اثنين.

*

أنتوسلُ بوداعةٍ لمثل هؤلاء :

أعينونا !

ونتضرعُ من أجل نشيد

أو مقطعٍ من اوراتوريا!*

ونحن لمبدعون في نشيدنا الملتهب،

نشيدِ المصانع الضاجّةِ والمختبرات.

*

ومالي ولفاوست

* «اوراتوريا»: نوع من المؤلفات الموسيقية، ذو طابع درامي (المترجم) .

بصاروخه الأسطوري
منزلقاً مع مغيستوفيل عَبْرَ باركيه* الأعالي.
أنا أدري
أن مسماراً في جزمتي
ليسبب من كوابيسَ ما لا يستطيعُه خيالُ غوته.

*

أنا
بفمي الذهبي، حيثُ
كل كلمة من كلماتي
تنفخُ الروحَ ثانيةً
وباسمها يتقدسُ الجسد،
أقول لكم:
إن أصغرَ ذرةٍ حية
أثمنُ من كلِ ما عملتُ أو سأعمل.

*

اسمعوا!
متمرّغاً متأوّهاً
يدعوكم إلى ملّته
زرادشت هذا العصرِ ذو الشفةِ الصارخة.
نحن

---

* «الباركيه»: صفائح خشبية تُغطّى بها أرضية الغرف (المترجم).

بوجهٍ كملاءةِ السرير المتراخية
وبشفاهٍ متدليةٍ كالثريات،
نحن
من قُضيَ عليهم بالاشغال الشاقة
في مدنٍ أشبهَ بمستشفياتِ البرص،
حيث الذهبُ والقذارةُ يقرّحان الجذام
نحن لأكثر صفاءً من زرقة البندقية
وقد اغتسلتْ تَوّاً في البحارِ والشموس.

*

بصقة على أنَّ
هومير واوفيد
لم يكتبا عن أناس من امثالنا :
أناس تتلبّدُ أوجههم بالسخام.
أنا أعرف
أن الشمسَ ستنطفىء لو تطلّعتْ مرةً
إلى معدنِ أرواحِنا الذهبي.

*

العروقُ والعضلاتُ أكثرُ صدقاً من تبتلاتكم.
أنحن من يلتمس الزمنَ متسولاً رحمته !
نحن
من يقبض كلُّ واحدٍ منا بكفّهِ

على أعنّةِ عجلةِ العوالم.

*

مثلُ هذا أفضى بنا إلى جُلجلةِ قاعاتِ المحاضرات
من بتروغراد وموسكو إلى كييف واوديسا.
ولم يكن ثمة أحد منهم
لم يصرخ :
(سمّروه،
سمّروه على الصليب) .

*

غير أنكم
أيها البشر
أنتم وأولئك الذين أساؤوا لي
أعزُّ عليَّ وأكثر قرباً من أي شيء،

*

أرأيتم
إلى الكلبِ وهو يلعقُ يده المحطمة ؟

*

أنا
من يُثيرُ قهقهةَ القبيلةِ المعاصرة
كنكتةٍ
فاحشةٍ طويلة،

أرى الآتي عَبْرَ جبالِ الأزمنة

وما من احدٍ غيري بقادرٍ على رؤيته.

*

حيث تتوقفُ أعينُ البشر قاصرةً،

مقترباً أراه، يتقدمُ قطعانه الجائعةَ،

مُتوّجاً بأكليلِ الثورةِ الشوكي

العام السادسَ عشر*.

*

ورائده بينكم

أنا.. حيث الألمُ في كل مكان،

على مجرى كل قطرةٍ دمعٍ

أُسمّر نفسي على الصليب.

فاتَ أوانُ الغفران،

وها أنا أُضرمُ ناري في كل نفسٍ أودعها

بذرةَ الرقة.

إنَّ هذا لأشد مشقةً

من أن تُحطّمَ ألفَا باستيل.

*

وحينما

---

* «العام السادس عشر»: كان الشاعر قد تنبّأ هُنا أن تنطلق الثورة الروسية عام 1916 و لم يخطئ إلا بعام واحد. فمن المعروف أنها انفجرت عام 1917 (المترجم).

تحلُّ ساعةُ مجيئه
فيدوّي مُعلناً عن فتنتهِ
هلمّوا اليَّ
أنا المنقذ..
وسأنتزع روحي
وأُشعلها
لأقدّمَها لكم
رايةً مخضبةً كبيرة.

- 3 -

آه، ولماذا هذا ؟
ومن أين،
في المرحِ الزاهي،
هذه القبضةُ التي تُلوّحُ متوعدةً، مُلوّثةً ؟

*

جاءتْ
وأسدلتُ من فوقي أحجبةَ اليأس
هذه الفكرةُ عن مستشفياتِ المجانين.

*

و

مثلما يحدُثُ ساعةَ هلاكِ البارحة،
حين يرتمون عَبْرَ الكَوّةِ الفاغرة
هرباً من التشنجاتِ الخانقة..
عَبْرَ عينيه
الممزقةِ حتى الصراخ
تسللَ بورليوك* فاقداً عقلَه..
خرج زاحفا،
وقد أوشكَ أن يُدمي أجفانَهُ الدامعة،
ثم نهض
ومضى،
وبرقةٍ غيرِ متوقّعةٍ من رجلٍ بدينٍ مثله
قال :
(حسنا).

*

حسناً حين تلتفُّ الروحُ ببلوز أصفر
فراراً من الأعينِ المتفحصة.
حسناً
حين يصرخُ

* «بورليوك»: شاعر روسي كان صديقاً لمايكوفسكي وأول من تنبّأ بعظمته كشاعر. كان من مؤسسي المستقبلية الروسية. وكان أعور. وقد التقى الصديقان في أمريكا، وكان مايكوفسكي زائراً. وكان الآخر قد هاجر إليها بعد الثورة. (المترجم) .

من يُلقى به بينَ أنيابِ منصةِ الإعدام :
(اشربوا كاكاو فان غوتينو).*

*

وهذه الثانية
البنغاليةُ
المدوية
لن أبدلَها بأي شيء
لن..

*

ووسط دخانِ السيجار،
في قدحِ الشرابِ العنبري
*يتمطط وجهُ سيفريانين**، وقد أهلكته الخمرة.*
كيف تتجرأُ أن تدعو نفسَكَ شاعراً؟
وأية زقزقةٍ لهذه السمانَى الرمادية؟
اليومَ

---

* «اشربوا كاكاو فان غوتينو»: تحدثت الصحافة آنذاك عن محكوم بالإعدام اتفقت معه إحدى مزارع الكاكاو أن يصرخ على منصة الموت داعياً إلى تناول الكاكاو التي تنتجه، وذلك لقاء مبلغ من المال يُقدّم لأسرته (المترجم).

** أُنتخب الشاعر سيفريانين، وكان شهيراً يومذاك، مرّة في حلقة من أصدقائه كملك للشعراء، وكان مايكوفسكي حاضراً فلم يعجبه الوضع. وقد غاظه هذا كثيراً. والحق أين هو سيفريانين اليوم؟ لم يعد إلا اسماً ضائعاً بين المئات من أسماء الشعراء المنسيين (المترجم).

ينبغي
أن نشقق جمجمةَ العالم
بمُديةِ البوكس.

*

أنتم
يا من تُقلقكم فكرةٌ واحدة :
(أأبدو رشيقاً في الرقص؟)
انظروا كيف أتسلّى
أنا
غشّاش القمار،
عشيق الخاطئة، طفيلي مائدتها البذيء،

*

بعيداً عنكم،
عن المتعفنين في حمأةِ عشقِهم
عمّن جرتْ دمعتهم
مئاتِ السنين،
أمضي أنا
واضعاً الشمسَ
نظارةً منفردةً على عيني ذاتِ الحملاقِ المتسع.

*

أرتدي ثيابي الغريبة

وأذرع الأرض
لأبعث الحب ولأحترق
وأمامي
أسوق نابليون بسلسلة صغيرةٍ ككلبةِ صالون،

*

يمدّدُ الأرضَ كأمرأة
يمزقها قطعاً لتستسلم..
ويعود كل شيء حيا.
وتلثغ شفتا المتكهن:
تساتسا تساتسا ..

*

فجأةً
هي ذي السحب
وأيُّ شيء غائم آخر
تُحدثُ في الأعالي فتنةً لا تُصَدق
وكأن حشوداً من شغيلة شهباء
تُعلنُ ثمةَ إضراباً عاصفَ الكراهية.

*

الرعدُ يسقُطُ وحشياً من بيتِ السحب
وبتحدٍّ يتمخّطُ من منخرين هائلين،
ولبرهةٍ يتصعّرُ وجهُ الاعالي

تصعيرةَ وجهِ بسمارك الحديدي الصارم

*

ويلوح أحدهم
متخبطاً في الطرق السحابية.
يمدّ ذراعيه نحو المقهى
كما لو بأنوثةٍ
أو برقّة..
وكما لو كان عربةَ مِدفع.

*

أتظنون
أنها الشمس
تربّتُ برقةٍ على خدّ القهى؟
إنه الجنرال غاليفه* آتٍ ثانيةً
ليطلق النارَ على المتمردين.

*

اخرجوا ايديكم من سراويلكم أيها المتنزهون
واقبضوا على أي حجر أو سكين أو قنبلة،
وإذا لم يكن عند أحدِكم يد

---

* «غالفيه»: جنرال فرنسي عُرف بقسوته الشديدة في ضرب عمال الكومونة في باريس عام 1871. (المترجم).

ليأتِ وليضربْ بجبهته.

*

ليتقدم كل جائع

كل ناضحٍ عرقاً

كل مستكين مُذَل،

كل متخثّرٍ في قذارةِ البراغيث.

*

هلمّوا

لنحتفل، مخضّبين الاثنين والثلاثاء

بالدم.

ولتتذكر الأرضُ تحتَ خفقِ المُدى

ابنها الذي أرادتْ أن تحتقره،

الأرضُ

الآخذة بالسمْنة

كالعشيقة التي تولّه بها روتشيلد.

*

لتتخافق الراياتُ في حُمّى لعلعةِ الرصاص.

ومثلما يحدُثُ في أي عيدٍ لا يُستهان به..

ارفعي عالياً يا أعمدةَ المصابيح

جثثَ تجارِ الحبوبِ ملطخةً بالدم.

*

يُمعنُ في شتائمه،

يستعطفُ متوسلاً،

يَذبحُ،

يتسلّل خلفَ أحدِهم

ويُنشبُ أنيابه في خاصرته.

*

في الأعالي أحمر كالمرسيليز

نافقاً يرتجف الغروب.

*

ها قد بدأَ الجنون.

*!

لن يحدُثَ ثمةَ شيء.

*

ويُقبلُ الليل،

يقطّعه بأسنانِه

ويلتهمه.

*

أترون

الأعالي وهي تأخذ ثانيةً هيئةَ يهوذا

بحفنةٍ من أنجمٍ تنضحُ خيانةً ؟

*

هي ذي!
وها هو مامايم* يُقيمُ وليمته
جاثماً بمؤخرتِهِ على المدينة.
بأعيننا
لن نشُقَّ ظلمةَ هذه الليلةِ السوداءِ مثلَ آزيف**.

*

مقشعرَّ البدنِ، أرمي بنفسي بقوةٍ في زاويةِ حانة،
وأغمرُ بالخمرةِ روحي وغطاءَ المائدة
وأرى:
في الزاوية ثمة عينان دائريتان،
هي العذراءُ تخترقُ قلبي بنظرةٍ من عينيها.

*

لَمْ يمنح حشدٌ في حانةٍ كهذه
هذه الإشراقةَ في نسخةٍ شائعةٍ غيرِ مُتقَنة؟
أترى؟
ها هم ثانيةً يؤثرون براباس

---

* «مامايم»: أقام قادة الجيوش التابعة لجنكيزخان وليمتهم عام 1223، محتفلين بانتصارٍ لهم، وقد اقتدعوا ألواحاً من خشب فوق أكوام من جثث القتلى. والشاعر يخطئ هنا حين يقرن هذا الحادث بماماي. ولم يكن هذا الخان من بينهم. وكان يُعرف بخان الجحفل الذهبي (المترجم).

** «آزيف»: عميل الشرطة القيصرية السرية، استطاع أن يتسلل إلى حركة الاشتراكيين الثوريين المتخفية. وشاع اسمه كرمز للخيانة (المترجم).

على مَن اُنتهَكَ دون ذنب في طريقِ الجلجلة

*

ربما، متعمّدا،
في الخليطِ البشري
كنتُ أبدو بوجهٍ ليس أكثرَ جدّةً من غيره.
ربما كنتُ
أنا
الأجملَ
بين ابنائك جميعا.

*

اعطهم
هم المتعفّنين في فرحهم،
موتاً أكثرَ سرعةً،
لِيصبحَ الأطفالُ، وقد ترعرعوا كما يجب،
الفتيان منهم آباءً
والبنات حبالى..

*

وامنحْ من يولدون حديثاً
نظرةَ السحرةِ الشيوخِ الثاقبة،
وسيُقبلون
ويُعمّدون ابناءهم

باسماء قصائدي.

*

أنا المتشبّب بالماكنةِ وانكلترة*

ربما كنتُ ببساطة

في أكثرِ الأناجيلِ اعتياديةً

الحواري الثالثَ عشر.

*

وحين أُثيرُ اشمئزازكم

ناعقا، مُقذعاً

من ساعةٍ إلى ساعةٍ

أياماً بأكملها،

ربما جاء في يسوع المسيح ليتنسّمَ

(لا تنسَني).. زهرةَ روحي الزرقاء.

- 4 -

ماريا! ماريا! ماريا!

دعيني أدخل يا ماريا.

---

* حين يذكر الشاعر أنه يتشبب بالماكنة وانكلترا فلم يعن بالطبع انكلترا الاستعمارية. وهو عدو البرجوازية اللدود. إنما كان يعني التقدم الصناعي بشكل عام. (المترجم).

لا أستطيع البقاءَ في الشوارع.
أترفضين ؟
تنتظرين
أن يهبطَ خدّاي كحفرتين
وقد جرّبتني النساء جميعا
وغدوتُ دون طعم،
وأجيءُ
أدردَ أُغمغم :
إنني اليوم نزيهُ
تماما .

*

ماريا،
أترين
ها قد بدأتُ أحدودب .

*

في الشوارع
يثقب الناسُ الشحَم بين أسنانهم ذاتِ الطوابقِ الأربعة
ويُبرزون أعينهم
وقد اُبتذلتْ أربعين عاما،
ضاحكين بشماتةٍ مني
لأنَّ ثمة بينَ أسناني

لمّا تنزل
كسرة يابسة من خبزِ ملاطفةِ الأمس.

*

أمطارُ الأرصفةِ آخذة بالانتحاب،
والبركُ قد أطبقتْ على المحتال،
جثة تلعقُ الشارع، مبتلةً محطمةً ببلاطة،
وعلي أهدابه الشائبة
نعم
على الأهداب المتجمدة
حبلُ دمعٍ يمتدّ جليدياً من أعين..
نعم
من أعينِ أنابيبِ تصريفِ المياه المطلةِ على الشارع.

*

وبوز المطر يلحسُ كلَّ سائر على قدميه،
وفي المركبات يلتمع كلُّ بدنٍ صلبٍ
صقيلاً جنبَ آخر مثلهِ
وتنفجر البطون
وقد أتخمتْ تماما..
فيتسرب الشحمُ من خلال الشقوق،
وكل طبخةٍ قديمةٍ من ضلع حيوان
تجري من المركبة
نهراً عكراً

مختلطةً بالأرغفة الملتهمَة.

*

ماريا!

كيف يمكننا أن نحشر عَبْرَ شحمِ آذانِهم المتراكم

كلمةً خافتة؟

الطيرُ

متسوّلاً باغنيتهِ

يترنم

جائعا، صادحا،

غير أني بشرٌ يا ماريا،

إنسانٌ عادي،

يبصقني الليلُ المصدورُ قطرةَ دمٍ

في قَبضةِ شارعِ بريسنا القذرة.

*

ماريا، أتريدين رجلاً كهذا؟

ماريا، دعيني أدخل.

إني لأشدُّ بأصابعي المتشنجة

على حنجرةِ الجرس الحديدية.

*

ماريا!

*

الشوارع مراقعُ جُنّت وحوشُها.

وعلى رقبتي المتسلخةِ أصابعُ الزحام.

*

افتحي!

*

لكم أتألم!

*

أترينها

في عيني منغرزة دبابيسُ قبعاتِ السيدات.

*

أخيراً دعتني أدخل.

*

أيتها الطفلة!

أخائفة أنت، وقد أبصرتِ بالنساء

على عنقي الشبيهِ بعنق ثور مخصي،

ببطونهن الناضجةِ عرقاً يجثمن جبلاً مبتلا!

اني لأشق دربي، منتشلاً معي

أكثر من مليونِ حبٍ بريءٍ هائل

وأكثرَ من مليونِ علاقةٍ غراميةٍ صغيرة قذرة.

لا تخافي

إذ ترينني ثانيةً

في جو الخيانةِ المتلّبد الممطر

ملتصقاً بآلافِ الوجوهِ الجميلة
من عاشقاتِ مايكوفسكي،
هي ذي السلالة الملكية
ترتقي إلى عرشها قلبَ شاعرٍ مجنون.

*

اقتربي أكثرَ يا ماريا.

*

سواء كنتِ عاريةً بلا حياء
أو مرتعدةً خوفا،
مَرّ بي مني فتنة شفتيك اللتين لم تُزهرا بعد،
أنا لم أعشْ وقلبي، مرة، حتى ازدهارِ آيار،
في حياتي التي أنفقتُها
لم يكن غير نيسان وقد تكرّرَ مائةَ مرة.

*

ماريا!
شاعرُ السوفيت يبعث بأغانيه إلى تيانا*،
وما أنا
إلا من لحم ودم،
إنسان بكل شيء في كياني:
أسألكِ عطاءك ببساطة

---

* «تيانا»: عنوان قصيدة للشاعر سيفر يانين. (المترجم).

مثلما يلتمس المسيحيون :
(أبانا أعطنا
خبزنا كفافنا ..)

*

اعطيني يا ماريا!

*

ماريا!
إني لأخاف أن انسى اسمكِ
كما يخافُ الشاعرُ ان ينسى
كلمةً ما
ولدتْ في عذاباتِ لياليه،
كلمةً متكافئةً بعظمتهِا مع الآلهة.

*

جسدُكِ
سأُحبه وأحافظُ عليه
كما يحافظ الجندي،
وقد قُطعتْ ساقه في الحرب
ولم يعُدْ ضرورياً
لأحد،
على ساقِه الوحيدةِ المتبقية.

*

ماريا !

ألست راغبةً ؟
لستِ راغبة.

*

ها!

*

إذن.. ثانيةً
قاتما، كسير الروح
آخذُ قلبي،
حافراً خنادقَ بدموعي،
واحمله
كما يحمل الكلبُ
الى خصّهِ
رجلَهُ
التي سحقها القِطار.

*

دمُ قلبي سيبعثُ الفرحةَ في الطريق
ويلتصقُ أزهاراً بغبار سترتي.
وسترقص الشمسُ ألفَ مرةٍ حول الأرض
كما رقصتْ هيروديدا*

---

* «هيروديدا»: لم تكن هيروديدا الملكة التي رقصت حول طبق يحمل رأس يوحنا المعمدان، وإنما ابنتها سالومي، غير أنها قد عملت جهدها لقطع رأسه. وكان يدينها علناً في زواجها الثاني من شقيق الزوج الأول. والشاعر لم يكن دقيقاً هنا. (المترجم) .

حول رأس المعمدان.

*

وحينما ترقص أعوامي

آخرَ رقصةٍ قُدّرتْ لي

سيمتدُّ أثرٌ بملايين من قطراتِ الدم

إلى منزلِ أبي.

*

زاحفاً اخرج،

قذراً من النومِ في القنوات..

*

دعوني

*

لن توقفوني.

سواء كنتُ كاذباً

أم مُحقّاً

فما أنا بقادرٍ أن أكونَ أكثرَ هدوءا.

انظروا :

ثانيةً يُقطّعون أعناقَ النجوم

ويلطّخون السماءَ بدماءِ المجزرة.

*

أنتِ !

أيتها الأعالي

ارفعي قبعتك..

فإنني أسير.

*

صماءُ، قفراء .

*

الكونُ يغفو غارقاً في النوم

واضعاً على كفهِ

أُذنَهُ الضخمةَ مُنقّطةً بقرادِ النجوم.

1914 - 1915

أنّا أخماتوفا

(1889 - 1966)

قصائد مختارة

مقدمة

إننا نسيء إلى سافو كلما اعتبرنا
ربات الشعر تسعاً لا غير.
ينبغي أن نعدها ربة الشعر العاشرة.
أفلاطون

أحاول في بداية هذه الكلمة أن أنقل أهم ما كتبته الشاعرة أخماتوفا في آخر سيرة شخصية لها. وهي سيرة قصيرة في أقل من خمس صفحات. ولم تقف الشاعرة في هذا إلا عند منعطفات معروفة تقريباً. أي أين ولدت؟ وأين درست؟ وأي كتب نشرت؟ بل إنها تطفر مرحلة زمنية مهمة لا تقل عن عشرين عاماً.. أي منذ 1921 حتى الحرب الثانية لتمرَّ، بعدها، مروراً عبر عشرين سنة أخرى من عمرها الطويل، دون توقف مهم. وهي لم تذكر أيضاً أي شيء مهم عن تجاربها الشعرية الأخيرة إلا ما يذكر بها. وبالطبع فإن لغربتها الداخلية ظلاً ينسحب فوق هذا كله. لقد عاشت هذه الشاعرة غربتين رهيبتين: غربة الفكر وغربة الزمن. منذ 1922 تقريباً حتى 1940 لم تنشر إلا مجموعة من قصائد مختارة. وفي 1943 نشرت في طشقند مختارات من شعرها أيضاً. وبين 1961 و1965 ظهرت لها مجموعتان من المختارات والقصائد الجديدة.

إن غربتها الفكرية في كونها شاعرة من أفق قضي عليه أن يغلق إلى الأبد. وهي أيضاً، بمعنى غير بعيد، غربتها الزمنية. منذ أخريات الثلاثينات أو ما قبلها وهي تعيش كالشبح المنفي. إنها في عالم غير عالمها الروحي.. وبالرغم من أنها كانت في الأوج من التدفق الوطني ضد العدو النازي الغازي.. فقد تعرضت عام 1946، بعد الانتصار الحاسم على القوى النازية الوحشية المعتدية، لحملة انتقادية إعلامية تتهمها بالتشاؤم وبالفردية.. أو ما يدعى بالأدب المنحط. ومع هذا كله ظلت الشاعرة أمينة لقيمها الجمالية، ونظرتها الفنية العالية.

ولدت أنّا أخماتوفا قرب أوديسا على البحر الأسود عام 1889. (لقبها الحقيقي غورينكو، وأخماتوفا هو لقب جدتها التترية، وقد اتخذته الشاعرة إسماً أدبياً لها..)، انتقلت الأسرة إلى الشمال، وهي لما تزل طفلة، وأقامت في تسارسكوي سيلو في ضواحي العاصمة بيتربورغ .. حيث عاشت حتى السادسة عشرة من عمرها. وكان لهذه الضاحية، بحدائقها الخضراء الرائعة، صيفاً، الرطبة، الخافقة بظلال بوشكين وعصره، اصداء واخيلة تظل تتموج في نفسها الشاعرة حتى آخر أيامها. خلال هذه المرحلة كانت الأسرة تقضي في سيفاستوبل على البحر الأسود إجازة الصيف. كتبت الشاعرة أولى محاولاتها الشعرية وهي في الحادية عشرة. كانت القطيعة بين والديها عام 1905 فانتقلت مع أمها وأخوتها إلى الجنوب. في كييف، بعد انتهائها من الثانوية عام 1907، دخلت كلية الحقوق. ثم تزوجت عام 1910 من الشاعر غومليوف. وارتحلا لقضاء شهر في باريس. وفي هذه السنة

نفسها كانت الرمزية، كما تقول الشاعرة وجماعتها، في أزمة فنية. فلم يجد الشعراء المبتدئون رغبة في الإنضمام إليها. اتجه بعضهم إلى المستقبلية فيما اتجه غيرهم إلى الأكمييزم «الذروة»! وكانت أخما توفا مع هذا الاتجاه الأدبي تمشياً مع أصدقائها من الشعراء.

عاشت الشاعرة ربيع 1911 في باريس حيث شهدت أول نجاح للباليت الروسي في أوربا. وكانت عام 1912 في شمال إيطاليا (جنو، بيزا، فلورنتسا، فينيسيا) وكان الفن الإيطالي، صوراً ونحتاً ومعماراً، أشبه بحلم ظل يرافقها طوال حياتها كما تقول الشاعرة. عام 1912 نشرت لها أول مجموعة شعرية: «أمسية».. ولم يطبع منها غير ثلاثمائة نسخة. وقد لقيت من الحركة النقدية ترحاباً وقبولاً. وفي هذه السنة أيضاً ولد ابنها الوحيد ليف. في مارس 1914 نشرت مجموعتها الثانية «مسبحة». ثم كانت الحرب الكونية الأولى .. عام 1917 ظهرت مجموعتها الثالثة «السرب الأبيض» ولم يكن تلقّي النقد والقراء عادلاً لها كما تؤكد الشاعرة. ويبدو أن للأحداث العاصفة ما لها من تغطية وتعتيم حول انجاز شعري شاء القدر أن يولد فيما بينها. بعد ثورة أكتوبر عام 1917 عملت الشاعرة في مكتبة المعهد الزراعي. عام 1921 ظهرت مجموعتها «مزمار الراعي».. وفي عام 1922 ظهرت مجموعة أخرى (وهي آخر مجموعة حتى الأربعينات) «في الصيف الإلهي».. بعدها انصرفت الشاعرة لدراسة بوشكين والتأمل في معمار بيتربورغ القديمة. عام 1941 عاشت جانباً من حصار لينينغراد حيث كانت تقيم منذ البداية وعملت كأي مواطن آخر في الحراسة الليلية،

خاصة في المواضع المقاومة لطيران العدو الألماني. وفي العام نفسه انتقلت بالطائرة إلى موسكو.. ثم إلى طشقند. وعادت في ربيع 1944 إلى موسكو.. وانتقلت منها إلى لينينغراد، حيث قضت أغلب وقتها في ترجمة الشعر الشرقي خاصة. ولم تزل تترجم حتى آخر سنة من حياتها. ولم تكن، بالطبع، منقطعة عن الكتابة الشعرية أو دراستها عن بوشكين. ثم أنهت عام 1962 قصيدتها الطويلة «ملحمة بلا بطل» وقد بدأت بها منذ عام 1940. دعيت إلى إيطاليا عام 1964 حيث منحت جائزة اتنو تاورمينو تقديراً لها كأحد أبرز الوجوه الشعرية في القرن العشرين. ودعيت عام 1965 إلى انكلترا لتمنح شهادة الدكتوراة الأدبية في جامعة أكسفورد.

كانت أنّاأخماتوفا أجمل إمرأة في زمنها. وقد كتب الشعراء، آنذاك، قصائد عديدة عنها.. نشرت، فيما بعد، في مجموعة تحت عنوان «صورة أخما توفا» عام 1925. كما عمل الفنانون صوراً عديدة لها. من هؤلاء الرسامين: مودلياني، ألتمان، فودكين، انينكوف، سارايان. ومن الموسيقيين من جعل من قصائدها أعمالاً موسيقية: بروكوفييف، لوريا، فيرتينسكي ..

بالرغم من أنها كانت في بدايتها ضمن حركة الأكمييزم .. إلا أنها كانت أقرب إلى بوشكين والقرن التاسع عشر عامة .. فناً وتقاليد. كان بوشكين حبها الشعري الأعظم.

لم تكن الأكمييزم إلا اتجاهاً أدبياً عابراً .. سريعاً ما توارى مع دخان أكتوبر بعد سبع سنوات من نشأته تقريباً. ولم يكن انضمام هذه الشاعرة

إليه إلا صحبة لأصدقائها. كان أول بيان للأكمييزم (وهي حلقة غير كبيرة) في مجلة «أبولون» عام 1913. واسمها مأخوذ من الكلمة اليونانية القديمة «أكمي» أي الذروة. وكانوا يدّعون السعي إلى الكمال الفني، إلى ذرى الفن الشعري. وحاولوا أن يجعلوا من أنفسهم بديلاً عن الحركة الرمزية، وكانت في أزمتها الفنية الأخيرة كما حاول خصومها أن يظهروها. وقد اتهموها بإضاعة قواها في التغريب والصوفية. ودعوا إلى تصوير العالم، كما هو، حياً، فانياً، بهيجاً، ملوناً ومدوياً .. بعيداً عن الضبابية والغموض وانسيابية الكلمة. غير أن تطرفهم الفني اندفع بهم بعيداً عن الحياة الواقعية، فكان الإدعاء «الشمولي» غالباً على تصوراتهم. وقد رأى بروسوف في هذه الحركة «نبتة في جو مكيف».

وبعيداً عن الأكمييزم وادعائها «القممي» كانت أخما توفا شاعرة القلب الإنساني في اعترافاته وأشجانه وقصته. أخما توفا هي شاعرة الحب أولاً. ولعل السبب الأهم في بقائها الشعري هو موسيقى القلب الأبدية، وغموضها الشبيه بالعاصفة الثلجية كما يقول الناقد المعاصر بافلوفسكي.

وغالباً ما يشير دارسوها إلى واقعيتها المختزلة. إنها، كما في الرسوم اليابانية مثلاً، لن تصور من الجبل إلا القمة والسفح. وعلى باصرة القارىء أن تملأ الفراغ في اللوحة. وينبغي هنا أن نتذكر، كما يقول بافلوفسكي، أن الفن الشرقي كان شائعاً في بدايات القرن .. في الرسم والنحت والعمارة والموسيقى. وهذا ما يؤكده فناننا توفيق الحكيم في «زهرة العمر».. في إشاراته العميقة عن الفن في المرحلة نفسها .. صور

موديلياني أخماتوفا، مرة، في رداء ملكة مصرية قديمة. ولم يكن رداؤها هذا، فيما أظن، تشبهاً عابراً. من الطريف أن أذكر، هنا، أن لأخما توفا ترجمات عديدة عن الشعر المصري القديم.. ظهرت عام 1965، قبل وفاة الشاعرة بسنة تقريباً، تحت عنوان «الشعر الغنائي المصري القديم».. إضافة إلى ترجماتها الأخرى : الشعر الكوري الكلاسيكي (1956) ، أصوات الشعراء .. «أشعار أجنبية» (1965) .

أشعار الشرق القديم (1969) «بعد وفاة الشاعرة» .. مع هذا كله لم تكن أخماتوفا، حتى آخر أيامها، إلا شاعرة من عصر آخر .. عصر لم يعد إلا أصداء وظلالاً في مخيلة قوية تجوب ساحات الماضي وطرقاته. غالباً ما تنسحب الشاعرة إلى ممرات ذاكرتها المتشحة بأطياف الموتى.. بل تسامرهم حول مائدة شبحية في ليلة عيد. إن «واقعيتها» هي الماضي حياً، منبعثاً أينما تتجه. ولربما لن نجد في الشعر الروسي روحاً ممتلئة كروحها بظلال الزمن الغابرة وأنفاسه. وبالرغم من اختناقها فهي روح صافية، روح وضيئة، شفيفة. أهو سر من أسرار القلب الإنساني، يظل دافقاً كالينابيع في أعماق الصخور؟. ولعل قوتها الشعرية كامنة هنا .. في حيوية الماضي وتجسده .. حتى ليكاد يكون بديلاً عن ضجة الحياة الدنيوية اليومية. ومن الجائز، كما يبدو لي، أن نقول: إن بعضاً من خلاصها الروحي في استعادة الماضي هذه. فأية وحدة مظلمة رهيبة كانت ستطبق حولها لو لم تقم حفلاتها الروحية الخاصة؟ حيث يحل الماضي الطيفي، الظلالي محاوراً ومعاتباً؟

في آخر هذه الكلمة القصيرة أود أن أنقل أبياتاً من قصيدة كتبتها

الشاعرة مارينا تسفيتايفا إلى أخماتوفا .. ولعل فيها ما يعبر أروع تعبير عن هذه الروح الشعرية الهائمة :

يا ربة البكاء، أيتها الأجمل بين ربات القصيد !
أنت يا وليدة الليلة البيضاء الطائشة
تبعثين بزوبعتك الثلجية فوق سهوبنا
فتنغرز فينا صيحاتك النائحة كالسهام،
فنجفل مطلقين آهة خافتة ..
ونقسم ألف مرة لك يا أنا
أخماتوفا ! اسمك هذا حسرة هائلة
تسقط في أعماق لا إسم لها .

حسب الشيخ جعفر
بغداد ـ 1986/1/14

القصـــائد

* لم أضع القصائد حسب تاريخ كتابتها... بل وضعتها كما هي مرتبة، تقريباً، في آخر طبعة لديّ من أعمال الشاعرة (المترجم) .

«أُتْرِعَ المُتَنَزّه...»

إلى فيرا *

أُتْرِعَ المتنزهُ بالضباب الخفيف
واشتعل الغاز فوق أبوابه.
أنا لا أتذكر غير نظرة واحدة،
نظرة عينين هادئتين لا تدريان.

*

إن حزنك الخبيء عن الأخرين
سريعاً ما أمسى قريباً مني،
وأدركتِ أنتِ أية كآبةٍ سامةٍ، خانقة
في أعماقي.

*

أنا أحب هذا النهار باحتفاء
وسأجيء إليكِ حالما تنادين.
لا أحد عداكِ غير لائم لي،
أنا الخاطئة، المتعطلة.

1911

---

* «فيرا»: ابنة صديقة لها (المترجم) .

حديقـــة

كانت الحديقة المتجلدة كلها
في خشخشةٍ وتألُّق.
لا طريق عودة لك يا مفارقي
الكئيب.

*

إن وجه الشمس الشاحب الباهت
نافذة دائرية لا غير.
أنا أعرف خفيةً
أي صنو لاصق بك منذ زمن بعيد.

*

إنني لاهجس أية كارثة
ستفقدني إلى الأبد راحة البال.
عبر الجليد النحيل
لما تزل تتراءى آثار الأمس.

*

إن الوجه الباهت الميت
ينحدر فوق رقاد الحقول الأخرس.
وبعيداً يتلاشى
زعيق الغرانيق المتأخرة.

1911

نزهـــة

كانت ريشة قبعتي
تمسُّ غطاء العربة، وأنا أحدّق بعينيه.
وكان قلبي متألماً
غيرَ دارٍ أيَّ سبب لتعاسته.

*

كان الغروب هادئاً، مكبّلاً بكآبته
تحت قبّة السماء الغائمة،
وكأن غابة بولونيا
مرسومة بالحبر الصيني.

*

ثمة رائحة بنزين وليلكٍ
والسكون يتيقّظ.
وثانية كان يلمس ركبتي
بيدٍ غير مرتجفة تقريبا.

1913

في المســـاء

تتعالى الموسيقى في الحديقة
مدوّية بفادحة غامضة.

المحار، لاذعاً طازجاً، في جليد انيته
يفوح برائحة البحر.

*

كان يقول لي: «أنا صديقٌ وفيٌّ!»
ويلمس لي ردائي.
كم هي غريبة عن المعانقة
ملامسة الأيدي هذه!

*

هكذا تلاطف القطط والطيور.
هكذا ينظرون إلى راكبات الخيل الرشيقات..
لا شيء غير الضحك في عينيه الهادئتين
تحت ذهب اهدابهما الخفيف.

*

وأنغام الكمانات النائحة
ترتفع عَبْرَ الدخان المنبسط.
«لتباركِكِ السماء.
لأول مرة وحدكِ مع حبيبك».

1913

«ما نحن كُلّنا...»

ما نحن كُلّنا غير نساء ضالّة وسكّيرين
لا فرحَ في لقائنا هذا.
على الحوائط يتشوّق الطير والزهور
في لهفة إلى الغيوم.

*

أنت تدخن غليونك الأسود
والدخان يُرى فوقه في غرابة.
وأنا أرتدي تنورة ضيقة
لأبدو أكثر رشاقة.
الكُوى مسدودة أبدا.
أي شيء هناك.. زوبعة؟ صقيع؟
وعيناك
أشبه بعيني الهرة الحذرتين.

*

آه.. أية كآبة في قلبي!
أتراني منتظرة ساعة الموت؟
وتلك الأخرى الراقصة في هذه اللحظة
ستكون في جهنّم حتماً.

1913

«يطيب لي...»

يطيب لي، بعد الرياح والصقيع،
أن اتدفأ قرب النار.
غافلة كنت عن قلبي هناك
فسرقوه مني.

*

جليلاً يتطاول عيد رأس السنة،
وندية لما تزل سويقات الورود،
ولم تعد تسمع في صدري
خفقات اليعاسيب.

*

آه.. ليس صعباً أن أحزر من هو اللص
فلقد عرفته من عيونه.
لكن ما يرعبني أنه قريبا، قريباً
سيعيد فريسته بنفسه.

1914

«وعلى درجات المدخل»

.. وعلى درجات المدخل

لم يخرج أحدٌ للقائي بمصباح.
فدخلت المنزل الهادئ
في ضوء قمر لا يعتمد عليه.

*

تحت القنديل الأخضر
بابتسامة غير حيّة
همس صديق لي :
«سندريلا ! كم يبدو صوتك غريباً!»

*

كان اللهب يخبو في الموقد
والجديد يصرُّ منهكا.
أواه ! أخذ أحدهم للذكرى
حذائي الأبيض.

*

وأعطاني ثلاث قرنفلات
غير رافع عينيه.
أين تُرى أخبئك
أيتها الأدلة الحبيبة؟

*

أية مرارة أن يتيقن الفؤاد
أننا لمفترقان قريباً، قريبا،

وأنه سيجرب حذائي الأبيض
على أقدامهن جميعاً.

1913

«عيناني...»

عيناي، بالرغم مني، تسألان المغفرة.
أي شيء يمكنني معهما،
حين يُتلفظ بالقرب مني
باسمه القصير الرنان؟

*

في ممشى الحقل
أسير حيال الجذوع الرمادية المرتبة.
هنا الرياح تهب خفيفة، طازجة
متقطعة كما في الربيع.

*

وقلبي الفاتر
يسمع نبأ خفياً عن القصيّ البعيد.
أنا أدري: أنه حي، وأنه يتنفس
ويجرؤ أن يكون غير حزين.

1912

«لن تُخْلَطَ الرقة...»

لن تُخلطَ الرقةُ الخالصة
مع أي شيء. إنها هادئة.
عبثاً تضع الفراء بحرص
فوق كتفي وصدري.
وعبثاً كلماتك الوديعة هذه
عن الحب الأول.
إنني لأعرف جيداً هذه النظراتِ المثابرة،
غير الشبعى.

1913

«طوال اللّيل»

طوال اللّيل لم يتركونا ننام،
متكلمين بقلق وحدّة.
مضى أحدهم في طريق بعيد
حاملاً طفلاً مريضاً معه.
الأم في المدخل شبه المظلم
تعتصر أصابعها الناحلة،
باحثة طويلاً في الظلام

عن قلنسوة نظيفة لها، وعن غطاء.

1909

«لديَّ ابتسامةٌ واحدة»

لديَّ ابتسامةٌ واحدة :
حركةُ شفتين لا تكاد تُرى.
سأحتفظ بها لك،
فمانحها هو الحب نفسه.

*

لا أعبأ بشرّك ووقاحتك،
لا اعبأ بأن تحب الأخريات.
إن أمامي طاولة ايقونتي الذهبية،
ومعي خطيبي الرمادي العينين.

1913

إلى سولوغوب*

فوق العالم الهادئ يتعالى صداح مزمارك
فيترجّع صوت الموت متجاوباً في خفاء،

* «سولوغوب» (1836 ـ 1927): من شعراء الرمزية الأوائل (المترجم).

وأنا، متلهفة، مستلبة الإرادة أصغي
سكرى قسوتك العذبة.

1912

«مرحباً»

مرحباً ! أتسمع هذا الحفيف الخفيف
عن يمين مكتبك؟
لن تكمل كتابة هذه السطور،
فلقد جئت إليك.
ترى أتسيء إلي
كما في المرة الماضية،
وتقول إنك لا ترى يدي،
يدي وعيني ؟
هنا أجد المكان وضيئاً، بسيطاً عندك.
فلا تطردني إلى هناك،
حيث تتجمّد المياه القذرة
تحت قبّة الجسر الخانقة.

1913

«إنَّ لكلِّ يوم قلقه الجديد»

إن لكل يوم قلقه الجديد،
ورائحة الجودار الناضج تشتد قوة.
ما دام مقدراً لك أن تنحني على قدميّ
فانطرح أيها الحلو.

*

في الاسفندان العريض تصرخ الصفارية،
لا شيء يسكتها حتى الليل.
يحلو لي أن أطرد الزنابير المرحة
عن عينيك الخضراوين.

*

رنين جلاجل في الطريق :
ما هذا بالنغم الغريب علينا.
سأغني لك، كيلا تبكي،
أغنيةً عن أمسية الفراق.

1913

صوت الذاكرة

أي شيء ترين على الحائط، بهذه النظرة الذابلة،

في ساعة الغسق المتأخرة؟
أَنَوْرَساً فوق سماط الماء الأزرق،
أم حدائق فلورنتسا؟
أم هو متنزه الضاحية القيصرية الهائل،
حيث اجتاز القلق طريقه إليك؟
أم أنك ترينه عند ركبيتك
ذلك الذي هجر أَسرَكِ لأجل الموت الأبيض؟
كلا. أنا لا أدري غير الحائط، وعليه
انعكاسة نيران السماء المنطفئة.

1913

أرق

تموء القطط متشكيةً في مكان ما،
وأنا أتصيد وقع خطى نائية..
إنك لتهدهد جيداً بكلماتك:
هو ذا شهر ثالث وأنا بفعلها لا أنام.

*

ثانية معي أنت، ثانية أيها الأرق!
أنا أعرف وجهك الجامد هذا.
ماذا فعلت لك أيها الأرق الجميل، يا زوجاً غير شرعي؟

أكان غنائي سيّئاً عنك؟

*

على النوافذ قماش أبيض مُسدل،
والعتمة انصباب أزرق..
أم أن مبعث عزائنا هذا نبأٌ من بعيد؟
فلماذا هذا الارتياح كله معك؟

1912

«أنت تعلم»

أنت تعلم أية شقيةٍ، مكبّلة أنا،
أتضرّع إلى اللّه أن يميتني.
غير أنني أتذكر، حتى الوجع، كلّ شيء
عن أرضٍ تغيرَ الشحيحة :

*

طائر الغرنيق عند البئر المنهدمة
والسحبَ من فوقه كزبد الغليان الأبيض،
صريرَ الماكنةِ في الحقول
ورائحة القمم، والكآبة،

*

وتلك الجهاتِ الفسيحة الباهتة،

حيث الريح نفسها خافتةً تمر،
ونساء القرية الهادئات، الملوّحات،
يلقين عليَّ نظراتِ استنكار.

1913

«لا تكمش رسالتي»

لا تكمش رسالتي يا صديقي
بل اقرأها حتى آخر كلمة.
أضجرَني أن أكون غريبة،
أجنبية في طريقك.

*

لا تنظر هكذا مقطباً، غاضبا،
أنا حبيبتك، أنا لك.
لست راعيةً. لست ابنة ملك.
وما أنا، بعد بالراهبة..

*

في هذا الرداء الرمادي الاعتيادي
وبكعبين باليين.
فأنا، كما عهدت، مُحرقة في عناقي
وبذلك الرعب في عينيَّ الكبيرتين.

*

لا تكمش رسالتي يا صديقي،
لا تبكِ كذبةً مكنونة.
بل ضعها في حقيبة سفرك الفقيرة،
في القاع نفسه منها.

1912

ضيف

كل شيء مثلما كان: في نوافذ غرفة الطعام
يلتطم ثلج الزوبعة الناعم،
وأنا نفسي لم أزل مثلما كنت،
إنما هو رجل قادم إلي.

*

سألتْ: «ماذا تريد؟»
قال : «أن أكون معكِ في الجحيم»
فضحكتْ: «آه، إنك تتكهن
بكارثةٍ لنا نحن الإثنين»

*

غير أنه رفع يداً جافة
ومسَّ الزهور مساً خفيفاً :
«حدثيني كيف يقبّلك الآخرون.

حدثيني كيف تقبّلينهم أنت»

*

ولم يرفع عينيه المحدقتين بذبول

عن خاتمي.

ولم تتحرك عضلة واحدة

في وجهه الحاقد الجلي.

*

آه، أنا أعرف أية متعة له :

أن يعرف برغبة واهتمام

ألاّ حاجة به لأي شيء

وأنني لا أرفض طلباً له.

1914

«جئت أزور الشاعر»

إلى ألكساندر بلوك

جئت أزور الشاعر.

في منتصف النهار تماماً. كان يوم أحد.

كانت الغرفة الواسعة هادئةً،

وعَبْرَ النوافذ كان الصقيع

*

والشمس قرمزيةً.
فوق الدخان الأزرق المشعّث.
كم يبدو مضيفي صامتاً
ناظراً إليّ بوضوح.

*

إن له عينين
ينبغي أن يتذكرهما كل إنسان.
فَيَحْسن بي، أنا الحذرة،
ألا أتطلع إليهما.

*

إنما سأتذكر حديثنا
ودخان الظهيرة، والأحد
والمنزل الرمادي المرتفع
عند أرصفة النيفا البحرية.

1914

«ظننّا أننا مدقعون»

ظننّا أننا مدقعون، لا شيء لدينا
وقد افتقدنا الشيء بعد الآخر.
فأمسى كل يوم يمر

يوماً جنائزيا.
فأخذنا ننظم الأغاني
عن العطاء الإلهي العظيم
وعن تراثنا القديم.

1915

«أتغفر لي...»

أتغفر لي هذه الأيام التشرينية القاتمة؟
في الأقنية، عند النيفا، ترتعش النيران.
زهيدة هي الزينة في الخريف التراجيدي.

1913

«سأترك بيتك الأبيض»

سأترك بيتك الأبيض وحديقتك الهادئة
وستصبح الحياة مقفرةً وضيئة.
سأعلي من شأنك في قصائدي
كما لم تستطع امرأة هذا.
وستتذكر الصديقة العزيزة
في جنةٍ أقمتها من أجل عينيها،

وسأتاجر برقتك وحبك

في سوق البضاعة النادرة.

1913

«كان في استطاعتي»

كان في استطاعتي أن أفعل هذا الأمر أو ذاك،

لكنني انطرحت كالبتولا في حقلها،

لا شيء من حولي غير الضباب الشائب.

1960

وحـــدة

لكثرة ما رُميتُ بأحجارهم

لم أعد أخشى أياً منها.

وغدا الفخ برجاً أهيفَ

عالياً بين الأبراج العالية.

شكراً لمن بناه،

ولتعّبَرَ عنه الهموم والأحزان.

من هنا كنتُ أرى الفجر

وهنا كان يحتفل آخر أشعة الشمس..

غالباً ما تجيءُ رياحُ البحارِ الشمالية

طائرةً إلى نوافذ غرفتي،
ويلتقط اليمام الحنطة من يدي..
وأن صفحة لم أكتبها بعد
ستكتبها اليد الإلهية الخفيفة
يدُ ربةِ القصيدِ السمراء الهادئة.

1914

أغنية عن الأغنية

محرقة في البداية
كالنسيم الصقيعي،
ثم تسقط في قلبي
دمعة مالحة وحيدة.

*

ويأسف القلب الحاقد لشيء ما.
ويُحسُّ بالحزن.
غير أنه لن ينسى
هذا الأسى الخفيف.

*

أنا أزرع لا غير.
ويجيء غيري ليحصد. لا يهم!

وليبارك اللّه

هذا الحشد الحاصد المبتهج.

*

ولكي أشكرك

أنا في منتهى الشجاعة،

فاسمح لي أمنح العالم

ما هو أكثر بقاء من الحب.

1916

«ضعيف هو صوتي»

ضعيف هو صوتي، لكن لي إرادةً لا تلين،

بل صرتُ أكثر إرتياحاً بلا حب.

عالية هي السماء، والريح تهب من الجبال،

وخواطري نقية صافية.

*

مضى أرقي الملازم إلى غيري،

لن أتحسّرَ فوق كومةِ رماد.

والسهمُ المعوّجُ في ساعةِ البرج

لن يبدو قاتلاً لي.

*

شدَّ ما يفتقد الماضي سلطانُه على قلبي !
سأتحرر قريباً. سأغفر كل شيء،
وأنا أتتبع إنحدار الأشعة المتسارع
فوق اللبلاب الربيعي الأبيض.

1912

«قلقاً كان...»

قلقاً كان، غيوراً ورقيقاً
وكان يحبني وكأنني شمس اللّه،
وكيلاً يغرّدَ عن الماضي
قتل طائري الأبيض.

*

مع الغروب دخل الغرفة متفوهاً :
"أحبيني، إضحكي، أكتبي شعراً !"
وكنت أدفن طائري السعيد
عَبْرَ البئر الدائريةِ، عندَ الحورةِ القديمة.

*

وعدته ألا أبكي،
لكنما قلبي أمسى حجراً في صدري.
ويخيل لي أبداً وأينما أكن

أنني أسمعُ تغريدَ طائري العذب.

1914

«فادحة أنتِ يا ذكريات حبي»

فادحة أنت يا ذكريات حبي!
في دخانك أحترق وأغني،
ولن يرى الآخرون هذا إلا لهباً موقداً
ليبعث الدفء في الروح المقرورة.

*

إن بهم حاجةً إلى مدامعي
كي تبعث الدفءَ في البدن الزهوق..
ألأَجْلِ هذا كنتُ أتغنى يا إلهي؟
ألأَجْلِ هذا كنتُ أتقرب بحبي؟

*

أعطني من الأتربةِ السامَّة
ما يجعلني بكماءَ،
وأزحْ شهرتي الذميمة
بالنسيان الوضيء.

1914

«أَعْتَمَ الطَّلاءُ الأزرق»

أَعْتَمَ الطلاءُ الأزرق في الأعالي
وتعالت أغنية الناي.
ما هذا غير مزمار من طين
لا شيء يجعله يتشكى هكذا.
من أخبره بذنوبي؟
ولماذا تراهُ يغفر لي؟
أم أن هذا الصوت يعيدُ عليَّ
آخر قصيدة لك؟

1912

«عُدْ ثانيةً»*

عُدْ ثانيةً إلى الغياض الليلية،
هناك يتغنى البلبل المتشرد
بأكثر عذوبةً من التوت الأرضي،
بأكثر عذوبةً من غيرتي نفسها*.

---

* بعض القصائد أو المقاطع غير مؤرخة.

«بدلاً من الحكمة..»

إلى سريز نيغسلكاما*

بدلاً من الحكمة.. الخبرة :
شرابٌ عذبٌ لا يطفىء ظمأ.
وكان الشباب.. كصلاة الأحد..
أأنساهُ أنا ؟

*

كم من طرقٍ مقفرة عبرتُ
مع من لم يكن حبيباً لي،
كم مرة ابتهلت منحنية في الكنائس
من أجل من أحبني..

*

فصرت أكثر النّسائين نسيانا،
والسنين تمرُّ في هدوء.
أبداً لن تعود إليّ
شفاهي غيرُ المقبّلةِ، شفاهي غير المتبسمة.

1914

* «سريز نيغسلكاما»: من صديقات الشاعرة (المترجم) .

«آه ثانيةً تعود..»

آه ثانية تعود.. لا صبياً عاشقاً
بل زوجاً سليطاً، صارماً لا يلين،
تدخل بيتي وتتطلع إليّ.
يرعبُ روحي هذا الهدوءُ الذي يسبقُ العاصفة.
تسألني ماذا صنعت لك
وقد اقترنّا معاً بالحب والقدر.
خدعتك. وهذا يتكرر.
آه لو أمكنك، مرةً، أن تتعب!
هكذا يتكلم الميتُ مُقلقاً نوم القاتل،
هكذا ينتظر ملاكُ الموت عند المخدع الرهيب.
إغفر لي الآن. علّمَنا اللّه أن نغفر.
في العلةِ الكئيبة يتأذى بدني
وروحي الحرةُ هادئةٌ طيعة.
لا أتذكر غير الحديقةِ الخريفيةِ الناعمة الشفيفة،
وصراخ الغرانيق، والحقولِ السوداء..
آه، كم كانت الأرض عذبةً لي معك!

1916

«انصرفتْ ربةُ القصيد»

انصرفتْ ربةُ القصيد
في الطريق الخريفي الضيق، المنحدر،
وكانت ساقاها السمراوان
مبتلّتين بالندى الغزير.

*

طويلاً ما توسلتُ بها
أن تنتظر الشتاء معي.
لكنها قالت: «هنا أشبه بقبر،
كيف يمكنكِ التنفس بعد؟»

*

أردت اعطاءها يمامةً،
هي أكثرُ اليمام بياضا.
لكنما الطير نفسه
فرّ تابعاً ضيفتي الرشيقة.

*

صامتةً تتَّبعْتها بنظري،
هي الحبيبة الوحيدة.
وكان الفجر في السماء
كبوابةٍ إلى موطنها تقود.

1915

«لن أبتسم بعد»

لن أبتسم بعد،
الريح الصقيعية تجمد شفتي.
أملاً آخر أضعتُ،
أغنيةٌ أخرى ستضاف.
وبلا إرادة مني
سأمنحها للضحك والشتائم،
فلم تعد الروح تطيق إحتمالاً
لهذا الحب الصامت.

1915

«وجه الموسيقى»

إن وجه الموسيقى السوداء المجنون
يلوح لبرهة ويتوارى في الظلام.
بيد أنني أدركت علاماته الخفية
وحملتُ خاتمي الأسودَ من جديد.

«مذعنةً أتخيّل...»

مذعنةً أتخيّلُ
تهاويل العينين الرماديتين.
إنني أتذكرك بمرارة
في وحدتي، في تغير.

*

يا أسير اليدين الجميلتين السعيد في الجهة اليمنى من النيفا
يا معاصراً لي شهيرا،
جرى الأمر مثلما كنت تريد.

*

ألم تأمرني أنت : كفى،
إذهبي واقتلي حبكِ !
وها أنا منطوية على سرّي، لا حول لي.
غير أن دمي يشتدُّ سآمةً.

*

فإذا متُّ من ترى
سيكتب قصائدي عنك ؟
من ترى يمكنه إعانتهم
في كتابة كلماتٍ لم يُسمع بها بعد؟

1913

«آتيةً تطير»

آتيةً تطيرُ، لما تزل في طريقها
كلماتُ الحب والتحرر.
وها أنا في قلقي السابق على الكتابة،
شفتاي أكثرُ برودةً من الجليد.

*

بل قريباً، هناك حيث البتولا غير الكثيفة
تحفُّ جافةً، مائلةً على النوافذ،
سُتضفَرُ الورودُ القرمزيةُ إكليلاً لي
وتتعالى أصواتُ من لا يُرَوْن.

*

وبعد هذا.. ضوءٌ باهرٌ لا يطاق،
كالخمرة الحمراء الساخنة..
وها هي الريح العطرة المتقدمة
تلفح وعيي.

1916

«آه.. كان هذا يوماً بديعاً»

آه.. كان هذا يوماً بديعاً

في مدينة بيتر البديعة !
شعلة أرجوانيةً ينطرح الغروب
والظل يتكاثف ببطء.

*

ليكن غيرَ راغب بعينيَّ
المتكهنتين، الأمينتين،
سيظل طوالَ حياته تائقاً إلى شِعري:
صلاةِ شفتيَّ المتكّبرتين.

1913

«كلاّ. لستُ هذا»

كلا. لست هذا. إن شخصاً آخر يتألم.
ما كنت لأستطيعَ هكذا، وليغطّوا بالجوخ الأسود
ما جرى من أمر.
ولتحمل المصابيح بعيداً. الليل.

1940

«هكذا كنت أصلي»

هكذا كنت أصلي : «أطفئْ

عطشي العميق لأن أتغنى!»
إنما لا لأرضيّ
أن يتحرر من الأرض.

*

كدخان الأضاحي حين لا يستطيع ارتفاعاً
إلى عرش القوة والمجد،
بل يظلُّ منطرحاً عند الأرجل
مُقبّلاً العشبَ بابتهال

*

هكذا أتمددُ منكّبةً ساجدة :
ألا يلامسُ اللهبُ السماوي
أهدابي المطبقة
وسكوتَ ربةِ شعري البديعة؟

1913

«حد مكنون»

إن حداً مكنوناً في القربى بين البشر
لن تجتازه رغبةٌ أو عشق،
مهما تمتزج الشفاه في هدوء مخيف
مهما يتقطع الفؤاد حبا.

*

لا صداقةَ مجدية هنا

لا سنين من السعادة النارية العالية،

حين تكون الروح حرةً

وبمنأى عن كلال الرغباتِ البطيء.

*

مجانين يسعون إلى تلكم النقطة

وحين يبلغونها تهزمهم الكآبة..

ها قد أدركتَ أنت

لماذا لا يدقُّ قلبي تحت يدك.

1915

«أُنتُزِعَ كلُّ شيء»

أُنتُزِعَ كلُّ شيء: القوة والحب.

الجسد وقد أُلقي به في المدينة الكريهة

لا تُبهجهُ شمس. أُحسُّ أن دمي

قد برد تماماً في عروقي.

*

لا أعرف طبعَ ربةِ الشِعر المرحة:

تتطلع إليّ غير نابسة بلفظة،

وتحني رأسها بأكليله القاتم

منهكة على صدري.

*

الضميرُ وحده يشتدُّ حِدّةً مع كل يوم
أملاً بأتاوةٍ عظيمة.
أجبتها، مغطّيةً وجهي :
لا دمعَ بعد، لا اعتذارات.

1916

«كنتِ مهداً هانئاً...»

كنتِ مهداً هانئاً لي
أيتها المدينة القاتمة عند النهر الرهيب،
وسريراً حافلاً لقرّاني،
حيث أمسك ملائكتك الشباب ذوو الأجنحة الستة
بأكاليل زهورهم فوقه.
يا مدينة نحبها حباً مريرا.

*

منصةً كنتِ لحائطِ أيقوناتي
يا صارمةً، هادئةً، ضبابية.
هناك لأول مرة مثل لي خطيبي
مومئاً إلى طريقي الوضيء

فمضت بي كما يُقادُ الأعمى
ربةُ شعري الكئيبة.

1915

9 كانون الأول 1913

أكثرُ أيامِ السنةِ قتامةً
ينبغي أن تضحي وضيئةً.
لا أجدُ كلماتٍ مقارنةٍ..
أكثرُ رقةً هما شفتاك.

*

إنما لا تتجرأ وترفع عينيك
حفاظاً على حياتي.
إنهما لأشدُّ تألقاً من البنفسج الأول
لكنهما قاتلتان لي.

*

ها قد فهمت الا ضرورة للكلمات،
خفيفةٌ هي الغصون المتجلدة.
لقد مدَّ صائد الطير شبكته
فوق ضفة النهر.

1915

«كيف تستطيع...»

كيف تستطيع تطلعاً إلى النيفا،
كيف يمكنك اعتلاء هذه الجسور؟
ليس عبثاً أنني اشتهرتُ بحزني
منذ أن تراءيتَ لي.
وخازةٌ هي أجنحةُ الملائكةِ السوداء.
قريباً تبدأ المحاكمة الأخيرة.
والشعلُ القرمزية
تتنامى كالورد بين الثلوج.

1914

«وكما تسلّلوا...»

وكما تسلّلوا من غرفة تلك الكونتيسة*
على السلم الحلزوني،
غادرني كي يرى الساعة الزرقاء المرعية، ساعة الفجر
فوق النيفا المرعب*

1958

---

* «الكونتيسة»: احدى بطلات بوشكين (المترجم).

«لم نفترقْ...»

لم نفترق طوال سنة كاملة،
وكعهدي بك مَرِح وفتيّ!
أتراك لم تتعذب بعد
بأغنيتي الغامضة على أوتاري المرخاة،

*

أوتاري المتوترة من قبل،
ذات الرنين الخافت الآن،
تقطعها دونما هدف
يدي الشمعية الجافة..

*

حقاً إن القليل ليجعلهم سعداءَ
أولئك الذين يحبون بصفاءٍ ورقة.
لا الغيرة أو الغضب أو السأم
ليمسَّ أجسادهم الفتية.

*

لا غير نظرته الطويلة إليّ
لا رجاءَ له في ملاطفة ما
وبهدوئه وابتسامته الناعمة الهانئة
يحتمل هذيان غيبوبتي المرعب.

1915

كييف

كأنما قد اقفرت هذه المدينة القديمة،
غريباً كان وصولي إليها.
فوق نهرها يرفع تمثال فلاديمير*
صليبه الأسود.

*

في حدائقها المظلمة
ضجيج زيزفونٍ ودردار،
والنجومُ رافعة إلى اللّه
ألمازها الأبري.

*

هنا ينتهي
طريقي البطوليُّ المجيد،
ولا شيءَ يعادلني
غيركِ أنت.. وحبي.

1914

---

* «فلاديمير»: أمير كييف قديماً. نقل المسيحية إلى روسيا حوالي 988 (المترجم).

«لمَّا يزلْ الربيع»

لمّا يزل الربيع ساجياً يذوب رقةً

وفي الجبال تطوف رياح شفيفة..

وتزرق البحيرة العميقة

هيكلاً لم تبنه ِيدٌ للمعمدان.

*

كانَ لقاؤنا الأول مخيفاً لك،

وأنا ابتهل من أجل لقاء ثان.

وها هي أمسية حارة أخرى،

كم أمست الشمس خفيضةً فوق الجبل.

*

لست معي وما هذا بفراق :

كُلُّ برهة.. نبأٌ حافل لي.

أنا أعرف أيَّ عذابٍ تعاني

إنك لا تستطيعُ أن تتفوه بشيء.

1917

فـراق

منحدراً كان طريقي

تحت الغروب.

«تذكريني»

بالأمس كان حبيبي متضرعاً إلي.

والآن لا شيء غير الرياح

وصياح الرعاة،

والأرز المضطرب

عن الينابيع الصافية.

1914

«الحبّ»

الحب، قبل أي شيء آخر، يصير غباراً ميتا،

الكبرياء ترضخ، والتملق يصمت.

شيء لا يمكن حمله تقريباً :

اليأس المضمخ بالرعب.

«ما نحن في غابةٍ»

ما نحن في غابةٍ، كفى صراخا..

لا أحب مثل هذا التهكم.

لم لا تجيء وتهدهد

ضميري الجريح ؟

*

إن لك هموماً أخرى،

وزوجة أخرى..

وفي عينيَّ الجافتين

يتطلع ربيع بيتربورغ.

*

وبالسعال الحاد، بحر المساء

يكافئنا، يقتلنا كما نستحق.

وعلى النيفا، تحت البخار الذائب.

يبدأ جريانُ الجليد.

1914

«كُلُّ شيء كان يعدني به»

كُلُّ شيء كان يعدني به :

حافةُ السماء الحمراء الباهتة،

والنومُ الممتع قبيل عيد الميلاد

ورياح الفصحِ المتصايحة،

*

أما ليدُ الصَفصافِ المحمرةُ،

وشلالات المتنزه

ويعسوبان كبيران

على سياجٍ صديء من حديدِ الزهر.

*

وما كنتُ لأصدق

أن سيكون صاحباً لي،

عندما كنتُ أتجول على سفوح الجبال

في الطريق الحجري اللاهبِ

1916

«كالخطيبة»

كالخطيبة

تصلني رسالةٌ كلَّ مساء،

فأجيب صديقي

برسالةٍ في ساعةٍ متأخرة من الليل.

*

«في طريقي عَبْرَ الظلام،

أحلُّ ضيفةً لدى الموت الأبيض.

لا تفعلْ شراً يا صاحبي

بأيّما أحدٍ في العالم»

*

وبين جذعين
تلوحُ نجمةٌ كبيرة،
وفي هدوءٍ عميق
تَعِدُني بتحقق أحلامي.

1915

«لا بُـدَّ»

لا بدَّ من أن توجد حياة بسيطة في مكان ما
وضوء شفيف، دافئ، مرح..
هناك، عبر السياج، يتحدث جاران عاشقان
قبيل الغروب، ولا أحد يسمع غير النحل
حواراً هو أرقُّ حوار.

*

ونحن نحيا في احتفالٍ وصعوبة
ممجدين طقوس لقاءاتنا المريرة.
حين تهجم ريح طائشة
وتقطع حواراً بدأ منذ لحظة..

*

بيد أننا لا نُبدل بأي شيء هذه المدينة
الجليلة الغرانيتية، مدينة المجد والكارثة،
والجليد المتلامع في الأنهار العريضة

والحدائق القاتمة، غير المشمسة،
وهمساً لا يكادُ يُسْمَع لربة القصيد.

1915

«اقتربتْ»

اقتربت. لم ينمَّ عن أيما قلق،
محدقاً بالنافذة بلا اكتراث.
وجلستْ كالوثن الخزفي
متخذة وضعاً تخيرته قديما.

*

من المتعوَّد عليه أن تكون مَرِحاً
غير أن من الصعب أن تتكلف الانتباه.
أم هو الكسل الفاتر قد تغلب عليها
بعد ليالي آذار ذات الأَفاويه؟

*

وبدأ الكلام المملُّ
وقيظ الثريا الصفراء الميت،
واللألأةُ المتقطعةُ لفرقٍ تفننت به
فوق يدٍ مرفوعة قليلاً.
ابتسم محدثها ثانية
متطلعاً إليها بأمل..

لنقرأ يا وريثي السعيد الثري
وصيتي.

1914

«نادراً ما أتذكركَ»

نادراً ما أتذكركَ
ولن يفتنني قدركَ.
غير أن لقائي العابر معك
يظل عالقاً بروحي.

*

متعمدةً أمرُّ ببيتك الأحمر.
بيتك الأحمر فوق النهر المتعكر،
وأعرف أنني أقلقك بمرارة،
أقلق سكينتك المشمسة.

*

هبْ أنك لم تنحنِ، مرة على شفتي
متوسلاً حبي،
هب أنك لم تجعل عذابي
خالداً في قصائدك الذهبية..

*

سأقرأ الآتي مستعينةً بسحري
حين يمسي الغروب أزرق تماما،
وأدرك أن لنا لقاءً آخر،
لقاءً لا مفرَّ منه.

1913

«ثانيةً تمنحُ لي»

ثانية تمنحُ لي في غفوتي
جنّتنا النجومية الأخيرة..
بخجي سراي الذهبيةُ
مدينة النوافيرِ الصافية.

*

هناك عبر السياج المجزّع،
عبر المياه الساجية
كنا نتذكر مبتهجين
حدائق الضاحية القيصرية.

*

وعرفنا فجأةً
نَسْرَ كاترينا !
كان يطير منخفضاً على قاع الوادي

منفلتاً من البوابة البرونزية الجليلة.

*

لكي تعيشَ، طويلاً، في ذاكرتي
أغنيةُ الوداع الأليم
جلب الخريف الأسمر بذيل ثوبه
أوراقه الحمراء المتساقطة.

*

وذرّها فوق المدرج،
حيث كان وداعنا
وحيث مضيتَ، يا سلواي، من هنا
إلى مملكةِ الظلال.

1916

«غالباً ما تتراءى بافلوفسك»

غالباً ما تتراءى بافلوفسك ذاتُ التلال،
المرجُ الدائري، والمياهُ غيرُ الحية،
هي الماثلة أبداً في الذاكرة
أكثرُ المدنِ ظلالاً وفتورا.

*

ما إن تدخل بوابةً من حديد الزهر

حتى تأخذكَ ارتجافة غبطةٍ،
ما أنت في عيشٍ هنا، بل هي بهجةٌ وحلم
أو هي حياةٌ مغايرة تماما.

*

في أخريات الخريف، عليلةً، لاذعةً
تتسكع الريح هانئةً بعزلتها.
أشجار الشربين في الندى المتجلد
تقف وسط الثلوج الذائبة قليلا.

*

وكالأغنية يتعالى صوت جميل
مترعاً بهذيانٍ محرق،
وفوق كتف كيغاريد* النحاسي اليمنى
يجلسُ طائرٌ أحمرُ الصدر.

1915

«زجاج السماء»

زجاجُ السماء الصافية الشفيف،
مبنى السجن الكبير الضارب إلى البياض
وابتهال الموكب الحافل بايقوناته وصليبه

* «كيغاريد»: تمثال مغن اسطوري أعمى (المترجم).

فوق فولخوف المتوهجةِ زرقةً.

*

زوبعةُ أيلول تُسقط أوراق البتولا

مندفعة بين الغصون،

والمدينة تتذكر أقدارها :

هنا حكمتْ مارفا وحكم أراكجييف*.

1914

«رماد مديح الآخرين»

رمادٌ مديحُ الآخرين لي،

وانتقاصُكَ مني.. مدائح.

1931

«القوس القمري»

أرى القوس القمري

خلال أوراق الصفصاف الكثيفة،

أسمع وقعاً رتيباً

---

* «مارفا»: حكمت مدينة نوفو غورود في القرن الخامس عشر... أما «أركاجييف» فهو عسكري شهيد من القرن التاسع عشر (المترجم).

لحوافر بلا حدوات.

*

ماذا؟ وأنت الأخر لا تريد أن تنام،
وطوالَ سنةٍ لم تستطع نسياناً لي
ولم تتعودْ
أن تجد سريرك فارغاً ؟

*

الست أتحدث معك
في صراخِ الطيور الجارحة الحادّ،
الستُ أتطلعُ إليك.. إلى عينيك
من الصفحات البيضاء المربدّة ؟

*

ما لك تدور كاللص
حول المنزل الهادئ ؟
أم أنك تتذكر اتفاقنا
وتنتظرني حيةً؟

*

استغرق في النوم. في الظلام الخانق
يلقي القمر شفرته.
قانيةً اسمعُ الوقْعَ. أو هو قلبي الدافئ
يخفق هكذا.

1914

«بلا جلبة دخلوا المنزل»

بلا جلبةٍ دخلوا المنزل.
لم يعودوا ينتظرون شيئا.
أخذوا بيدي إلى المريض،
فلم أعرفه.

*

قال: «الحمد لله الآن ـ
وغداً أكثر تأملاً ـ
منذ زمن بعيد كان عليَّ أن أرحل،
إنما كنت أنتظرك.

*

صرتِ تُقلقينني
فأهذي بكلماتك، وقد حفظتها كلها.
خبريني: «ألا يمكنكِ أن تغفري؟»
فقلت «يمكنني»

*

خُيل لي أن الجدران تتوهج
من الأرض حتى السقف.
وعلى الغطاء الحريري
تنطرح يدٌ جافة.

*

أمسى المنظر الجانبي الكاسر الملقى
ثقيلاً، فظا،
ولم يكن يسمع له تنفسٌ
على الشفاه القاتمة المعضضة.

*

لكن آخر قوة له
انتعشت في عينيه الزرقاوين :
«حسناً إنك غفرتِ،
ما كنت طيبة كلّ يوم»

*

وصار الوجه أكثر شباباً،
فعرفته ثانية
وقلتُ: «يا إلهي
تقّبلْ عبدك».

1914

«حين تغدو الحقول الخريفية»

حين تغدو الحقول الخريفية
رخوةً، دافئة،
تتصايح الغرانيق

داعية طيرها الجريح.

*

وأنا المريضة أسمع النداء
وحفيفَ الأجنحةِ الذهبية
في السحب الخفيضة الكثيفة
والدغل الأثيث :

*

«آن أن تطيري، آن أن تطيري
فوق الأنهر والحقول.
فما عدت قادرةً على غناء
أو مسح خديك المبتلتين بالدموع
بيدك الآخذة بالضعف».

1915

فــرار

إلى كوزمينا*

«لو أننا ندرك شاطئ البحر لا غير
يا عزيزتي!» ـ «اصمتْ..»

---

* «كوزمينا» (1891 ـ 1945): شاعرة هاجرت بعد 1917 إلى باريس. دخلت الدير راهبة. أعدمها الألمان لمشاركتها الفعّالة في المقاومة ضد الإحتلال في الحرب العالمية الثانية (المترجم) .

وهبطنا السلم

لاهثين نبحث عن المفاتيح.

*

وحيال المبنى، حيث رقصنا يوماً ما

وشربنا البيرة،

حيال أعمدة مجلس الشيوخ البيضاء،

انطلقنا إلى هناك، حيث الظلمة قاتمة.

*

«ما أنت فاعل يا فاقد الرشد؟»

ـ «كلا. أنا أحبك لا غير!

هذه الريح ضاجة وفسيحة،

مرحاً سيبحر مركبنا!»

*

كان الرعب آخذاً بخناقي

حين أقلّنا في العتمة قارب صغير..

وكانت رائحةُ الحبال البحرية القوية

تحرق منخريّ المرتجفين.

*

«قل لي، فأنت تعرف يقينا،

ألستُ نائمةً أنا؟ هذا أشبه بحلم..»

لا شيء غير خفق المجاديف

في أمواج النيفا الثقيلة.

*

كانت السماء السوداء تتبلّج

ومن الجسر يصيح بنا أحدهم.

وكنت أضغط سلسلة الصليب

بيديّ الإثنتين على صدري.

*

وحملتني كصبيّةٍ على يديك

وقد خارت قواي،

لكي التقي فوق ظهر اليخت الأبيض

بضوء النهار الأبدي.

1914

«ينهزمُ الألم»

ينهزمُ الألمُ حين أمضي إلى هناك

والبرد المبكر يلَذُّ لي.

لدى هذه القرى السريّةِ القاتمة

أُودعَ عملٌ حيٌّ لا يموت.

*

إنني لأُحب هذه البقاع

حباً مكيناً، هادئاً لا فكاك منه :
إن قطرةً من حياة المدن في دمي
كقطعةِ جليدٍ في خمرةٍ مزبدة.

*

وهذا شيءٌ لا يمكن رأبهُ بأي شكل،
ولم يُذب القيظُ العظيم هذه القطعة.
أيتها القرى الهادئة
يا إشراقةً في مديحي.

1916

«هكذا يكون...»

هكذا يكون، عادةً، قُبيل الربيع :
تستريح المروج تحت الثلج الكثيف،
ويعلو حفيف الشجر المرح اليابس،
الريح الدافئة ناعمة، مرنة.
وتدهشنا خفّةٌ في أبداننا
فلا تعرف بيتك نفسه،
وأن أغنيةً مللتها من قبل،
تتغنى قَلِقاً بها وكأنها جديدة.

1915

«وأسير»

وأسيرُ حيث لا حاجةً بي لشيء،
حيث ظلي وحده.. أعزُّ رفيقِ طريقٍ لي
والريح تهب من الحديقة المقفرة
والدرجة الباردة تحت قدمي.

حلـم

أعرف أنني أتراءى في أحلامك،
ولهذا لا أستطيع رقاداً.
أزرقَّ مصباحٌ متكدر
فأراني الطريق.

*

كنتَ ترى الحديقة الملكية
والقصرَ الأبيض المبتكر،
وزخرفَ السياج الأسود
عند الأطناف الحجرية المدوية.

*

كنتَ تمضي جاهلاً إلى أين
وتفكر: «أسرعَ، فأسرع،

آه لو أنني أجدها فحسب،
ولا يقظة قبل لقائي معها».

*

وعند البوابة الحمراء
صاح بكَ حارسٌ: «إلى أين؟»
كان الجليد يتحطم مفرقعاً
ويلوح الماء أسود تحت قدميك.

*

كنتَ تفكر: «هذه بحيرة،
هناك تقع جزيرة صغيرة..»
وفجأة بان في الظلمة
ضوءٌ أزرق.

*

في قسوة ضوء النهار التافه
كنتَ تئن مستيقظاً
ولأول مرة
تهتف بإسمي عاليا.

1915

«طويلاً كنت»

طويلاً كنت تسير عبر القرى والحقول
سائلاً الناس في طريقك :
"أين هي، أين هو ضوء عيونها،
ضوء النجوم الرمادية المرح ؟

*

فلقد حلّتْ بلهبها الخافت
أيام الربيع الأخيرة.
وكثيراً ما صرتُ أحلم،
وأراها في أحلامٍ تتزايد رقةً !"

*

ثم جئتَ مدينتنا المتجهمة
في الساعة الهادئة قبيل الغروب.
وفي الوقت نفسه
كنت تفكر بلندن وفينيسيا.

*

عند الكنيسة السامقة المظلمة
وقفتَ فوق المدرج الغرانيتي البراق
مبتهلاً من أجل لقاء،
لقاءٍ أول بهجة لك.

*

وفوق المذبح الذهبي الأسمر
تضطرم حديقة الأشعة الإلهية :
«هي هنا، هنا ضوء عيونها،
ضوء النجوم الرمادية المرح»

1915

«أصفرَ، رحيباً كان ضوء الغروب»

أصفرَ، رحيباً كان ضوء الغروب،
ناعماً كان هواء نيسان المعتدل.
جئتني متأخراً سنين طويلة
مع هذا فأنا فرحة بك.

*

إجلسْ ها هنا قريباً مني،
انظرْ بعينين مرحتين :
هو ذا الدفتر الأزرق
دفترُ أشعارِ طفولتي.

*

اغفرْ لي أنني حزينةً
وقليلاً ما ابتهجتُ بالشمس.
اغفرْ، اغفرْ لي أنني

تقبلتُ تلكم الزياراتِ العديدة.

1915

«لا أدري...»

لا أدري.. أحيٌّ أنت أم ميت ؟
هل يمكن البحث عنك في أرضنا ؟
أم في هذه التأملات الغروبية وحدها
حين تتذكرُ الموتى في كآبةٍ وضيئة ؟

*

كلُّ شيء لك: صلاة النهار
وحرارةُ الأزرق.. تسمرُني في فراشي،
سربُ قصائدي الأبيض
واشتعالُ عيني الأزرق.

*

لم أُحبَّ أحداً بهذه القوة من قبل
ولم يؤذني أحدٌ هكذا،
حتى مَن غدرَ بي وأسلمني لعذابي
حتى مَن لاطفني ونسيني.

1915

«هناك تَخَلَّف ظلي»

هناك تَخَلّف ظلي مكتئبا،
ممضياً الوقت كله في تلك الغرفة الزرقاء،
منتظراً ضيفاً من المدينة كلما انتصف الليل،
مقبلاً ميناء الأيقونة.
وفي المنزل لم تكن الأمور كما يرام :
يوقدون نارهم ويظل البيت مظلماً مع هذا..
الهذا تبدو ساكنةُ البيت الجديدة متضجرة ؟
الهذا ينصرف الزوج لخمرته
سامعاً عَبْرَ الجدار الدقيق
كيف يتحدث ضيفي معي ؟

1917

«عيناك مجنونتان»

عيناكَ مجنونتان
وحديثكَ متجلّد،
وتعترف بحبك لي
ونحن لما نلتقِ بعد.

«فجأة هدأ البيت»

فجأة هدأ البيت،
سقطتْ آخرُ زهرةِ خشخاش،
كنت متجمدة في غفوة طويلة
في لقاء مع الظلمة المبكرة.

*

أقفلت البوابة بإحكام،
أسود كان الغروب والريح ساكنةً.
أين المرح، أين انشغال البال،
أين أنت يا خطيبي الحنون ؟

*

لا أثر لخاتمك السري،
أياماً طويلةً انتظرتُ.
وماتت الأغنية في صدري
جاريةً أسيرةً رقيقة.

1917

«تخنقني البهجة»

تخنقني البهجة

فأصحو مع الفجر،
وأتطلع من كُوّة المركب
إلى الموجة الخضراء،
أو إلى ظهر السفينة في الجو المتلبد،
متدثرةً بالفِراء الوثير،
مصغية إلى حركة الماكنة
دون أن أفكر بشيء،
غير أنني، هاجسةً موعدي
مع من أمسى نجمةً لي،
أجدني أنضرَ شباباً مع كل يوم
بفعل الرياحِ المالحةِ ورشاشِ البحر.

1917

«في صداقةٍ خفية»

في صداقةٍ خفيةٍ معه،
هو الشبيهُ بنسرٍ فتي أسودِ العينين،
كنت أمشي خفيفةَ الخطى
وكأنني في جُنينة مزهرة قبيل الخريف.
هناك كانت الورود الأخيرة
والقمر يتأرجح شفيفاً

على الغيوم الرمادية الكثيفة.

1917

«مثلهم جميعاً»

دعني، فلقد كنتُ مثلهم جميعا،
بل كنت أسوأهم أنا.
سبحتُ في قطرةِ ندى غريبة
واختبأت في حبة هُرْطُمان غريبة
ونمتُ في عشبةٍ غريبة.

«نهايتي المريرة»

حين يتناهى إليك
نبأ متأخر عن نهايتي المريرة،
لن تغدو أكثر حزناً أو صرامة.
بيد أنك ستبتسم، شاحباً، في جفاف
وسريعاً ما تتذكر السماء الشتوية
والزوبعة الثلجية المندفعة حيال النيفا،
تتذكر كيف أقسمتَ ذات يوم
أن تظل لصديقتك الشرقية حارساً أمينا.

1917

«لقاء سوسنة»

لقاءَ سوسنةٍ وادي آيار
في مدينتي ذاتِ المائة رأس
أتخلى عن الشهرة
وإشراقةِ أسرابِ النجوم.

«عاشق غريب»

عاشق غريب! لا حاجة بي إلى غريب،
أتعبني أن أعدّ أقاربي.
فمن أين، تُرى، هذه المتعة
وأنا أحدّق بشفتيه الكرزيتين؟

*

ليكن سبباً في ازدراء الآخرين لي،
إنني أسمع في كلماته أنّةً مختنقة.
كلا. لن يرغمني أبداً
أن أظنّه متولهاً بأخرى.

*

ولن أصدّقَ أبدا،
أنه، بعد حبه السماوي الخفي،

يمكن أن يضحك حقاً ثانيةً أو يبكي
أو يلعنَ قبلاتي.

1917

«سألتُ طائرَ الوَقْوَق»

سألتُ طائرَ الوَقْوَق
كم سنة سأعيش..
كانت قمم الصنوبر متراجفةً
وعلى العشب يسقط شعاع أصفر،
إنما لا صوت في الأجمة الندية..
ها أنا عائدة إلى البيت،
والريح الباردة المعتدلة
تمرُّ ناعمةً على جبهتي الملتهبة.

1917

«مَنْ جاء به»

من جاء به إلى هنا
تَوّاً من المرايا كلها ؟

«الآن وداعاً أيتها العاصمة»

الآن وداعاً أيتها العاصمة
وداعًا يا ربيعي،
إنني ليشدني الحنين
إلى كوريل الغابيةِ النائية.

*

خضراء هادئة
كانت الحقول والمباقل،
ولم تزل المياه عميقةً
والسماء شاحبةً.

*

حوريةُ المستنقع،
سيدةُ هذه الجهات،
تتطلع متنهدة في رثاء
إلى القُبّةِ ذات الصليب.

*

وطائر الصفارية
صديق أيامي الخالية من الاثم،
وقد آب أمس من الجنوب
يصرخ بين الغصون.

*

أن من المخجل أن أبقى
في المدينة حتى آيار،
متأوهةً في المسارح
وأموت ضجراً في الجزر.

*

لكنما الصفارية لا تدري
والحورية لا تدرك
كيف يلذّ لي
أن أغمره بالقبلات!

*

ومع هذا فإنني اليوم،
على منحدر النهار الهادئ،
سأغادر.. يا موئل الآلهة
تقبلْني لديك.

1917

«في الوادي»

في الوادي يجري النهر بلا إسراع،
وفوق الرابية بيتنا ذو النوافذ الكثيرة.
ونحن نعيش كما في عهد كاترينا :

نقيم الطقوس وننتظر الغلال.
وحيال المزرعة الذهبية يجيء الضيف راكبا،
متكبداً فراق يومين.
يقّبل يد جَدَّتي في غرفة الضيوف
وشفتيّ على السلم المنحدر بشدة.

1917

«الذاكرة»

لا تعطني شيئاً للذكرى:
أنا أعرف كم قصيرة هي الذاكرة.

«ملاكي الحارس»

ملاكي الحارس، بعد ثلاث سنوات،
حلقَ عالياً في الأشعة واللهب،
لكنني أنتظر، صابرة، يوماً أكثر لذةً
حين يعود إليّ.

*

شدَّ ما يتوقد خداي وتشحب شفتاي
وتغير وجهي :

إنني لم أعد جميلة، لم أعدْ تلك التي
حيَّرتهُ باغنياتها.

*

منذ زمن بعيد وأنا لا أخشى شيئاً على الأرض،
متذكرة كلمات الوداع.
ما أن يدخل حتى أنحني على قدميه،
وقديماً كنت لا أكاد أهزّ رأسي له.

1922

«لو أمرض كما ينبغي»

لو أمرض كما ينبغي، فألتقي ثانية بهم
في هذياني المحرق،
ونتجول معاً في المماشي الفسيحة
في حديقة الساحل المترعة بالشمس والرياح.

*

حتى الموتى منهم والمنفيون
لا اعتراض لهم اليوم على دخول بيتي.
قرب الطفل مني آخذاً بيده
بي شوق لرؤيته منذ زمن بعيد.

*

سآكل مع الأعزة عنباً أزرق
وأتجرعُ خمرةً متجلدة،
وأتطلع إلى الشلال الشائب في انصبابه
فوق حصباءِ القاعِ المبتلّة.

1922

«ترى كيف استطعت»

ترى كيف استطعت، أنت القوي الحر،
أن تنسى عند ركبتيها الملاطفتين
أن الخطيئة الأولى
تعاقب بالهلاك والإنحلال؟

*

لم أفشيتَ في لهوكَ معها
أسرار أيامنا العجائبية كلها ؟
ستذري شهرتك
بيدها الوحشية.

*

أخجل.. لا تتوسل حزناً مبدعاً
لدى امرأةٍ أرضية.
مثلُ هذه تُنفى إلى الأديرة

وتُحْرَق فوق الشعل العالية.

1922

«وكنت تظن أنني كالأخريات»

وكنت تظن أنني كالأخريات
يمكن أن أنسى،
وأنني سأرتمي متوسلةً، منتحبةً
تحت حوافر جوادك الكُمَيْت.

*

أو أنني سأسأل الساحرة
كعباً من ماء تعويذتها
وأبعث إليك بهدية مرعبة :
منديلي المعطر المكنون.

*

لتكن ملعوناً. لن أمسَّ روحك اللعينة
بآهةٍ أو بنظرة.
إنما أقسم لك بالحديقة الملائكية،
بالأيقونة العجائبية أقسم
وبدخان ليلتنا الملتهب الخانق
أنّني لن أعود إليك في أيما يوم.

1921

«لتهدرْ أنغامُ الأرغن ثانية»

لتهدرْ أنغامُ الأرغن ثانية
كالزوبعة الربيعية الأولى:
سأصوّبُ من وراء كتفي عروسكَ
عينيَّ نصفَ المغلقتين.

*

وداعاً، وداعاً، ولتهنأْ يا صديقي الجميل،
إنني لأُعيدُ إليك عهدك الحلو.
إنما تجنب أن تقص على صاحبتك المتولهة
هذياناً لي لا مثيل له.

*

فسيخترق بسمه المحرق
أتحادكما الممتعَ البهيج..
وسأمضي لأمتلك الحديقة البديعة
حيث حفيف الأعشاب ونداء ربة القصيد.

1921

«عريضاً تنفتح البوابة»

عريضاً تنفتح البوابة،

الزيزفون متجرد كالمتسولين
وقاتم هو الطلاء اليابس
على الحائط المقعر الراسخ.

*

دويٌّ هائل يملأ الأضرحة والهياكل
والرنين يطير فسيحاً على الدنيبر.
هكذا كان ناقوس مازيبا الثقيل
يُقْرَع فوق ساحةِ صوفيا.

*

إنه ليصخب بقوةٍ متزايدة لا تلين
وكأنهم يحرقون الهراطقة هنا.
وراء النهر في الغابات
يستبدُّ المرحُ بجراء الثعالب الزغباء.

1921

«أجل كنت أحبها»

أجل كنت أحبها تجمعاتنا الليلية تلك :
أقداحنا المتجلدة على الطاولة
وفوق إبريق القهوة الفواح بخار خفيف،
الحرارة الشتوية الثقيلة قرب الموقد الأحمر

والمرح اللاذع في النكتة الأدبية
ونظرةُ الصديقِ العاجزةُ الفظيعة الأولى.

1917

«لا مفرَّ لي»

يبدو ألاّ مفرَّ لي من قصائدي الغريبة
حيث كل خطوةٍ سرٌّ من الأسرار،
حيث المهاوي السحيقة عن يساري ويميني
حيث تداسُ الشهرةُ بالقدمين كالأوراقِ المتساقطة.

1944

ربة القصيد

حين أنتظر زيارتها ليلاً
تتراءى الحياة معلقة بشعرة.
ما المراسم، ما الشباب، ما الحرية
أمام الضيفةِ الحبيبةِ حاملةِ المزمار؟

*

ها هي تدخل.. تُزيحُ النقابَ عن وجهها
وتتطلع إليّ باهتمام.

فأقول: «أأنتِ من أملتْ على دانتي
صفحاتِ الجحيم؟» فتجيب: «أنا».

1924

«صَلِّ ليلاً»

صَلِّ ليلاً لكي لا تستيقظ
وقد وجدتَ نفسكَ شهيراً فجأة.

«هنا بدأ منفى بوشكين»

هنا بدأ منفى بوشكين
وانتهى منفى ليرمنتوف.
هنا يفوح العشب الجبلي بلا صعوبة.
وأتيح لي أن أرى، لمرةٍ واحدةٍ لا غير،
عند البحيرة، في ظل الدلب الكثيف،
في الساعة القاسية، السابقة على الغروب،
العينين المشتعلتين
عيني عشيقِ تمارا الأبدي.*

1927

* «تمارا»: بطلة ملحمة ليرمنتوف «الشيطان»: حسناء جيورجية، أرادها الشيطان عروساً له، ليلة زفافها، فدخلت الدير لتموت (المترجم).

«كيف!»

كيف! أهي عشر سنواتٍ لا غير؟ أنت تمزح.
آه لكم عدتَ مبكراً!
أبداً لم أكن أنتظرك. كان شتاء غريباً
شتاء وداعك لي

«ألم يبعث ورائي...»

ألم يبعث ورائي بالتم،
بالقارب أو الرَّمَثِ الأسود؟
في ربيع العام السادسَ عشرَ
وعدني أن يجيء قريبا.
في ربيع العام السادس عشر
قال إنني سأحلق طائرةً
إلى سكينته عَبْرَ الموت والظلام،
وألمسُ اكتافه بأجنحتي.
لما تزل عيناه تضحكان لي
بربيعها السادس عشر.
ماذا سأفعل؟ ملاك منتصف الليل
في نقاشٍ معي حتى الفجر.

1936

«بعضهم يرى صورته»

بعضهم يرى صورته في العين الحنون
بعضهم الآخر يشرب حتى الشروق.
أما أنا فأقضي الليل متحدثةً.
مع ضميري ذي العزيمة العارمة.

*

أقول: «أنت تعرف أنني منذ سنين
أحمل عبئك الفادح»
إنما لا زمن بالنسبة له
وما من متسع له في العالم كله.

*

وها هو الغروب الأسود عشيةَ الاعتراف،
الحديقة المشؤومة، وجَرْيُ جوادٍ غير مسرع
والريح المحملة بالبهجة والمرح
تهبط عليّ من منحدر السماء.

*

ومن فوقي يقف هادئاً
شاهدٌ بقرنين.. آه إلى هناك، إلى هناك
في طريق المتنزه القيصري العتيق
حيث المياهُ الميتةُ وطيورُ التم.

1935

«أخفيتُ دونك قلبي»

أخفيتُ دونك قلبي
كأنما ألقيتُ به في النيفا..
في بيتك أحيا
مدجّنةً بلا أجنحة.
في الليل وحده.. أسمع الكمانات.
ما تُرى هناك.. في أغساق الآخرين ؟
زيزفون قصر آل شيريميتيف..
المناداة بشياطين بيوت..
حذراً يقترب
كخريف المياه
وينحني حارّاً على أُذني
همسُ بليّةٍ أسود :
وتغمغم وكأنها
منشغلة هنا طوال الليل :
«تبتغين راحةَ السكن،
أتعرفين أين هي راحة سكنك ؟»

1936

«الكلمة الحجرية»

وسقطت الكلمة الحجرية
على صدري الذي لم يزل حيا.
لا بأس. كنت أنتظر هذا،
وسأتغلب عليه.

*

لديّ اليوم مهامٌّ عديدة :
ينبغي أن أقتل ذاكرتي تماماً،
وعلى روحي أن تتحجر
وأن أتعلم العيش من جديد.

*

لا بأس.. هو ذا الصيف عبر النافذة
بحفيفه الحار أشبه بعيد.
منذ زمن وأنا أتوقع
هذا المنزل المقفر والنهار الوضيء.

1936

دانتـــي

وبعد موته أيضاً

لم يعد إلى فلورنتساه القديمة.
إليه، هو الذي ارتحل غير متلفت،
أرفعُ نشيدي هذا.
عَبْرَ العتبة كان الليل والعناق الأخير
والمشعل وولولة القدر الفاجعة.
من الجحيم أرسل إليها لعنته
وفي الفردوس لم يستطع لها نسيانا.
بيد أنه لم يطُفْ حافياً في قميصِ التوبة،
حاملاً شمعته الموقدة
في طرقِ فلورنتسا المتمناة،
الغادرة، الواطئة، بانتظارها الممض.

1936

ضيفان

«.. أنت ثمل،
وعلى أية حال حانت العودة إلى البيت»
دون جوان وقد اكتهل
وفاوست الفتيّ من جديد
تصادماً عند بابي،
عائدين من المقهى على لقاء.

أم هي الغصون لا غير،
تتمايل في الريح السوداء،
في الضوء السحري الأخضر
منسكباً كالسم. ومع هذا
فهما يشبهان حتى التقزز
رجلين أعرفهما.

1943

غدر

لا لأن المرآة قد تحطمت،
لا لأن الريح عاويةٌ في المدخنة
لا لأنني في تأملاتي عنك
أرى أشياء غريبة تتسلل..
أبداً، لا بسبب من هذا كله
إلتقيتُ به عند العتبة.

1944

«ثلاثة أشهر»

ثلاثة أشهر طريحة المرض في سريري

وكأنني لا أخشى المنّية.
تتراءى لي نفسي كما لو خلال حلم،
ضيفاً طارئاً في هذا الجسد المخيف.

1959

العودة الأخيرة

«طريق واحد لدي من النافذة حتى العتبة»

أغنية

يمرُّ اليوم بعد اليوم
ويجري هذا أو ذاك من الأمور
وكأنما كالمعتاد.
بيد أن الوحدة
تتراءى خلال كل شيء.
وتُشَمُّ رائحةُ تعفُّن،
تعفّن التبغِ والفأرِ والصندوقِ المنفتح
ويتجمعُ الضباب مسمّماً.

1944

«إتّصلْ بي»

إتّصلْ بي، ولو اليوم، في التلفون

فأنت في مكانٍ ما على أية حال،
أما أنا فلقد صرتُ أكثرَ الغرباءِ الوحيدين وحدةً
لا نبأَ مُجنّحاً يصل إليّ.

1958

كتابة على صورة

يا ابنة القمر الدخانية
يا مرمراً أبيض في الممشى الغسقي
يا صبيةً متوردة راقصة
يا أجمل المتبرجات !
هلك الكثير جرّاء أمثالك.
ولأجل واحدةٍ مثلك بعث جنكيز سفراءه.
وفتاةٌ مثلك، في طبقها المدمّى،
حملتْ رأسَ المعمدان.

1946

«في باطن الموسيقى»

لم أجد ثمةَ جواباً في باطن الموسيقى،
وثانيةً هو الهدوء، وشبحُ صيفٍ.

«أتذكَّرُ خطابَك لي»

لا ريب أنه سيكون مثلك وفياً وثابتاً حتى الموت

بودلير

أتذكرُ خطابَك لي
وكأنني وراء سحابة،
وبفعل خطابي لك كانت لياليك
أكثر سطوعاً من النهار.
هكذا كنا نمضي عالياً حتى النجوم
منسلخين عن الأرض.
لا يأس، لا خجل
لا اليوم، لا بعد هذا، لا عند ذاك.
غير أنك تسمعني كيف أناديك
حياً وفي اليقظة.
وأن بابا فتحته قليلاً
لا أقوى على إغلاقه بعنف.

*

أنت تدري أنني لا أذكر بخير
يوم لقائنا المرير.
ماذا أترك لك للذكرى ؟
ظلي ؟ أي نفع لك في ظل ؟

إهداء مسرحيةٍ محترقة،
ولم يتبقَّ شيء من رمادها ؟
أم صورة رأس السنة المرعبة
وقد خرجتْ، فجأةً، من إطارها ؟
أم الهمسات المنبعثة
من جمرات ِالبتولا ؟
أم قصةً لم يمكنهم إتمامُها لي
عن حبك لإمرأةٍ أخرى ؟

1946

«في الحديقة الفردوسية الجنوبية»

«أنت معي، ثانية، يا صديقي الخريف!»
أنينسكي*

ليكن هناك من ينعم
في الحديقة الفردوسية الجنوبية.
هنا الطقس شماليٌّ جدا.. في هذه السنة
اخترتُ صحبةَ الخريف.

*

أعيش مثلما نحلم أننا في منزل غريب

---

* «أنينسكي» (1856 ـ 1909) : شاعر وناقد روسي (المترجم) .

حيث متُّ من قبل، ربما،
حيث تحتفظ المرايا بظلالها الغريبة
في كلال الغروب.

*

أخطو بين الشربين الأسود الملتف
حيث الخلنج أشبه بالرياح،
وتضيء كسرةُ القمر الباهتة
كالسكين القديم المثلم.

*

هنا جئتُ أحمل ذكرى ناعمة،
ذكرى آخر لقاء لي معك..
هي الشعلة الباردة، الصافية، الخفيفة
شعلة انتصاري على قدري.

1956

«بدلاً من التهنئة بالعيد»

«بعيد عنهم وأنت بينهم»

كيتس

بدلاً من التهنئة بالعيد
هذه الريح الجافة القاسية،

لا تحمل لك غيرَ رائحةِ التعفّن
وطعمِ دخانٍ
وقصائد مكتوبةٍ بيدي

1961

«غيرُكَ أنت....»

غيرُكَ أنت.. مهما تفنن في تعذيبه لي
ما كنتَ أمنيةً له.
وتجرعتُ غيرتكَ كالشراب السحري
بلا توقف.

في اليقظة

بعيداً عن الزمن، عن الفضاء
أتبيَّنُ كلَّ شيء خلال الليلة البيضاء:
آنية النرجس البلورية على مائدتك،
دخان السيجار الأزرق
وتلك المرآةَ حيثُ أمكنك أن تنعكس
كما في المياه الصافية.
بعيداً عن الزمن، عن الفضاء..

غيرَ أنك لا تستطيع نفعاً لي.

1945

من اعتراف كبير

من بين مئات الجرائم
لم أكتسب غير ذلك اللقب،
غادرةً كنتُ للأحياءِ منهم،
أمينة لظلالهم لا غير

1963

في الحلم

لا فرق في أن أتحمل معك
فراقاً أبدياً وأسود.
فيم بكاؤك ؟ أعطني يدك
وعدْني أنك ستزورني في الحلم ثانيةً.
معاً نحن كالشقاء مع الشقاء..
لا لقاء لي معك على الأرض.
يكفي أن تبعث لي بتحيتك
عَبْرَ النجمةِ كلما انتصف الليل.

1946

من يوميات رحلة

ويتبلَّج فجرُ محكمةٍ مرعبة.
اللقا أكثر مرارة من الفرقة.
هناك تسلمني يداك الحيَّتان
إلى الشهرةِ الميتة.

1964

«كأنني أسمعُ صوتاً نائياً»

كأنني أسمعُ صوتاً نائياً
ولا شيءَ، لا أحدَ من حولي.
ضعوا جسده
في هذه الأرض السوداء الطيبة.
لا غرانيت سيظل غباره الخفيف
لا صفصافة باكية.
الرياحُ البحرية وحدها
ستهبُّ من الخليج لتنعاه.

1958

«بثمن باهظٍ»

بثمن باهظٍ غير متوقَّع
عرفتُ أنك ستتذكر وتنتظر.
ولربَّما ستجدُ مكانَ قبرٍ لي
لا شاهدةَ عليه.

1946

الصدى

أغلقتُ الطرقَ إلى الماضي منذ زمن بعيد،
وأيُّ شيء يهمُّني من الماضي اليوم؟
وماذا هناك؟ البلاطُ المدمى
أو البابُ المغلق بالحجارة؟
أو الصدى الذي لم يستطع صمتاً بعد
بالرغم من توسلي إليه؟
وقد جرى الأمر نفسه
مع هذا الشيء في قلبي.

1960

«ظلاً لم يندبه أحد»

ظلاًّ لم يندبه أحد
في الليل سأتجوّلُ هنا،
حين تتلألأ النجوم
ليلكاً مزهرا.

1920

ثلاث قصائد

- 1 -

آن أن أنسى لفظُ الجمالِ هذا
والمنزلَ الأبيض في شارع جوكوفسكي.
آن، آن الذهاب إلى البتولا والكمأة
والخريف الرحيب في ضواحي موسكو.
كل شيء يتألق بالندى هناك
والسماء تتغلغل عاليا،
وطريق روكا جوف الريفي المعبّد
يتذكرُ صفير بلوك الفتي،
صفير قُطّاع الطرق.

1944 - 1950

- 2 -

وتجدُ، متلمّساً ذاكرتَكَ السوداءَ
حتى مرفقِ القفاز نفسه،
هذه الليلة البتربورغيةَ. وفي غسقِ المقاصير
تلك الرائحة الخانقة، الحلوة.
والريح في الخليج. وهناك، بين السطور،
متجاوزاً آهاتٍ وأوهات،
يبتسم لك بلوك بازدراء :
هو صوت العصر التراجيدي.

1960

- 3 -

كان محقاً * .. ها هو المصباح ثانيةَ، والصيدلية
والنيفا والسكينة والغرانيت..
كتمثال لبداية القرن
هناك يقف هذا الرجل..

---

* تعني ... الشاعر بلوك (المترجم) .

حين لوّح بذراعه مودّعاً
منزلَ بوشكين
وتقّبلَ الكلالَ ألميتَ
كهدوءٍ لا يستحقه.

1946

«الشاي والخبز»

الشاي والخبز الفاخر على الطاولة
والسكاكر في إنائها الفضي.
وضعتُ ساقيّ تحتي، وجلستُ بارتياح،
وسألتُ بلا اكتراث: «أذاهب أنت ؟»
مددتُ يدي، فلامستْ شفتاه
خواتمي الباردةَ الناعمة.
لم نتفق على لقاء
فعرف أنها النهاية.

1910

«وتسبح الشهرة»

وتسبح الشهرةُ طائرَ تمّ

عَبْرَ الدخان الذهبي.
يا حب.. لم تكن أبداً
غيرَ يأس لِي.

1910

«مميتة أنا»

«مميتة أنا لمن هو فتيّ ورقيق،
أنا طائر الحزن. أنا غمايون.
غير أنني لا أَمسُّكَ بشيء يا ماديَّ العينين
فامض في سبيلك.
سأغمض عينيّ، وأطوي جناحيّ على صدري
كي تذهب، دون أن تلاحظني، في طريقك الأمين.
سأتوقف متسمّرةً، سأموت كي تجد سعادتك..»
هكذا غنّى غمايون بين الغصون الخريفية السوداء
لكنّ عابرَ السبيل حاد عن طريقه المُضاء*.

1910

* «غمايون»: طائر الموت في الشعر الروسي الشعبي. ويصوَّر، عادة بوجة امرأة. (المترجم)

إلى الشعر

في اللاطريق كنتَ تقودني
كالنيزك المنحدر في هاوية الظلام.
مضَضاً، كذباً كنت لي،
وعزاءً ما كنتَ في أيما يوم.

«بالرَّغم مِن وعودك كلها»

بالرَّغم مِن وعودك كلها
نسيتَني طوال النهار
وقد انتزعتَ الخاتم من يدي..
لم تستطع مساعدتي بشيء.
فلماذا، ثانيةً، في هذه الليلة
بعثت بروحك إليّ ؟
كان طيفاً فتيّاً، أهيف وأشقر
كان امرأة،
يهمس حول روما، يجتذبني إلى باريس
عاوياً كالمرأةِ النَدّابة..
لم يعد يطيق شيئاً بدوني :
ليكن عاراً، ليكن السجن.

1961

في الغابة

هي عيون أربع.. أربعُ قطعِ ألماز،
عينا البومة وعيناي.
آه ! مرعبةً كانت نهايةُ الحكاية
حيث مات خطيبي.

*

ها أنا منطرحة على العشب الكثيف النديّ،
كلماتي الرنانة لا رابط بينها
ومن فوقي تحدُق البومة في وقار،
مرهِفةً سمعَها إلي.

*

من حولنا تلتفُّ أشجار الشربين
والسماءُ من فوقها مربع أسود.
أنت تعرفين أنهم قد قتلوه،
قتله شقيقي الأكبر..

*

لا في مبارزة دامية
لا في معركة أو حرب،
بل في ممشى الغابة المقفر
عندما جاء عاشقي لملاقاتي.

1911

صورة قديمة

الأطارُ الضيقُ القديم
يُطبق، ذهبياً بيضوياً، من حولك،
ووراءك الصبيُّ الزنجي بمروحة زرقاء كبيرة،
أيتها السيدة البيضاء الرشيقة

*

كتفاك الناعمتان نحيلتان مثل كتفي صبية
وفي نظرتك عناد وتكبر.
والشموع العالية في بصيص خافت
لكأنها في مدخل معبد.

*

قربك، على الطاولة، تنطرح قيثارة
وفي القدح المضلّع وردة قانية..
أيةُ أصابعَ، ترى، أمسكتْ بلوحةِ الألوان الراعشة
في هذه القاعة المهيبة ؟

*

ولأجل أية شفتين
كانت شفتاك سماً زعافاً ؟
أنيقاً وفظاً
يلقي الزنجي، من ورائكِ، نظرته الماكرة اللعوب.

1911

«في حفيف شجرة البلوط»

في حفيف شجرة البلوط القديمة
ذكرى أزمنة غابرة
وشعاع القمر في امتداد فاتر.
ما لامس يوماً، في حلمه، شفتيها المباركتين.

*

النقاب البنفسجي يشد جبينها الشاحب
وهي قُربَه هادئة، مريضة.
أصابعها ترتجف باردة
مذكرةً برقةِ ذراعيها.

*

كان صامتاً تلك السنين الشاقة كلها.
لا مفرَّ، بعدُ، من عذاب لقائها هذا.
وهو يعرف جوابها منذ زمن بعيد.
أنا أحب، وما أحبّني أحد.

1911

«ها أنتَ ثانية معي»

ها أنتَ ثانية معي. يا صبيّاً دميةً!

أأكون، ثانيةً، رقيقةً كأخت ؟
في الساعة القديمة يكمن الوقوق
سيُطلُّ قريباً، ويقول: «حان الوقت»

*

أصخت بانتباه إلى هذه القصص الفارغة.
ينبغي أن تتعلم الصمت.
أعرفُ أن أمثالك، بهذه العيون الرمادية،
يعيشون في مرحٍ، ويقضون نحبهم في سهولة.

1911

«نظراتٌ أكثر توقداً»

نظراتٌ أكثر توقداً من النار
وابتسامةُ ليلى الساخرة..
يا أول نَيسان
لا تكن ربيعاً خادعاً لي

1963

«في الزاوية»

في الزاوية رجل شيخ أشبه بخروف

يقرأ «فيجارو» بانتباه.
في أصابعي ريشة جافَّة
ولم تزل ساعة الإنصراف بعيدةً بعد.

*

أمرتُكَ بأن تذهب.
عيناك قالتا لي كل شيء دفعةً واحدة..
النشارة تفرش الأرض في كثافةً
وفي الصالة نصف الدائرية رائحة سبيرتو.

*

هو ذا الصبا.. الصبا الوضيء

....

أجل كان أفضلَ لو أنني شنقتَ نفسي أمس
أو أنني ارتميتُ اليومَ تحت قطار.

1911

«أمضتْ نهارها كله»

أمضتْ نهارها كله عند النافذة
تائقةً إلى هبوب عاصفة مرعدة.
مرةً واحدة رأيت مثل هذه النظرة
في عيني قطة وحشية أطبق عليها فخ.

*

عبثاً تنتظر
لا لقاء بعد اليوم.
خانق هو القيظ وكأن قصديراً يتصبّب
من السماء حتى الأرض الجافة.

*

عبثاً تمزق قلبها مكتئبةً
محدقةً في العتمة الرمادية الكابية.
وُيخيّل لي أنها، فجأةً، ستموء
متلويةً فوق الأرض القذرة.

1911

«كما لو هَوَوْا بمطرقة»

كما لو هَوَوْا بمطرقة ثقيلة هائلة
فوق صدري الضعيف.
ليتني أفتدي نفسي بالذهب البرّاق
لقاء استراحةٍ واحدة!
ليتني أرفع نفسي فوق الوسائد
وأرى البركة الفسيحةَ ثانيةً
وأرى الغيوم وهي تسبح
فوق أعالي الشربين الرمادية الزرقاء.

أتقبّلُ كلَّ شيء: الألم واليأس
وحتى الشفقة الجارحة.
إنما لا تضع فوق وجهي
دثارَ ندمِكَ الثقيلَ بالغبار.

1911

«تعال أنظر إلي»

تعال أنظر إلي.
تعال.. ما زلت حيةً، متألمة.
لا أحد يبعث الدفء في هاتين اليدين.
وهاتان الشفتان قالتا: كفى!
كلَّ مساء يقرّبون مقعدي من النافذة
فأرى الطريق.
أألومك أنت
جرّاء قلقي الممضّ الأخير؟
لا شيء يخيفني على الأرض
في شحوبي وأنفاسي المتقطعة،
غيرُ هذه الليالي المرعبة
حيث تتراءى عيناك لي في الحلم.

1912

ذكرى شاعر

«كالطير يجيبني الصدى»

ب. ب

بالأمس سكت صوت لا نظير له،
وغادرنا كليمُ الأحراش.
وتحوّل إلى هذه الحياة الواهبة في السنابل
أو إلى ألطفِ مطرٍ طالما تغنى به.
كلُّ زهرة على الأرض
إنما تفتحت للقائه.
وسريعاً ما شمل الكوكبَ الهدوء،
هذا الكوكبَ باسمه المتواضعِ : الأرض.

*

كابنة أوديب الضرير
قادت المتكهنَ إلى موته ربةُ القصيد.
وهذه الزيزفونة المجنونة
هي الشجرة المزهرة الوحيدة في آيار الجنائزي
هنا قبالة النافذة
حيث أخبرني ذات يوم بعيد
وحيث كانت تحرسه الإرادةُ العليا،
أن طريقاً ذهبياً، مجنّحاً يتلوّى أمامه.*

1960

* كتبت هذه القصيدة في موت بسترناك (المترجم).

«ثانيةً بولونيز شوبان»

ثانية بولونيز شوبان.
رباه ! ما أكثر المراوح !
كم من أفواه رقيقة وعيون مطرقة،
غير أن حفيفَ خيانةٍ يُسمع عن قرب.
كان ظلُّ النغم يمرّ سريعاً على الجدار
دون أن يمسَّهُ بالخضرة القمرية.
آه ! كم من مرة كنتُ مقرورة هنا
وفي النافذة يوميءُ لي برأسهِ رجلٌ مرعب ما.

*

أيةُ فظاعةٍ في نظرةِ تمثالٍ لا أنفَ له،
إنما انصرفْ لا أريد نظرةً منك
وما أنا راغبة بصلاتك المريرة هذه.

*

ومن العام الثالثَ عشرَ
ثانيةً يصرخ صوته بي : أنا هنا أنا لك..
لا شأن لي بالمجد أو الحرية،
أعرف هذا جيدا.. وكانت الطبيعة صامتة
وكنت أشمُّ رطوبةَ القبر.

1958

«مع أول نغمةٍ تتعالى»

مع أول نغمةٍ تتعالى من الرويال
أهمس لك : «مرحباً أيها الأمير»
وأنت مَرِحاً وحزيناً
تقف منحنياً عليَّ.

*

غير أنني لا أستطيع أن أحزر شيئاً
في نظرتك العنيدة، الغريبة،
وأظلُّ محتفظةً بكلماتي الذهبية
في قلبي اللعين.

*

ستقرأها يوماً ما، وقد أنهكك الضجر
في لغةٍ أخرى،
وستفكر أن الملائكة ذوي الأجنحة الستة
يهيّئون مركباً لي.

1917

الليلة البيضاء

كانت السماء بيضاءَ بياضاً رهيباً
والأرض كالفحم أو الغرانيت.
لا شيء يتألق
تحت هذا القمر النحيل.

*

إمرأةٌ بصوتها الحماسي الأبحّ
لا تتغنى، بل تصرخ وتصرخ.
والحَوْرة السوداء من فوقي
لا تحفُّ لها ورقة.

*

فلأجل ماذا، ترى، قبّلتُكَ،
لأجل ماذا عذبتُ نفسي بحبك ؟
ألاجل أن أتذكرك، اليوم، هادئة، مرهقةً
وبهذا التقزّز كله ؟

1914

الوردة الأخيرة

عليّ أن أنحني مع موروزفا،

أن أرقص مع ابنة زوجة هيروديا،
وأطيرَ مع الدخان من شعلة ديدو
لأحترقَ، ثانيةً، مع جان*.

*

رباه ! أنت ترى أنني قد تعبتُ
من أن أنبعث وأموت وأحيا.
خذْ كل شيء.. إنما إجعلني أحس ثانيةً
بطراوة هذه الوردة الأرجوانية.

1962

«حين أدعو أصدقائي»

حين أدعو أصدقائي الأعزاء باسمائهم كما اعتدتُ من قبل،
لا شيءَ يردُّ على ندائي الغريب هذا،
لا شيءَ غيرُ السكون.

1943

---

* «موروزوفا»: من نصيرات الانشقاق الديني في روسياً قديماً، نفيت إلى دير بعيد.
«ابنة زوجة هيروديا»: طلبت رأس المعمدان ثمناً لرقصتها، بتحريض من أمها.
«ديدو»: مملكة قرطاج أحرقت نفسها بعد فرار ايناس بطل «الأنيادة».
«جان»: هي جان دارك (المترجم).

أشعار منتصف الليل
سبع قصائد

«لا شيء غير مرآة تتراءى لمرآة

وسكـون يهيمـــن على سكـــون»

«ريشكا»*

بدلاً من مقدمة

فوق الموج أتجوّلُ وأختبىءُ في الغابة،
أتراءى في الميناء الصافية،
أستطيع أن أحتمل فراقكَ عني
غير أنني لا أكاد أستطيع لقاءً معك.

1 ـ أغنية حزن قبيل الربيع

«كنت عزاء لي»

نرفال

هدأت الزوبعة الثلجية بين الصنوبر
لكنما الهدوء نفسه هناك طوال الليل،
ثمِلاً دونما خمرة

---

* «ريشكا»: الوجه الآخر من العملة. والكلمة هي عنوان الجزء الثاني من «ملحمة بلا بطل» لاخماتوفا، والسطران من الجزء نفسه (المترجم) .

يتغنى كأنه أوفيليا .

*

وذلك الذي خُيّل لي
أنه أمسى قرين المجالي الساكنة،
أراه، وقد افترقنا، في كل مكان
أراه معي حتى ساعتي الأخيرة.

1963

2 ـ إنذار أول

أيُّ شأنٍ لنا في حقيقة الأمر
أن يتحوّل كلُّ شيء إلى غبار،
أيُّ شأنٍ بعدد المهاوي التي غنيتُ فوقَها
والمرايا التي عشتُ فيها.
هب أنني لستُ حلماً، لستُ غبطةً
وأقلُّهم سعادة،
ربما سيأتي يوم
تجد أن أكثر ما يهمكَ أن تتذكر
هو دويُّ سطوري الآخذةِ بالهدوء
ومقلتي التي تخبئُ في قرارتها

ذلك الأكيلَ الشائكَ الصدئ
في هدوئها المضطرب.

1963

3 ـ فيما وراء المرآة

«أيتها الآلهة يا سيدة قبرص وممفيس السعيدتين..»

هوراس

لا قدرة لنا أن نغدو إثنين،
تلك الثالثة، الجميلة، الفتيّة،
إنما من عصر غير عصرنا،
لا تتركنا أبدا.
إنك لتقرّب الأريكة لها
وأنا أقاسمها الزهور بسخاء..
لا نعرف ماذا علينا أن نفعل،
ومع كل لحظةٍ نشعر بخوف أشد.
وكالخارجين من السجن
يعرف أحدنا عن الآخر شيئاً رهيباً ما.
نحن في هذه الدائرة الجهنّمية،
ولربما لسنا نحن هذين.

1963

4 ـ ثلاثةَ عشرَ سطراً

وأخيراً كأنكَ قد تفوهتَ
ليس مثل أولئك.. من ينحنون على ركبةٍ واحدة
إنما كالذي انفلتَ من الأَسر
فيرى ظلّ البتولا المقدس
خلال قوس قزح من دموع غيرِ إرادية.
وفجأةً تترنمُ بك السكينة
وتضاءُ العتمة الغروبيةُ بالشمس الرائقة،
ويتغيرُ العالم في برهة واحدة
ويغدو للخمرة مذاق غريب آخر.
وحتى أنا
قاتلة الكلمة الإلهية
صمتُّ مبتهلةً تقريبا،
كي تواصل الحياةُ المباركةُ سيرها.

1963

5 ـ دعــاء

في إيما سوناتا*

---

* السوناتا هنا لبتهوفن (المترجم).

أُخبئُكَ في احتراز.

آه! لكم أنت قلق في دعائك،

غير قادر أن تكون مذنباً

في أنك اقتربتَ مني

ولو لبرهة واحدة..

أمنيتُكَ أن تتلاشى تماماً

حيث الموتُ ليس غيرَ أضحيةٍ للسكون.

6 ـ زيارة ليلية

ذهبوا جميعاً، وما من أحد عاد.

ليس فوق الإسفلت المغطى بالأوراق المتساقطة

ستنتظر طويلا.

في موسيقى فيفالدي المتمهلة*

سنلتقي، ثانيةً، نحن الإثنين.

وستلوح الشموع صفراء خافتة من جديد

مستغرقةً في النوم،

ولن يسألك قوسُ قيثارتي

كيف دخلتَ بيتي في منتصف الليل.

وفي أنين مميتٍ أخرس

---

* فيفالدي (1680 ـ 1743) : الموسيقار الإيطالي (المترجم) .

سينقضي نصفُ الساعة هذا،
وستقرأ تلك العجائبَ نفسها
في خطوطِ راحتي.
وعندئذ سيحملك قلقكَ،
وقد أمسى قدراً لك،
بعيداً عن عتبتي
إلى أمواجِ الشاطيء الجليدية.

1963

7 ـ والأخــيرة

كانت فوقنا كالنجمة فوق البحر
باحثةً في ضوئها عن الموجةِ التاسعةِ المهلكة.
كنتَ تدعوها كارثةً وشقاء
وما من مرةٍ دعوتَها بهجةً.

*

في النهار كانت تخفق أمامنا طيرَ سنونو
وتزهرُ ابتسامةً في الشفاه،
وفي الليل بيدها الجليديةِ تخنقنا معاً..
في مدينتين مختلفتين.

*

ودون أن تسمع كلمة إطراءٍ ما
ناسيةً الذنوبَ القديمة كلها،
منحنيةً فوق أكثر الأسرّةِ أَرقاً،
تغمغمُ بقصائدَ ملعونةٍ.

1963

بدلاً من خاتمة

وهناك حيث تُنسَجُ الأحلام
لا يمكننا نحن الإثنين
أن نرى إلا حلماً واحداً،
حلماً قوياً كمقدمِ الربيع.

1965

«قائمةً تلوح الطريق»

قائمةً تلوح الطريقُ في حديقة الساحل،
والمصابيح رطبةً، مصفّرةً تلوح.
أنا في أتمّ هدوء.
حسبكَ ألا تتحدث معي عنه.
جذّابٌ ومخلص أنت، سنكون صديقين..

نتنزّه معاً، نتبادل القبل ونشيخ..
ولسوف تتطاير الأقمار الخفيفة من فوقنا
كنجوم الثلوج.

1914

«ستغفر لي كل شيء»

وستغفر لي كل شيء
وحتى أنني لم أعد شابةً
وحتى التهمة الباطلة
وقد امتزجت بإسمي في همساتهم
كالدخان الوخيم بالنار الممتعة

1925

«لم يَبُحِ الشيطانُ بشيء»

لم يَبُحِ الشيطانُ بشيء. كنت موفّقةً.
هي ذي علائمُ القوة الجلية.
فانتزعْ قلبي من صدري
وألق بِه لأشدّ الكلاب تضوّراً.

*

منذ اليوم لن أصلحَ لشيء
ولن اتفوّه بكلمةٍ واحدة.
لا حاضرَ لديَّ.. سأتباهى بالماضي
مختنقةً في مثل هذه الفضيحة.

1922

«أليس غريباً»

«كتبت في موت بلوك»

أليس غريباً أننا عرفناه ؟
كان شحيحاً بالثناءِ، بعيداً عن الحقد والانتقاص،
وكانت العذراءُ المقدسة
تحمي شاعرها الجميل.

1921

قصيدتان

- 1 -

بجهتيها معاً
حارّةً أمست الوسادة.
وها هي الشمعة الثانية

تنطفئُ، وصيحةُ الغراب
تبدو أكثرَ وضوحا.
لم أستطعْ نوماً هذه الليلة،
لا وقت بعدُ لأفكر بالرقاد.
أي بياضٍ لا يحتملُ لهذه الستائر
فوق النافذة البيضاء!
مرحباً!

- 2 -

ذلك الصوت نفسه، والنظرة نفسها تلك،
وتلك الغدائر بلونها الكتّاني.
كل شيء مثلما كان قبل عام.
وخلال الزجاج كانت أشعة النهار
تبرقشُ جصَّ الحائط الأبيض..
أرجُ الزنبق الطازج
وبساطة كلماتك.

1909

«بين زوبعة مرعدة وأخرى»

بين زوبعة مرعدة وأخرى

تقف السحب المجنّحة
ثريةً بسطوعها القاتم
فوق البتولا الساكنة.
ما إن تتوارى الزوبعة غرباً
حتى يحلّ هدوء بديع،
ومن الشرق ثانيةً
تنزلق العربة السماوية.

1915

«هوذا الخريف المثمر»

هوذا الخريف المثمر!
أحضروه متأخرين.
وخمسةَ عشرَ ربيعاً ناعماً
لم أجرؤْ على النهوض عن الأرض.
وحدقتُ به عن قرب
معانقةً، ملتصقة،
نسكبُ قوته السريةَ، في خفاء،
في بدني المقضيّ عليه.

1962

«هذا الرجل»

.. وهذا الرجل الذي لم يعد شيئاً بالنسبة لي،
كان همّاً لي
عزاءً في أشدّ أيامي مرارةً..
ها هو يتسكع هاذياً كالشبح على هامش الحياة،
في أزقتها ومجاهلها المقفرة
ثقيلاً، مخدَّر العقل بالجنون،
وبتكشيرةِ ذئب..
ربّاه، ربّاه!
كم ارتكبتُ أمامَكَ من خطايا فادحة!
أبقِ لي القدرةَ على الشفقة في الأقل..

1945

«حرفتنا المقدسة»

حرفتنا المقدسة
قائمة منذ آلاف السنين..
معها يُضاءُ العالمُ بلا ضوء.
إنما لم يقل شاعر واحد بعد،
إلا حكمةً هنا أو شيخوخة

وربما.. ولا موت

1944

«أُبلغكم»

لكنني أُبلغكم
أنني سأعيش في آخر مرة،
لا طيرَ سنونو، لا شجرةَ اسفندان
لا قصبةً أو نجمةً،
لا ماءَ ينبوع
لا رنينَ ناقوس،
لن أكدّر صفو البشر
فأزورَ الآخرين في رقادهم
بآهة لا تهدأ.

1940

«لا أحد يصغي إلى القصائد»

لا أحد يصغي إلى القصائد اليوم.
ها هي أيامٌ تتكهن بكلّ شيء.
لم يَعُدِ العالمُ جميلا.. فلا تصدحي

لا تمزقي قلبي يا أغنيتي الأخيرة.

*

قبل وقت ليس ببعيد كنتِ تخفقين كلَّ صباح
طيرَ سنونو حرّا،
وها أنتِ كالشحاذة الجائعة
عبثاً تطرقين أبوابهم الغريبة المقفلة.

1917

«لا تتوعدْني»

لا تتوعدْني بقدرٍ رهيب
وبالضجر الشمالي العظيم.
هذا أول عيدٍ لي معك
ويدعونه.. فرقةً.
لا بأس في أننا لا نلتقي الفجرَ
وأن القمر لا يتجول من فوقنا،
سأمنحكَ اليوم
هدايا لا نظير لها في العالم:
انعكاستي على المياه
ساعة لا يستطيع النهرُ رقاداً في الغروب،
وتلك النظرةَ التي لم تستطع

كالنيزكِ عودةً إلى السماء،
وصدى صوتٍ عاجز
وكان عند ذاك طازجاً صيفيا..
كي يمكنَك أن تسمع دونما ارتعاشة
لغوَ الأغربةِ في ضاحية موسكو،
وكي تغدوَ رطوبةُ تشرين
أكثر عذوبةً من ترفِ آيار..
فاذكرْني يا ملاكي،
اذكرْني حتى الثلجِ الأول في الأقل.

1959

«لا ترتعبْ»

«لم نهجر شاطئك، أيتها الملكة، إلا مرغَمين».

الأنيادة ـ النشيد السادس

لا ترتعبْ.. أستطيعُ الآن
أن صورنا أكثر شبهاً بنا.
شبحٌ أنت أو رجل عابر
لسبب ما احتفظ بظلك

*

زمناً ليس طويلاً كنت أنيساً لي،
وكانت النار خلاصاً لي منك.

كنا نعرف كيف يصمت أحدنا عن الآخر،
ونسيت أنت بيتي اللعين.

*

نسيت اليدين الممدودتين خلال اللهب
في الهول والعذاب،
ونبأ الأمل الملعون.

*

أنت لا تدري أنهم قد غفروا لك..
بُنيتْ روما، والسفنُ تبحر أفواجا،
والملقُ يمجّدُ فوزَك.

1962

«يا ابنة الليل»

«عن تمثال (الليل) في الحديقة الصيفية»

يا ابنة الليل!
في غطائك النجومي
في زهور الخشخاش الجنائزية، مع البومة المؤرقة..
يا ابنتي!
وغطيناك نحن
بأرض الحديقة الندية.

فارغة هي أقداح باخوس
وعيون الحب باكية، دامعة..
وهذه التي تمرُّ فوق مدينتنا
هي أخواتكِ المرعبات.

1942

«ليكنْ هذا»

«في ذكرى صديقة»

ليكن هذا من مجموعة أخرى..
تتراءى لي ابتسامة العينين الصافيتين.
و«ماتت» تتسلل باعثةً على الشفقة
ناعيةً كنيتَها الحبيبة
كأنما أسمعُها لأول مرة.

1960

«يا أولَّ واقفٍ عند الينبوع»

«إلى بلوك»

يا أولَّ واقفٍ عند الينبوع
بابتسامةٍ ميتةٍ، جافة،

لكم اعيتنا نظرتكَ الفارغة،
نظرتك الفادحة.. يا مؤرقاً في منتصف الليل.
غير أن السنين المرعبَة ستمرُّ،
وسريعاً ما تعودُ فتياً من جديد
وسنحتفظُ لك بالبردِ الخفي،
بردِ كلّ دقيقة تمرُّ.

– بين 1912 و1914 –

«تنثّين في رقصتك»

«إلى راقصة الباليت تمارا..»

تنثين في رقصتك كأغنية،
رقصتك الخفيفةِ الناطقةِ بالسموّ،
خدّاك الشاحبانِ يتورَّدان حمرةً
وعيناك تشتدّان إظلاما.

*

ومع كل دقيقة يقوى إنشدادنا إليك،
أسرى، ناسين وجودنا نفسه.
وتنعطفين مع النغمات الناعمة
ثانيةً بجسدك اللّدن

1914

«القمرُ اللعوب»

وأبصرَ القمرُ اللعوب،
متوارياً وراء البوابة،
كيف قايضتُ بتلك الأمسية
شهرتي الآتية بعد موتي.

*

لا أحدَ يتذكرني اليوم
وكتبي تتعفّنُ في الخزانة.
ولن يحمل إسم أخماتوفا
شارع أو مُوَشَّحُ غناء.

1946

«لا أمتلك مزاعم خاصة بي»

لا أمتلك مزاعم خاصة بي
تُجاهَ هذا المنزل المتألق،
غير أن ما جرى هو أنني عشت حياتي كلها تقريباً
تحت السقف الشهير
لِقَصْرِ النافورة هذا..
شحاذةً دخلته وشحاذة سأخرج منه.

1952

«سَيَنْسُونني»

سينسونني؟ لا شيء يدهشني في هذا !
مائةَ مرةٍ نسيت،
وانطرحتُ في القبر مائة مرة،
حيث لمّا أزلْ منطرحةً ربما.
وأمسيتُ ربةَ شعر عمياءَ صمّاء
واحترقتْ رمادا.. بذرةً في الأرض
كي تنهضَ، فيما بعد، كالفينيق مِن الرماد
في الأثير الأزرق.

1957

«وخفضنا أعيننا»

وخفضنا أعيننا،
مُلقين أزهارنا فوق السرير.
وحتى النهاية لم نكن لنعرف
كيف يدعو أحدنا الآخر باسمه.
وحتى النهاية لم نكن لنجرؤ
أن نتلفظ باسم،
كالمتلكئين

عند غاية طريقنا الخرافي.

1965

تحت أَحَبٍّ شجرة اسفندان

تحت أَحَبِّ شجرة اسفندان
سأقيم لك وليمةً من نقاشٍ حافل،
نقاشِ السكينةِ مع الرنين الفضي
ومياهِ البئر الصافية.
ولا ضرورةَ لأن تردَّ بأنةٍ تراجيدية.
إنتظرْ.. أنا لا أنكر
أن في هذا الغسق الأخضر القاتم
قيظاً خفيفاً متوجسا.

1961

«حين شربت...»

حين شربتَ في هذا القيظ المحرق
لم تعد بقلبي حاجة لشيء..
كان بناء «اونيفين» الهوائي الهائل

واقفاً كالسحابة من فوقي.

1962

الوردة الخامسة

«مهداة إلى شاعر أهداها خمس وردات»

- 1 -

أكان اسمكِ شمساً أو أجملَ وردة
أو أيّ اسمٍ شئت،
إنما بهذه اللاإعتياديةِ التي صرتِها لي،
أريدُ أن أتذكركِ أبدا.

- 2 -

تتألقين بضوئك الشبحي
فتذكرينني بحدائق الجنة.
سونيتاً لبترارك يمكنك أن تكوني،
بل أبدع سونيت له.

- 3 -

ونندّي شفاهنا بك،

ولتباركي منزلي.

كالحب أنت.. إنما المسألة هنا

أبداً ما هي عن الحب بشيء.

1963

رسول حمزاتوف
(1923- 2003)
قصائد مختارة

مقدمة

«تعوز المرءَ سنتان ليتعلم الكلام،
ولكي يتعلم الصمت يعوزه ستون عاماً.
وما أنا ابن عامين ولا ابن ستين عاماً»
رسول حمزاتوف

ولد الشاعر السوفيتي رسول حمزاتوف عام 1923 في قرية تسادا، وهي من القرى الأفارية في داغستان، وأفاريا قومية صغيرة، كانت العربية هي أبجديتها الأولى.. شأن العديد من القوميات الشرقية المسلمة. كان والده، حمزة تساداسا، شاعراً معروفاً. أنهى الشاعر دراسته في معهد غوركي الأدبي في موسكو. وهو الآن من أكثر شعراء الإتحاد السوفيتي شهرة، بالرغم من أنه لا يكتب إلا بلغته الأفارية. غير أن أشعاره سرعان ما تترجم إلى اللغة الروسية وغيرها من لغات العالم.

وكأي شاعر أصيل يظل حمزاتوف مشتعلاً باللهب الوطني.. لهبِ أرضٍ ولدته وأطعمته من مائها وثراها. إن أهمَّ ما يتجلى في شعره هو هذه الروح الشرقية الجبلية. فأفاريا منطقة جبلية أولاً. والطابع الشرقي، عنده، هو الخلاصة المتبقية من الموروث الشعبي الجبلي والتأثير

الحضاري العربي. وليس غريباً أن نجد لهذين التيارين امتزاجاً صافياً واحداً في نفسه الشاعرة وفي ثقافته الوطنية .

قبل أي شيء آخر فنحن أمام شاعر من الشرق النابض بالدفق العربي الإسلامي القديم. ويتمثل هذا في بساطته الشعرية العميقة، والتقرّب من الحكمة. وكأنه يتحدث بلسان شيخ شرقي قديم. وهذه الروح القريبة من حكمة القدامى تتلألأ في أشعاره بين حين وآخر. والشيء المهم الآخر في تجربته الشعرية هو هذا الانفتاح على العالم الإنساني. وهو انفتاح الشجرة القوية، الراسخة في أرضها، المتشبَّعة بنسقها، على رياح العالم الطيّبة .

إنه يمدّ ذراعيه الوديعتين إلى العالم كله.. شاعراً أفارياً مسلّحاً بطيبته وبخنجره الجبلي. في أبهى متاحف أوروبا وأكثرها فخامة لا ينسى أن وجه امرأته الأفاريَّة هو أول صورة رائعة يمكن أن يتخيلها فنان .

وهو في الوقت نفسه شاعر معاصر. في مثل هذه القوّة الشعريَّة التي يتحدث بها عن الجبل ورجاله القدامى، وعاداتهم الشرقيَّة القديمة.. يصوِّر فتاة من جيله، فتاةً عاشقةً هي أية فتاة من هذه الأرض.

وهو لا ينسى أن يحاور العالم بلغته، لغة أجداده، إن أفاريا بقعة من الكرة الأرضية، غير أن هذه الكرة كلها في أفاريا، وهنا تكمن قوته، وجرأته في الحوار مع العالم .

وعَبْرَ هذه البساطة في شعره تترامى أبعاده الإنسانية الدافئة. وكلما اتسع افقه الشعري، أحداثاً وتأملاً، كان الشاطئ الأول والأخير قريته الجبلية. يقول حمزاتوف، في بحثه عن الرَّائع الجديد :

الأعاجيب كلها في الجوار مني ..

ولرسول حمزاتوف يوتوبياه أو جمهوريته: هي بلد الحب. وإذا كان يعني هنا عالماً لا قانون لهُ إلا قانون الحب وحده.. فإن له في الحب، مجموعةً كبيرة من السونيتات، وهي مترجمة هنا. وهو يحاول، في هذا، أن يتقدم بخطاه في طريق مرَّ عليه شعراء معروفون: شكسبير وبترارك خاصة، غير أن لحمزاتوف نغمةً أخرى: هو غير شكسبير الشاعر المعذَّب، مع حكمته في الحبِّ والحياة، وهو غير بترارك المتولّه بإمرأة ليس له منها إلاّ نظرة. لا حبَّ لرسول، هنا، إلا في بيته.. فما لاؤرا هنا إلاّ امرأة بيته. وبالطبع ما نحن، هنا، عند شيء يذكِّرنا بأراغون أو حكمت. يبدو حمزاتوف في سونيتاته شاعراً سعيداً بالرغم من إحساسه بجريان الزمن المريع. وأرى أن الحكمة الشرقية الهادئة كانت سبيلاً إلى سكون الشاعر الرائق. بل أن الزمن نفسه لم يكن إلا عاملاً في اشتعال حبه الرقيق كالنار المتَّقدة تحت رمادها. كلما أظهر الزمن شيئاً من بقايا حريقه.. اشتدَّتْ يد العاشق تشبثاً بالمعشوق. ولعلَّ هذه السونيتات، في تصوري، هي خير ما يمثِّل تجربةَ الحب المنزلي الهادىء، وقد أتذكر سونيتات نيرودا المائة في الحب. إن فيها النزعةَ القريرة نفسها تقريباً. غير أن لنيرودا عالمه الإسطوري الآخر. إن حمزاتوف، في سونيتاته، رجل شرقي، جبلي من تسادا، طافَ العالم بعيني شاعر، وعاد ليجد كنزه في بيته .

إن عظمة حمزاتوف في «أفاريّته».. في أن القلم لديه هو الخنجر الأفاري الجبلي القديم، في أنه ظل أفاريّاً صافياً في عناقه مع الآداب

الإنسانية الأخرى. إن نهراً يتدفق بين حدوده المحلية الضيِّقة.. لهو نهر في مثل كبرياءِ أي نهر يشق طريقه عَبْرَ قارَّة.. وأن لغةً مثل لغته الأفاريّة النابضة في نقطة من العالم، هي لغة تتحاور، في جلال وهدوء، مع لغات الأرض المترامية.

ولو ابتعد ذلك الفتى تسادا، عن لغة تسادا ومياهها الجبلية، وهمسات قُداماها في صلاتهم، وبريق خناجرهم، وحمحمة خيولهم.. وفراءٍ هائل تتدثر به رؤوسهم، أكان يمكن أن يكون هو هذا الشاعر؟ إن ما خلق منه شاعراً هو أرضه وتشبثه بأرضه.. تشبثاً تسع يداه الرائعَ والطيِّبَ من العالم.

حسب الشيخ جعفر

بغداد

1986/1/28

القصـائد

«تمرُّ في حياتنا ساعة كهذه»

تمرُّ في حياتنا ساعة كهذه :
صامتين نظلّ بلا حوارٍ عن أيّ شيء،
معتمدين بذقوننا على أيدينا
جالسين أمام النار أو البحر .

*

نجلس دون أن نبدأ حديثاً
لا عن جمال العالم أو عن العمل،
وكأننا نخشى أن يوقظ حوارنا الأبدي
الأطفال النائمين في مهودهم .

*

وها نحن نجلس معاً نحن الإثنين
صامتين، غيرَ أن العالم كله يكمن في صمتنا هذا،
وفي قلبينا المستكنّين في الصدر منا
يكمن ما لا يمكننا أن نعبّر عنه .

*

ما من أنهار جبلّية على الأرض
تظلُّ جائشةً بلا انقطاع .

أغنية العندليب

أتسمع أغنية العندليب ؟
إنَّ بهجةً حافلة تتعالى فيها .
إنما.. عن أي شيء يترنم ؟
واحسرتا ! لا أحد يدري .
أنا موقن
أنه يتغنى عن الوطن .
فإن تغنى بغيره لأضجرته منذ زمن بعيد .

الليكي*

إلى إبنة ايراكلي أباشيدزه

بعيداً تخلّفت الأنهار
وسلاسل الجبال المدثرة بالثلوج .
وها هو الليكيُّ في بيتك اليوم
فلماذا لا تبكين خوفاً ؟

*

أم أن أُمكِ
لم تعد تُغنّي

* «الليك»: هكذا في جورجيا، قديماً، يدعون أهل داغستان (المترجم) .

بين أهلك طوال المساء
عن غاراتي المرعبة ؟

*

أم أن أباك يا صغيرتي
لم ينبئك وقد علته الكآبة
أنني قاطع طريق محنّك
قد حللتُ قريباً منكم ؟

*

أم أنني لم أعد أُثير حسده
ممتطياً جوادي شبهَ المتوحش ؟
في جهاتكم هذه
كنت أُخيف من هم أكبر مني .

*

في الأيام الخالية
كانت الأمهات تخيف أطفالها بي :
«نامي وإلاّ سيجيء الليكيُّ على جواده السريع
نامي يا صغيرتي نامي !»

*

في خرائب الأبراج القديمة
ترفرف أسراب اليمام آمنةً .
لا أحد يخشى الليكي

في جورجيا اليوم .

*

لقد ولدتِ بعينين صافيتين
وسأرفعك
عالياً بين يدي
كالنجمة فوق جبالكم .

*

إنكِ لتنظرين إليَّ بشجاعة
أتريدين أن نجلس عند النهر ؟
ومن الزهور، بمهارتي القليلة،
سأضفر لك إكليلاً .

*

مرَّ النهار . .
وعند المضيق الجبلي
يتسكع القمر بين الغيوم
وها أنت تنعسين هادئةً
بين يدي ضيفك .

*

في الشعاب الجبلية تندفع الأنهار
وفي بيتك
يهدهدك الليكيُّ الطّيب :
«نامي يا صغيرتي نامي . .»

في مدينة نارا

كالنّعسى تبدو شجرة التوت .
ظلها ساكن لا يتمايل .
أنا في مدينة نارا .
أنا في عاصمة اليابان القديمة
طوال النهار .

*

هنا تقام منذ زمن بعيد
الطقوس البوذية الأولى
وبالقرب من الهياكل
حرةً تتسكع الوعول بقرونها المتشعّبة .

*

هو ذا بخطواته الملكية الخفيفة
كما لو أنه لا يمسّ الثرى
قائد القطيع الجميل ،
يتقدم لتحيّتي
فخوراً يهز تاجه المتشعب .

*

يتنفس بحرارة
وخطمه الذكي الطيب

بخفةٍ ولطف
ينطرح على كتفي .
والنهار كأسطوانة تدور
أوشك أن ينتهي .
آه يا حيواني الجميل !
إن لنا معاً نحن الإثنين
هذه الطمأنينة إلى الآخرين .

*

عش حذراً .
أنا لا أُخفي عنك .
لما تزل الرَّغبات الوحشيَّة قويةً ،
ولم يكتفوا ، بعدُ ، تماماً
عن مطاردتنا وصيدنا .

«حين يهطل المطر عبر النافذة»

إلى ب . يو

حين يهطل المطر عبر النافذة .. أفكر بكِ
حين يتساقط الثلج ، ليلاً ، في الحديقة .. أفكّر بكِ
في مَقْدم الفجر .. أفكر بكِ
حين تهاجر الطيور .. أفكر بكِ

حين تعود الطيور.. أفكر بكِ
حين تتغطى الشجيرات الخضر بالثلوج
لا أقدر أن أفكر بشيءٍ آخر.. أفكر بكِ
لابد من أنكِ فتاة طيبة
ما دمت ليلاً ونهاراً.. أفكر بكِ!

عيناكِ

رأيتُ عينيكِ في أوضاعهما المتباينة:
رأيتهما هادئتين.. رأيتهما عاصفتين
رأيتهما وضيئتين كالنهار الصافي
رأيتهما قاتمتين كظلّ الليل
وكالبحيرات الجبليّة رأيتهما،
تنظران من تحتِ حاجبيكِ نظرةً شفيفة.
رأيتهما غريقتي حلم ما
أو مُحتَجَبتين خلف أهدابك الطويلة
وضاحكتين رأيتهما..
رأيت نظرتهما المتعبة الحزينة
وعلى سطوري حانيتين رأيتهما..
عيناك سلبتاني
نظرتي الصافية الهادئة، الرابطة الجأش
وأنا غريب الأطوار، أتغنى بهما للمرة المائة.

«قريباً يهلُّ الفجر»

قريباً، قريباً يهلُّ الفجر الربيعي
الناس نيام، لا يعنيهم عاشق مثلي في أي شيء ،
كان النوم، قبيل الفجر، ممتعاً لي
وها أنتِ تحرمينني هذه المتعة .
ولكي تعرفي كم أحبكِ
وأنني جرّاءَ حبكِ لا أجد سبيلاً إلى النوم
أود أن أضع قلبي على صدرك
لكنك، عندئذٍ، لن تستطيعي رقاداً حتى الصباح .

«في يوم ممطر تخاصمنا»

في يوم ممطر تخاصمنا
وتجهّم وجهانا :
« كلاَّ .. لن يفهم أحدنا الآخر
كلا .. لا يمكننا أن نتفاهم ! »
وأقسمنا معاً ،
كابِحَين دقاتِ قلبينا ،
أنها النهاية أخيراً
وأننا عدوّان حتى القبر .

وتحت المطر المتساقط من الأعالي
جاهدين ألاّ نلتفت ،
متجهاً إلى اليمين، متجهةً إلى اليسار
افترقنا بلا وداع ،
ومضيتُ إلى منزلي
دون أن أمدّ يدي إليك ..
ليس مهماً أنني كنت محقاً أو غير محق
فلقد انتهى كل شيء .
بهذه الكلمات دخلتُ بيتي
مقفلاً بابي بالمفتاح .
عبر النافذة تَسْوَدُّ أجنحة السحب
ويدق المطر كالطبول .
بغتة تذكرت أنك تسيرين
حاسرةَ الرأس
وليس معك معطف مطر !
فانتزعتُ معطفي في هذه اللحظة نفسها
واندفعتُ تحت نشيج المطر
آخذاً أقصر طريق ،
وخلال الأمطار ،
لأدفعَ عنكِ مرض الانفلونزا .

فوق الأزانيا

«ومررت فوق الأزانيا ..»

تيخونوف

وأنا الآخر مررت فوق الأزانيا
وفوقه، مرتفعةً عن الصخور ،
في طوافها الصباحي المبكّر ،
تحلّق النسورُ الجبلية .

*

لم تكن لتهيب بي لأنْ أتراجع
ولم تتنبأ لي بكارثة ،
كنت أتقدم بلا سلاح أو كآبة
مترنماً أثناء سيري .

*

وكما في عهوده الغابرة
كان النهر يندفع وراء ظل الأجنحة .
ولم يكن مضرجاً بالدماء :
هو الفجر ينطرح أرجوانياً فوق صدره .

*

على السفوح النائية تصحو الغابات
وكنت آخذ الفجر براحتي

منحنياً فوق الأمواج ،
وأغسل وجهي متمهّلاً .

*

وهناك حيث يتسلل النهر إلى الوادي
منعطفاً قليلاً ليتابع ركضه
التقيت برجل من كاخيتين
يحشُّ الأعشاب في المرج .

*

كان في وجهه شيء من ايراكلي الثاني
غيرَ أن كلمة مودة
سرعان ما انطلقت من فؤاده
آتيةً إليّ في الهدوء الشامل .

*

فتبسّم وجهانا معاً
غيرَ متذكرين حزازات الأجداد ،
اجل! ليمرّ القرن من يد إلى يد ،
ممتلئاً بالخمرة
ولتتوهجِ الصداقةُ في القلوب .

*

كنت اتلذذ بمنظر الأزانيا ،
والفجر، بالرغم من الظلمة ،

كالأيل غيرِ الوجلِ
ينحدر إلى النهر من جبال داغستان .

عند جسر مكسوب

ستمكث هذه الليلة طويلاً في الذاكرة :
فوق العشب الأزرق
قريباً من الآوُل*
انطرحنا معاً عند جسر مكسوب .

*

كانت الخيول ترعى الكلأ على السفوح
والقمر يفضّض التلال .
وكنا نضع تحت رأسينا
أيدينا المتشابكة الأصابع .

*

وكما يستطيع الأطفال وحدهم أن يصغوا
إلى أجدادهم المكلّلِي الرؤوس بِالثلوج
كنا نصغي، مُلهَمين،
إلى صرصرة الغدير الجبلي

---

* «الآوُل»: القرية كما تدعى في القفقاس وآسيا الوسطى (المترجم) .

وحفيف العشب ورنين الجُلاجل .

*

عندها كان السكون يتوّج العالم
والفتنة الساحرة تحيطنا من كل صوب
عظيمةً وجليلةً ،
وقد تملكتني بهجة حافلة مباغتة .

*

وكالجبليّ حين يرى ضيفاً آتياً عن بعد
يسرع باشعال قناديله كلها ،
كانت سماء منتصف الليل
تنثر فوقنا حفنةً هائلةً من النجوم .

*

ومن فرط سعادتي لم أتمتّع جيداً بالنجوم
ولم أستطع التنفس بسهولة .
وما إن تذكرت طفولتي
حتى خُيّل لي
أن نسيماً دافئاً يهبّ عليّ .

*

ومن جديد كنت أفكّر بوطني
ولهذا السبب الاعتيادي
كنت أُمتّعُ نظري بالجمال الإنساني

خاليَ الذهن من مشاهد الشر البشري .

*

كنت أفكر كم نُحبُّ نحن بحرقة

مزدرين الكذبَ والزيف .

وحتى خفقتهِ الأخيرة

يظل قلبي دافقاً بحب الآخرين .

«أمس كنت أسيراً وحيداً»

أمس كنت أسير وحيداً في الشارع

كنت أقول.. آن لي أن أرحل

فإذا رحلت فإلى الأبد

كي لا أعود ثانية إلى هنا .

كنت أؤكد أنكِ، بالطبع، غير محقّة ،

وأَشتُمُكِ لقاءَ كلماتك كلها

قائلاً مراراً إنني سأجد غيرك

لا لشيء إلا نكايةً بك .

وكانت خطاي بين إسراعٍ وإبطاء .

ووجدتُ نفسي عند باب منزلك .

الأوراق الصفر

كان المطر يقطر بلا انقطاع
يقطر فوق الغصون العارية .
وتتساقط الأوراق بلا انقطاع ،
الأوراق الصفر المتبقية على الغصون .

*

الريح الخريفية كالسيد العظيم
تطردها عاويةً، مقهقهة بخشونة ،
كما يُطرد المساكين غير المدعوين
بعيداً عن ابوابنا حيال الشارع .

*

ويمر العابرون بأحذيتهم الثقيلة
فيدوسونها في الوحلِ والطين
ناسين أن هذه الأوراق نفسَها
قد وهبتهم الكثير من الكَرَمِ منذ حين .

*

أنا أعرف أن أوراقاً جديدة ستخضرّ
والبراعم ستنتفخ كما في السنين المنصرمة .
فلماذا يبدو لي أن الكثير من قوانين الطبيعة
خال من العدالة ؟

«أُحبُّ الفجر القرمزي»

وأُحبُّ الفجر القرمزي ،
أحب الغروب، وهو وقت الصلاة ،
أحب العسل في لونه الأول
أحب أُرجوان الأوراق المتساقطة .

*

وأُحبُّ العراءَ، لا المكوثَ في البيت ،
وأن انعسَ واتمدد
في الحقل الرائق فوق الأعشاب المسكرة
إلى أن ينحدر القمر فوق رأسي .

*

بلا زورنا وبلا جنغور*
يمكنني أن أتمتع بالموسيقى ،
فليس عبثاً أن تراني، إذن ،
أتردَّد كثيراً على ضفَّة الساقية .

*

أستطيع أن استغنيَ عن المنزل نفسه
ما بي حاجة لأي شيء في الحياة
سوى أن تظل الجبال بصخورها وسلاسلها

* «الزورنا»: نوع من المزمار، و«الجنغور»: آلة وترية (المترجم) .

قريبةً من قلبي .

*

لأكثرَ من مرة، في الأقل ،
سأطوفُ بها، متسلقاً تضاريسها .
كم من لون لم يعتم هنا
كم من صفاء باق منذ بدء الخليقة !

*

كالسمك النهري يبدو النبع في الصباح
منقطاً ببقع أرجوانية عند سفح الجبل .
وكي أغسل وجهي ،
بيديَّ الدافئتين
آخذ فضّته القارسة .

*

وأُحبُّ الضجيج في قاع شقوقها
يبعثه الماعز الجبلي ،
ملقياً قرونه إلى وراء ،
والخضرةَ المنبثقة من خلال الصخور
والثلوجَ الباقية منذ آلاف السنين .

*

وأُحبُّ الشجر
أعبده بثقة طفل .

وأدخل الغابة كما أدخل باب صديق
أتجوَّل فيها كأنني في مملكة .

*

أرى أزهار الوادي الجبلي
والنحل لم يتذوق من بريقها إلا قليلاً .
أنحني محيياً بقلبي كله
كلَّ قبضة من ثرانا الغالي عليَّ
منذ طفولتي .

*

على ركبتيَّ عند منعطف النهر
أركع كما يركع الحجاج ،
رافعاً يديَّ إلى السماء
داعياً، مصلّياً لأرضي المعشوقة .

الغرانيق

يخيل لي، أحياناً، أن الجنود
الذين لم يرجعوا من الحومة الدامية
لم يرقدوا تحت الثرى
إنما تحولوا إلى غرانيق بيضاء .

*

منذ عهود غابرة إلى اليوم
تطير وتُسمِعُنا أصواتَها .
أترى لهذا حينما نتطلع إلى السماء
غالباً ما نصمت مكتئبين ؟

*

اليوم، قبيل الغروب ،
أرى الغرانيق في الضباب
وهي تطير في انتظامها المحدد
كما نسير متثاقلين في الحقول .

*

تطير متابعةَ طريقها الطويل
هاتفة بهذا الإسم أو ذاك .
أترى لهذا يبدو الكلام الأفاري منذ القدم
شبيهاً بصيحات الغرانيق ؟

*

يطير، يطير السرب المثلث المرهق
يطير في ضباب أخريات النهار ،
وفي ذلك النظام أرى فجوة صغيرة
لعلّها هي المكان المهيّأ لي .

*

سيجيء يوم أطيرُ فيه

مع الغرانيق في مثل هذا الضباب
الأزرق الرمادي
منادياً، والسماءُ من فوقي ،
كلّ صديق تركتُه على الأرض .

عن الحبّ

أسيراً عدتُ من جديد ..
كنتُ صبياً ذات يوم
فجاء الحب، مُسقِطاً الوردةَ من يدي ،
كاشفاً لي عن أسرار قوانينه
وسريعاً ما جعل مني رجلاً .

*

في أوج نضجها، لا في صورة إلهة ،
إنما امرأة من لحم ونار
ما إن تلوح أمامي الآن
حتى أعود صبياً مثلما كنت .

*

خجلى هي، وجلةٌ وبلا حياء
وأنا أتحرّق من جديد
فتتحول صورتها، بتعبدي لها ،

من امرأة إلى إلهة .

*

غالباً ما يُشبه الحب

معركة، يبدو أن القدر

قضى علينا أن نخسرها تماماً ،

وفجأةً.. أية معجزة !

ها نحن نربح القتال .

*

غالباً ما يشبه الحب

معركة، يبدو أننا رابحوها تماماً ،

وبلا توقُّعٍ تصلنا الأخبار

أننا قد خسرناها تماماً .

*

مع أن الحُبّ لا يخلو من الألم

فهو يبدو أحياناً ،

دونما اهتمام بالجراح ،

مُمتعِاً كالرقدة تحت المعطف الوبري

في الحقول

والمطر مثل أغنية مهد .

*

بلغتُ من عمري وسطه

غير مغمض عيني مهما يكن من الأمر .
أكتب شعري وكأنما في آخر لحظة لي
وأُحب وكأنما أحب لأول مرة .

«غالباً ما أتذكر..»

غالباً ما أتذكر في المدن البعيدة
ساكلاي ذا الطابقين* .
غالباً ما أتذكر حقلاً بين الصخور
حيث انطلقَ بي جوادي مراراً وأنا صبي .
غالباً ما أتذكر عين ماء جنب القرية
حيث حملتْ لي جرّتها لأول مرة .
غالباً ما أتذكر طريقاً في مهب الرياح
حيث كانت توصلني صباحاً .
غير أنني لم أتذكر، مرةً، تلك التي أحببت
لأنني لم أنسها مرةً في أيما يوم .

يوم ميلادكِ

ينشر كانون الأول ثلوجه فوقنا

* «الساكلا»: البيت في جبال القفقاس (المترجم) .

نافخاً أنفاسه الصقيعية في كل زاوية .
وعند نوافذنا تتصادم الرياح بجباهها ،
رياح البحر ورياح الجبال .

*

في مثل هذا اليوم من كانون الأول ولدتِ أنت ،
في مثل غموض هذه الطبيعة نفسها :
ما كنتُ لأظنُ أبداً أن الزهور
تبدأ حياتها في هذا الوقت من السنة ،

*

وأن التربة تنشقُّ عن أعشابها في الشتاء
وأن في الشتاء يولد السنونو .

نانا غوينيبادزه

عزيزتي نانا غوينيبادزه
في الحقيقة، بديعة هي مدينتك تبيليسي
غير أنني راغب اليوم بالتمتع
في غير جمال شارع روستافيلي .

*

عزيزتي نانا غوينيبادزه
ماذا يهمني من الحوائط بمزاغلها وندوبها؟

أريد أن أمتع نظري اليوم
بهذه النجوم التي تخبئينها وراء أهدابك .

*

ولعلها هي مكمن السبب
في أن سلفي غير اللطيف رجبادين
كثيراً ما كان يتجه بفصيلة من متطوعيه
غازياً قرى جورجيا .

*

أكان يستطيع، هو الأعرج المتوحش ،
أن يتلذذ بحياة البيت الهادئة
ما دام يمكنه الوصول إليك
عبر الجنادل الجبلية ؟

*

ولعلي أنا أيضاً، لو عشت في ذلك الزمن ،
كنت سأجي بالسبايا الجميلات المرتعشات
معتمداً على ركابي المطرّق
ملامساً السحب بغطاء رأسي الفرائي .

*

كثيراً ما عاد أسلافنا
على سروجهم بصافيات العيون .
ربما لهذا تشتهر، اليوم، بناتنا الأفاريات
بجمالهن الجورجي .

أغنية الدف

إلى موي حسنوفا

«غني لنا عن الحب، غني عن الحب»
يسألني الشباب .
«عن معارك الأمس غني لنا يا موي»
يسألني الشيوخ الجبليون .

*

هَلُمَّ نبدأ الأغنية، هلم
ونتذوق الخمرةَ الفتية ،
ولآخذ بيدي اليسرى ثانيةً
آخذ دفي، آخذ دفي .

*

في الجبال أُغني الشبابَ أغنيةَ حب
كي يتحسّر الشيوخ الجبليون
متذكرين مآثرهم وفتوّتَهم
وكيف كانوا يختطفون العروس اختطافاً .

*

وأغني الشيوخ كي يفتخر الشباب
باسلافهم المندفعين تحت الرصاص :
بعيداً عن بيته وجدوا قبعته

أما قلبه.. ففي الآؤل عند حبيبته .

*

في غروبِ يومٍ ربيعي
راح صديقي يلاطف جبليةً أخرى ،
غير أنك لن تتخلّى عني حتى موتي
أنت يا دفي، أنت يا دفي .

*

سيدتك أنا، جاريتك أنا ،
اعترف لك ساعةَ فراغي
بما لا أعترف به لأمي نفسها
وما أكتمه عن صديقتي الأمينة .

*

في مهرجانات موسكو أغني ،
في النوادي، في الأعراس
وكأنما كنت أغني لك وحدك
أنت يا دفي، أنت يا دفي .

الفارس

من أغاني موي

ليس منزلي كبيراً

إنما لو كنتَ تحبني
لطفتَ على جوادك
أمام بيتي أيها الفارس .

*

أَلاَ يتوهج موقدي
هذا التوهج كله الآن ،
فلماذا تريد أن تضرم النار
في موقد آخر ؟

*

ولماذا تشرب الماء الراكد
في مَخْدَع آخر ،
خائناً عسلي المسكر
في وعائه الثمين ؟

*

وكأنك ظلُّ القدر
يا قابضاً على سعادتي بيدك .
عُدْ لي يا فارسي
سألتصق بخدي على ركاب فرسك .

«كالغبار الأبيض»

كالغبار الأبيض تتلوى الثلوج
وتهب الريح شماليةً
أَلاَ تتجمد برداً في الجبال، أَلاَ تتجمد برداً
يا سنونو الآول ؟

*

ها هي السَّحابة الثلجيَّة
تحط على أكتافي
وجوادي يُسرِع بي
لألفّ معطفي من وبر الماعز
على سنونو الآول .

*

أنا الفتى الجبلي ،
كنتُ أود أن ينقضي الشتاء .
وبالرغم من الصقيع
أنني لأحمل شعلةً في صدري
لسنونو الآول .

*

مطراً ستُصبِح هذه الزوبعةُ الثلجية
سيعجُّ الجدول بالخرير

ومع عودة الغرانيق
سيشدو الربيع في الجبال
يا سنونو الآول .

أشعار كُتبت في ليلة رأس السنة

ثانيةً أسألكِ المغفرةَ يا عزيزتي
منتظراً رحمتك ثانيةً .
سامحي، واغفري كُلَّ ما ارتكبتُ من ذنوب
في السنة المنصرمة .

*

اغفري لي أنني أكثر من مرة
اعترفتُ وصفحتِ عني ،
اغفري لي كلَّ دمعةٍ لكِ
كنتُ سبباً في انسكابها .

*

اغفري لي أنني في أسفاري
كنت أطيل غيبتي بسبب أو بلا سبب
وأنك كنت تعدّين الأيام والليالي الكثيرة
في حين لم أعدَّها أنا .

*

اغفري لي أعمالي غير المثمرة كلها ،
كلّ ما لم أُنجزه في هذه السنة ،
كلّ عمل لم أُحاسب عنه
مع أنني، في حينه ،
سأقدّم الحسابَ عنه .

*

اغفري لي عماي الذي لم يدع لي
أن أرى ما كنتُ أسبّب لكِ.
اغفري لي صممي الذي لم يدع لي
أن أسمع، مع قدرتي أن اسمع ،
تأوهاتك تلك .

*

وكعهدي بك ستغفرين كلّ ما تكبدّتِ
باقيةً على حبك لي ،
أجل إنك لن تستطيعي أن تُنزلي بي عقاباً
أقسى مما أنزلتُه بنفسي .

*

أنا لم أتنازل حتى قليلاً
وقد أسأتُ بحقٍ إلى من أحببت ،
أرجوك.. اغفري لي من فضلك
وبالسهولة التي أذنبتُ بها أنا .

«لم أعد أتذكر اليوم»

لم أعد أتذكر اليوم
أغنيتي التي بدت لي أمس أعزّ ما لديّ
وهذه الأغنية التي أترنم بها اليوم
ربما سأنساها أيضاً بعد انقضاء النهار .

*

غير أن أغنيةً واحدة تظل منطبعةً في قلبي
غنّتها لي أمي في اكتئابٍ مكنون .
إن أغنيةً وليدةَ حبٍّ كهذا
أبداً لا يمكن أن تنسى .

ثلاث نساء

ثلاث نساء ودّعْنَني عند سفري .
قالت الأولى :
مستندةً إلى شجرة دلب
دون أن تحني رأسها :
ـ ستنسى ولن أبكي .

*

وقفت الثانية قرب بابها
ممسكةً بجرّة ممتلئة

وسمعتها تقول :

عد سريعاً !

وتنهدت الثالثة غير ناطقة بحرف .

*

نسيتُ الأولى وراء أول جبل

وكانت الثلوج تلتمع تحت الغيمة الأرجوانية ،

وبنفسٍ هادئة نسيت الثانية

بعد المعبر الجبلي الثاني .

*

طرتُ ودرت في المئات من الطرق

مستحثاً الزمن كسوط ،

لكنني لم أستطـع عبر الجبال كلهـا

أن أنسى الثالثـة مـن مقبّلاتي الثلاث .

*

حين عدت إلى جبالنا

كانت الأولى تنتظر غاضبةً على السطح ،

وخرجت الثانية طيبةً، لطيفةً

لتلقاني بالجرة الممتلئة .

*

أما الثالثة ،

مع أنها لم تخرج لتلتقيني

فلا أستطيع أن أنساها غداً أو بعدَ غد
وستظل تتراءى لي في حلمي كل ليلة
من بين مقبّلاتي الثلاث .

شـــالان

في ذكرى التخوم الغربية
ذات مرة غداة الربيع
جئتُ من الجهات النائية
بشالين أبيضين لامرأتين .

*

وكانت قد تقلّبت بالإثنتين
دورات الزمن كما تتقلّب بالجميع :
هجر الأولى حبيبها
وعاد الحبيب إلى الثانية .

*

في قريتها الجبلية ،
وقد جُنَّ جنونُها من الحزن ،
صبغت الأولى شالها
بلون أسود كمنتَصف الليل .

*

وكانت الثانية
وقد أسكَرَتْها سعادتها
قد صبغت شالها، لا لسببٍ ما ،
باللون الأحمر .

*

كما على لوح
تبدو علامة القدر البشري
مكتوبةً على الجباه .
وهاتان المرأتان في شاليهما
تقفان أمامي أينما اتجهت .

*

في سفري أو في منزلي ،
بلون الأمل أو القلق
بلون الحب أو التعاسة
كثيراً ما صبغتُ كلماتي في احتفاء .

طالما الأرض تدور

شربتُ الشمسَ كما يشرب الماءَ البشر
سائراً على هضاب السنين ،
ملتقياً بالشروق الأحمر

ملتقياً بالغروب الأحمرَ .

*

في وطن القمم الفخور الوعرة
حيث تحمل الأفئدة دفئاً خاصاً ،
شربتُ النجوم من الجداول الجبلية
شربتها من الينابيع القارسة .

*

من جَام السماء الزرقاء
في الغياض والمروج الخضر
شربت الهواء العذب متلهفاً ،
طالباً غيومه بإلحاح .

*

شربتُ الندفَ الثلجية
حيث تتلوى الممرّات فوق الجروف .
وأتذكر أن الندف الثلجية
كانت تذوب على شفاهي المتذوقة .

*

وشربتُ الربيع ،
والجبليون منشغلون ببذارهم
هنا وهناك .
وفي الشمال المتجلد

شربت الصقيع كما تُشرب الفودكا .

*

حين أشرب العواصف الممطرة المرعدة ،
وهي لكل أرضٍ مجدٌ رفيع ،
يتفقُ لي وكأنني أرى
على حافة القدح العليا
قوسَ قزحٍ يتألق .

*

وحين يزهر الورد الجبلي الشائك
وتتسلل حشيشة الدينار خلال الصخور القاتمة
كنت استنشق عبيرها المسكر
صاعداً فوق الجروف العالية .

*

ومن الجَمال الأرضي شربتُ مرتوياً ،
مباركاً هذه النعمة الوفيرة .
وكثيراً ما تيّمني الهوى، وامتلأت نفسي بالأحزان
فكنت أشرب الأغاني كما أتغنى بها .

*

إن للنفس البشرية طبيعةً معقدة .
إني لأشربُ مع أصدقائي في وفاق :
شرابَ العسل المسكر.. ساعةَ الفرح

والخمرةَ المُرَّةَ.. ساعةَ الحزن .

*

فإذا ما شربتُ بقلبي
فلا أشرب لهواً وتسليةً .
أنا رأيت رماد هيروشيما
وسمعتُ الضحك في المهرجانات .

*

وكما أشرب البيرة نافخاً بقوة
كي أُزيل الرغوة الفارغة ،
شربتُ جوهر الحياة ،
ولم يكن زائفاً .
صادقاً كان جوهر الحياة .

*

أُحبُّ وأفرح وأتألم
وأشرب حتى الثمالةِ كلَّ يوم يمرُّ
وأُحس بالعطش من جديد
وما من مذنبٍ في هذا سوى الحياة .

*

لا ضيرَ في أنني سأترك العالم ذاتَ يوم
دون أن أُطفئ ظمأي فيه ،
مقدّرٌ على البشر أن يعطشوا مثل هذا العطش
طالما الأرض تدور .

حُبّي لكِ

تمرُّ السنون آخذةً مانحةً ،
سالكةً أقصرَ الطرق إلينا أو أبعدها .
لن تستطيع أوراق التقويم أن تغلق
حبي الذي جاءني ذلك الربيع .

*

كل شيء قد تغيرّ . . الأحلام والزمن
كل شيء قد تغيرّ . . قريتنا والكرة الأرضية
كل شيء قد تغيّر . . شيء واحد لم يتغيّر :
حبي الذي جاءني ذلك الربيع .

*

أين ذهبتْ بكم العاصفة يا أصدقائي ؟
ليست قديمةً، بعدُ، جلساتُنا إلى المائدة .
لا أرى اليوم إلا صديقاً واحداً لي :
حبي الذي جاءني ذلك الربيع .

*

لا يهم، سأرضخ لحكم السنين الآتية
سأمنحها كل شيء: ضوءَ الليل وألقَ النهار .
شيء واحد لن أمنحه مهما ألحّت بالسؤال :
حبي الذي جاءني ذلك الربيع .

عيون الزهور

يمكنني أن أُجادل العالَم كلَّه
بل سأُقسم برأسي
أن للزهور عيوناً
وهي ترنو إلينا بها .

*

أذكر أنني، مرةً، في الأيام الماضية
قطفت من المرج زهوراً لحبيبتي
فتطلعتْ إليّ الزهور وكأنها تقول :
إنها تخدعك .

*

عبثاً كان انتظاري لها وندائي
فقذفتُ بالزهور إلى الأرض
فانطرحتْ وكأنها تتطلع بعيداً قائلةً :
لا ذنبَ لنا في تعاستك .

*

في ساعة التأملات القلقة
في ساعة الخيبة والكارثة المريرة
كنت أرى الزهور باكيةً كالبشر
نافضةً الندى على الرمال .

*

في ساعة الوداع
حين نرتحل عن وطننا
تتطلّع إلينا الزهورُ بأنواعها
هازةً رؤوسها، في أثرنا، مودّعةً .

*

في الخريف، في كآبة حدائقه
حيثُ الأوراق صفراء، ضنينةَ فوق غصونها
بعيداً تتطلع الزهور حزينةً في أحواضها
وقد غَمَرَتْها ذكرياتُ الربيع .

*

تعالوا إلى الحدائق ما دمتم لا تُصدّقون
أترونها وهي ترتعش
ناظرةً إليكم بثقة وبراءة
نظرةَ الأطفال في مهودهم .

*

عميقاً في أرواحنا تتطلع الزهور
ناظرةً إلينا، نحن الأحياءَ، نظرةً طيبةً
وإلى أصدقائنا الراحلين
تتطلع بأعينٍ ترى عالم الغيب .

أُغنية مهد

واخَتوتا، خَتوتا*،
سينحدر من الجبل الأسود
متّوجاً بالهلال ذي القرنين
ثور من القطيع الأسود .

*

نمْ يا صغيري، مازلتَ ضعيفاً .
انهارت الثلوجُ فأعترضت الممر
فمضى أبوك عبر المضائق
ليشق الطريق .

*

واخَتوتا، خَتوتا ،
أكثر كثافةً من ذيل الحصان
فوق القمة البيضاء الرأس
ظلمةُ منتصف الليل الكثيفة .

*

أزبدت الجداولُ بالأمطار
سأضمك إلى صدري .
لِيَصُنْكَ اللّه من أن تقع يا صغيري

---

* «واخَتوتا، خَتوتا»: هدهدة طفل (المترجم) .

تحت انهيار الثلوج .

*

واخَتوتا، خَتوتا ،
إن لأبيك قلباً أبيض
إنما هي سوداء، عمياء
هذه الصخور المتطوّحةُ من قممها .

*

نم يا صغيري، ما زلت ضعيفاً .
في يوم مولدك
وُضع خنجر في مهدك
لتشبَّ رجلاً مقداماً .

نهر كويسو الأفاري

من تُرى تتبعُ راكضاً، غَيرَ مشفقٍ على قواك
مهشّماً الحجارة يا عزيزي كويسو ؟
أهو لصٌّ سلبك شيئاً ،
أم ضيفٌ نسي عندك حاجةً ما ؟

*

إلى أين تسعى؟ الطرقُ بعيدة .
من تُرى يطاردك؟ من يدعوك إلى الوهدة ؟

لم تحمل معك النهيراتِ والجداول كلها
من أعاليها ذات الصدور البيضاء ؟

*

أُحب أن أقف فوق منحدر الضفة العالية
في الشِعب حيث يبدأ ركضك ،
ويمكنني أن أميّز صوتك الخافت
في خرير كورس من ألف نهر .

*

عاليةٌ هي العقبات ! وطريقك صراع طويل
والصخور تضيّق خناقها عليك من كل جانب .
ضعيف في منبعك ومقيّدٌ أنت
وصوتك الشاكي أشبه بالأنين .

*

لكن صوتك يشتدُّ (فيه قوةٌ بلا حقد)
وتدخل في جدل ٍجريء مع الصخور
وتخرج بمياهك إلى العراء
منشداً أغنيةَ الحرية والسعادة .

*

لكنني إلى اليوم لا أفهم شيئاً واحداً
متأملاً ديدنك وحقيقتك :
أتراك أخذتَ طبعك هذا من أهالي الجبال ،
أم أن أهالي الجبال قد تخلّقوا بخُلْقكٍ ؟

الكوناك*

إن كنت صديقاً فإن عتبتي تنتظرك
وضيئةً، طيّبة .
إن كنت رازحاً تحت وطأة الظمأ
فإن نهري.. نهرك .

*

وحتى في الظلمة الحالكة
يكفي أن تعطي إشارة فاستقبلك .
هو ذا رغيفي وخمرتي
وكل ثروتي هي لك .

*

في البرد.. قرّبْ مجلسك من الموقد ،
سأوقد لك الجلّةَ جيداً .
في القحط.. لا تتذمر
سأقتسم معك حقلي .

*

فإذا مرضتَ ذائباً كالشمعة
لاعناً جرحكَ أو علّتك

---

* «الكوناك»: الصديق عند جبليي القفقاس (المترجم) .

سأُسرع آتياً لكَ بطبيب
وسيغدو دمي دماً لك يا صديقي .

*

إن كنت تخشى شرّاً .. خذ خنجري
واحمله معلَّقاً على جنبك .
وإذا اكتُئِبتَ يا صاحبي
سنبدّد الكآبة معاً .

*

فإذا كبا جوادك .. ها هو جوادي تحت جُلّهِ
فانطلقْ به، ولتكن في اليوم العبوس
صديقاً مخلصاً لي
راكباً كنتُ أنا أو ساقطاً تحت جوادي .

الجبليون القدامى

عالياً يقطنون الجبال ،
اللّه أعلم، ربما منذ عهد الرسول .
وأعلى من قمم الشرق كلها
يعتبرون شرفهم الشخصي .

*

لا أحدَ يحيّرهم ،

فقد مُنحوا مثلَ هذا البصر الثاقب :
يكفي أن ينظروا إلى رَجُلٍ ما
حتى يقدّروا أهميته .

*

وقبيل المعركة، منذ خُلقوا ،
يعرف الجبليون القدامى
من سيصمد كالصخرة
ومن سيخرُّ على ركبتيه .

*

وسريعاً ما يحسّون بكذب الكلمة
من أيما شفة تجيء ،
مهما تكن ماكرةً، حاذقةً
أو منمّقةً بالنُّضار .

*

في الجبال يعرف الشيخ الأبيض الرأس ،
متسكعاً في فرائه طوال النهار
كيف يطلق الكلمة
لتذهب مثلاً في العالم .

*

آه، الجبليون القدامى !
سيُجزل الشعب لهم مزيداً من المديح .

كان ذكاؤهم خير مستشار
لقائد جيشٍ أو لسفير .

*

ما أن يهمز فارسٌ غريب حصانَه
آتياً من بعيد
حتى يعرف الشيوخ
لِمَ اتخذ طريقه إليهم .

*

ومهما تكن مهمته
خفيفةً أو ثقيلة ،
جاء خاطباً فتاةً
أو في زيارة لصديق .

*

كان كماليل بشير من قرية جوخا*
طفلاً صغيراً
حين تنبأ الشيوخ :
«سينتهي نهاية سيئة
والكارثة تنتظر العديد من الجبليين .
قريباً سيختطف هذا الجميل

---

* «كماليل بشير»: فتى أسطوري جميل (المترجم) .

بناتهم ونساءهم .
وسيقتله أبوه نفسه
لينقذ الجبليين من العار..»

*

حين لاح الزغب
فوق شفة شامل* العليا
وهو لا يستطيع، بعد، أن يقود
غيرَ شرذمةٍ من الحفاة،

*

قال عنه شيخ جبلي
مرةً آنذاك :
«لسوف ينشر دخان البارود
ويفجّر الرعد على امتداد القفقاس !»

*

وقال شيخ، مرةً، في الآوَل
سامعاً أشعار محمود* لأول مرة :
«سيلقى حتفه برصاصة
جرّاء عشقه لعيون النساء..»

*

---

* «شامل»: جبلي متمرد معروف في العهود الماضية (المترجم) .
** «محمود» شاعر ومغن قديم (المترجم) .

وَجِلَ النفس انتظر مرتبكاً
ماذا سيقول في شعري
لا النقاد في مقالاتهم العلمية ،
بل الشيوخ في بيوتهم الجبلية .
إنهم لفخورون لا عن عجرفة ،
وأدري :
إنهم يدركون وقد انكشفت الحجب أمامهم
ماذا تهمس النجمة للنجمة
في الزرقة المتفحمة .

*

إنهم لفخورون لا عن عجرفة .
ذاهباً إلى الجبل، في مركبتي، أو عائداً منه
أنحني برأسي لهم
فاسحاً الطريق لخيولهم كي تمر .

رباعيات

لا فكرة لدى البطل عن الموت
ويتغنى الشاعر عنه طالما هو حي ،
وينظر الموت والخلود إليهما معاً
فاتحين بابيهما للإثنين .

من هو الأحقر بين البشر على الأرض ؟
الرجل الجبان الرعديد .
قل لي من هو أكثر حقارةً منه ؟
الرجل الجبان الساكت .

*

لمن تغدو الحياة مريرةً بيننا نحن البشر ؟
فادحة هي الحياة لمن لا يؤمنون .
ولمن تصبح أكثر فداحةً ؟
لمن لا يثق بأيما إنسان .

ـ من هو أكثر سعادةً من رجل
لم يعرف داءً منذ ولاته ؟
ـ من لم يعرف الحسد طوال عمره
لا لعدوّ ولا لصديق .

*

أتمنى ألا يكون بيننا نحن البشر
إنسان جائع أو إنسان متخم :
سيغدو الأول حقوداً بسبب الجوع
ومن التخمة سيسبّب الثاني لنا شراً .

ـ لماذا تبدو العينان فارغتين كحفرتين ؟

ـ لا فكر فيهما، لا ألم فيهما .

ـ لماذا تتوهّج العينان كشعلتين ؟

ـ الفكر والألم يشعلان الضوء فيهما .

*

من متسلقي الجبال، من قدامى البشر

أعرف أن الهبوط أصعب من الصعود .

بلغت الأربعين وأدركت المضيق :

أرى طريقي يشتدّ انحداراً مع كل يوم .

تغدو الحياة فادحةً تماماً

حين تُوجَد المهارة وتُفتقد القوة .

تغدو الحياة فادحةً تماماً

حين تكون أخرقَ مع أن قوّتك بلا حدود .

*

الولادة.. هي المعبر الأول .

الموت.. هو المعبر الثاني، نهاية الطريق .

وأنت بهذه النفس البسيطة

تحلم أن تبلغ المعبر المائة .

كثيراً ما حلّقت المركبات

بعيداً إلى الكواكب النائيات .

أيها الرجال الرجال.. يا نجوماً عالية
ليتني بالغ مكانكم لا أكثر .

*

صباح الخير !
عبر النافذة ينتظرك حصان أبيض غير مروّض
أسْرِجْه إن كنتَ تجرؤ .
آه ! لا قدّر اللّه لك أن تتعذب طوال عمرك
من أنك كنت قادراً ولم تحقق الأمر في حينه .

في حياتنا هذه
أحياناً تُمنَح أرزاقُنا لنا بلا إنصاف .
ها هم يدسون اللحم في فمي دساً وقد صرت أدرد
وكنت اقتات بالعصيدة وأنا بكامل أسناني .

*

ـ أي شيء أقل فائدةً من ثمرة غير ناضجة
تقطف قبل الأوان ؟
ـ ثمرة تسقط لتتعفّن على الأرض
ولم تقطف في حينها .

ـ من هو أكثر الناس مشقةً في حياته ؟
ـ من لا يسمع نصيحةً من أيما أحد .

ـ من هو الأكثر مشقة ؟
ـ من لا يعطي نصيحة لأحد .

*

نحن، عابري الطريق ،
آمنون حين تكون الكلاب غير منتبهة لنا ،
ونحن أكثر أماناً
عندما لا ترانا الكلاب .

ـ كيف نشأت القوة والتسلط ؟
ـ ولّدهما الضعف البشري .
ـ ومن أين جاء هذا الضعف البشري ؟
ـ ولّدته القوة والتسلط .

*

من الطرق كلها أعرف ثلاثاً ،
ثلاثَ طرق لن يحيد عنها أيٌّ منا .
الطريق الأولى هي الحياة ، والثانية هي الموت ،
والثالثة هي ما يخصُّ كلاً منا .

النار، الديون، الداء، العدو
النكبات، السقوف التي يسيل منها المطر .
الأحمق وحده

من يقلّل أهمية المعدود أعلاه .

*

من أكثر الناس لغطاً ؟ ـ فتاة ناضجةً
لم يُثرْ جمالها اهتمامَ أحدٍ ما .
من أكثر الناس لغطاً ؟ ـ شاعر لم يعد شاباً
كتب سنين عديدة ولم يعترف به أحد .

عيوننا أعلى بكثير من أقدامنا .
في هذا أرى معنى ورمزاً خاصاً :
هكذا خُلقنا كي يستطيع كلٌّ منا
أن يتفحص طريقه قبل أن يقوم بخطوة .

*

ـ قل لي لماذا تتكلم مع الجبال والغابات
أيها الرجل الغريب ؟
ـ ينتفع الجميع من أحاديثهم مع الحكماء
فقد أبصروا كثيراً خلال عمرهم الطويل .

لن أرمي حجراً من فوق أية قمة ،
سيندفع إلى أسفل ويسقط هناك .
ولن تصلني الأغنية.. في أية وهدة كنت
إنها تطير عالياً إلى جبالنا .

*

أنا أعرف : إنك لا تشتمني أنا ..
أنت ترى فيَّ شخصاً آخر فتشتمه .
أنا أعرف : أنك لا تمدحني أنا ..
أنت ترى نفسك فيَّ فتمدحها .

ـ أيتها الطيور مالك صامتةً منذ الفجر ؟
ـ المطر يتساقط ونحن نصغي إليه !
ـ ولماذا أنتم صامتون أيها الشعراء ؟
ـ المطر يتساقط ونحن نصغي إليه !

*

ـ دعني أُنشد أغنيتي أيها الطائر
واسْمَعْها حتى آخرها .
ـ إن كنت تملك روحاً شاعرة
فاصمت ما دمتُ أُغني أنا .

أنا أعرف أغاني محمود كلها عن ظهر قلب
غير أنني أجهل شيئاً واحداً :
من أين، ترى، عرف بحبي
قبل أن أُولد أنا؟

*

ثانيةً لم يوافقوا على نشر قصائدي عنك :

قال رئيس التحرير إن أحداً لن يقرأها من الناس .
لكنهم، مع ذلك، لم يعيدوا تلك القصائد إليَّ
فقد أخذها رئيس التحرير ليقرأها على زوجته .

يمرّ بكِ العابرون هادئين ،
يبدو أن جمالكِ لا يحرّك أحداً منهم .
يَحْدُثُ أن يغدو البصيرُ أعمى أحياناً !
آه لو أمكنني أن أُعيرهم باصرتي .

*

يذهب بنا الموت جميعاً مع كل شيء به نعيش
غيرَ أنه يتحاشى الحب فلا يلامسه .
هكذا يبتعد الغراب طائراً عن البيت
حيث الموقد لمّا يخمدْ بعد، ولما تزل كتلة حطب .

ـ كنت أرى امرأة في حُلُمي قبيل الصباح
وأيقظْتِني أنتِ أيتها الديكة .
ـ أفضل لك أن تدعو اللّه
كي نظل نوقظك طوال عمرك يا ابن آدم .

*

يتجنّب الموتُ الحب العظيم
عن بُعد ثلاث خطوات، منعطفاً جانباً .

ما دام الدخان يتصاعد من الموقد
لن يجد الغراب رغبةً في الجلوس على السقف .

عند كُوّتي تتغنى الرياح
أغنيةً سئمتُها منذ زمن بعيد ،
أما أعذبُ أغنيةٍ على الأرض في تصوري
فتغنيها عند نافذة جاري .

ثمانيّات

في الهند تُعتبر الأفاعي
أول من دبّ على البسيطة .
وعندنا يعتقد الجبليون أن النسور
أكثر قِدَماً من سَكَنَة الأرض جميعاً .

أنا أميل إلى الظن أن في البَدء
كان البشر، وبعدها
أصبح الكثير منهم نسوراً
وتحوّل الآخرون إلى أفاع .

في الدرس أهداني المعلم كرةً أرضيةً

مع أنني كنت أُخطئ، أحياناً في أجوبةٍ عديدة .
لم أكن أضم إلى صدري معدنها البارد
بل العالم كله في هذه الكرة الصغيرة .

وها هو العالم يمتزج في قلبي اليوم
كما هو بِعارِهِ وأمجاده .
في قلبي نفسه تتردد الرعود النائية .
وتضج المدن، وتتخاصم الممالك .

*

اتفقَ لي أن أتنقّل في الدنيا ،
ولثلاثة أيام أسرتني الأرض الأخرى .
وفي اليوم الرابع كما في الحلم
أبصرت بمنزلنا ووجوه أقاربي .

في الأيام الثلاثة الأولى
سحرتني اللغة الغريبة وأنين البحر الغريب .
وبعدها تناهى إلى سمعي شخير الخيل
ولغط الطير وكلام أهلي الجبليين .

مالك تبدو مكتئباً، صامتاً
يا رفيق السفر، يا صديقي الجديد ؟

ولماذا أزحت الباباخا* عن حاجبيك الكثّين؟
وبغتةً تتلعثم بنصف كلمة ؟

هكذا سألتُ صديقي ساعةَ الغروب
فوضع صديقي جبينه على الكُوّة :
ـ هناك خلف ذلك الجبل النائي جبل آخر
ووراءه آوَل أهلي .

*

كان الجبليون في داغستان
ليوطدوا الصداقة بين الرجال
يتبادلون الهدايا من الخناجر والنصال
وأجودَ الخيل والمعاطف من صوف الماعز .

*

وشهادةً على صداقتي المخلصة
أبعث إليكم بأغنياتي يا أصدقائي
فهي أغلى سلاح عندي
وأفضل جواد أو معطف لدي .

ـ أين أنت أيتها السعادة، أين وجهك الوضيء ؟

---

* «الباباخا»: غطاء رأس كبير من الفراء (المترجم) .

ـ أنا فوق ذرىً لم تصعد إليها بعد .

ـ أين أنت أيتها السعادة ؟ أنا أدركت هذه الذرى .

ـ أنا في أنهارٍ لم تحملْكَ مياهُها بعدُ.

ـ أين أنت ؟ فقد عبرت ألف نهر سابحاً .

ـ أنا في أغان لم تكتبها بعد .

ـ أين أنت ؟ أنا أهديتك أكثر من أغنية .

ـ أنا في الأفق البعيد ! أدْركْني إن كنت تستطيع .

*

ما انتفاعي بالذهب والأحجار الكريمة
ما دامت مخبّأةً في جبالها إلى الأبد ؟
وليست النجوم ضروريةً لي
ما دامت محتجبةً وراء الغمام .

لا أخفي عنك، أقول لك :
عشْ طويلاً أو قصيراً عشْ
ستنقضي حياتك عبثاً
إن لم تَصِرِ آلامُ الآخرين آلاماً لك أنت .

لا تتفاخر، أمامنا، أيها الزمن
متوهماً أن البشر كلهم ظلال لك .

ما هم بقليلين أولئك البشر
الذين كانت حياتهم منبعاً لتوهجك .

كن شكوراً، إذن، لمن يضيء حياتنا
من المفكرين والشعراء والأبطال .
متوهجاً كنت وها أنت متوهج اليوم
لا بضوئك الخاص، إنما بضوئهم العظيم .

*

ما أنا بوحيد في رقادي :
على صدري ينحني القلق كأمرأة
ويسرع الفرح أو الحزن ليلتصقا بي
ويظلّ الخوف منطرحاً على العتبة ككلب .

ما أنا بوحيد حين أنهض في بداية النهار
يصحو القلق في أول الأمر
وقبلي ينهض الفرح والحزن
ويظلّ الخوف متمطياً عند العتبة .

قديماً سمعت هذه الحكاية
غير أنها تعود ثانيةً إلى ذاكرتي :
كان الإبن المكروب يقود أمه العمياء

آخذاً بيدها في دروب الدنيا .

سار بعيداً، ناشداً علاجاً لها
وأبصرتْ أخيراً بضوء النهار .
ناوليني يدك أيتها الأرض العمياء ،
تعالي معي، ينبغي أن تصيري بصيرةً .

*

أيتها الثمانيّة.. يا سطوراً ثمانية
يا جداولَ ثمانيةً تجري على نجادنا .
بعيد هو الطريق إلى الشعر ، إلى البحر ،
أتمنى لك أن تصلي إلى البحر .

أيتها الثمانية.. يا سطوراً ثمانية
يا فتياناً ثمانية من قرانا الجبلية
تجوّلوا سائرين في مائة طريق
إنما لا تفقدوا قبعاتكم الجبلية .

قديماً كان أجدادنا يكتبون متمهلين
بالنصال على خناجرهم
ما أحاول كتابته بقلمي
باذلاً جهوداً مضنية .

كان أجدادنا على خيولهم المشعّثة
يسرعون إلى القتال، مودّعين حبيباتهم ،
كاتبين بالدم على الحجارة
ما أحاول، مرهقاً، كتابته بالحبر .

*

حين يطرق الضيف بابكَ في الليلة المدلهمّة
ستراعي شرع الضيافة ما دمت جبلياً .
راغباً أو غير راغب
ستفتح بابك متغلّباً على النعاس .

حين تطرق الأغنية صدرك في الليلة المكوكبة
وأنت تتقلّب ساهراً، وقد رقد الجميع ،
فانسَ أن في العالم ليلاً ما دمت شاعراً
وانهض مترنماً بها قبل فوات الأوان .

إلى كابجيف

إلى هذه الأرض، حيث لم نلتقِ مرةً ما
بمعجزة من المعجزات ،
من لا مكان جئتَ
وذهبتَ، غيرَ منتظرٍ، إلى لا مكان .

إنما أريد أن أنحني أمامك
شاكراً لك أنني في هدوء الليل
أقلّب، ثانيةً، صفحاتِ كتبك
كما أقلّب رسائلَ معنونةً باسمي .

إلى ليرمنتوف

كثيراً ما تغنّى الشاعر
بقرانا وجبالنا السامقة .
وها هي أرضنا الجبلية منذ مائة وعشرين عاماً
تتغنى عنه بلسان سيولها .

كدخان الغسق، في السماء
يتموّجُ ضباب القرون، وها هما معاً غير منفصلين
مُغنّي القفقاس الذي قُتل شاباً
والقفقاس بقممه الشائبة .

كتب الشاعر أبياتاً إلى زوجته :
«أنتِ ضوئي، أنتِ فجري ونجمتي !
حلوة هي الحياة وأنتِ معي ،
مريرة حين تبتعدين!»

وها قد أقبلت الزوجة، نجمته وضياؤه ،
ووقفت عند باب غرفته
فصرخ بها الشاعر: «ثانيةً أنتِ هنا ؟
دعيني أعمل بحق الإله !»

*

بحثتُ عن مكان عال في القرية
وقطعتُ الأعشاب من جذورها، وبنيتُ بيتاً .
وعشتُ فيه.. وها هو العشب ينمو في سقفي
فكأنه يهمس لي : إنني حي .

مهما تقتلع العشب ينمُ ثانيةً ،
ستراه فوق رأسك إن لم يكن تحت قدميك
وأنا قلت لأغنيتي الحبيبة :
لتكوني شبيهةً، يا أغنيتي، بالعشب الجبلي .

ـ تمهّل أيها السرور، إلى أين أنت طائر ؟
ـ إلى قلب العاشق !
ـ أيها الشباب إلى أين تسرع عائداً ؟
ـ إلى قلب العاشق !

ـ أيتها القوة والجرأة إلى أين أنتما ؟

ـ إلى قلب العاشق !
ـ وأنت أيتها التعاسة والأحزان ؟
ـ إلى قلب العاشق !

*

يقولون، عندنا، في الجبال :
«ضيفك المبكّر لن يقيم طويلاً عندك»
مع الفجر جاء الحب إلى حديقتي
وها هو الغروب.. ولم يغادر بعد .

«يا ضيفي قدّمتُ لك الخبزَ والخمر
فأخرجْ سريعاً دونما تأخّر !»
«ما أنا بضيف، أنا سيّد بيتك»
يُجيبُني بابتسامة ساخرة .

لا تنظري إليّ هكذا في تشامخ ،
إنني أتكبّر مع المتكبرين ،
فخوراً بقدرتي على إسراج فرسي
وحراثة أرضي بيديّ هاتين ،
وبخفقات قلبي المتعالية
عشقاً وأغنيةً لوطني .
لا تنظري إليَّ هكذا في تشامخ ،

إنني أتكبّر مع المتكبرين .

*

يقول الراعي إنه لم يعرف أذى أو شرّاً
ولم يلعن حظّه من الحياة ،
طالما أن عجلاً واحداً من قطيعه
لم يجد طريقاً إلى حقول القمح .

وضيئةً كانت الحياة أمامي
وما كنت لأعرف قلقاً أو تعاسةً
طالما كان قلبي
بعيداً عن طريقه اللعين إليك .

يبكي الرضيع ولا يمكننا
أن نسأله أو نفهم منه لماذا ،
وأنا الآخر أحسّ بالكآبة اليوم
ولا أدري لماذا أنا كئيب .

الريح تعوي شاكيةً شيئاً ما
ولم يعد المطر يهطل كما ينبغي ،
والشمس لا تتوهج كما اعتدنا
ولم يعد صوتكِ مثلما كنت أعرفه

*

ظننتُ أن الشجر متفتح عن زهره الأبيض
واقتربتُ فوجدته مدثراً بالثلوج .
ظننت أنكِ محبّةٌ لي، رقيقةً ستكونين معي
وانطلت عليّ الحيلة، دون أن أجد مهرباً منك .

إنطلقتُ في دروبنا الجبلية، والمطر في الشعاب ،
ناسياً معطفي من صوف الماعز .
يا عزيزتي.. يا جليديتي
خبريني ماذا أعمل؟ دفئيني، إرحميني .

كان يحدث لي أن أعود في منتصف الليل
جارّاً قدمي على الحجارة المحطمة ،
وكي لا أضلّ طريقي
تُوقِد أُمي شمعةً في نافذتنا .

منذ ذلك الحين أبلتْ حذائي طرقٌ عديدة
ووجدْتُني في زوابع ثلج وعواطف رعود
وأينما اتجهتُ أرَ لهب شمعةٍ نائية
يُعينني كيلا أضلّ طريقي .

كتاب السونيتات

- 1 -

القصيدة.. صنعة شعرية !
لا وجود في العالم لمثل هذه الحرفة .
وماذا يوجد إذن ؟ توجد الجبال المتباعدة ،
الثلوج والأمطار، الظلمة والنور .

*

يوجد السكون ، وتوجد الحركة ،
يوجد الضحك والدموع.. ذكرى السنين الغابرة ،
توجد النهاية والبداية
توجد الحقيقة وباطل الأباطيل ،
توجد الحياة لبرهة واحدة
والأثر المتخلّف لزمن طويل .

*

والشاعر الحق
من يرى الشعر في العالم كله ، في الأحاسيس كلها .

*

إنما كيف تُكتب القصيدة ؟
أنا نفسي أنشدُ جواباً عن هذا السؤال .

- 2 -

يُخيّل لي ، أحياناً ، أنني سأكفّ
عن كتابة أي شيء سوى الغزل ،
وأنني سأمزّق قصائدي الأخرى قطعاً .
وأُلقي بها في الموقد المتوهّج .

*

منذ زمن وطريقي تنحدر بي من أعالي الجبل .
من يدري كم قد تبقّى من أيام لي .
ما هي إلا حياة واحدة ، فلو أنها أكثر من حياة
لأمكن حُبّي أن يعمَّ الجميع .

*

لأكنْ أينما أكنْ، وليحدث معي ما يحدث
يكفي أن يظلَّ حبي حياً في قصيدي .
لم يعد أمامي كثير من الوقت
لأكتب عن الترهّات المختلفة .

*

أسرعْ واملأ مخزن حبوبك أيها الجبليُّ
سينقضي الخريف ويحلُّ الشتاء .

- 3 -

همستُ في لينينغراد للَّيلة البيضاء
في ساعة التوحُّد بين النور والظلمة :
آه ، خبريني بحق الآله
لِمَ لا نرى في جبالنا مثل هذه الأعجوبة ؟

*

هكذا همستُ، وبغتةً انْتَفَضَ الزمن القديم
أمامي من وراء عتماته
أيام كنا نسير معاً فَتَيين
في الليالي الربيعيَّة البيض .

*

وانطرحَ ضياءُ ذكرياتي الأبيض
على جبال بوتلي وخونزا .
القممُ مكلَّلة بالثلوج ، والسفوح مدثرة بالبساتين
كل شيء أبيض من حولنا ، وأنا وأنت في ضباب .
أَلأنَّها في عينيّ أنا
تلوح بيضاً هذه الليالي في داغستان ؟

- 4 -

كلّ يوم تزداد الحياة قِصَراً
ودائننا ، دون أن يُغْمِض عيناً
يحمل في خرجه طوال الليل والنهار
مستردّاً كلّ ما علينا من ديون .

*

أكنتُ أكتبُ أو أتمتع بالزرقة السماوية ،
يُجري ، هو الشّحيح ، حساباً دقيقاً لكل شيء ،
والحياة نهر ، وفوق هذا النهر الهائج
يحرق ، من وراء ظهري ، الجسور .

*

وأنا أرجو : أيها الدائن الرهيب
إستعدْ مِنَحَ الحياة كلها
إنما لا تقطع فجأةً وقبل الأوان
ساعةَ لقائي المتأخرةَ مع الحبيبة .

*

وتظلُّ عربتي منحدرةً من الجبل
ويظلُّ غيرَ مصغٍ إلى ضراعتي الدامعة .

- 5 -

منذ زمن بعيد وأنا راغب بشيء ما ،
شيء آخرُ .. غيرُ هذا أو ذاك ،
شيء خفيّ ، غريب
لم يُقدّر لأحد غيري أن يجده .

*

أضْجَرَتْني هذه الألفةُ القديمة كلها
وسكون الدهور القائم هذا .
أُريد كلماتٍ أُخَرَ وموسيقى أخرى ،
كلماتٍ لم يُنْطَق بها من قبل .

*

لكنني أدركت : من أجل أن أجد هذا كله
ليس ضرورياً أن أنطلق في أيما اتجاه .
الأعاجيب كلها في الجوار منّي، لا في أيّ مكانٍ آخر ،
يكفي لهذا ألاّ أدّخر جهداً .

*

مع أنني طفتُ نصفَ العالم
فلم أجدك في مكان غير أرضنا تسادا .

- 6 -

كان ثمة ندى ، وبغتةً لم يعدْ له وجود
والطيور قد غادرتْ إلى جهة بعيدة .
كل شيء يمرُّ ، وأغنية «دالا لاي»
لم تعدْ تمتلك رنينَها القديم نفسه .

*

قليلة هي الإقامة على الأرض
حيث يتغيّر كلُّ شيء مع السنين ،
قال الندى : «كان القيظ مُحرِقاً !»
«الثلوج تتساقط» .. أوضحت الطيور .

*

غيرَ أنَّ أغنية دالا لاي» أخبرتْني :
ما برح رنيني دون تبدّل مثلما كان
فلا تعذلْني اليوم
آخذاً عليَّ تغيُّرَكَ غيرَ القليل .

*

لتحاولْ أن تعزفَ كما عزفتَ من قبل
أو لُتصغِ إليَّ ، في الأقل ، كما عهدتك قديماً .

- 7 -

لنتجوّلْ في الجبال أو في السهوب
تحت ثلوج الشمال أو تحت شمس الجنوب ،
لنركبْ فِيَلةً أو مركباتٍ تجرُّها الكلاب
أو لنسرْ على أقدامنا متماسكي الأيدي .

*

سنعبر الأنهر الهائجة
ونجتاز الغابات متعانقين ،
أو نرفرف بأجنحةِ حبنا
منطلقين بعيداً مع سروب الغرانيق .

*

وسيبدو حبنا جميلاً
لجبال العالم ومدنه وقراه .
ولربما سيخجل الشرُّ البشري من نفسه
وستخجل البغضاء القاتلة .

*

قد يطلق الرامي في اتجاه آخر
وهو يرى إلى عيني الأيّلين العاشقين .

- 8 -

أنا أعترف : يُخيَّلُ لي أحياناً
كما لو أننا نحن الإثنين
قد بُعثنا من القصص القديمة
حيث يُقضى على البطلين بالموت حباً .

*

يعقد الحب شبكته
ليحرق العاشقَ بنارها .
طائر التمّ المتيَّمُ لن يعيش طويلاً
ويعيش الغراب الحانق ثلاثةَ قرون .

*

لم يكتب لطائر التمّ أن يكون هَرِماً
غير أن عمره القصير عمر حب ،
وهو في أغنيته العالية الأخيرة
لأَكثرُ سعادةً من الغراب .

*

ومع هذه القرون الثلاثة من الزمن
لن يتسلّى الغراب بشيء غير الجيف .

- 9 -

أنت أيها الزمنُ كالجلّاد في الساعة المحددة
دون أن تنطق أحكاماً طويلة
تحرمنا الحياة باحتفال ،
مذنبين كنا أو غير مذنبين .

*

غيرَ أنَّ في العالم شرعاً قائماً منذ قرون :
أن يسأل الجلاد أولئك المحكومين بالموت
عن رغبتهم الأخيرة
قبل أن يرفع الفأس .

*

أي شيء اتعطّش إليه أكثرَ من غيره ؟
لقد عشت حياتي ، فماذا أُريد بعدُ؟
أن يظلَّ الحبُّ مقصداً لي ..
هي ذي رغبتي الأولى والأخيرة .

*

ولُتجملِ الحياة رصيدي في الساعة الأخيرة ،
أنا قلت وعملت كلَّ ما في استطاعتي .

- 10 -

سمعت أن إبن سينا
كان يكتب وصفاته شعراً لمرضاه ،
وسمعت أن أورفيوس
كان يشفي المرضى بأنغامه في برهةٍ واحدة .

*

وأنا لست بطبيب أو مُبْرِيءٍ أسطوري
مع هذا يمكنني أن أُقدّم نصيحة إلى الناس :
أحبّوا بعضكم بعضاً قدْرَ ما تستطيعون ،
الحب هو عَقَاركم الشافي من المحن .

*

مع أن الحياة ليست دائماً كما نشاء
وليس كل عاشق بمنيع
غير أنه كلما أحبَّ بقوة أعظم
ودَّ لو كان أكثرَ قوةً وحياة .

*

يبدو لي أنني أعيش
طالما أنا أُحبّكِ ومحبوب منكِ .

- 11 -

في قاعات المتاحف .. في اللوفر وفرساي ،
حيث كنتُ أتجول لأيام عديدة
يحدث أن يُحيّرني هذا التشابه العجيب
بينك وبين المادونات الصارمات .

*

وكنت أفكر : أيُّ إلهامٍ هذا ،
أيُّ تَصَوُّرٍ جماليٍ غريب
استطاع أن يتنبأ بتقاطيعك
قبل ولادتك بهذه السنين كلها ؟

*

بعيداً عن حدودنا
اتفقَ لي أن أرى العديد من الجميلات ،
غير أنني كنت أحزر جمالك في ملامحهن .
ولم أكن أفهم أحياناً
كيف أمكن بنات الأرض الغريبة
أن يقتبسن هيئتك هذه ؟

- 12 -

يلقي سراجي الداخن ضوءه
ولم يعد من أحدٍ صاحياً في بيتنا عداي .
إنحنيت على وجهك النائم
لأهمس ثانيةً : «إنني أحبك»

*

تمرُّ الأيام أكثرَ حلاوةً أو مرارةً
وأُحس ، وقد صرتُ أكبر سناً .
أنني أُعيد بلا انقطاع
هذه العبارةً نفسها : «إنني أحبك»

*

فإن كذبتُ عليك أحياناً ،
أتضرّع إليك من أجل شيء واحد :
ألاّ تظني أنني رجل ميئوس منه
لأكذب عليك في اعترافي : «أنني أحبك»

*

إن قصيدتي الوحيدة ، قصيدتي الحقة
هي : «أنني أُحبك»

- 13 -

حين نحكم على أنفسنا
لقاء كل ما ارتكبنا من أذىً لأحبتنا
فلربما كنا سنتجنّب
أن نحكمَ على أنفسنا بالسّجن .

*

إن لكلٍ منا قانوناً في صدره ،
وأنا لا أجرؤ أن أنتظر تسامحاً
فاحكمي عليّ يا حبيبتي
كما يشاء شهودك وقوانينك الخاصة .

*

أقضي عليَّ بقضاء الحُب
وأَعْلِني عن أعمال المتّهمِ كلها
لُتظهِرِي مدى ذنبه
وادعي إليك كلَّ فجرٍ ذاهب أو غروب

*

كلّ ما أبهجنا ذات يوم
وكلّ ما هو حيٌّ في عروقنا إلى الآن .

- 14 -

خبّريني يا شقيقة روحي رحمةً بي ،
حيث يتفق أنْ أكونَ في أرض غريبة
وبغتةً يعصف الجوُّ المتلبّد
لماذا حين تظهرين لي يهدأ كل شيء ؟

*

ويحدث لي ، وقد عدت إلى ديارنا ،
وأنا أسير كالضيف في النهار المدلهمّ ،
أن تَظهري أنتِ .. فيتغير كل شيء ،
تسطع الشمس وتتغنى الطيور

*

وأسعى إلى البحر .. فيحتدم الماء غيظاً
وتلتطم الأمواج مظهرةً غضبها عليَّ
ثم تجيئين .. فيُقرّ البحرُ بذنبه
منطرحاً ، خاضعاً عند قدميك .

*

وتنكشف الحقيقة أمامي :
أبداً تثور ثائرة العالم حين نكون منفصلين .

- 15 -

لم أنمْ هادئاً هذه الليلة ،
حلمت أنني أقتفي آثارك راكضاً
قافزاً فوق حافات الصخور الناتئة
في أرض غريبة علينا نحن الإثنين .

*

ورأيتك ، بغتةً ، تنفلتين من الصخور
وتسبحين في رحابة البحر .
فسبحتُ وراءك ، كانت الأمواج الثقيلة
تعترض طريقي واقفة كالجدار .

*

ووجدتني ، ثانيةً ، في الجبال ، ومن الأعالي
تتدحرج الثلوج المنهارةُ مدوّيةً .
وفجأةً حوّلَتِ الأرضُ غَضَبَها إلى رحمة :
أُضيئتِ السماءُ وتفتحت الزهور .

*

في هذه اللحظة أفقتُ ، وكنتِ آتيةً إليّ
أو كنتُ أراك ، ثانيةً ، في حلمي .

- 16 -

أرأيت إليهم كيف ينشرون الشجرة ؟
في حياتي نشرتُ جذوعاً غير قليلة
ثم قطعتها إلى حطب
وكنتُ أرى قُطرانَها سائلاً كالدموع .

*

كنت فتياً ، حرداً على عملي ،
ويحدث أن أنشرَ الجذوعَ طوال النهار
أنشرها متغلّباً عليها ،
قاضياً على كتلة الحطب بأن تحترق .

*

وتمر السنون ، وكما ينشر الجذوعَ المنشار ،
تقصّرُ من أعمارنا بلا شفقة .
وتحترق السنون نفسها ككتلة الحطب
ولا بكاءَ يُسمَعُ لدموع القَطران .

*

إنما هل يُرهبُ الحبَ أن يحترق ؟
هل ترهبه أسنان المنشار القاسي ؟

- 17 -

أنا أحمل خرجين على كتفي .
أنظري .. ثقيلان هما خرجاي ،
سَحَقَ عبئَهما ظهري
وصدري وقلبي الذي في صدري .

*

إن خُرجي الكبير الأول
ممتلئ بالحُبّ المتفاني إخلاصاً ،
وإنني لأنثر ، بلا أسف ، على قدميك
هذه الخزينة التي لا تُحصَى .

*

لكن خُرجي الثاني ممتلئ هو الآخر ،
ممتلئ بالحقّ واللاّمسالمة
وإنني لأفرغه أحياناً
وبناره أقتصُّ بنفسي من نفسي
في ساعات غير نادرة
حين أكون مذنباً ، أمامك ، يا شقيقة روحي .

- 18 -

هو ذا يوم ميلادك
ثانيةً يلد إرتباكاً في نفسي :
أحقاً قد استطاعت الأرض أن توجد
قبل مجيئك إلى العالم ؟

*

أيُّ جمال ألهمَ بوشكين
أن يكتبَ قصيدته عن البرهة العجائبية ؟
بأي إسم اندفعَ شامل ،
مجرّداً نصله ، إلى القتال الدامي ؟

*

وأنا لن انكُصَ عن يقيني
في أنَّ العالم كان مقفراً منذ الخليقة ،
وأن الأرض كانت خاليةً قبل ولادتك .
ولهذا فأنا أبدأُ حاسباً زمننا
منذ لحظةِ ولادتك
لا من يوم ولادة المسيح .

- 19 -

سفطٌ أُنزل إلينا من السماء ،
سفط مُغلَق على كنوز الهوى
خذيه بلطف فلن ينضبَ أبداً ،
أنزله الله ذاته على الأرض .

*

إن روعةَ هذا الكنز السحري
تكمن في أنه كالماء في البئر
كلما اغترفت ، واغترفت منه
بقيَ الكنز أعظم غزارةً .

*

لأني لأحسُّ بالرثاء لكل بخيل ،
إنه لأكثر تعاسةً من أي تعيس
فهو لا يرى هذا السفط المكنون
أو لا يعرف مزاياه الرائعة .

*

وأنا كالحكيم الأسطوري
أمنحكِ كلَّ شيء ، ويظل سفطي ممتلئاً .

- 20 -

في ذكرياتي عن الربيع
في تأملاتي الخريفية ،
في اشغال النهار الجاري
يحجب وجهُكِ كلَّ وجه عني .

*

ما كان ينبغي أن أقول هذا
غير أنك انحنيتِ برأسكِ على صدري
فأدركتُ أنني لا يمكنني أن أخفي :
أن وجهكِ يحجب كلَّ وجه عني .

*

اتفق لنا أن نرى الكثير
من الفرح أو الحزن في حياتنا ،
لكنّ فضةَ شعرك اليوم
تأتلق كما لم يأتلقْ أيُّ شيء آخر .

*

لا فرق .. كنا معاً أو منفصلَيْن
فإن وجهك يحجب كلَّ وجهٍ عني .

- 21 -

يُبْحِرُ مركبنا من التخوم النائية
يحملنا متمايلاً فوق الأمواج ،
وكما يقطع الماسُ الزجاج
يقطع المحيطَ الهادئ .. أو العظيم .

*

على جانب منه ، حيث الشمس المتوهّجة،
تلهو المياه مرِحةً
والموج يتقافز كالأطفال
أو يرقص كضيوف في مأدبة .

*

وعلى الجانب الثاني ، في الظلّ ،
تهدر الأمواج وكأنّ أحدَهم يتأوه ..
لا بد من أنها
تغبط أختها في الجانب الآخر .

*

وكلّ يوم ، مع مركبي المبحر ،
ينقسم العالم إلى ضياء وظلال .

- 22 -

يبّثون الأنباء وحالةَ الجو
وفي مكانٍ ما من السماء تدوّي قاذفاتُ القنابل ،
أحدهم يموت ، وتنسكب دموع شخص آخر ،
إني لأشعر بالخوف فَضُمّي صدرَك إليَّ .

*

أصيخي السمع ، ياشقيقة روحي ، وانظري ،
ثانية تُسرع المركبات إلى القمر
وفي مكان ما يفجّرون الذرةَ من جديد
إني لأشعر بالخوف فضمّي صدرك إليَّ .

*

ومهما يكن في انتظارنا
لِنأخذَ معاً تذكرتين
إلى مارس أو القمر أو إلى آخر الدنيا ،
إنما اقتربي مني الآن .
باردٌ هو الجوُّ هَنا وأنتِ في ثياب خفيفة ،
شدَّ ما أشعر بالخوف فضمّي صدرك إليَّ .

- 23 -

لكي أخوضَ معه قتالاً مميتاً

أين هو ظالمك القديم أو غير القديم ؟
لكنَّ من البلية أن أكون أنا
حاميك .. وظالمك الأول .

*

منذ سنين طويلة وفي دخيلتي إنسانان
يعيشان في خجلٍ من جيرتهما ،
وكي أمنعَ الضيم عنك
ينبغي أن أقتتلَ مع نفسي حتى الموت .

*

فأسرعي منتزعةً منديلَكِ عن كتفيك ،
ومثلما اعتادت أمهاتُنا
ألقي به بيننا دون أن تنطقي بحرف
لكي نتصالح بعد عداء
أو فاقتلي بيدك نفسها
آيّاً منا نحن الإثنين .

- 24 -

لا أحدَ إلا ويفعل خيراً أو شرّاً .
إنما تتحكَّمُ بي فكرةٌ أخرى :
أسمع صوتك أو أرى نظرتَك
فلا يساوي غيرهما عندي شيئاً .

*

بديعٌ هو الفجر ، جميلةٌ هي النجوم
والغَسَقُ والشمس الذهبية في السماء
وكلّ ما يلقي عليك ضياءه ،
وما يتبقّى لا يساوي عندي شيئاً .

*

إنك لتضيئين بجمالك
قريتنا والبلد الذي تحبين ،
الجبالَ المرعبةَ بشموخها
وكلَّ زهرةٍ أو حجرٍ صغير .

*

كل شيء مرتبط بك مقدّسٌ عندي
وما يتبقّى لا يساوي شيئاً عندي .

- 25 -

إرضاءً لرغبتك أُوقدُ النجوم
واكبح الريح القارسة أو العاصفة الثلجية
وأُشعلُ الموقد مرحّباً بك
لأقيك من الزمهرير .

*

معاً نجلس متقاربين
متحاشيين أيةَ مفردةٍ مزوّقة ،
وعلى عاتقي
أحملُ نيرَ أوصابك وأحزانك في سرور .

*

وأغطّي المصباح كي لا تتضايقي
واقفاً عند سريرك في هدوء ،
وأغدو لك تنويمة ملاطفةً
وتعويذةً من الرزايا والبلايا .

*

عندئذ توقنين : ألاّ شيءَ من الأسى والأذى
فوق أرضنا المزوبَعة .

- 26 -

أريد أن أُعلنَ الحبَّ بلداً
ليعيشَ الجميعُ هناك في دفء وسلام ،
وأن يبدأ نشيده بهذه الكلمات :
«في البدء كان الحب على الأرض»

*

وأن يتغنى البشرُ وقوفاً بهذا النشيد الرائع
وترتفعَ الأغنية عالياً إلى السماء
وأن تلتقيَ يدان متصافحتان
على شعار بلدِ الحب هذا .

*

وعلى الرّاية التي ينشئها بلد الحب
أريد أن تتجمّع ألوانُ الأرض كلها ،
وأن تتضمّن الفَرحَ ،
الفرقةَ واللقاء ، القوة والضعف .

*

أريد أن تسأل قبائل الأرض كلها
ملاذاً لها في بلد الحب .

- 27 -

تمرُّ يدكِ بلطفٍ على رؤوس بناتنا الثلاث
وتضفرين ستَّ جدائل كثيفة ،
وتنظرين في المرآة فتحسين بالأسى
إذ ترين أن غدائرك قد بهتت .

*

لا أيدي أكثر بياضاً من أيدي بناتنا ،
تلمسين أيديهن براحتيك
وتلاحظين ، فجأةً ، متنهدةً
أن راحتيك قد اخشوشنتا .

*

لا أعينَ أكثر صفاءً من عيون بناتنا .
ستبعث الدفءَ في شيخوختنا ،
وأنك لَعَبثاً تتذمرين
من أن عينيك قد بهتتا قليلاً .

*

كل شيء كان جميلاً فينا
أصبح من حظ بناتنا وتبقّى .

- 29 -

في الحياة قد تنقلب الحال إلى ضدّها .
أنا أيقنت من هذا أكثر منْ مرَّة :
تتساقط الأمطار مع أن الحقل ينتظر الشمس ،
يستعر القيظ والحقل متعطش إلى الماء ،

*

في غير أوانهم يجيء الضيوف
ويحدث الرضا والغضب غير منتظرين .
ولم أكن أنتظرك أو أستطيع انتظاراً لك
حين حللتِ في حياتي ذلك اليوم .

*

وتغيّرَ كل شيء بسرعة
صرت أحيا وأفكر وأغني بطريقة جديدة .
لم أكن لأصدق قبل عقدين من الزمن
أن يحدث مثل هذا كله في الحياة .

*

أحياناً يسخر القدر منا سخريةً مريرة
فكيف جرى الأمر ؟ ببساطةٍ ، كنت موفقاً .

رأيت أنهراً حالَ خروجهِا من السهل
تفيض ،فجأةً ، في مجريين مختلفين ،
وطيوراً خُيّل لي ، أنها بلا سببٍ ،
فجأةً ، تتفرق عالياً في السماء .

*

ولديَّ صديق وصديقه
كأن أحدهما قد ولد من أجل الآخر ،
وافترقا ، فجأةً ، كالنهر في اتجاهين مختلفين
كالطيور المتفرقة في السماء .

*

«ما بك ؟» سألت صديقي وقد التقيت به
فأجابني : «كما لو أنني
خرجت حيّاً من معركة !»

*

فكنت في حيرة من الأمر :
إذا كان الحُبُّ قتالاً بين اثنين
فهو قتال لا عودة منه .

- 31 -

نويتُ أن أرحلَ إلى جهة نائية ،
أردتُ أن أشتريَ تذكرةً لقطار سريع
كي تعرفي أن الحياة ، مع أنها ليست جنةً ،
ستغدو أكثر حزناً بلا صحبةٍ معي .

*

نويت أن أرحل دونما تأخر
لأتوارى في جهةٍ ما ، في جهة بعيدة
كي تذرعي أرجاء الدنيا
باحثةً عني ، ذارفةً دموعاً محرقة .

*

نويتُ أن أفرَّ إلى جهة نائية
كي تعرفي كم هو فادحٌ فراقُنا ،
وفي لحظةٍ ما أدركتُ فجأةً
أنني في بيتنا وأنَّكِ ذاهبة إلى مكانٍ ما
وسريعاً ما نسيتُ كلَّ شيء في العالم
وركضتُ كالمذنب باحثاً عنكِ.

- 32 -

منذ عشرين عاماً ونّيفٍ وأنا أسيرٌ لديك
ويبدو أنك قد شددت يدي تماماً .
ويجيء ، أحياناً ، صديق أو جار
لِيُخْرِجَني بكفالة من أسرك .

*

بيد أني في حريتي أشعر بالضعف والأسى ،
كلُّ شيء تافه من حولي ، وكلُّ وجه مملّ .
وكعبدٍ أُعْتِقِ منذُ حين
لا قدرة لي على العيش بعيداً عن سفينتي

*

هكذا هو الكلب الذئبي وقد انفلت من مِقْوَدهِ
لن يلهو مرحاً إلا في بداية الأمر
وسريعاً ما يعدو حول الأسيجة كلها
عائداً إلى سلسلته المألوفة .

*

وأنا الآخر ، لقاء هذه الحرية
اتقبّل ، راضياً ، أسْري الأبدي .

- 33 -

في الليل ، يدقُّ المطر ويدقُّ على النافذة
تاركاً قطراتِهِ على الزجاج .
فيم ضجيجه ؟ أنا لا أستطيع رقاداً هكذا
وأنتِ ، يا حبيبتي ، بعيدة عني .

*

لكنَّ الزوبعةَ لن تلبثَ أن تمرّ
وسينقطع المطر فجأةً
وقد أَدركَ ألاّ فائدةَ في إنهماره ،
تاركاً أثراً سريعَ الزوال : ثلاثَ دموع على الزجاج .

*

ويعمُّ السكون ، ولم تبق قطرةٌ واحدة
وأتطلعُ بعيداً حيث تتكاثف الظلمات
وأتذكرُ أنني قد حدثَ لي أيضاً
أن سكبتُ دموعي قديماً ذات يوم
واتفق لي أن أدقَّ على نافذتكِ،
وأدق دون أن تُفْتَحَ لي .

- 34 -

تتلألأ النقودُ الفضية الصغيرة
منتشرةً في السماء الجنوبية حتى الفجر ،
وعَبْرَ الجبال يولد الفجر
ليجرفها ويُخبئها في مكان ما .

*

من العتمات يطلع الفجر
وتُنبئنا الطيور ، لاغيةً ، باقتراب النهار .
ويجيء يومٌ لا تدرين أنتِ أو أنا أو أيّ أحدٍ
ماذا يخبّئُ له .

*

لا وقت لديّ لأرجوَ خيراً لنفسي ،
أنا لا أقوى إلاّ على اهتمامي بكِ،
وأتضرع ألاّ تسبب لك البلايا
أذىً أو شراً .
فإذا ما اشتدت الظلمة تكاثفاً من حولنا
فلكي نكون أبداً ، معاً نحن الإثنين .

- 35 -

يطول طريق الحياة أو يقصر
غيرَ أنه ليس أبدياً على أية حال .
قَرضةً لنا تُمنح الأيام والليالي
وَعلينا كلنا أن نردَّ ما أخذنا .

*

بعض هذا نُعيده غير آسفين
وبعضه لا يُنتزع إلا بعد اقتتال .
أحياناً يحدث أن يهبط الستار
حال ارتفاعه عن المسرح .

*

أرى شبابي قد تخلّف عنّي
عَبْرَ الجبال النائية ، عَبْرَ التخوم .
وها هي الشيخوخة تقف مماحكةً
متأهبةً لِتحَمُّلِ الرَّصيد .

*

يا عزيزتي حبّذا لو أمكنني آنذاك
أن أدفع حسابَ أيامك بأيامي أنا .

أنتِ بين الذكيات أذكى امرأة
أنت بين الجميلات أُعجوبة الجمال .
هلك ، قبلي ، من كان أقوى مني
ولولاكِ لهلكتُ منذ زمن بعيد .

*

ما كان محمود ليسقطَ قبل سنين طويلة
لو بقيتْ مريمُ وفيةً بكلمتها له ،
وما كان إلداريلاف ليتجرع كأس سُم
لو ظلّتْ عروسةً أمينةً ، مخلصةً .

*

أنا أعرف .. لا أحد غير المرأة
ينقذُنا أو يقتلنا في أيما زمان .
وها أنتِ أنقذتني مراراً
كلما وقفتُ عند الحافَة .

*

أمينةً كنت معي ، أنا غيرُ الأمين ،
منقذةً لي بأمانتك هذه .

- 37 -

تمشطين ضفيرتك ، متكدرةً ،
إذ ترين فيها غير قليل من الشعرات البيض
لماذا تخفينها ؟ لِمَ تنفضين
الثلج الخريفي الأول عن الغصون الخضر ؟

*

لا مفرَّ من أن يجيء الخريف ،
عبثاً نحاول أن نؤجله .
لِتَتساقطِ الأوراقُ، لِتَنْهمرِ الثلوج
فالخريف بديع بجماله .

*

لم يُتَحْ لي أنا الآخر أن أعود فتياً
لتجيء الشيخوخة ، مبرأةً نفوسنا من الشكوك
لتحتدم الزوابع الثلجية غيضاً
لما تزلْ صدورنا دافئة مع هذا .
السنون تزيدنا زينةً ،
منذ زمنٍ أنا لم أركِ في مثل هذا الجمال .

- 38 -

لم يبقَ لنا من الدرب غيرُ ثلثه
عشنا معاً دهراً
وها أنا أتمنى أن أنهي حياتي
قبل أن تتخلّي عني .

*

أضيئي ساعتي الأخيرة
واغفري لي ، أتضرع إليك ،
إغفري مظالمي لك
وأنني لا أترك إلا إرثاً قليلاً .

*

مع أنهم يقولون إنني ثري ،
لست غنياً كثيراً في حقيقة الأمر .
مكافآتي ؟ أي شيء يجيئك من هذه المكافآت ؟

*

إنني أترك لك بناتنا
وقصائدي التي يزعمون أنني لم أكتبها ،
إنما كتبها المترجم .

- 39 -

عندنا ، في الجبال ، عادة قديمة :
حين يوصلون ابنةً إلى بيت زوجها
يقدّمون لها عوداً من القار لإشعال النار
كي تستمرّ سلالتها إلى الأبد .

*

يتوهج موقدنا تحت سقفي
يتوهج مشتعلاً بعودك
وهو أعزّ وأغلى
من أية ثروة جئت بها معك .

*

يتوهج موقدنا ، يشتدّ دفئاً وإضاءةً
ويلتمع في شعرنا البياض ،
ولربما لم يعد الطريق طويلاً
حتى تلك الأيام السعيدة الحزينة
حين نوصل بناتنا
واضعين في أيديهن عيداناً لإشعال النار .

- 40 -

في الربيع كنا نسمع من فوقنا
حفيف شجرة على مُنْحَدَر الجبل ،
ولم نفكر ، ساعتها ، نحن الإثنين
أنَّ الحطّابَ قد شحذَ فأسَه .

*

شبيه هو الحُبُّ بهذه الشجرة
يُزهر مستخفاً بكل شيء في العالم .
أضعيف ، ترى ، هو الآخر
كجذع الشجرة أمام الفأس ؟

*

طالما شغلنا بشجرتنا
مرتعدين خوفاً على وليدتنا هذه ،
أترانا نسلمها ، لتهلك ،
لأيدي الحقد والإشاعة الكاذبة ؟

*

أترانا بشكوكنا وظلمنا
سنسمح بأن تتحول إلى كتلة حطب ؟

- 41 -

يُخيّل لي أنني لم أعش يوماً واحداً
قبل أن تخلقي أنت .
فمن كان سيصبح سبباً لشكواي ،
من كان سيغدو مبعثَ بهجةٍ لي ؟

*

إلى من كنت سأطير عائداً من الجهات النائية ،
بمن سأفكر حزيناً ، مكتئباً ،
ولاية امرأة أخرى كنت سأقدم سطوري ،
قصائدي التي أهديتها إليك ؟

*

ترى أكانت الحدائق ستزهر ، والطيور ستغنّي
لو لم أَرَ عينيك ؟
أم ترى كانت النجوم ستتوقد في سمائها
ولم تنطفئ الشمس فوق العالم ؟
لو لم تُخلقي أنت
أكان يمكنني أن أغدو سعيداً كما أنا الآن ؟

خَطبَ المغنّي إلداريلاف
حسناءَ من قرية غريبة ،
لكنَّ أبويها زوَّجاها شخصاً آخر
منتهكين حبه .

*

وفي الزفاف المرح
دسّوا في كأسه سمّاً وقدّموها له .
مع أن المغني قد أدرك الخُدْعَة ،
شرب كأسه حتى الثمالة كما يليق بالجبليين .

*

هكذا تصرّف كما تشاء العادات
وكما يأمر القدامى بأدائها .
يقولون إنه هوى قرب العتبة نفسها
ولم ينهض من بعدها أبداً .

*

يخيّل لي أنني أشرب من قرنٍ كذلك
مع أنني أعرف أن سمّاً قد دسّ فيه .

- 43 -

كان أبي شاعراً جبلياً
وعبر عمره الطويل كتب أشعاره
عن الجيران ، عن جبليي خونزا ،
عن أعمالهم الوضيئة وذنوبهم .

*

مرَّةً جاءه الشيوخ قائلين :
«نحن لا يمكننا أن نفهم
كيف حدث أنك لم تكتبْ بيتاً واحداً
عن تلك التي هي أغلى كائن لديك ؟»

*

إنما كان لأبي رأي آخر :
من يمدحْ زوجته ،، فهو أحمق
ومن يشتمْها .. فهو لئيم

*

أما أنا فكنت أكتب قصائدي طوال عمري
عن زوجتي ، وها أنا أدرك أخيراً
أن أبي كان على حقّ.

- 44 -

ربما كان الحب معهداً
حيث لا يدرس كلُّ امرئ يريد ،
حيث الفرح والحزن ، طيلة الليل والنهار ،
يلقيان دروسهما على الطلبة .

*

وأخذتُ أتصفَّح كُتُبَ الحكمة
ووجدتُني موقناً بالرغم من كل شيء
أننا لسنا أهلاً لأن نتعلم كل شيء
من خبرة الآخرين الناقصة .

*

وتعلمتُ ، لكنَّ المعارف كانت متقلبةً .
وزللتُ وارتكبتُ حماقات
وأخطاء فاحشة ، فادحة .
لم أراجعْ جيداً ، ولم أتصرفْ كما ينبغي .

*

قليلاً ما نجحت ، مع أنني في حقيقة الأمر
طالب أبدي في هذا المعهد .

- 45 -

حدثتْ معي معجزةٌ ذات يوم ،
أو لتدعُها بأيّ اسم آخر :
كنتُ واقفاً عند قبر محمود
فقام مغنّي الحب ناهضاً من قبره .

*

قلت له : «علّمني كيف يمكنني
أن أكتبَ همومي في أبيات غير كاذبة .
أرجو أن تعيرَني أيها المعلم
مفاتيحَ ذلك السَّفَط ، حيث تختزن الموهبة».

*

وأصغى إليَّ مغني الحب
ثم أجابني ، مُزيحاً بندوره* في حذر :
«ذلك السفط المكنون
لن يفتحَه أحد إلا بمفتاحه الخاص .

*

إبحث وستجدُ مفتاحك أخيراً
ولن تكون أغنيتك كاذبةً !»

---

* «البندور»: آلة وترية (المترجم) .

- 46 -

المناورات .. معركة بلا حرب .
تمرّ الدبابات فوق الأرض المرتجفة
ومع أنك لا تسمع انفجارات النار
غير أن الرعد يدوّي كما لو كان حقيقياً .

*

يرى بعض منا أن الحب
لعبة ليس من الممكن أن تكونَ خائبةً ،
وبِرَعْدِ الكلمةِ وحده يمكنك أن تحاصرَ
قلعةَ القلب لتخُضعَها لك .

*

أنا أُحب ، ولهذا فأنا أسير في اللهب
وأعرف مضضَ الأنكسارات .
ما أنا في مناورة ، أنا في حرب
حيث لا إجازة ولا تسريح .
أنا جندي ولي ، كجندي ، من المكافأة
أقلّ من حصّة الجريح .

- 47 -

تكافئ البلاد أبناءَها وبناتِها
جزاءَ أتعابِهم ومآثرهم .
ولكثرة الأسماء المكرّمة
قد لا تجد مكاناً في الجرائد أحياناً .

*

وأنا أريد أن يُكرّمَ الناسُ في بلادي
لقاء حبهم ووفائهم ،
وأن تلتمعَ الأوسمةُ والأنواط
على صدور المحبين .

*

إنما لا أوسمة في الحب وآأسفا !
وعلماءُ القوانين مقتنعون بهذا .
ربما كنتُ سأُمنح نوط الوفاء
ولكنتِ ستُكلَّلين بوسام النصر .

*

لكن ما حاجة الحب إلى مكافآت ؟
الحب هو نفسه مكافأة .

- 48 -

حيث تُزَفُّ العروس إلى زوجها ،
إرضاءً لعادةٍ قديمة ،
يرمونها بالحجارة أولاً
ثم تُمْنَحْ ملعقةَ عسلٍ تعليلاً لها .

*

هكذا يحاول مواطنونا
أن يذكّروا العروسين
بما تترك الحياة على أجسادنا من كدمات ،
بيد أننا نتقبّل الحياة فرحين .

*

لمّا تزلْ هذه العادةُ شائعةً إلى اليوم
وأنا أتذكرها من سنة إلى سنةٍ
وأظنُّ ، يا زوجتي ، أن الحياة
لم تبخلْ علينا بحجارتها وعسلها .
وهكذا يحلو العسل أحياناً
وتحلو الحياة مع ضربها أجسادنا بالحجارة .

- 49 -

مُعنّى أنا بآلام قلبي ونفسي ،
وطويلةٌ هي حكايةُ مرضي .
فيا طبيبي أكتبْ لي عقاراً ،
أشرْ عليَّ بدواءٍ هو أكثرُ الأدويةِ فائدةً .

*

أشرْ عليّ بأن أتطلعَ إليها بضعَ ساعات
هي الأكثر كمالاً بين الجميلات ،
وأنْ أرتشفَ كفايتي مِنْ يَنْبوعين تحت حاجبيها ،
بمثل هذا العلاج أشرْ عليَّ يا طبيبي .

*

أشرْ عليَّ بملازمة الضوء والدفء
فأنا أقرُّ بفداحةِ مرضي .
وأعنّى في أن أدرك
أين تكمن نتائج المرض وأين هي أسبابه .
فإذا مِتُّ ، مع هذا ، بعدئذ
ستُبرّأ أنت .. فالطب عاجزاً كان .

- 50 -

أزهاركِ التي حملتِها إليَّ
تقف مطأطئةَ في هدوء المستشفى .
لم تعد ترى فوقها أجواءَها المعتادة
وافتقدتْ تربتها وجذورها تلك .

*

إنها لأشبه بالمرضى من البشر ،
من المقيمين تحت وصاية الأطباء ،
يُسقَوْن المياهَ الناجعة
ويضعُفون من يوم إلى يوم .

*

نتطلع نحن المرضى مُفْتَتَنين
إلى الزهرة والسويق والبرعم ،
إلى خفايا الجمال الزائل
ونشعر كيف تُوحّدُ القوانينُ العامّةُ،
بحزم ثابت ،
بين المرضى والزهور الذابلة .

تقولين إنَّ عليَّ دائماً
أنْ أعتنيَ بنفسي مهما كلفني الأمر .
وهكذا عشتُ سنواتٍ زائدةً
مع أنني لم أعتنِ بنفسي كثيراً .

*

مع كثرة ما كان لي من أصدقاء
لم أستطعْ أن أحتفظَ بأصدقائي ،
وكثير منهم ذهب في ميعة الصبا
قديماً قبل أن ألتقيَ بكِ.

*

كيف يُمكننا أن نتجنبَ الهموم ،
والكوارثَ والألَمَ والمعاناة
والزمنَ المتعجّل في سيره
حاسباً علينا أعمالنا وأيامنا ؟

*

مع أنني غيرُ محترسٍ بطبعي
لكنَّ وجودَكِ نفسَه سيجنّبني كلَّ بلية .

- 52 -

ساعتنا المُتَنَبِّهَةُ على الحائط
تُحصي ، بصرامة ، ذنوبي المغتفرة .
قديماً كانت تدقّ لي : «تك ، تاك ..
لم يحنِ الوقت بعد ، إنتظر قليلاً !»

*

كان سيرُها الرتيبُ يحمل إليَّ البهجة
وأغنيتها كانت أعزَّ عليَّ من أي شيء :
«تك ، تاك .. لم تكتمل الدورة بعد ،
وستلتقي بفتاتك اللطيفة !»

*

وتسير الساعة ما تسير دون أنْ تُغمضَ جفناً ،
تسير كما تشاء قوانينها .
إن أغنيتَها لحزينةٌ اليوم .
«تك ، تاك .. تك ، تاك»
إن دقاتِها الكئيبةَ تذكّرني بالفراق المرير
مردّدةً : «مضى ربيعك وانقضى !»

- 53 -

بيْتكِ في تلك الجهةِ من الطريق ،
بيتي في الجهة المقابلة ، وإلى الوسط
خرجتُ ووقفتُ ، والريح بلا هوادة
تهبّ عليّ من خلفي ومن أمامي .

*

وأقتربُ من بابكِ
لكنه مقفل ، والنوافذ مغلقة ،
وذكرى إساءتي القريبة إليكِ
لا تسمح لي أن أدقّ على النافذة .

*

وأُقفل راجعاً إلى منزلي ،
أجرُّ خطاي ، ثانيةً ، في ذهول غريب .
فأصلُ متثاقلَ القدمين ، ويداي ترتجفان
وأبحث عن المفتاح منقّباً في جيوبي .

*

إنما لا أثرَ للمفتاح في أيما مكان ،
وأظلُّ واقفاً ، متطلعاً إلى جهتك خائرَ العزم .

- 54 -

هذه الدمعة السائلة على خدك
لو استطاعت كلاماً ولو لبرهة
لعنّفتني دونما شفقة
وقد أرغمتُها على الجريان .

*

والشعرة البيضاء في ضفيرتك المتباهتة
غير قادرة أو راغبة أن تخفي عتاباً
لتجعلني أفهم أنني السبب
في ابيضاض غدائرك قبل الأوان .

*

يا شقيقةَ روحي! أَبْعِدِي ضبابَ الدمعِ عن ناظريك ،
ليس الأذى هو كلّ ما في الحياة .
أرجو أن نلتفتي إلى الوراء :
كم من أيام وضيئة هناك !

*

باسم أيامنا الماضية ، باسم كل ما هو مقدس
إغفري لي .. مع أنني مذنب .

- 55 -

غفرتُ ، في حياتي ، الكثير للكثيرين
ولم يُضمروا إساءةً لي .
الحدائق التي دُسْتُ أوراقَها في الخريف
أهدتْني أوراقَها ، ثانيةً ، في الربيع .

*

مع أني لم أُقدّر عطايا الربيع السخية
لم يكن الربيع قاسياً معي
وفي السنة التالية ، ناسياً كلّ شيء
جاءني بدفئه من جديد .

*

أما أنتِ فتحصين كل ذنبٍ عليَّ
وتفكرين بعقابي في اللحظة نفسها .
أنتِ الأكثر طيبةً ، الأكثر كمالاً
لن تجدَ توسلاتي التائبة مسمعاً منك .
إنكِ لترتكبين ذنباً فادحاً
مادمتِ لن تتغاضَيْ عن أية شائبة .

- 56 -

لا تصدقي ترَبُكِ الوقحة
حين تقذفني بالوجود ،
حبيبة أنتِ ، وهذا ما يغيظها هي البائسة ،
فقد ولدت جميلةً هي الأخرى .

*

ولا تصيخي سمعاً إلى جارتك الكبرى ،
يخيّل لها أنني مذنب في كل شيء .
يغيظها أنك أكثر شباباً منها
وأنك أنت الحبيبة ، وليست هي .

*

وَلْتَظَلَّ جارتك الصغرى هاذيةً بهرائها
مُطْلِقةً شتائمَها عليّ .
أرجو ألا تصدقيها .. فهي تخشى
من أنها لن تغدوَ محبوبةً مثلك .

*

منذُ الأزل كانت النميمةُ والحقد
كلَّ ما في جعبةِ المرأة البائرة .

- 57 -

ما برحتِ تُلقين عليَّ سؤالك
فأجيبك ليست غلطتي
أن على الأرض نساءً أخريات ،
وأنك امرأة واحدة ، وهنَّ يعددن بالألوف .

*

ها أنت تقفين ، متمهلةً تحكمين
وضعُ أزرارِكِ الخمسة على بلوزتك الزرقاء .
والنقطة التي تبدو سوداء فوق شفتك
هي أشبهُ بزرٍّ سادسٍ مكسور .

*

وثانيةً ، غيرَ مصغيةٍ إلى كلماتي ،
توجّهين إليَّ سؤالك الأبدي الصارم .
ذنبُ مَنْ أن على الأرض شعوباً عديدة
وبلداناً ونساءً عديدات ؟

*

لكنني أعتاض بك وحدك
عن نساء العالم أجمعين .

- 58 -

طالما أعرف أن الثقة بالكلمة
أقلّ منها بالورقة منذ قديم الزمان ،
فأنا أكتب : «الحقيقة
هي أنني أحبكِ حباً قائماً ، عنيفاً .

*

وأنني حتى يومي الأخير
ملزم بأن أخدم حبيبتي بلا تذمر ،
وستظلّ رغبتي قويةً لا تقهر ،
متلهبةً من يوم إلى يوم !»

*

وبهذا الإسم الفخري : «عاشقك !»
أوقّع قصائدي محبّاً لك ،
مثيراً شكوكَ الآخرين
منذ الأيام الخالية ،
وأُعيدها إليك لتصونيها إلى الأبد
وقد ختمتُها بختمي المدوّر .

- 59 -

كثيرة هي الدروب في العالم
ولا عددَ للطرق الخطرة ، الوعرة ،
لكنني أدركت منذ زمنٍ بعيد أن طريق الحب
أكثرُ الطرقِ وعورةً وامتداداً .

*

ومع أنها أكثر امتداداً من غيرها
فنحن لا نستطيع العيشَ بعيداً عنها .
ومع أنها أكثر رُعْباً من غيرها
فما من طريق أكثر إغراءً منها .

*

يبدو لي أنني فتيّ
ما دمتُ أسير في هذه الطريق الأبدية .
وقعتُ ، وأقعُ ، ولسوف أقع
غير أنني أنهض وأجري أو أجرّ قدمي .
أنا لا أخشى أن أضلّ الطريق :
أرى ضوءَك المتوهّج أينما اتجه .

- 60 -

أأنا رديءٌ إلى هذه الدرجة

كي تهجموا عليَّ بمفردي أجمعين !

أيها الحسد والكذب والمرض ؟

أيها الحقد والزمن ؟ يا أعداء البشرية أجمعين ؟

*

وماذا في هذا ؟ يمكنكم أن تتغلبوا عليّ

أسهلَ من تغلبكم على قتلاكم الآخرين .

بيد أنكم لن تستطيعوا قتلَ حبي ،

أنا الآخر لا أملك قوةً أمامه .

*

مُقدّرٌ لحبي أن يعيش ويعيش

وما من عدوّ قادر على قهر عظمته

وسيصلُ حبي حتى أبناءَ أحفادي

كالمثل السائر أو الأحدوتة .

*

وسيقام لي في وطن آبائي

تمثال ليس من صنع يد .

فهرس القصائد

بوشكين:

حورية الماء 49
ما أنا بآسف عليك 52
نجمة النهار 53
هذا الحشد من السحب 55
انقضت رغباتي 56
السجين 57
الشيطان 57
إلى البحر 59
الأمسية الشتوية 62
العاصفة 64
تحت سماء بلدها الزرقاء 65
الطريق الشتوي 66
في أعماق المناجم 67
البلبل والوردة 68
أريون 69
الشاعر 70
لا تتغني 71
شجرة الأوباس 72
زهرة 74
فوق التلال 75
فارس مسكين 75
في الشتاء 78
الصبيحة الشتوية 81
أجل لقد أحببتك 82
القفقاس 83
انهيار 84
الشياطين 86
الرقية 89
الغجر 90
في الحقل الرائق 91
السحابة 92
تلك البقعة من الأرض 92
أقمتُ تمثالاً 97
الغجر 95
الفارس النحاسي 128

ألكساندر بلوك:

هي المترعرعة عبر الجبال 179
من مواطن أخرى 180
الظلال الغريبة 181
أوَ لستِ حلوة الخطى 182
عند عتبة الكنيسة 183
في منتصف غسق الكاتدرائية 184
كثيراً ما ألتجئ 185
آخذ مكاني قابعاً 186

عند القبور المهجورة 187
هذيان 188
إن وجهكِ لأشدُّ شحوباً 190
الغريبة 192
في الساعة التي تسبق المغيب 196
الخمرة الثلجية 197
ها قد جئتني أخيراً 199
كليوباترة 200
عشِق 203
اضطراب 204
الطريق المسدود 205
على الشعلة الثلجية 206
حُب في الخريف 208
في تلكم الليالي المقفرة 212
عذراء الثلوج 213
وعشت سنة جنونية 216
أغنية فاينا 220
فوق البحيرة 221
بين الكثبان 227
بلا بداية هو الربيع 231
مثل هبة معدنية 232
هي ذي الخائنة 233
في الصخب 234
وحيداً تقبع في غرفتك 235
في هذه الأيام 237
الصنو 238
نشيد الجحيم 239
في المطعم 245
تمر الساعات 246
هَوان 248
كانت أُمسية خريفية 250
ليل، شارع، مصباح 251
في الشارع المقفر 252
الدم الأسود 253
امرأة 260
الشيطان 262
الاثنا عشر 264
السيثيون 282

يسينين:
ها قد حلّ المساء 311
أغنية قاطع الطريق الهرم 312
في الخاتا 313
في تلك الأطراف 315
أغنية الكلبة 317
غداً أيقظيني ساعة الفجر 319
هي ذي السعادة الحمقاء 320
أيتها الريح... 321
أنا آخر الشعراء القرويين 322
الصعلوك 324
اعتراف صعلوك 326
إن ما يتبقى معنا 331
ايه يا عالمي الخفي 332
ولماذا أخدع نفسي؟ 335

أجل لقد اتخذت قراري 336
ها قد بدأوا 338
ركضاً، ركضاً... 340
ليس غريباً 342
لهب أزرق 344
دعي عنك تعذيبي 346
لم أكن مثقلاً... 348
رسالة إلى أمي 350
لم يعد المرج 353
الجرو 355
أبداً ذكراكَ... 357
رسالة إلى امرأة 359
الزوبعة الثلجية 364
شاهانا، شاهاناي! 370
لم أكن ذات يوم... 371
كلب كاجالوف 374
أية فتنة زرقاء 376
خانقاً يسيل ضوء القمر 377
هوذا قدرنا أبداً 379
توهجي يا نجمتي 381
أوراق الشجر تتساقط 383
آه، يا لكثرة القطط 385
أتسمع... مركبات الثلج تنطلق 386
يا لك من مركبات ثلج 388
يتصدع الوحل المتجلِّد 390
يترامى العراء مدثراً بثلوجه 392
أنت لا تحبينني 393
ربما كان متأخراً 395

مايكوفسكي:

صبيحة 425
من شارع إلى شارع 426
أكنتم تستطيعون؟ 429
شيء عن بيتر بورغ 429
أنا 430
إرهاق 431
هاكم 432
لا يفهمون شيئاً 433
قميص عصفور 434
اصغِ 436
ومع ذلك 437
عن بيتر بورغ أيضاً 438
الكمنجة وشيء من العصبية 439
أنا ونابليون 442
إليكم 447
نشيد القاضي 448
نشيد العلاّمة 451
هكذا صرت كلباً 453
يا! 456
اللعنة 459
سأم 466
البيع الرخيص 470
إلى نفسه المحبوبة يهدي المؤلف هذه الأبيات 474

ليلي 477
أسطورة بيتر بورغ الأخيرة 480
مزمار الفقرات 483
غيمة في بنطلون 497
آنا أخماتوفا:
أُترع المُتنزّه... 551
حديقة 552
نزهة 553
في المساء 553
ما نحن كُلّنا... 555
يطيب لي... 556
وعلى درجات المدخل 556
عيناني 558
لن تُخلط الرِّقة... 559
طوال الليل 559
لدي ابتسامة واحدة 560
إلى سولوغوب 560
مرحباً 561
إنَّ لكل يوم قلقه الجديد 562
صوت الذاكرة 562
أرق 563
أنت تعلم 564
لا تكمش رسالتي 565
ضيف 566
جئت أزور الشاعر 567
ظننا أننا مدقعون 568
أتغفر لي... 569
سأترك بيتك الأبيض 569
كان في استطاعتي 570
وحدة 570
أغنية عن الأغنية 571
ضعيف هو صوتي 572
قلقاً كان... 573
فادحة أنتِ يا ذكريات حبي 574
أعتم الطلاء الأزرق 575
عُد ثانية 575
بدلاً من الحكمة 576
آه ثانية تعود... 577
انصرفت ربة القصيد 578
لن ابتسم بعد 579
وجه الموسيقى 579
مذعنة أتخيل... 580
آتية تطير... 581
آه... كان هذا يوماً بديعاً 581
كلا. لست هذا 582
هكذا كنت أصلي 582
حد مكنون 583
أنتزُع كل شيء 584
كنت مهداً هانئاً لي 585
9 كانون الأول 1913 586
كيف تستطيع... 587
وكما تسللوا... 587
لم نفترق... 588
كييف 589

لمّا يزل الربيع 590
فراق 590
الحب 591
ما نحن في غابةٍ 591
كل شيء كان يعدني به 592
كالخطيبة 593
لا بدّ 594
اقتربتْ 595
نادراً ما أتذكركَ 596
ثانية تُمنح لي 597
غالباً ما تتراءى بافلوفسك 598
زجاج السماء 599
رماد مديح الآخرين 600
القوس القمري 600
بلا جلبة دخلوا المنزل 602
حين تغدو الحقول الخريفية 603
فرار 604
ينهزم الألم 606
هكذا يكون 607
وأسير... 608
حلم 608
طويلاً كنت 610
أصفر، رحيباً كان ضوء الغروب 611
لا أدري... 612
هناك تخلّف ظلي 613
عيناك مجنونتان 613
فجأة هدأ البيت 614
تخنقني البهجة 614
في صداقة خفية 615
مثلهم جميعاً 616
نهايتي المريرة 616
لقاء سوسنةٍ 617
عاشق غريب 617
سألت طائر الوقوق 618
من جاء به 618
الآن وداعاً أيتها العاصمة 619
في الوادي 620
الذاكرة 621
ملاكي الحارس 621
لو أمرض كما ينبغي 622
ترى كيف استطعت 623
وكنت تظن أنني كالأخريات 624
لتهدر أنغام الأرغن ثانية 625
عريضاً تنفتح البوابة 625
أجل كنت أحبها 626
لا مفر لي 627
ربة القصيد 627
صلِّ ليلاً 628
هنا بدأ منفى بوشكين 628
كيف! 629
ألم يبعث ورائي... 629
بعضهم يرى صورته 630
أخفيت دونك قلبي 631
الكلمة الحجرية 632

دانتي 632
ضيفان 633
غدر 634
ثلاثة أشهر 634
العودة الأخيرة 635
إتصل بي 635
كتابة على صورة 636
في باطن الموسيقى 636
أتذكر خطابك لي 637
في الحديقة الفردوسية الجنوبية 638
بدلاً من التهنئة بالعيد 639
غيرك أنت 640
في اليقظة 640
من اعتراف كبير 641
في الحلم 641
من يوميات رحلة 642
كأنني أسمع صوتاً نائياً 642
بثمن باهظٍ 643
الصدى 643
ظلاً لم يندبه أحد 644
ثلاث قصائد 644
الشاي والخبز 646
وتسبح الشهرة 646
مميتة أنا 647
إلى الشعر 648
بالرغم من وعودك كلها 648
في الغابة 649
صورة قديمة 650
في حفيف شجرة البلوط 651
ها أنتَ ثانية معي 651
نظرات أكثر توقداً 652
في الزاوية 652
أمضت نهارها كله 653
كما لو هَوَوْا بمطرقةٍ 654
تعال انظر إليَّ 655
ذكرى شاعر 656
ثانية بولونيز شوبان 657
مع أول نغمة تتعالى 658
الليلة البيضاء 659
الوردة الأخيرة 659
حين أدعو أصدقائي 660
أشعار منتصف الليل 661
بدلاً من خاتمة 667
قائمة تلوح الطريق 667
ستغفر لي كل شيء 668
لم يبح الشيطان بشيء 668
أليس غريباً 669
قصيدتان 669
بين زوبعة مرعدة وأخرى 670
هوذا الخريف المثمر 671
هذا الرجل 672
حرفتنا المقدسة 672
أبلغكم 673
لا أحد يصغي إلى القصائد 673

لا تتوعدني 674
لا ترتعب 675
يا ابنة الليل 676
ليكن هذا 677
يا أول واقف عند الينبوع 677
تنثنين في رقصتك 678
القمر اللعوب 679
لا أمتلك مزاعم خاصة بي 679
سينسونني 680
وخفضنا أعيننا 680
تحت أحب شجرة اسفندان 681
حين شربت 681
الوردة الخامسة 682

رسول حمزاتوف:
تمر في حياتنا ساعة كهذه 693
أغنية العندليب 694
الليلكي 694
في مدينة نارا 697
حين يهطل المطر عبر النافذة 698
عيناكِ 699
قريباً قريباً يهلُّ الفجر 700
في يوم ممطر تخاصمنا 700
فوق الأزانيا 702
عند جسر مكسوب 704
أمس كنت أسيراً وحيداً 706
الأوراق الصفر 707
أحب الفجر القرمزي 708
الغرانيق 710
عن الحب 712
غالباً ما أتذكر... 714
يوم ميلادكِ 714
نانا غوينيبادزه 715
أغنية الدف 717
الفارس 718
كالغبار الأبيض 720
أشعار كُتبت في ليلة رأس السنة 721
لم أعد أتذكر اليوم 723
ثلاث نساء 723
شالان 725
طالما الأرض تدور 726
حُبي لكِ 730
عيون الزهور 731
أغنية مهد 733
نهر كويسو الأفاري 734
الكوناك 736
الجبليون القدامى 737
رباعيات 741
ثمانيات 749
كتاب السونيتات 761

مختارات من الشعر الروسي

بوشكين بلوك يسنين مايكوفسكي أخماتوفا حمزاتوف

في ما يقرب من الثلاثين عاماً، عمل حسب الشيخ جعفر على نقل ما أحبه وأدهشه وتعلق به من الشعر الروسي إلى العربية، في جهد متواصل ودقيق لم يتوفر لهذا الشعر عند مترجم عربي غيره. إلا أن هذه التجربة المدهشة: ترجمة حسب الشيخ جعفر، لم تصل إلى القارئ العربي كما يجب. فالكتب صدرت على الأغلب في بغداد منذ نهاية السبعينات، ولم توزع كفاية في العالم العربي، كما أنه لم يُعد إلى طباعتها من جديد.

من هُنا سنحت الفرصة لهيئة أبوظبي للثقافة والتراث كي تقدم أعمال هذه الترجمة بين غلافي كتاب واحد، مضافاً إليها ترجمة قصائد لرسول حمزاتوف، قدمها لنا المترجم مخطوطة. كي يضم هذا الكتاب قصائد مختارة لستة من الشعراء الروس الكبار منذ بوشكين، وحتى حمزاتوف الداغستاني. وهي صفحات تقدّم بالفعل جانباً غنياً ومدهشاً من التجربة الشعرية الروسية، كما وبامكان القارئ العربي عبر هذه القصائد أن يطل على أعماق الإنسان الروسي.

ISBN 978-9948-01-169-9

السعر 70 درهماً

أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE